غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

نسخة مجانية

المجلد الثالث والخمسون

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

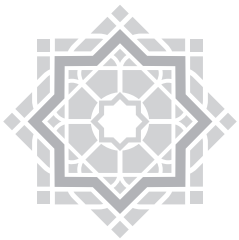

المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرْآنُ وعُلُومُهُ وتَفْسِيرُهُ

١٠١ تفسير جزء عمَّ

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

المحور الخامس

القرآن وعلومه وتفسيره

غير مرخصة للطباعة

١٠١

تفسير
جـــزء عـــمَّ

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

[العلق: ١ ـ ٥].

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

[العصر: ١ ـ ٣].

نسخة مجانية

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشـــةَ ﵂، أنَّها قالت: أوَّلُ ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النـــوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلـــق الصبح، ثم حُبِّبَ إليـــه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبُّد ـ لليالِيَ ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويَتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى جـــاءه الحقُّ وهو في غار حِـــراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**». قـــال: «**فأخذني فغطَّني حتَّى بلغ مِنِّي الجهدَ ثُمَّ أرســـلني، فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثُمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغَطَّني الثالثة ثُمَّ أرسلني، فقال:** ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١- ٥]». متفق عليه.

عن عائشـــةَ ﵂ قالت: إنَّما نزل أوَّل ما نزل منه ـ تعني القرآن ـ ســـورة من المفصل، فيها ذكر الجنَّة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوَّل شيء: لا تشـــربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا. رواه البخاري.

غير مرخص للطباعة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١ ـ ٥].

وأزكى صلوات الله وتسليماته على من كان مرجعه القرآن، ونوره القرآن، وخلقه القرآن، محمَّد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله الطيبين، ورضي الله عن صحابته أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فقد أكرمني الله تعالى ـ وهو أكرم الأكرمين ـ بصحبة كتابه منذ طفولتي المبكرة. فقد أتممت حفظه وتجويده، وأنا دون العاشرة، ومنذ ذلك الوقت، وأنا قرينه وملازمه، في كل مراحل حياتي: طفولتي وشبابي، ويفاعتي وكهولتي وشيخوختي. وكان هو مصدري الأوَّل في توجهاتي وتوجيهاتي، ودروسي وخُطَبي، ومحاضراتي وكتبي ورسائلي،

QaradawiBooks.com

وبرامجي الإذاعية والتلفازية. منذ بدأت رحلتي في الدعوة إلى الله تعالى، وأنا طالب بالقسم الابتدائي بالأزهر الشريف: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقد حفظنا من أحاديث رسولنا الكريم، ما رواه عنه عثمان بن عفَّان: «**خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعَلَّمه**»(١).

وما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله أهلين من الناس!**» قالوا: من هم، يا رسولَ الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»(٢).

وليس أحب إلى مثلي من أن يكون من أهل القرآن، أهل الله وخاصته، وأن يكون القرآن شفيعًا له يوم القيامة. كما قال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه عنه أبو أُمامة الباهلي قال: «**اقرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»(٣).

وقد عُنيت بدراسة التفسير في المرحلة الثانوية، والمرحلة الجامعية بكلية أصول الدين، وكنت أحصل في الغالب على أعلى الدرجات.

وكنت أدخل المسابقات الَّتي تعقدها الكلية للطلاب في فترة الصيف، وفي الغالب كانت في جزء من القرآن، من تفسير المنار للعلامة

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، عن عثمان بن عفان.

(٢) رواه أحمد (١٢٢٧٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في المقدمة (٢١٥)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٧)، والحاكم (٥٥٦/١)، وقال: وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها. ووافقه الذهبي، كلاهما في فضائل القرآن، وصحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٠٩).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رشيد رضا. وفي ســنة كان في المنطق وموسوعاته. وقد كنت بحمد الله أوَّل الفائزين في هذه المسابقات.

لقد حفظت القرآن في كُتَّاب الشيخ حامد أبو زويل، أحد الكتاتيب الأربعة في قريتنا الكبيرة «صفط تراب»[1].

وكان الشــيخ حامد قارئًا متقنًا لكتاب الله، عفيف النفس، لا يذهب إلى المقابر مع بقية القراء كل يــوم خميس. وكان مُحَفِّظًا جيدًا، ومعلمًا حازمًا، وكان يدعو لي أن أكون عالمًا كبيرًا.

وكان أهلــي وأقاربــي، وأهل بلدتي بصفــة عامَّــة يعتبروننني «ابن القرآن»، كما كنت أعتبر نفسي الابن الأوَّل للقرآن. كنت أحسن حفظه، وأحســن تلاوته، فكان النَّاس من صغري يحبون تلاوتي. ومنذ انتسبت إلى الأزهر الشــريف بالمعهد الديني في طنطا، وكان عمري أربعة عشر عامًا، بدأ النَّاس يصرون علــى أن أصلي بهم إمامًا في بعض الصلوات، وخصوصًا في فجر شهر رمضان، ولا سيما فجر الجمعة. وقد كنت أختم فيها سورة السجدة في الركعتين، وكانت تغلبني دموعي فأبكي، ويبكي النَّاس من خلفي.

وقد كتبت في وقت مُبَكِّر في كتابي: «ثقافة الداعية» ما يتَّصل بالقرآن الكريــم وخصائصه، وما يتعلَّق بثقافة المفسِّــر، وأشــرت إلى كثير من الضوابط المهمــة في فهم كتاب الله ﷻ وتدبُّــره، وحذرت من عدد من الأخطــاء في فهم كتــاب الله تعالى، ثمَّ توســعت بذكر هــذه الضوابط

(١) وهي سفط القدور، ذكرها الزَّبِيدي في تاج العروس مادة (س. ف. ط) وقال: وهي المعروفة الآن بسفط عبد الله بالغربية، وبها تُوُفِّي عبد الله بن جزء الزبيدي، آخر من مات من الصحابة بمصر، وقبره ظاهر يزار، زرته مرارًا، رضي الله عنه.

QaradawiBooks.com

والمحاذير، في الفهم والتأويل لكتاب الله سبحانه، في كتابي: «المرجعيَّة العليا للقرآن والسُّـنَّة»، ثمَّ أفردت كتابًا كبيرًا مهمًّا في بابه وهو: «كيف نتعامل مع القرآن الكريم».

وأنا منذ أكثر من سبعين عامًا، أصاحب كتاب الله تبارك وتعالى، فما من درس من دروسي، ولا محاضرة من محاضراتي، ولا خطبة من خطبي، ولا كتاب من كتبي، ولا برنامج من برامجي، إلَّا ويرتكز على كتاب الله ﷻ.

وفي الفتاوى الَّتي حررتها بأجزائها الستة الكبار عدد من الموضوعات القرآنيَّة المهمة الَّتي تتصل بعلوم القرآن والتفسير.

وقد عنيت بالتفسير القرآني بكل أنواعه وبكل ألوانه: التحليلي لكتاب الله ﷻ، والتفسير الموضوعي، وقد صدر لي في التفسير الموضوعي كتابان هما: «الصبر في القرآن» و«العقل والعلم في القرآن»، وعندي مخطط لمئات الموضوعات القرآنيَّة.

وكان محور خطبي في السنوات الأخيرة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، حول موضوعات القرآن الكريم، فتحدثت في عدد من الخطب عن «الإيمان في القرآن»، ووقفت عند عدد من «أسماء الله ﷻ الحسنى» وصفاته العلى، وعن «المال في القرآن»، و«الآباء والأبناء في القرآن»، و«الحكم والسياسة في القرآن»، و«المرأة في القرآن»، ولا أزال أتابع الخطب حول هذه الموضوعات القرآنيَّة.

ولا عجب بعد ذلك أن يجد القارئ في كتبي جميعًا آيات القرآن الكريم، تنتشر في كل صفحة من صفحاته، أستقي منها في تأصيل المفاهيم، وتحرير المصطلحات، وتحديد الأحكام، وتجديد الأفهام،

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وتنوير العقول، وتطهير القلوب، وإصلاح الأسر والمجتمعات، وأربطها بالواقع والحياة.

ومنذ قدمت إلى قطر في أوائل الستينيات من القرن العشرين، كنت أصلي إمامًا في صلاة التراويح في شـهر رمضان، وأقف في الصلاة في درس كل ليلة على تدبُّر بعض الآيـات الَّتي تلوتها أو تلاها القارئ بعد انقطاعـي ـ جزئيًّا أو كليًّا ـ عن الإمامة، وكانت هـذه الدروس القرآنيَّة، تسجل باستمرار فرديًّا أو رسميًّا.

وقد قام بعـض الإخـوة العاملين فـي مكتبي بمحاولة اسـتقصاء ما أمكنهم من الدروس القرآنيَّة المسـجلة، وقاموا بتفريغها، وسـتصدر بعون الله سبحانه.

وكنت عقدت دروسًا لتفسير سورة يوسف عندما كنت معارًا من قطر إلـى الجزائر، مديـرًا للبحـث العلمي فـي جامعة الأميـر عبد القادر بقسطنطينة، ومعاونًا لوزير «الشؤون الدينية» في العاصمة، ولم يتيسر لي نشرها، وضاعت مني أصولها المسجلة، ولعلَّ الله سبحانه يُيسِّر لها باحثًا جادًّا يجتهد أن يقف عليها، ويفرغها وينشرها.

كما أقمت دروسًا في تفسـير كتاب الله ﷻ في جامع الشيوخ بقطر، فسـرت فيها سـورة الرعد، وقام الأخ محمود عوض رحمه الله بنشرها، ثمَّ أعدت النظر فيها، واستدركت ما وقع فيها من نقص وأخطاء، وصدرت الطبعـة الثانية فـي مكتبة وهبة، ثـمَّ تابعت تلك الدروس المسـجديَّة القرآنيَّة، وفسَّرْتُ فيها سـورتَي الحِجْر وإبراهيم، وقد قام بالعناية بهما، ومراجعتهما الأخ الكريم الأسـتاذ مجد مكي، ويسَّـر الله صدور هذين الكتابين في مكتبة وهبة.

QaradawiBooks.com

ولقد كان من أكبر أمنياتي الَّتي أرجــو الله أن يحققها لي، أن أتوجه لكتابة تفســير مختصر للقرآن الكريم، وعزمت على ذلك، وأعلنت عن هذا الأمــل المتجدد، ودعــوت الله أن يحققه لي، ليكون على حاشــية مصحف قطر بخط الخطاط المتقن عبيدة البنكي السوري.

وبدأت بتفســير ســورة الفاتحة، وســورة النبأ، ولكنِّي وجدت أنَّ التزامي بحواشــي صفحات المصحف يقيدني، ويحول دون كتابة كثير من المعاني الَّتي أرغب في بيانها، فخرجت عن هذه الخطة إلى الكتابة المسترسلة على طريقتي ومنهجي.

وقد وفقني الله تعالى لإتمام تفســير هذا الجزء الأخير من كتاب الله ســبحانه، كتبته بقلمي، في أوقات غير منتظمة، وبارك الله في وقتي مع كثرة الصوارف والهموم المتواصلة، والأسفار المتلاحقة.

وقد بدأت كذلك في تفســير جــزء تبارك، وأنهيــت كتابة عدد من السور، أسأل الله سبحانه أن يبارك في الوقت والعمر لإنجاز ما أؤمله من تفسير كتاب الله سبحانه.

وهذا الجــزء (جزء عم) مــن الأجزاء الَّتــي تكثر قــراءة آياتها في الصلوات، ويحفظه أكثر أبناء المســلمين، وفيه تقريــر لحقائق العقيدة ومكارم الأخلاق، وأصول الدعوة، ومجادلة المشــركين. وقد أفرده في التأليف عدد من العلماء القدامى والمعاصرين، أشــهرهم الإمام محمَّد عبده، ولكل مفسر منهجه وطريقته، وأسلوبه وقراؤه.

وقد قدمت لكل سورة بذكر أهم مقاصدها، جاعلًا أوَّل اهتمامي أن أفســر القرآن بالقرآن، جامعًا بين العقل والنقل، وبين الرواية والدراية، وهذا هو منهجي في التفسير، وهو ما سبق أن بيَّنته في كتبي الأولى في

QaradawiBooks.com

«ثقافة الداعية»، وفي مقدمتي الَّتي كتبتها لتفسير «سورة الرعد»، وما فصلته في كتابي: «كيف نتعامل مع القرآن».

وهذا الكتاب الَّذي أقدمه اليوم في «تفسير جزء عم» زادٌ نافع مبارك ـ إن شاء الله ـ للداعية والمحاضر والمدرس والخطيب.

وأسجل شكري في هذه المقدمة للإخوة العاملين في مكتبي العلمي بالدوحة، وفي مركز القرضاوي للوسطيَّة الإسلامية والتجديد، على ما قاموا به من خدمة الكتاب، جزاهم الله تعالى عني خيرًا.

وأسأل الله سبحانه أن يبارك فيما بقي من أعمارنا، ويعمرها بالعمل والإخلاص في خدمة كتاب الله سبحانه، وإخراج ما يوفق الله إليه من تفسير، وأن يتقبل مني هذا العمل وينفع به.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]

الدوحة ٩ من شعبان ١٤٣٤هـ

الموافق: ١٨ يونيو ٢٠١٣م

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

تُسمَّى سورة الفاتحة بأسماء أخرى مثل: «سورة الحمد»، و«أمِّ القرآن»، و«أم الكتاب»، و«السبع المثاني».

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

سَنَّ لنا القرآنُ الكريم سنَّة بدْء كل أمر ذي بال باسم الله وحده، لا باسم عرش، أو وطن، أو ملك، أو زعيم، كما أمر الله تعالى رسوله، في أوَّل آية أنزلت عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكما قال سيِّدنا نوح عليه السلام حين صنع بأمر الله سفينة الإنقاذ: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، وكما كان في كتاب سليمان لملكة سبأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

أسماء ثلاثة تضمنتها البسملة:

اشتملت البسملة على أسماء ثلاثة:

الاسم الأول: هو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وهو علم على الذات الإلٰهيَّة،

QaradawiBooks.com

غير مشتق على الصحيح، وهو المتصف بكل كمال، المنزَّه عن كل نقص، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

والاسم الثاني: هو اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وهو أيضًا علم على الذات الإلٰهيَّة، ولكنَّه مشتق من الرحمة، وهو أبلغ من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وهو يعامل معاملة لفظ الجلالة، في إيقاعه مبتدأً يخبر عنه، أو يدعى كما يدعى الله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩١ ـ ٩٣].

والاسم الثالث: هو اسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وهو مع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعنيان: أنَّه تعالى صاحب الرحمة الواسعة، الَّتي وصفت بأنها: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال بعضهم: الرحمن: من وسعت رحمته كل شيء. والرحيم: من كثرت رحمته.

والرحمة عند الإنسان: انفعال وجداني، أو رقَّة في القلب، تؤدِّي إلى العطف على الآخرين، والإحسان إليهم، وإيصال الخير إليهم، وإزالة الضرر عنهم.

ولكنها بالنسبة إلى الله تعالى، ليست انفعالًا ولا رقَّة قلب، بل هي صفة ذاتيَّة لائقة به تعالى، بها يعطف على عباده، وينعم عليهم بسائر نعمه، جليلها ودقيقها.

ومن حقها أن تكون صفة كسائر صفات المعاني الَّتي أثبتها الأشاعرة،

QaradawiBooks.com

مثل: القدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، فكما أن له تعالى صفة تسمى: الحياة أو السمع، ليست كحياة البشر، أو سمعهم، كذلك له صفة تسمى الرحمة، ليست كرحمة البشر.

تكرار اسمي: الرحمن والرحيم:

وقد اجتمع الاسمان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، معًا في خمسة مواضع في القرآن الكريم، غير مائة وثلاث عشرة مرَّة في ابتداء سور القرآن الكريم، وتكرَّر اسم الرحمن وحده (٥٢) مرَّة، واسم الرحيم وحده معرَّفًا ومنكرًا، مرفوعًا ومجرورًا (٩٤) مرَّة، ومنصوبًا (٢٠) مرَّة.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

الحمْد مقابل الذم، وهو الثناء على الله بما هو أهله، بصفات الجمال والجلال والكمال، كما يحمد على ما أسبغ من نعمه ظاهرة وباطنة، فهو حينئذ ثناء يتضمن معنى الشكر، ولهذا كثيرًا ما يذكر بعد النعم، كما في حمْد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [ابراهيم: ٣٩].

وكما في حمْد داود وسليمان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وكذلك حمْد أهل الجنَّة، بعد دخولهم الجنَّة، وقولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وكما في قول الله تعالى لنوح: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وغيرها. فهذه كلها حمْد على نعم، وهو شكر باللسان.

QaradawiBooks.com

قال الراغب في «مفردات القرآن»: «الحمدُ أعمُّ من الشكر، فكلُّ شُكْرٍ حَمْد، وليس كلُّ حَمْدٍ شُكْرًا»(١). فمن الحمد ما هو ثناء على الله، وليس شكرًا على نعمة. قال ابن كثير: «ولكنَّ الشكر أعمُّ من ناحية أخرى، وهو أنَّه يكون بالقول والعمل والنيَّة، أمَّا الحمدُ فيختصُّ باللسان»(٢).

وقد افتتح الله في القرآن خمس سور من سوره المكيَّة بالحمد لله، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

ليس في القرآن كله: إنَّ الحمد لله:

وأود أن أنبه هنا على مسألة مهمة، وهي أنَّ القرآن في كل المواضع الَّتي ذكر فيها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ذكرها بدون حرف «إن» الَّذي هو للتوكيد، لأنَّ الصيغة وحدها كافية في التوكيد، لأنَّ «أل» في «الحمد» إمَّا للاستغراق أو للجنس، وفيه من العموم ما لا يحتاج إلى مؤكِّد آخر.

ولهذا أستغرب أنَّ كثيرًا من الخطباء والكتاب، أصبحوا ملتزمين بافتتاح خطبهم أو كتبهم بقولهم: «**إنَّ الحمد لله**». بناء على رواية وردت عند مسلم بهذا(٣)! وكل الأحاديث بعد ذلك جاءت بدون «إنَّ»، كما جاء القرآن، فكيف ندع استعمال القرآن الكريم في آياته الكثيرة، وفي مختلف المواقف، مثل ما نقله عن ابراهيم، وداود وسليمان عليهم السلام، ومثل قول أصحاب الجنَّة، ومثل أمره بصيغة «الحمد لله» كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الاسراء: ١١١]، وقوله لنوح عليه السلام:

(١) مفردات القرآن للأصفهاني مادة (ح. م. د).

(٢) تفسير ابن كثير (١٢٨/١)، تحقيق سامي سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(٣) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٨)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فلعلَّ في هذه الأدلَّة الناصعة ما يُقنع أولئك الَّذين يتردَّدون في إيثار النصـوص القرآنيَّة والحديثيَّـة الواضحة على دليل واحـد غير بين من الحديث.

معنى ربوبيَّة الله للعالمين:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وصف الله المحمـود هنـا بـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ولفظ ﴿رَبِّ﴾، يعني: المالك، والسيد، والراعي، والمربِّي، وكلها ثابتة في حقِّه سبحانه بالنسبة للعالمين.

والعالـمون لها معنيان:

المعنى الأول: العوالم الَّتي يشتمل عليها هذا الكون الكبير، كما سأل فرعون موسى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشـعراء: ٢٣ ـ ٢٨]، فهـو رب العالميـن: بمعنـى أنَّه رب السـماوات والأرض وما بينهمـا، ربكم ورب آبائكـم الأولين، ورب المشرق والمغرب، فهناك عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم البحـار، وعالم الجبـال، وعالم الأفلاك، وعالـم الجن، وعالم الملائكة، وغيرها من العوالم.

QaradawiBooks.com

وكل عالم من هؤلاء ينقسم إلى عوالم، فعالم الحيوان مثلًا، ينقسم إلى: عالم الدواب، وعالم السباع، وعالم الطير، وعالم الحشرات، وعالم الزواحف، وعالم الأحياء المائية، إلى آخره.

أمَّا المعنى الثاني: فهو كل العقلاء والمكلفين من الخلق، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى عن القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تأكيد القرآن لرسالته العالمية:

بهذا أكد القرآن الكريم من أوَّل آية بعد البسملة: رسالته العالمية، ورفضه للعنصرية، والقبلية والإقليمية، وكل ألوان العصبية. على حين تتحدَّث التوراة عن الرب: أنَّه «ربُّ إسرائيل»، أو «ربُّ الجنود».

وما قرَّره القرآن في أوَّل آية في فاتحة القرآن، أكَّده في آخر الآيات في آخر سورة في القرآن، وهي سورة الناس، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۞ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۞ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦]، وقد تكررت كلمة «رب العالمين» في القرآن (٣٤) مرَّة.

تكرار «الحمدلة» في القرآن:

وكما جاءت هذه الجملة آية كاملة في أوَّل الفاتحة، جاءت جزءًا من آية في سياقات شتى في القرآن. كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقال عن أهل الجنة:

QaradawiBooks.com

﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥]، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

كما تكررت «الحمدلة» في آيات أخر، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله: ﴿ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [سبأ: ١]، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٦]، وقوله: ﴿ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

تكرار اسمَي الرحمن الرحيم:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

تكرير وتأكيد لهذين الاسمين الكريمين، مع ذكرهما في البسملة، ليزيد في تقرير وتأكيد معنى «الرحمة الواسعة»، المأخوذ من تكرير الرحمانيَّة والرحمة، ولتكون أبلغ ردٍّ على الَّذين يزعمون أنَّ إلٰه المسلمين إلٰه جبَّار منتقم، واسم «الجبَّار» إنَّما ذكر مرَّة واحدة في القرآن، وهو جبَّار على الجبابرة، كما أنَّه ينتقم من البغاة المجرمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

أمَّا اسما «الرحمن» و«الرحيم»، فقد ذُكِرا في الفاتحة وحدها مرَّتين، وهي الَّتي أمر المسلم أن يرددها في اليوم على الأقلِّ سبع عشرة مرَّة، في صلواته اليوميَّة.

QaradawiBooks.com

مالك يوم الدين وملك يوم الدين:

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

وفي قراءة: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، ويوم الدين هو يوم الدَّينونة والحساب والجزاء، والله تعالى مالك هذا اليوم، وملك هذا اليوم، يظهر مِلْكه لهذا اليوم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

ويظهر ملكه في هذا اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فهو المالك والملك جل شأنه.

وهذه الآية تقرِّر أهم قضيَّة وأخطرها بالنسبة للإنسان، إنَّها قضيَّة المصير الأبدي، أهي جنَّة أم نار؟ إنَّها ليست مجرَّد أرحام تدفع، وأرض تبلع! كما قال الملحدون.

إنَّ الموت ليس نهاية المطاف، إنَّه رحلة إلى عالم آخر، فإنَّ الله يميتنا ثمَّ يُحيينا لِتُجْزى كلُّ نفس بما كسبت، من خير أو شر.

لا شفاعة في هذا اليوم إلَّا بإذنه:

لا يشفع أحد في يوم الدِّين إلَّا بإذنه، لا نبيٌّ ولا مَلَك، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا

QaradawiBooks.com

﴿لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال في آية الكرسي: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أمَّا الأصنام الَّتي اتخذوها آلهة، وزعموا أنَّهم سيشفعون لهم عند الله، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

إثبات أسس العقائد الإسلامية بهذه الآيات الثلاث:

وفي هذه الآيات الثلاث، ثبتت أسس العقائد الإسلامية الثلاثة، الَّتي يحصرها العلماء، في الإلٰهيات، والنبوات، والسمعيات.

في المبدأ: وهو الله خالق الكون، ورب العالمين. وفي الواسطة ـ وبعبارة أخرى: النبوَّة، الَّتي هي أثر الرحمة الإلٰهيَّة ـ وفي المعاد أو الجزاء: الَّذي يتجلى يوم الدين.

حقيقة التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، انتقال من أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب، فبعد أن تلا العبد ما أثنى الله به على نفسه بما هو أهله، كما جاء في الحديث: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك**»[1]. تفتح قلبه ليناجي ربَّه، ويخاطبه بما يستحقه، فيفرده تعالى بالعبادة، ويفرده بالاستعانة، وهما حقيقة التوحيد: أن يخصه تعالى وحده ويفرده بالعبادة، وبالاستعانة.

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٤٣١٢)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

فلا يستحقُّ أن يخاطب بتخصيص العبادة إلَّا هو، ولا يُخَصُّ بالاستعانة به إلَّا هو، والعبادة: أن تجعل له غاية الخضوع والذلِّ، المقترن بغاية الحبِّ والولاء له، فالعبادة مركَّبة من عنصرين اثنين: منتهى الخضوع له، ممزوجًا بمنتهى الحب له سبحانه، فلو وجد خضوع من غير حب، لم يكن عبادة، كما قد يخضع بعض الرعيَّة لبعض الجبارين، ويحنون لهم رؤوسهم، في غاية من الذل، ولا يعدون عابدين لهم؛ لأنَّهم لا يحبونهم، بل يبغضونهم ويلعنونهم في قرارة أنفسهم.

وقد يحب بعض النَّاس رجلًا أو امرأة، وينزل حبه في شغاف قلبه، ولا يعد عابدًا له؛ لأنَّه لا يخضع له غاية الخضوع.

وجملة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تمثل توحيد الإلٰهيَّة، أو توحيد العبادة، وجملة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، تمثل توحيد الربوبيَّة، وأُفَضِّل تسميته «توحيد الخالقيَّة»، ولا بدَّ من التوحيدَيْن.

وقد يعترف النَّاس بتوحيد الخالقيَّة، ولا يعترفون بتوحيد العبادة، مثل عرب الجاهليَّة، الَّذين أقرُّوا بأنَّ الله رب كل شيء، ومع هذا عبدوا الأصنام؛ ليقربوهم إلى الله زلفى، وقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، والقرآن يأمر بتجريد التوحيدَيْن جميعًا لله، كما قال تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، أي: لا نتوكل إلَّا عليك، ولا نُنِيبُ إلَّا إليك، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وكما أمر رسوله محمَّدًا ﷺ بقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

QaradawiBooks.com

لماذا قدم الله العبادة على الاستعانة؟

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قدم العبادة لأنَّها الغاية، والاستعانة وسيلة إليها، وليس معنى تخصيص الله بالاستعانة: الاستغناء عن الخلق جميعًا، بل هو يرد على الَّذين يستعينون بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، كالذين يستعينون بالأصنام والكهنة وأمثالهم.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يرد على الجبريَّة الَّذين نفوا كل قدرة أو إرادة للإنسان؛ لأنَّ الَّذي يستعين لا بدَّ أن يكون له جهد، ولكنَّه يحتاج إلى معونة غيره، ولهذا أمر الله المؤمنين أن يتعاونوا على البر والتقوى.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاءت الآية الكريمة بصيغة الجمع: «**نعبد، ونستعين**»، ولم تجئ بصيغة المفرد: «إيَّاك أعبد، وإيَّاك أستعين»، وإن كان المسلم وحده لا أحد معه، ينطقها بصيغة الجماعة، ويدعو ربَّه بصيغة الجماعة، ﴿ٱهْدِنَا﴾، ليستشعر الجماعة أبدًا، وتكون في ضميره، وعلى لسانه، وبهذا يتربَّى المسلم على التفكير الجماعي، وعلى الشعور الجماعي، وعلى السلوك الجماعي، و«**يد الله مع الجماعة**»[1].

الشفاء من مرض فساد القلب والقصد:

قال ابن القَيِّم: «والتحقُّق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفة، وعملًا وحالًا: يتضمَّن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مُضْمَحِلَّة فانية،

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في إصلاح المساجد (٦١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وتوسَّل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نَوْعَيْ قصدِه فاسدًا. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتَّبعي الشهوات، الَّذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتَّبعين لإقامة رياستهم بأيِّ طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بُدًّا أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم، صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنَّه حق، بل لموافقته غرضَهم وأهواءَهم، وانتصارَهم به ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠]».

الشفاء من مَرَضَيِ الرِّياء والكِبْر:

قال ابن القَيِّم: «ثُمَّ إنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، ترامیا به إلى التلف ولا بدّ. وهما الرياء، والكبْر.

فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ودواء الكبْر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عُوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعُجْب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية،

QaradawiBooks.com

وتمَّت عليه النعمة. وكان مـن المنعم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الَّذين عرفوا الحق وعدلوا عنه. ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم، الَّذين جهلوا الحق ولم يعرفوه».

غير مرخصة للطباعة

شفاء الأبدان:

«وأمَّا تضمُّنها لشـفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السُّـنَّة: ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أنَّ ناسًـا من أصحاب النبيِّ ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العرب، فلم يَقْرُوهم ولم يُضَيِّفُوهم فلُدِغ سـيِّد الحيِّ، فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنَّكم لم تَقْرُونا، فلا نفعل حتَّى تجعلوا لنا جُعْلًا. فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منهم يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأنْ لم يكن به قَلَبَةٌ[1]. فقلنا: لا تجعلـوا حتَّى نأتي النبيَّ ﷺ. فأتيناه، فذكرنا له ذلك فقال: «**ما يُدْريكَ أنَّها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم**»[2]»[3].

طلب الهداية إلى الصراط المستقيم:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

بعد الثناء على الله بما يسـتحق مـن المحامد، وبعـد مناجاته بما يستحق من إفراده بالعبادة والاستعانة، جاء التَّوجُّه إلى الله بالدعاء، وكان التَّوجُّه بالدعاء هنا إلى طلب «الهداية» من الله تعالى.

---

(١) أَيْ ألَمٌ وعِلَّة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ق. ل. ب).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإجارة (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام (٢٢٠١)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) مدارج السـالكين (٧٦/١ ـ ٧٩) بتصرُّف، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشـر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

في فاتحة النصارى كان دعاؤهم مـــن ربهم متوجِّهًا إلى الجانب المادي: آتنا خبزنا كفافنا! وفي فاتحة كتاب المسلمين: كان التوجه إلى سؤال الهداية، فإنَّ نعمة الهداية إلى الإيمان هي أعظم النعم، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجـرات: ١٧]، وكل حســنة أو فضل أو نعمة، فلا قيمة لها إذا لم تتحقق هذه الهداية، وكل سعادة في الدُّنيا والآخرة بعد ذلك؛ فإنَّما هو ثمرة لهذه الهداية.

أنواع الهداية:

والهداية هدايتان: هداية بيانيَّة معرفيَّة، وهداية عمليَّة توفيقيَّة، توصل المكلف إلى الحق ليؤمن به، ويعمل بمقتضاه.

غير مرخصة للطباعة

أولًا: الهداية البيانيَّة ومراتبها:

وللهداية البيانية الَّتي بمعنى بيان الحق، والدلالة عليه: عدة مراتب:

المرتبة الأولى: الهداية الكليَّة العامَّة:

التي بثَّها الله في الكون، وجعل لكلِّ شيء فيه حظه منها، حتى الأرض والجبال والمياه، والشــمس والقمر والنجوم وعالم الأفلاك على ســعته، يهدي إلى غايته الَّتي يتم بها ما خلق له. وهي الَّتي أشار إليها القرآن على لسان سيِّدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

المرتبة الثانية: هداية الحواس:

مثل الســمع والبصر، والذوق والشــم واللمس، وهــي الَّتي تهدي الإنسان في عالم المحسوســات، وهي الهداية الَّتي يشترك فيها الإنسان والحيوان والطير.

QaradawiBooks.com

المرتبة الثالثة: هداية العقل:

وهي فوق هداية الحِس، وهي الَّتـــي تفضح غلط الحواس، مثلما ترى العين الظل ساكنًا، وهو يتحرك ببطء، ومثلما ترى النجم صغيرًا، وهو أكبر من الأرض آلاف أو ملايين المرات. وهي ما يدرك بالفؤاد أو القلب ـ وهو العقل ـ كما يقول القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحـل: ٧٨]، فالســمع والإبصار: للهداية الحســيَّة. والأفئدة: للهداية العقليَّة.

والمرتبة الرابعة: هداية الوحي، أو النبوَّة:

وهي أعلى مراتب الهداية، وهذه تستدرك على العقل ما غلط فيه، كما اســتدرك العقل على الحواس، ثمَّ هي تمنح العقــل المعرفة فيما لا سبيل إلى معرفته مثل: الإيمان بالغيب، وما يتضمنه من الإيمان بالله وصفاته، وواجبه على خلقــه، والإيمان بالعالم غيــر المنظور، وعالم الآخــرة والجزاء، ممَّــا لا يدخل تحــت دائرة المختبــرات، ونحوها. ولا سبيل إلى معرفته إلَّا بالوحي، ولكنَّه ليس من المستحيلات عقلًا، بل هو جائز في نظــر العقل، بل هو موافق للحكمــة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

فهذه المرتبة الرابعة والعليا من الهداية البيانيَّة، هي الَّتي تنكشف فيهــا الحقائق لبصائر المؤمنيــن، وهي التي يســألها المؤمنون من ربهم.

QaradawiBooks.com

ثانيا: الهداية التوفيقيَّة:

ومع هذه الهداية البيانية، هناك هداية أخرى، يسعى إليها كل من يحب الحقيقة، وهي التوفيق إلى نور هذه الهداية، واتِّباع طريقه، وهي الَّتي جاء بها قوله تعالى لرسوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وهي الَّتي يسألها المؤمنون من ربِّهم، في سورة الفاتحة: أن يعرفوا الحق ويتَّبعوه، وهي الَّتي وصفت في القرآن بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

معنى سؤال المهتدي الهداية:

ومعنى قوله ﴿اهْدِنَا﴾ ـ مع أنَّ الَّذي يدعو قد هُدي إلى الإيمان ـ أنَّ المراد به: زدنا هُدًى. كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، أو معناه: ثبتنا على هذه الهداية، وعلى نور الإيمان.

والهداية المطلوبة إنَّما هي إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو الطريق الَّذي لا ينحرف يَمْنة ولا يَسْرة، وهو أقرب طريق موصل إلى الغاية المطلوبة، وهي رضوان الله تعالى ومثوبته، ودخول جنته، والتنعم برؤيته.

وهذا الصِّراط هو الَّذي أقسم الشيطان اللعين أمام ربه: أنَّه سيقف بالمرصاد لبني آدم، ليُضِلَّهم عنه بكل وسائله، وفي هذا قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

QaradawiBooks.com

ولقد اتَّخذ اللعين أسلحته، واستطاع بجنوده وأعوانه أن يغويَ أكثر الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

المقصود بالصراط المستقيم:

ومفهوم الصراط المستقيم بيِّن واضح، وهو الطريق الَّذي لا عوج فيه ولا انحراف، إلى اليمين أو اليسار، ولكن ما المراد به؟ ورد عن الصحابة والسلف: أنَّهم قالوا: الصراط: كتاب الله. وبعضهم قال: الصراط: الاسلام. ومنهم من قال: الصراط: طريق رسول الله. ومنهم من قال: طريقه وطريق الخلفاء الراشدين من بعده.

وهذا الاختلاف في الأقوال ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ هو اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضادّ[1]. أو القول بأنَّ الصراط هو الإسلام، أو القرآن، أو سنَّة رسول الله ﷺ، أو سنَّة الخلفاء الراشدين من بعده، ليس بينها تضاد أو تناقض، وإنَّما هي تتكامل ويفسر ـ أو يكمل ـ بعضها بعضًا، فهو الطريق الَّذي يدعُو إلى الإسلام، ويهدي إليه القرآن، وبيَّنته سُنَّة النبي ﷺ، وامتثل به أصحابه، وخصوصًا الراشدين المهديين من خلفائه.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، هو: أساس «الوسطيَّة» في التصور الإسلامي، وفي المنهج الإسلامي، فهو لا ينحاز إلى منهج أهل اليمين، ولا منهج أهل اليسار، بل هو الصِّراط، وما حوله سبلٌ متعرجة، على رأس كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٣/١٣)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبويَّة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ كما قال بعض الصحابة هو القرآن، ومعنى هذا ـ كما يقول شيخنا دراز ـ إنَّ القرآن هو إجابة لسؤال المؤمنين[1]: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. كما أنَّ طلب المؤمنين هذه الهداية، أو هذا الدستور الإلٰهي حتَّى جاءهم الجواب بعد الفاتحة، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

إلى من ينسب هذا الصراط؟

وقد ينسب هذا الطريق إلى الله تعالى، باعتباره هو الغاية، وباعتباره شارعه والهادي إليه، كما قال تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥].

وقد ينسب إلى محمَّد ﷺ، بوصفه الدَّاعي إليه، والهادي إليه بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد ينسب هذا الطريق إلى المؤمنين، الَّذين يسلكون هذا الصِّراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

انقسام النَّاس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

يتَّضح من هذه الآية الكريمة الَّتي ختمت بها السورة: أنَّ النَّاس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام:

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن صـ١٣، نشر مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأول: قسم «أنعم الله عليهم»:

من النَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، كما بيَّنَتْهُم سورة النساء. وهم الَّذين هداهم الله، وعرفوا الحق، وتبيَّن لهم، فميزوا بينه وبين الضلال والباطل، فسلكوه على بصيرة، وأصبحوا أهله علمًا وإيمانًا وعملًا ودعوة.

الثاني: قسم عرفوا الحق، ولكنهم لم يتبعوه:

ولم يذعنوا لمن دعاهم إليه، ركونًا إلى التقليد، أو حب الدنيا، أو اتباع الهوى، أو العصبية العمياء، أو الكِبْر، أو الحسد، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، فاستحقُّوا غضبَ الله.

الثالث: قسم عميت بصائرهم:

فلم يُميِّزوا بين حقٍّ وباطل، وهدى وضلالة، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث وراء الحقيقة، فعاشوا وماتوا ضالين، بعيدين عن الحق، فاستحقوا أن يوصفوا بالضلالة.

وقد جمع الله هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية الأخيرة من الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فوائد:

تضمنت الفاتحة مجموعة من الفوائد:

الفائدة الأولى: الفاتحة كلها ذكر الله:

الفاتحة كلُّها ذكر لله، فأولها: ذكر ثناء، وآخرها: ذكر دعاء. أولها: ثناء من الله على نفسه، وهو يتضمَّن أمر عباده بالثناء عليه، فهو يقول: الحمد لله، وكأنَّه يقول: قولوا: الحمد لله.

QaradawiBooks.com

وقد أفادتنا الفاتحة: أنَّ ذكر الثناء يسبق ذكر الدعاء، فكأنَّه مقدمة وتمهيد لسؤال الله ﷻ، فقبل أن تسأل ربك أثنِ عليه بما هو أهله.

غير مرخصة للطباعة

الفائدة الثانية: الفاتحة في الصلاة:

روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ: أنَّه قال: «**قسمتُ الصلاةَ بين وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. **قال الله تعالى: حمدني عبدي.**

وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. **قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.**

وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. **قال: مجَّدني عبدي.** ـ وقال مرة: فَوَّضَ إلي عبدي ـ **فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.**

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. **قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[1].

الفائدة الثالثة: الفاتحة تذكير للإنسان بأخطر قضايا المصير:

إنَّ الفاتحة ـ على وجازتها ـ تذكير للإنسان بأعظم قضايا الوجود وأخطرها، وإجابة عن الأسئلة الخالدة للإنسان، الأسئلة الكبرى الَّتي سألها الإنسان منذ بدأ يفكر عن وجوده: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ وبم؟ أعني: السؤال عن المبدأ، وعن المعاد، وعن الغاية والرسالة، وعن الواسطة.

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فأمَّـا المبدأ فجوابـه فـي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فخلْق الإنسان من آثار فيض الربوبيَّة والرحمانيَّة.

وأمَّا المعاد فجوابه في: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. فلا بدَّ من يوم تُجزى فيه كل نفس بما كسبت، وتخلد فيما عملت، من خير أو شر.

إنَّ آفة الحضارة السائدة، والحياة المعاصرة، أنَّها نسيت الله، ونسيت الآخرة، ونسيت رسالة الإنسان في الحياة، ونسـيت القضايا المصيريَّة. وفي الفاتحة: تذكير لها بما نسيته، وما لا يجوز أن ينسى.

وأمَّا الغاية والرسالة، فجوابها في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإنَّما خُلق الإنسـان ليقوم بعبـادة الله وحده. فرسـالته هي التوحيد بقسـميه: توحيد الإلٰهيَّة والعبـادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيـد الربوبيَّة أو الخالقيَّة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة لله وحده، والاستعانة به وحده.

وأجابت الفاتحة عن السؤال الرابع: بِمَ؟ وهو سؤال عن الواسطة بين الحق والخلـق، أو عن الطريق والمنهج، بقولـه تبارك وتعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو هنا يشير إلى هداية الوحي، أو النُّبوَّة، وهي أعلى مراتب الهداية، بعد هداية الحس، وهداية العقل.

الفائدة الرابعة: الفاتحة تتضمَّن الإشارة إلى منهج الوسطيَّة:

والفاتحـة تتضمَّن كذلك الإشـارة إلى منهج الوسـطيَّة، حين تعلِّم المؤمنين أن يسألوا الله كل يوم الهداية إلى «الصراط المستقيم». فالصراط المسـتقيم هو الَّذي يوصل إلى الهدف من أقصـر طريق، دون ميْل إلى اليمين أو اليسار، وهو طريق الَّذين أنعم الله عليهم بتمام الهداية، وكمال الإيمان من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وليس طريق الَّذين

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ضلوا عن الحق فلم يعرفوه، أو عرفوه، ولكن اتَّبعوا أهواءهم أو آثروا دنياهم، أو قلَّدوا آباءهم، أو تبعوا سادتهم وكبراءهم، فاستحبُّوا العمى على الهدى، واستحقُّوا غضب الله عليهم.

الفائدة الخامسة: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم:

هذا الدعاء الَّذي شرعه الله سبحانه للمسلمين عامَّة في سورة الفاتحة، وأمرهم أن يقرؤوه كل يوم خمس مرات في صلاتهم المفروضة يوميًّا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾: يتضمَّن ـ مع الهداية إلى الصِّراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى، والسعادة الأبديَّة بدخول الجنَّة ـ أنَّ هذا الصراط ـ صراط المؤمنين الصَّادقين الَّذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، كما بينهم القرآن ـ هو مغاير ومخالف بطبيعته لمن ليسوا على عقيدتهم ولا طريقتهم، ممَّنْ سمَّاهم القرآن «المغضوب عليهم والضَّالِّين».

فإذا كان الأوَّلون الَّذين أنعم الله عليهم من أهل الجنَّة، فإن خصومهم ممَّن غضب الله عليهم، فعرفوا الحق ورفضوه عنادًا وحسدًا واستكبارًا، أو ضلوا عنه وشردوا عن طريقه عمى وتقليدًا، وانغماس بصيرة من أهل النَّار.

وهو ما سمَّاه شيخ الإسلام ابن تيمية: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم»، وهو اسم لأحد كتبه الشهيرة المعروفة والمتميِّزة، وإن لم يصرح ـ فيما قرأت له ـ أنَّه أخذ هذا من سورة الفاتحة، مع أنَّ الناظر في العنوان بأناة ودقَّة، يتبيَّن له ذلك.

QaradawiBooks.com

الفائدة السادسة: في سورة الفاتحة شفاء القلوب:

أطال الإمام ابن القيِّم النفس، وفصَّل وأجاد في بيانه أسرار الفاتحة، وما فيها من فوائد ومنارات، وذلك في كتابه القيِّم: «مدارج السالكين» وكان ممَّا ذكره فيها:

«اشتملت سورة الفاتحة على شفاءين اثنين: هما **شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.**

فأمَّا اشتمالها على **شفاء القلوب**، فإنَّها اشتملت عليه أتمَّ اشتمال، فإنَّ مدار علل القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتَّب عليهما داءان قاتلان، وهما: الضلال، والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.

فهداية الصراط المستقيم: تتضمَّن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية (أي: بقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾): أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كلَّ يومٍ وليلة، في كلِّ صلاة، لشدَّة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه»[1].

الفائدة السابعة: كلمة «آمين» ليست من الفاتحة:

كلمة «آمين» ليست من الفاتحة بالإجماع، وتعني: اللهمَّ استجبْ. ويُسْتَحَبُّ للإمام أن يمُدَّ بها صوته بعد قراءة الفاتحة، ويقولها المأموم

(١) مدارج السالكين (٧٦/١).

QaradawiBooks.com

والمنفرد كذلك؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا أمَّن الإمـام فأمِّنوا**»[١]، وقوله: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. فقُولُوا: آمين؛ فإنَّه مَن وَافَقَ قولُه قولَ الملائكة، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنْبه**»[٢].

وإنَّ من فضل التأمين قوله ﷺ: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقولوا: آمين. فإذا وافق كلامَ الملائكةِ غُفِرَ لمن في المسجد**»[٣].

وقال البخاري: قال عطاء: «آمين» دعاء، وأمَّن ابن الزُّبير ومَنْ وراءه، حتَّى إنَّ للمسجدِ لَلَجَّةً[٤]. وكان أبو هُرَيْرة ينادي الإمام: لا تَفُتْنِي بآمين. أي: لا تَسْبِقْني، وقال نافع: كان ابنُ عمر لا يَدَعُه ويحضُّهم عليه[٥].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٨٠)، ومسلم في الصلاة (٤١٠)، عن أبي هريرة.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٨٢)، ومسلم في الصلاة (٤١٥)، عن أبي هريرة.
(٣) رواه أحمد (٩٦٨٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. عن أبي هريرة.
(٤) قال القاضي عياض: هِيَ اخْتِلَاط الْأَصْوَات مثل الجلبة. مشارق الأنوار مادة (ل.ج.ج).
(٥) صحيح البخاري (ل.ج.ج).

QaradawiBooks.com

سورة النَّبأ

هذه السورة: تُسَمَّى سورة «النبأ»، أو سورة «عَمَّ»، أو سورة «عمَّ يتساءلون». وهي مكِّيَّة بالإجماع، يدلُّ على ذلك موضوعها وأسلوبها. ومعنى أنَّها مَكِّيَّة: أنَّها نزلت في الفترة الَّتي كانت قبل الهجرة إلى المدينة.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

تبدأ السورة بطرح هذا السؤال أو الاستفهام: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ أيْ عن أيِّ شيء يتساءلون؟! والتساؤل تفاعل من السؤال، أي: يسأل بعضهم بعضًا عنه، بمعنى أنَّه أمر شغلهم عن غيره، فبات يسأل بعضهم بعضًا عنه.

﴿عَمَّ﴾ أصلها «عن» و«ما» الاستفهامية، أدغمت النون الساكنة في الميم، فصارت ميمًا مشدَّدة، وحذفت ألفها تخفيفًا، كما تُحذف بعد حروف الجر ـ مثل «لِمَ» و«فِيمَ» و«إِلَامَ» و«عَلَامَ» ـ وفي بعض القراءات الشاذَّة إثباتها (عمَّا)[1].

(١) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (٣٤٧/٢)، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

وضمير الجمع في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعود إلى المشركين في مكَّة، وإن لم يكن لهم ذكر فيما سبق، ولكنهم حاضرون وإن غابوا، فالمعركة معهم مستمرَّة، منذ أعلن محمَّد ﷺ أنَّه رسول الله إليهم خاصَّة، وإلى النَّاس كافَّة.

وبعض المُفَسِّرين يقولون: إنَّ الضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ للمشركين وللمسلمين[1].

وأُرَجِّح أنَّه للمشركين وحدهم؛ لأنَّ المسلمين لم يشاركوا في هذا التَّساؤل، كما أنَّهم لا ينطبق عليهم الوعيد الَّذي ذكره الله في شأن المتسائلين: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥].

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾

والنبأ كما يقول أهل اللُّغة: الخبر الَّذي له شأن. فإذا وُصِفَ بأنَّه «عظيم» بالتنكير، فقد أصبح ذا خطر، فكيف إذا عُرِّف بـ «أل» وأنَّه النبأ العظيم؟!

أي نبأ هذا، الَّذي بات الشغل الشاغل للقوم، يتساءلون عنه: أصِدْق هو أم كذب؟ حقٌّ أم باطل؟ يقين أم ظن لا يغني من الحقِّ شيئًا؟

اتَّفق كثير من المُفَسِّرين على أنَّه: «البعث بعد الموت»، الَّذي أنكره أهل مكَّة، ومعهم سائر العرب. ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

(١) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٦٨٤/٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

QaradawiBooks.com

ودلَّ على صحَّة هذا القول: أنَّه ﷻ بدأ يرد بعدها عليهم ببيان مظاهر القدرة، الَّتي تظهر مقدرته على إعادة الخلق، فهو أهون من بدئه؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا...﴾ [النبأ: ٦ ـ ٨]، إلى آخر الآيات في السياق.

وهناك من مال إلى أنَّ ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: هو «التوحيد» الَّذي نقض أساسَ دينِهم الأول، وهو الشرك، أو الوثنية الَّتي ورثوها عن آبائهم، حتَّى قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وذهب بعض المُفَسِّرين إلى أن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو: القرآن الكريم، أو أنَّه نبوَّة محمَّد ﷺ، وما نزل عليه من وحي[(١)].

النبأ العظيم هو الوحي الَّذي أنزله الله على محمَّد ﷺ:

والذي يترجَّح لي هنا، من خلال تدبري للقرآن، وربط بعضه ببعض: أن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الَّذي يتساءلون عنه، هو الوحي الَّذي أنزله الله على محمَّد ﷺ، ومنه القرآن الكريم، فهو أعظم ما أوحى ربه إليه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وفيه أعلن عقيدة التوحيد ونبذ الشرك، كما أعلن عقيدة البعث، ومن ورائه الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقد قال الله في سورة «ص»: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ۞ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۞ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٥ ـ ٦٨].

(١) انظر: تفسير الرازي (٧/٣١)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

فهذا النبأ العظيم هو الوحي الَّذي أرسله الله به بشيرًا ونذيرًا، وبه دعا إلى التوحيد وإلى البعث، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٢، ٣]، وهو الَّذي حكاه القرآن عنهم حين قال: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [يونس: ٢]، وهو الَّذي عجب منه أقوام الرسل من قبل، من عهد نوح، الَّذي عجب قومه من رسالته لهم، فرد عليهم بما ذكره القرآن: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وكذلك كان قوم هود من بعده، الَّذين رددوا ما قاله قوم نوح، فقال لهم: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

اختلاف المشركين وحيرتهم وتناقضهم في شأن الوحي:

وهذا هو النبأ العظيم الَّذي اختلفوا فيه، وفي حقيقة من جاء به، فقالوا: كاهن. وقالوا: شاعر. وقالوا: ساحر. وقالوا: مجنون. وقالوا عن القرآن: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]، وقالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ويصف القرآن حيرتهم وترددهم في حقيقة محمَّد ﷺ، وما جاء به من وحي: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥]، وفي مقام آخر قال تعالى مبينًا تناقض مواقفهم، وعدم ثباتهم على أمر واحد، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

QaradawiBooks.com

ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

فهكذا نرى شدَّة اختلافهم في شأن الوحي إلى محمَّد ﷺ، وإرساله من الله تعالى إليهم، على حين نراهم متَّفقين على موقفهم من البعث، فهو موقف الإنكار والاستبعاد: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨]. فمن بواعث عجبهم واستغرابهم من بعثته: ما جاءهم من أمر بعث الموتى من قبورهم، بعد أن رمت أجسادهم وتفتت، ومزقت كل ممزَّق!

وقد رأيت بعض المُفَسِّرين قد اختار أنَّ ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو: القرآن، أو نبوة محمَّد عليه الصلاة والسلام، ومنهم من رجح أنَّه البعث بعد الموت على المشهور، وهو ما لم نرتضِهِ رأيًا.

وقد ألف شيخنا العلَّامة الدكتور محمَّد عبد الله دراز كتابه عن القرآن سماه: «**النَّبأ العظيم**»، ممَّا يشير إلى أنَّه اختار ما اخترناه هنا.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجْر، ولهذا اختصَّ به القرآن المكي، ولم تعرف في النصف الأوَّل من القرآن.

QaradawiBooks.com

وفي سورة العلق: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥].

والفعل المضارع المتعدي في ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، نزل منزلة اللازم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، إذ لا يقصد معلومًا معينًا، فكأنَّه يقول: سينكشف عنهم الغطاء، وتتجلى لهم الحقائق، ويعرفون الأمور كما هي.

وعبَّر بالسين لا بـ«سوف»؛ لأنَّ «السين» للمستقبل القريب، و«سوف» للمستقبل البعيد، وكأنَّه يقول: إنَّ حقيقة هذا ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ستتجلَّى لكم عن قريب، وتعرفون أن محمدًا ﷺ هو رسول الله حقًّا، وأنَّ القرآن منزَّل عليه من الله تعالى، وسيؤيده بنصره، ويعلي كلمته، كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وكرَّر الجملة لتكرير الوعيد، على غرار ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۞ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]، وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤].

وإذا لم يظهر لكم هذا في الدنيا، فسيظهر في الآخرة، وما أقربها! ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دلائل نعمته، وآيات رحمته

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

في هذا المقطع الثاني من السورة، الَّذي تضمن إحدى عشرة آية، وفيها يعدِّد الله آياته، وبديع صنعه في الكون، الَّذي أحسن فيه كل شيء خلقه، وسخَّر كل ما في سماواته وأرضه لمصلحة الإنسان.

فهذه الأشياء الَّتي ذكرها الله جلَّ شأنه في هذه الآيات، ينظر إليها المفسرون الَّذين فسروا ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بأنَّه «البعث»: على أنَّها دلائل واضحة على عظيم قدرة الله تعالى على أنَّه يُحيي الموتى، وأنَّه يُحيي العظام وهي رميم، فلا يعجز من جعل ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلخ، أن يُعيد الأموات كما خلقهم أوَّل مرَّة.

كما ينظر إليها الآخرون الَّذين فسَّروا ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بأنَّه الوحي المنزل، أي: القرآن، ونبوَّة محمَّد ﷺ، بأنَّها دلائل نعمته، وآيات رحمته، فلا يستغرب ممَّن خَلَق هذه الأجرام العظام، ووضعها في مواضعها على مقتضى الحكمة، لتؤدِّي مهمَّتها في إمداد الإنسان بكلِّ ما يحتاج إليه: ألَّا يدع النَّاس هملًا، ولا يتركهم سُدًى، بل إنَّ حكمته البالغة، ونعمته السابغة، ورحمته الواسعة، كلها تقتضي أن يرسل إلى النَّاس رسولًا منهم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ويُعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وهو ما نميل إليه.

QaradawiBooks.com

ولننظر بإجمال في معاني هذه الآيات:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾

أي: فراشًا يُعدُّ لراحتكم، كما يُعَدُّ مهد الصبي لينام عليه ويستريح، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

وقد عبَّر عن هذا المعنى بعبارات شتى، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي سياقٍ آخر على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، فهي مهادٌ وفراشٌ وبساط، وهذا لا يتنافى مع كونها مكوَّرة، لأنَّها لكبرها وسعتها لا يظهر فيها هذا التكوير، وهذا التكوير هو مقتضى الحكمة، وإلَّا لو كانت بكيفيَّة مربعة أو مستطيلة لكان سكانها يواجهون خطر السقوط الهائل عند حوافها!

والاستفهام الداخل على «لمْ» يفيد الإنكار التقريري، كأنَّه يقول: قد جعلنا الأرض مهادًا.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾

أي: وقد جعلنا الجبال أوتادًا للأرض، يرسيها الله بها حتى لا تميد أو تضْطرب، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، أي: تثبت الأرض حتَّى لا تميد وتضطرب، كما تثبت الأوتاد الخيام الَّتي يبنيها العرب في الصحاري والسهول.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾

أي: منقسمين إلى ذكر وأنثى، ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر، ويكتمل به ويكمله، كما قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وينتظم أمر المعاشرة والمعايش، وينشأ التناسل، ويستمر النوع الإنساني كما أراد الله، ويتكامل أمر الإنسان مع أمر الكون، الَّذي أقامه الله على قاعدة الزوجيَّة، الَّتي تتمثل في الشيء ومقابله، من ذكورة وأنوثة، وموجب وسالب، حتَّى الذرة، قاعدة البناء الكوني كله تقوم على الازدواج، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، هكذا بإطلاق وتعميم ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾

خلق الله الإنسان والحيوان بحيث يحتاج إلى النوم، وجعل هذا النوم سباتًا، أي: قاطعًا للإنسان عن العمل المرتبط بحال اليقظة، فيأخذ جسمه حقَّه من الراحة، وعبَّر بـ«السبات» عن الموت، لما بينهما من التشابه التام في انقطاع الحياة، ولهذا قيل: النوم هو الموتة الصغرى، والموت هو النومة الكبرى. والنوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل. وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ومن وصايا لقمان: يا بُنَيَّ كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر[1]!

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٣/٢٨٤).

QaradawiBooks.com

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾

وهذه نعمة أخرى يمتنُّ الله بها على عباده، فلكي يتم النوم براحة وهدوء، هيَّأ الله الليل، وهو نظام حركة الأرض مع الشمس، ليكون الظرف المناسب للنوم المريح، فجعله بمثابة اللباس الَّذي يستر الإنسان، كاللحاف ونحوه، فجعل الليل كاللباس يستر النَّاس بظلامه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾

أي: صالحًا للحركة والسَّعي لطلب المعاش وابتغاء الرزق، والمشي في مناكب الأرض، وفي سياق آخر قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، والنشور: الحياة بعد الموت. كأنَّما يقوم فيه النَّاس من موتهم، حين استيقظوا من نومهم.

وهذا هو النظام الفطري لحياة الإنسان، الموافق للنظام الكوني، ولكنْ في كثير من الأحيان يتمرَّد النَّاس على نظام الفطرة، ونظام الطبيعة، فيسهرون طويلًا، ولا ينامون إلَّا متأخِّرين، ومن ثَمَّ لا يستيقظون إلَّا متأخِّرين، وبذلك ضاعت منهم بركة البُكور، الَّذي دعا الرسول لأصحابه بالبركة فيه: «**اللهمَّ باركْ لأُمَّتي في بُكورها**»[1].

(١) رواه أحمد (١٥٤٤٣)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذي في البيوع (١٢١٢)، وقال: حسن. وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٥)، عن صخر الغامدي.

QaradawiBooks.com

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

بعد أن تحدَّث عن الأرض ومـا فيها ومَنْ فيها، انتقـل إلى العالم العُلْوي، عالم السماوات، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، يشير إلى السماوات السبع، فقد بناها الله وأحكم بناءها، ورفعها بغير عمدٍ نراها، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فهـي بنـاء قويٌّ مُحكم الخلق، لا يؤثر فيه كر الدهور، ومر العصور.

وقد أكد القرآن في كثير من آياته: أنَّ السـماوات سـبع، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطـلاق: ١٢]، ولكنَّـه لم يبيـن المثليَّة في أي شـيء، هل هي في العدد؟ هل هي في التكوين؟ هل هي في الأهمية والتأثير؟ الله أعلم.

السماوات السبع:

تكرَّر فـي القرآن الكريم ذكر «السـماوات السـبع» بصيغ مختلفة، فذكرها في هذه السورة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وفي سورة تبارك: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وكذلك في سورة نوح على لسانه لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وفي سـورة المؤمنين سماها طرائق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وقد اختلف المفسـرون، وخصوصًا المعاصرين منهم، في تحديد مدلول السـماوات. وذهب بعضهم مثل الإمام محمَّد عبده في تفسير «جزء عمَّ» أنَّ «السـبع الشـداد» هي: «الطرائق السـبع، وهي ما فيه

QaradawiBooks.com

الكواكب السبعة السيَّارة المشهورة، وخصَّها بالذِّكْر لظهورها ومعرفة العامَّة لها، وإلَّا فقد بَنى ما هو أعظم منها، وهو ما وراءها من عوالم السماوات، ووصفها بالشـــدَّة؛ لأنَّها مُحْكَمة متينة، لا يؤثِّر فيها مرورُ الزمان»[١].

وكذلك فسَّرها بالســـيَّارات السبع: الشـــيخ عبد القادر المغربي في تفســـيره لجزء تبارك، في تفســـير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣][٢].

وكذلك العلَّامة الشيخ الطاهر بن عاشور، الَّذي قال: «يجوز أن يراد بالســـبع: الكواكب الســـبعة المشـــهورة بين النَّاس يومئذٍ، وهي: زُحَل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر.

وهذا المحمل هو الأظهـــر؛ لأنَّ العبرة بها أظهـــر، لأنَّ المخاطبين لا يرون السماوات الســـبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات الَّتي اكتشفها علماء الفلك من بعد»[٣].

والحقيقة: أنَّ هذه ليست تسمية لغويَّة، ولا اصطلاحيَّة لأهل الفلك، وكلمة «السماوات» لغة وعُرْفًا أوسع وأشمل من «السيَّارات السبع». كما أنَّ عامَّة النَّاس لا يعرفون مِن هذه الســـيَّارات السبع إلَّا الشمس والقمر، والأخريات لا يعرفهـــا إلَّا أهل العلم بها، وكلُّ ما نـــراه من النجوم إنَّما يظهر في مواقعه من السماء الدنيا.

---

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده صـ ٨، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت.

(٢) تفســـير جزء تبارك لعبد القادر المغربي صـ ٤، نشـــر المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٢/١٥، ٢٣)، نشر الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

QaradawiBooks.com

أمَّا حقيقة السماوات السبع وما يجري فيها، وما فوقها من الكرسيِّ الَّذي قال الله فيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن العرش الَّذي هو أعظم المخلوقات عامَّة، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، فعِلْمُ ذلك عند الله.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

وفي هذا العالم العلوي، عالم السبع الشِّداد، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، السراج هو المصباح، والوهَّاج هو الوقَّاد المُتلألئ، من وهجتْ النار: إذا أضاءت، أو البالغ في الحرارة من الوهج، والعلميون يقدرون حرارة الشمس الداخلية بـ(١٦) مليون درجة مئويَّة.

وللشمس تأثيرها في حياة الإنسان، فهي الَّتي تمده بالضوء والحرارة، ولولاها ما بقي إنسان ولا حيوان ولا نبات، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فغاير بين ضياء الشمس ونور القمر، فإنَّ نوره انعكاس من ضوء الشمس، ولا حرارة فيه مثل ضوء الشمس، وقد قال نوح لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾

المعصرات: السُّحب إذا عصِرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كما في قولهم: أحصد الزرع: إذا حان له أن يحصد، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾،

QaradawiBooks.com

أي: منصبًّا بكثرة، يقال: ثَجَّ الماء إذا نزل بكثرة، والماء نعمة كبيرة يمتنُّ الله بها على الإنسان دائمًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾

لنظهر ونبرز بالماء النازل من السماء حبًّا يقتات به، كالقمح والشعير والذرة والأرز. ونباتًا وهو ما ينبت من شجر وغيره. وهو من عطف العام على الخاص.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

الجنات: جمع جنَّة، وهي الحديقة ذات الشجر الَّتي تجن من فيها وتسترهم بكثرة أشجارها، ﴿أَلْفَافًا﴾ جمع لفيف، كشريف وأشراف، أي: ذات نخل وشجر متكاتف مظلل بالنبات والأغصان.

وبيَّن الغاية من إنزال الماء الثجَّاج، بأنَّها متاع للإنسان، وحياة ما يحتاجه من الأنعام والنبات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، وفي سورة أخرى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من مشاهد يوم القيامة

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۞ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۞ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۞ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾

يوم الفصل: اسم من أسماء يوم القيامة، مثل يوم الدين، ويوم الحساب، ويوم البعث، ويوم الحشر، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد.

وسمِّي يوم الفصل؛ لأنَّ الله تعالى يفصل فيه بين أصحاب العقائد المختلفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وفي سورة المرسلات: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۞ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۞ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [١١ ـ ١٥].

﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، أي: إنَّ يوم فصلِ الله تعالى بين الخلائق بالحساب والجزاء، كان في علمه وتقديره ميقاتًا وميعادًا، أي: وقتًا محدَّدًا مؤقَّتًا لبعث الأوَّلين والآخرين، وما يترتَّب عليه من السؤال والحساب، والوزن وقراءة الكتاب، والجزاء ثوابًا وعقابًا. فيخبر الله تعالى أنَّه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته علم اليقين إلَّا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

QaradawiBooks.com

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

بدلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وعطف بيان له، يوم ينفخ الملك إسرافيل الَّذي كلفه الله بالصور والنفخ فيه. وهذه هي النَّفخة الثانية، فالأولى نفخة الصَّعق، والثانية نفخة البعث، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فهذه هي النفخة الأخرى.

ما حقيقة هذا البوق، وما كيفيته، وكيف يؤدي عمله؟ الله هو الَّذي أعدَّه، وهو الَّذي يعلم حقيقته، وما علينا إلَّا أن نؤمن به، ما دام قد نطق به القرآن.

بعد النَّفخ في الصُّور يبعث النَّاس من قبورهم، ويأتون إلى المحشر أفواجًا، أي: أممًا وشعوبًا، كل أمة مع إمامها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أو زمرًا وجماعات، كل أصحاب ديانة بعضهم مع بعض، وكل أتباع كذاب بعضهم مع بعض، وكل عباد صنم بعضهم مع بعض، لا بدَّ أنَّ هناك رابطًا يربطهم بعضهم ببعض.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾

أي: كثرت أبوابها المُفتَّحة لنزول الملائكة نزولًا غير معتاد، حتَّى صارت كأنَّها ليست إلَّا أبوابًا مفتحة، كقوله تعالى في الطوفان: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، كأن كلها عيون متفجرة. وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: الأبواب: الطرق والمسالك لنزول الملائكة. أي: بتغيير نظام الكون، كما عرفه الناس، فتفتح السماء، فينفتح مكانها، وتصير طرقًا

QaradawiBooks.com

لا يسـدُّها شـيء. ومعنى هذا وقوع الاضْطراب في الكون كله، وبذلك يخرب الكون العلوي، كما يخرب الكون السفلي.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

أي: حُرِّكت وأُجْريت في الجـو على هيئاتها، بعد قلعها من مقارِّها، كما يعرب عنه قولـه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: نراها رأي العين سـاكنة في أماكنها، والحال أنَّها تمر مر السحاب، الَّذي تسيره الرياح سـيْرًا حثيثًا، وذلك أنَّ الأجرام العظام إذا تحركت نحـوًا من الأنحاء، لا تكاد تتبين حركتهـا، وإن كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد.

«وقد أدمج في هذا التشبيه ـ كما قال أبو السُّعُود ـ تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

يُبَدِّل الله تعالى الأرض ويُغَيِّر هيأتها، ويسيِّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها، ثمَّ يفرقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾»[1].

يُخَيَّل إلى الناظر أنَّها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تذهب بالكليَّة، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طـه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الْكهْـفِ: ٤٧]. ومعناهـا: أنَّ الجبال ـ وهي الأجرام العظيمة الَّتـي يرى النَّاس ضخامتها ـ حين يسـيِّرها الله،

(١) تفسير أبي السعود (٩٠/٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

تصير مثل السَّـــراب، كقوله تعالـــى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الْواقِعــة: ٥، ٦]. أي: غبارًا منتشرًا، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها وتســوية الأرض، إنَّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما تدلُّ على ذلك آيات سورة طه السابقة، وبعدها قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طــه: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فإن اتباع الداعي، وبروز الخلق لله تعالى، لا يكون إلَّا بعد النفخة الثانية.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جهنم معدة للطاغين المكذبين

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۞ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَآءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۞ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾

أي: مرصدة ومعدة، والمرصاد: اسم للمكان الَّذي يرصد فيه، أي: يراقب فيه ويحدث فيه الاطلاع على من يريدون. كالمضمار، الَّذي هو اسم للمكان الَّذي تضمر فيه الخيل. أي: إنَّ جهنَّم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصْد، يرصُد فيه خزنة النَّار الكفار، ليعذبوهم فيها.

أتى الحسن على هذه الآية ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ فقال: ألا على الباب رصد، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز حبس[(١)].

وعن قتادة: يُعلمنا أنَّه لا سبيل إلى الجنَّة حتَّى يقطع النَّار[(٢)].

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾

يذكر الله تعالى هنا: أنَّ جهنَّم مآب، أي: مرجعٌ للطاغين. جمع طاغٍ، والطَّاغي: هو الَّذي يتجاوز الحدَّ في ظلمه وفسقه وانحرافه. كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى:

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٠/٢٤)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، مصر، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٢) المصدر السابق (٢١/٢٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال الله تعالى لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، فبيَّن أن طغيانه وتجبره على خلق الله، جعله أحوج ما يكون إلى الرسالة.

وذمَّ الله الأمم المستكبرة على الله تعالى، وعلى عباده من عاد وثمود وفرعون وأمثالهم، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٣]. فلا غرو أن يعد الله جهنَّم لأهل الطغيان، الَّذي يقترن عادة بالفساد، ليحمي الحياة والأمم، فبقاء هؤلاء المتجبِّرين في الأرض يفسدها، ويعطِّل عمارتها، الَّتي أمر الله بها، حين قال على لسان صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾

ماكثين في جهنَّم دهورًا ومُددًا متطاولة متتابعة، كلما مضى حقْب شيَّعه حقْب آخر. و﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقْب أو حُقْب، بضم الحاء، وبضم القاف وسكونها. وقد اختلف فيه اختلافًا كثيرًا، من ثمانين سنة إلى عشرات آلاف السنين، وكلها لم تأت عن الصادق المصدوق ﷺ.

هل تنتهي عقوبة أهل النَّار في جهنم؟

وهذه إحدى الآيات، أو ثالث الآيات القرآنيَّة، الَّتي دلَّتْ على أن لله تعالى فضلًا ورحمة ونعمة بأهل النَّار، بحيث يمكن أن تنتهي فيها عقوبتهم، وينهي الله عذابهم في جهنَّم، بعد ما يشاء الله من ألوف السنين أو ملايينها.

وهناك ثلاث آيات في القرآن الكريم، رصدها أهل التأويل، دالَّة على ذلك، كلها في القرآن المكي.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أولها: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

ثانيها: ما جاء في سورة هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

فقد ذكر الله في شأن الَّذين شقوا وأدخلوا النار: أنَّهم خالدون فيها ما دامت السماوات والأرض، إلَّا ما شاء ربك. فكان هذا الاستثناء مبينًا أنَّ أمر الخلود الأبدي معلق بالمشيئة الإلٰهية، وأكَّد هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾، هو خالق الخلق، ومالك الملك، وصاحب الإرادة المطلقة، فإذا أراد شيئًا لم يمنعه مانع، ولم يقف في وجهه شيء، وخصوصًا إذا كان هذا الأمر ممَّا تقتضيه رحمته الَّتي سبقت غضبه، والَّتي وسعت كل شيء، والَّتي بها سمي أرحم الراحمين.

ولذا قال هنا في أمر نعيم أهل الجنَّة، ما يدلُّ على بقاء نعيمهم، وأنَّه لا يزول أبدًا، فبعد أن قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أعقبها بقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، أي: غير مقطوع.

والآية الثالثة في هذا السياق: هي هذه الآية الَّتي معنا في سورة النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾.

هذه الآيات الثلاث في كتاب الله تبعث الأمل في رحمة الرحمن الرحيم، خير الراحمين، وأرحم الراحمين، الَّذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها: أن يريح عباده الكافرين بعد أن عذَّبهم ما عذَّبهم من ألوف السنين أو ملايينها، أن يجري عليهم الفناء، ويبقي أهل الإيمان

QaradawiBooks.com

وحدهم في الجنَّة، فهذا هو اللائق برحمانيَّتــه ورأفته بعباده، وله وحده ما يريد، وإذا أراد شيئًا قال له: كن. فيكون.

وهذا مذهبُ الإمامين الكبيرين: شيخ الإســلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن القيم، الَّذي دوَّنــه في كتابين معروفين لــه، **أولهما**: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، **والثاني**: «شــفاء العليل في مســائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل». وزبدة ما ذكره في كتابيه يتلخَّص فيما يلي:

أولًا: ذكر في أبديَّة النَّار أو فنائها سبعة أقوال:

أفاض القول في سابعها وهو: أنَّ للنار أمدًا تنتهي إليه، ثمَّ يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى. وقد أيَّد هذا القول بوجوه عديدة منها:

١ ـ أنَّ الله تعالــى أخبر في ثلاث آيات عن النَّــار بما يدلُّ على عدم أبديتها:

آية ســورة النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [الآيــة: ٢٣]. فتقييــد لبثهم فيها بالأحقاب يدلُّ على مدة مقدرة يحصرها العدد؛ لأن ما لا نهاية له لا يقال فيه: هو باقٍ أحقابًا، وقد فهِم ذلك من الآيــة الصحابة، وهم أفهم الأمة لمعاني القرآن.

آية سورة الأنعام: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

آية سورة هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١٠٧]. وقال بعدها في الجنَّة وأهلها: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [الآيــة: ١٠٨]. ولولا الأدلَّــة القطعيــة الدالة على أبديَّــة الجنَّة ودوامهــا، لكان حكم

QaradawiBooks.com

الاستثناءين في الموضعين واحدًا. كيف، وفي الآيتين من السياق ما يفرق بين الاستثناءين؟ فإنَّه قال تعالى في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، فعلمنا أنَّه تعالى يريد أن يفعل فعـلًا لم يخبرنا به، وقال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، فعلمنا أنَّ هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبدًا. وسنذكر ما قاله الصحابة في الاستثناء.

٢ ـ هذا القول منقول عن عدد من الصحابة والتابعين وجلة الأئمَّة:

فمن الصحابة: عمر رضي الله عنه قال: لو لبث أهـل النَّار في النَّار عددَ رَمْلِ (عَالِجٍ) لكان لهم يومٌ يخرجون فيه[١].

وابن مسـعود رضي الله عنه قال: ليأتينَّ على جهنَّم زمان تخفق أبوابها، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا[٢].

وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه رُوِيَ عنه نحوه[٣].

---

(١) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح صـ ٣٥٤، ٣٥٥، وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره، وقال عقبه: وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين، ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٢٢/١١): هو منقطع، ولفظه: لو لبث أهل النَّار في النَّار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه. وعن ابن مسعود: ليأتين عليها زمان ليس فيها أحد. قال عبيد الله بن معاذ راويه: كان أصحابنا يقولون ـ يعني به الموحديـن ـ قلت: وهذا الأثر عن عمر لو ثبت حُمِل على الموحدين، وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول السابع ونصره بعِدَّة أوجه من جهة النظر، وهو مذهب رديء مردود على قائله، وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وَهَائه فأجاد.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٥٨٢/١٢): حدثت عن المسيب، عمن ذكره عن ابن عباس (فذكر أثرًا له) قال: وقال ابن مسعود... فذكره.

(٣) رواه البزار (٢٤٧٨)، والفسـوي في تاريخـه (١٠٣/٢)، قال أبو داود (الطيالسـي أحد رواة الحديث): وحدثنا علي بن سلمة عن ثابت، قال: سألت الحسن عن هذا الحديث فأنكره.

QaradawiBooks.com

وأبو هُرَيْرة قال: أمَّا الَّذي أقول: إنَّه سيأتي على جهنَّم يوم لا يبقى فيها أحد. وقرأ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ...﴾ الآيتين [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨][(١)].

وأبو سعيد الخُدْرِي قال في آية: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]: أتت على كل آية في القرآن، أي: آية وعيد[(٢)].

وابن عبَّاس في رواية عنه قال في الآية: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]: استثنى الله قال: أمر اللهُ النَّار أن تأكلهم[(٣)].

٣ ـ أخبر الله تعالى أن رحمته وسعت كل شيء:

وأنَّ رحمته سبقت غضبه، وأنَّه كتب على نفسه الرحمة، فلا بدَّ أن تسع رحمته هؤلاء المعذَّبين، فلو بقوا في العذاب إلى غير غاية لم تسعهم رحمته، وهذا ظاهر جدًّا، والثابت أنَّ رحمته لا بدَّ أن تنتهي حيث ينتهي العلم كما قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقد تَسمَّى الله بالغفور الرحيم، ولم يتسمَّ بالمُعذِّب ولا بالمُعاقِب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وغيرها من الآيات، فإنَّه يتمدح بالعفو والمغفرة والرحمة والحلم، إلخ، ويتسمَّى بها، ولم يتمدَّح بأنَّه المعاقِب ولا الغضبان ولا المنتقِم، إلَّا في الحديث الَّذي فيه تعديد الأسماء الحسنى، ولم يثبت[(٤)].

---

(١) عزاه السيوطي لإسحاق بن راهويه في الدر المنثور (٤٧٨/٤)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٢) ذكره ابن القيم في شفاء العليل صـ ٢٥٧، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٥٨٢/١٢).

(٤) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٧)، وقال: هذا حديث غريب... ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث... وليس له إسناد صحيح. وابن ماجه في الدعاء =

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤ ـ أهل السُّنَّة على أنَّه يجوز تخلُّف الوعيد:

بل إخْلافه كرمٌ وعفوٌ وتجاوز يُمْدَح الربُّ تعالى به، ويُثنى عليه به؛ لأنَّه حقَّه، والكريم لا يستوفي حقَّه، فكيف بأكرم الأكرمين؟ واستشهد ابن القيِّم لذلك بآثارٍ وأشعار.

هذا في وعيدٍ مطلق، فكيف بوعيدٍ مقرون باستثناءٍ معقب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؟ ولهذا قالوا: أتت على كلِّ وعيد في القرآن.

ثانيًا: فنَّد ابنُ القيِّم الأدلَّة الَّتي استند إليها القائلون بدوام النَّار:

وأهمُّها:

١ ـ الآيات الَّتي دلَّت على خلود الكُفَّار وتأبيدهم في النَّار، وقد قال: إنَّ ذكر الخلود والتأبيد لا يقتضي عدم النهاية، والخلود هو المكث الطويل، كقولهم: قيد مخلد. والتأبيد في كل شيء بحسبه، فقد يكون لمدة الحياة، ولمدة الدنيا. وقد ورد النص بالخلود على بعض الكبائر من الموحدين، وقيد في بعضها بالتأبيد، كما في قاتل المؤمن عمدًا: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وكما في قاتل نفسه: «**فحديدته في يده، يتوجَّأ بها في نار جهنَّم، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**»[(١)].

= (٣٨٦١)، وابن حبان في الأذكار (٨٠٨)، والحاكم في الإيمان (١٦/١)، وقال: لم يخرجا الأسامي لتفرُّد الوليد بها وليس ذا بعلة؛ فالوليد أوثق وأحفظ من أبي اليمان وعلي بن عياش. ووافقه الذهبي، وتعقبه الحافظ في فتح الباري (٢١٥/١١): وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (٥٧٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

٢ ـ الآيات الَّتي دلَّت على عدم خروجهم منها: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦]، إلى آخر تلك الآيات قال: فطائفة قالت: إنَّ إطلاقها مقيَّد بآيات التقييد بالاستثناء بالمشيئة، فيكون من باب تخصيص العموم، وكأن هذا قول من قال من السلف في آية هود: أتت على كل وعيد في القرآن.

والذي صَحَّحه ابن القيِّم: أنَّ هذه الآيات على عمومها وإطلاقها، فهم باقون فيها لا يخرجون منها ما دامت باقية، ولكن ليس فيها ما يدلُّ على أن نفس النَّار دائمة بدوام الله لا انتهاء لها، وفرق بين أن يكون عذاب أهلها دائمًا بدوامها، وبين أن تكون هي أبديَّة لا انقطاع لها، فلا تستحيل ولا تضمحل.

٣ ـ الإجماع، قال ابن القيِّم: وإنَّما يظن الإجماع في المسألة من لم يعرف النزاع، وقد عرف النزاع فيها قديمًا وحديثًا، كيف وقد نقل عن الصحابة والتابعين التصريح بخلاف ما يدَّعون[1]؟

ثالثًا: بعد هذا كله مال ابن القيِّم إلى التفويض في المسألة إلى مشيئة الله:

فلا جزْم بفناء النَّار، كما لا جزْم بدوامها. قال في «شفاء العليل»: «وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين عليٍّ؛ فإنَّه ذكر دخول أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النَّار النَّار، ووصف ذلك أحسن صفة، ثمَّ قال: ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء.

(١) حادي الأرواح صـ ٣٦١، ٣٦٢، نشر مطبعة المدني، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وعلى مذهب ابن عبَّاس حيث يقول: لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنَّة ولا نارًا. ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨][١].

وعلى مذهب أبي سعيد الخُدْرِي حيث يقول: انتهى القرآن كلُّه إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هو: ١٠٧][٢].

وعلى مذهب قتادة حيث يقول: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]: الله أعلم بِثُنْياه علامَ وقعت[٣]؟

وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول: أخبرنا الله بالَّذي يشاء لأهل الجنَّة فقال: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]، ولم يخبرنا بالَّذي يشاء لأهل النَّار[٤].

والقول بأنَّ النَّار وعذابها دائمان بـدوام الله: خبر عن الله بما يفعله، فإن لم يكن مطابقًا لخبره عن نفسه بذلك، كان قولًا عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك»[٥] انتهى.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾

أي لا يجد هؤلاء الطاغون في جهنَّم الَّتي أرصدها الله لهم: بردًا لقلوبهم، ولا غذاء يتغذُّون به، أو شرابًا يروي ما يشعرون به من حرق يكوي أكبادهم. فهذا برد ينفعهم، بخلاف الزمهرير، فهو برد يؤذيهم، فلا ينفعهم.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥٥٧/٩).

(٢) المصدر السابق (٥٨١/١٢).

(٣) المصدر السابق (٥٧٩/١٢).

(٤) المصدر السابق (٥٨٢/١٢، ٥٨٣).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء صـ ٢٦٤.

QaradawiBooks.com

وقال بعضهم: البَرْد في الآية: النَّوْم؛ لأنَّ النَّوم استقرارٌ وهدوء يبرد فيه الجسم، أي: يهدأ ويرتاح. وهو قول أبي عُبَيْدة وغيره. قال الشاعر:

وإِن شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سَوَاكُمُو وَإِنْ شِئْتِ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدًا[1]

النُّقَاخ: الماء العذب. والبَرْد: النوم. والعرب تقول: منع البَرْدُ البَرْدَ، بمعنى: أذهب البردُ النَّومَ.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾

الحميم: الماء الحارُّ. قال أبو عُبَيْدَة: وقال النحاس: أصل الحميم الماء الحارُّ[2]. ومنه اشتُقَّ الحَمَّام. ومنه: الحُمَّى. ومنه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]، إنَّما يراد به النهاية في الحر.

والغَسَّاق: صديدُ أهل النَّار وقيحُهُم. والعياذ بالله.

فلم يجدوا في جهنَّم أي رَوْح أو راحة، خلال هذه المدَّة.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾

أي: جُوزوا بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم، فالوفاق بمعنى الموافق، كالقتال بمعنى المقاتلة، و﴿جَزَآءً﴾: نُصب على المصدر، أي: جازيناهم جزاءً وافَقَ أعمالَهم. أي: هذا الَّذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وَفْق أعمالهم الفاسدة، الَّتي كانوا يعملونها في الدُّنْيا.

---

(١) البيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان العَرْجي، كما في الحيوان للجاحظ (١٦/٥)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، وانظر: ديوان العرجي برواية ابن جني صـ ١٠٩، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، نشر الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة، ط١، ١٩٥٦م.

(٢) معاني القرآن للنحاس (٩٠/٥)، تحقيق محمد علي الصابوني، نشر جامعة أم القرى، مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

QaradawiBooks.com

قال مُقاتِـل: وافق العـذابُ الذنـبَ، فلا ذنبَ أعظم من الشِّـرك، ولا عذابَ أعظم من النَّار[١].

وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيِّئة، فأتاهم الله بما يسوؤهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾

أي: إنَّ هـؤلاء الكَفَـرة الطاغيـن المتجاوزين للحـدود لم يكونوا يتوقعون أن يحاسـبهم الله على ما فعلوا، فإنَّهم لم يكونوا يعتقدون بعد الدُّنيا دارًا أخـرى، يحيون فيها بعد مماتهم، ويجـزون فيها بما عملوا، ويحاسبون على ما قالوا، وما نوَوْا وما فعلوا. فمن كان لا يؤمن بالآخرة، ولقاء الله فيها، كيف يرجو حسابًا، وما بعد الحساب من ثواب وعقاب؟!

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾

أي: كذبوا بما جاءت به رسـل الله، وبما أنزلنا مـن الكتب، وكانوا يكذبون الله ودلائله على خلقه، الَّتي أنزلها على رسله، والَّتي غرسها في فِطر عبـاده، وجعلها ثابتة في عقولهـم الَّتي في رؤوسـهم، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة والمعـاداة، ومعنـى ﴿كِذَّابًا﴾، أي: تكذيبًا، وهو مصدر من غير الفعل، قال الفراء: هي لغة يَمَانِيَة فصيحة، يقولون: كذَّبْتُ به كِذَّابًا، وخَرَّقْتُ القميص خِرَّاقًا، وكل فِعْل فـي وزن «فَعَّل» فمصدرُه فِعَّال مُشدَّد في لُغَتهم. هكذا نقل القرطبي[٢].

(١) انظر: تفسير مقاتل (٣٥٨/٣)، تحقيق عبد الله محمود شحاته، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨١/١٩)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

وقرئ: (كِذابًا) بتخفيف الذال[١]. وقد قالوا: التخفيف والتشديد جميعًا لقول الأعشى:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ[٢]!

وأقرَّه الزمخشري في «الكشَّاف» قال: وهو مثل: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، يعني: وكَذَّبُوا بآياتنا، فكَذَبُوا كِذَابًا[٣].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾

أي: قد علمنا كلَّ شيء من أعمال العباد كلِّها، وكتبناها عليهم، كتابة دقَّة وإحصاء، لا يفوتها شيء وإن صغر وقلَّ، وسيجزيهم على ذلك إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

فهذه كتابةٌ صدرت عن الملائكة الموكَّلين بالعباد، بأمر الله تعالى إيَّاهم بالكتابة والتَّسجيل لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

---

(١) وهي قراءة الكسائي، انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٣٩٧/٢)، تحقيق علي محمد الضباع، نشر المطبعة التجارية الكبرى.

(٢) انظر: مجاز القرآن لأبي عُبَيدة (٢٨٣/٢)، تحقيق محمد فواد سزكين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١هـ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (١٥٦/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري (٦٨٩/٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

أي يقـول الواحـد القهار ﷻ لأهل النَّـار بعد كفرهم بالحسـاب، وتكذيبهم بالآيـات، مخاطبًا لهم ومهدِّدًا ومتوعدًا: تَحَسَّسـوا وقاسـوا العذاب فلن نضاعفكم ونزيـد إليكم إلَّا عقوبة وتنكيـلًا. أي: كلما مرَّ العذاب عليهم، ازداد شـدَّة وقوَّة، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، فهم في مزيد من العذاب أبدًا.

قال ابن كثير: يقال لأهل النَّار: «ذوقـوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلَّا عذابًا من جنسه، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨].

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النَّار آيةٌ أشدُّ من هذه الآيـة: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا»[1]. اللَّهمَّ أعِذْنا من النَّار.

جزاء المتَّقين

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۞ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

بعد أن حدَّثنا الله عن الأشقياء، الَّذين اسْتَحقُّوا عقوبةَ النَّار بتكذيبهم وعدوانهم، وِفاقًا لأعمالهم، يحدثنا الله بعد ذلك عن السعداء من عباده، وما أعدَّ لهم ﷻ من الكرامة والسعادة والرضوان والنعيم المقيم.

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٧/٨).

QaradawiBooks.com

فحدَّثنا سبحانه عن «المتَّقين» الَّذين أعدَّ لهم جنَّات عرضُها السماوات والأرض، والَّذين نجَّاهم من النَّار، والَّذين جعل الله لهم من أمرهم يسرًا، وكفَّر عنهم سيئاتهم وأعظم لهم أجرهم، إلى آخر ما مدحهم به في القرآن الكريم.

هؤلاء المتَّقون أخبرنا الله في كتابه أن لهم ﴿مَفَازًا﴾، أي: موضع فوز وظفر ونجاة وخلاص ممَّا فيه أهل النَّار. ولذلك قيل للفلاة إذا قلَّ ماؤها: مفازة؛ تفاؤلًا بالخلاص منها. وقد بيَّن لنا القرآن متى يحقق الإنسان الفوز، فقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾

ثم شرح القرآن الكريم حقيقة هذا المفاز ومشتملاته، فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، والحدائق: جمع حديقة، وهي البستان المحُوط عليه من النَّخيل والأشجار وغيرها. يقال: أحدق به، أي: أحاط. ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ جمع عنب، أي: كروم أعناب، فحذف. وهي جزء من هذه الحدائق، ولكن خصَّه بالذكر لأهميَّته، كأنَّه وحده، ليس جزءًا من هذه الحدائق.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾

كواعب: جمع كاعب، وهي المرأة النَّاهد. أي: هنَّ نواهد، يعني: أنَّ أثْداءهن نواهد، لم يتدلين؛ لأنهنَّ أبكارٌ عُرُب أتراب. كما قال تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، والأتراب: الأقران المتشابهات ممَّن كنَّ في

QaradawiBooks.com

سنٍّ واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٨]، وقال الضحاك: الكواعب: العذارى. ومنه قول قَيْسِ بْنِ عَاصِم:

وكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةٍ وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ مُعْصِرِ[1]!

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

الكأس: هو الإناء الَّذي يشرب فيه الخمر، وهي من شراب الجنَّة، الَّذي ليس فيه غَوْل، كما قال القرآن: ﴿مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

والدهاق: المملوءة، المُتْرَعة؛ لأنَّ الخمر عندهم كانت عزيزة، فلا يكيل الحانوتي للشارب إلَّا بمقدار، فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسرَّ للشارب، ولهذا تميَّزت كأس الجنَّة بأنَّها دِهاقٌ، أي: ممتلئة. ومنه قول الشاعر:

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقَا[2]

وقيل أيضًا: دِهاقًا، أي: متتابعة يتبع بعضها بعضًا، واستدلُّوا لذلك بما ردَّدوا من الشِّعْر[3]:

لَأَنْتِ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْبًا مِنَ الصَّادِي إِلَى كَأْسٍ دِهَاقِ

---

(١) انظر: النكت والعيون للماوردي (١٨٨/٦)، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) من شعر خداش بن زهير، كما ذكر القرطبي في تفسيره (١٨٣/١٩).

(٣) ذكره من غير نسبة القرطبي في تفسيره (١٨٣/١٩).

QaradawiBooks.com

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾

ممَّا منَّ الله به على المتَّقين من أهل الجنَّة من نعيم: أنَّ الله هيَّأ لهم فيها الحياة الطيبة، ممَّا يؤْكل ويشرب ويستظل به، وينظر إلى يَنْعه، وكذلك نزهَّ أسماعهم من أن يسمعوا فيها اللغو والكذب، ممَّا لا يحبون أن يقولوه ولا أن يسمعوه.

ولذلك وصف الله المؤمنين في الدُّنيا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [القصص: ٥٥]، فلا عجب أن يكافئهم الله في دار ثوابه بمنع ما يكدر عليهم صفاءهم من الكلام الَّذي لا فائدة منه، أو الكلام الكاذب، لهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ أي: باطلًا، وهو ما يُلقى من الكلام ويطرح، ومنه الحديث: «**إذا قلتَ لصاحبِكَ: أنصتْ، والإمامُ يخطبُ يومَ الجمعةِ؛ فقد لغوتَ**»[1]، وذلك أنَّ أهل الجنَّة إذا شربوا من الكأس الدهاق لم تتغيَّر عقولهم، ولم ينطقوا بلغو ولا باطل، بخلاف أهل الدنيا.

﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، أي: لا يَكْذِب بعضُهم بعضًا، ولا يسمعون كذبًا.

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا﴾

أي: هذا الَّذي ذكرنا من نعيم الجنَّة، جزاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومنه وإحسانه ورحمته، لا يخاف أحد عنده ظلمًا ولا هضمًا، وقد جعل هذا الجزاء هنا ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، الَّذي يملك أمرك، ويربيك ويرعاك، ويرفعك في مدارج الكمال، ويغمرك بإحسانه، وفضله على الدوام.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي: أعطاهم الله تعالى من عنـده عطاءً من المعطي الَّـذي لا يبخل، والغنـي الَّـذي لا يفتقـر، والكريم الَّذي لا يسـتقل ولا يستكثر ما يمنح.

ومعنى ﴿حِسَابًا﴾ أي: كافيًا وافرًا شاملًا كثيرًا، تقول العرب: أعطاني فأحسبني. أي: جعلني أقول: حسبي. ومنه حسبي الله. أي: الله كافي.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عظمة الله وكبرياؤه

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ۞ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾

قُرِئَ بخفض كلمة ﴿رَّبِّ﴾ كما هي قراءتنا الشهيرة حفص عن عاصم، على أنَّها نعت لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، وقرأ الآخرون: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ)[1]، على أنَّه خبر، أي: هو ربُّ السماوات. فهو سبحانه الَّذي خلق هذه السماوات والأرض وما بينهما، وهو الَّذي يملكها ويحفظها ويرعاها ويدبِّرها ويسيِّرها على أحسن نظام، بما فيها من نجوم وشموس وأقمار، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١]، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۞ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

هذا الربُّ العظيم لهذه المخلوقات الكبيرة، الَّتي قال الله فيها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] هو الرحمن، أي: ذو الرحمة الواسعة، الَّتي وسعت جميعَ خلقه، ورزقت المؤمن والكافر، وأنعمت على البر والفاجر، وأطلعت على الجميع شمسها وقمرها، وأنزلت عليهم أمطارها، وأطعمتهم من نباتها وأشجارها، وجعلت منها متاعًا لهم ولأنعامهم.

هذا الربُّ الرحمن، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، أي: لا يملكون أن يسألوه إلَّا فيما أذن لهم فيه. وقال الكسائي: لا يملكون منه خطابًا

(١) انظر: الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (٦/١٦٤، ١٦٥)، تحقيق بدر الدين قهوجي، نشر دار المأمون للتراث، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

بالشفاعة إلَّا بإذنه[1]. كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقيل: أراد الكفَّار خاصة، فهم الَّذين لا يملكون منه خطابًا، حيث لا تجوز لهم الشفاعة لأحدٍ، وكيف يشفع من هو من أهل النَّار واستحقاق العذاب؟ فأما المؤمنون فيشفعون، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة، من غاية العظمة والكبرياء، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه.

والضمير في ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، لأهل السماوات والأرض، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، خطابًا ما، في شيء ما، والمراد: نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء من نقص العذاب، أو زيادة الثواب، من غير إذنه على أبلغ وجه وآكده، وكيف وليس في أيديهم ممَّا يخاطب الله به ويأمر به، في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد، فيتصرفون فيه تصرف الملاك، فيزيدون فيه أو ينقصون منه؟

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾

من هو الروح المذكور في الآية الكريمة؟ اختلف المفسرون فيه اختلافات شتى.

والذي يلوح لي: أنَّ الروح هو جبريل، أمين الوحي الَّذي نزل بالقرآن على محمَّد ﷺ، وقد سمَّاه الله تعالى في كتابه الروح الأمين، كما

(١) تفسير القرطبي (١٨٦/١٩).

QaradawiBooks.com

قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]. وهو المذكور في سورة القدر، حيث قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وهو المذكور في هذه الآية.

فمن أوصاف يوم القيامة ويوم الفصل ويوم الحساب للخلائق جميعًا: أن يقوم فيه جبريل ملك الوحي، وحامل القرآن أعظم كتب الله، إلى أعظم رسل الله محمَّد ﷺ، والَّذي وصفه الله في كتابه، في سورة التكوير بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

يقوم جبريل والملائكة الكرام معه، وهم جنود الله في السماوات والأرض، لا يعلمهم إلَّا الله، وقد اصطفوا مع جبريل عليه السلام، صامتين لا يتكلَّمون إلَّا من أذن له الرحمن وقال صوابًا، أي: يتكلمون بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن لهم الرحمن بالكلام. وفي هذا اليوم لا يتكلَّم أحد إلَّا بإذنه.

والشرط الثاني: أن يقول صوابًا. أي: سدادًا من القول، مثل أن يشفع لمن يستحق الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا يرتضي الشفاعة لمن أشرك به، فقد قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

فهؤلاء المقرَّبون من الله تعالى: الروح والملائكة، لا يقدرون أن يتكلَّموا إلَّا بإذن الله وقول الصواب، فكيف بالآخرين؟ إنَّه يوم عظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٦].

QaradawiBooks.com

الاستعداد ليوم القيامة والتخويف من عذاب الله القريب

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۞ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًۢا﴾

ذكر ذلك إشـــارة إلى يوم قيامهم على الوجـــه المذكور، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد المشـــار إليه، للإيذان بعلـــو درجته، وبعْد منزلته في العلـــو والفخامة، واليوم الحق هو الكائـــن المتحقِّق الثابت، لا محالة ولا ريب فيه، من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه.

إذا كان الأمر كما ذكـــر من تحقُّق هذا اليوم، فمـــن أعطاه الله تعالى مشـــيئة ينفذ بها، فليتَّخذ له مرجعًا وطريقًا يهتـــدي إليه، ومنهجًا يمرُّ به عليه، إلى ثواب ربِّه، الَّذي ذكر شأنه العظيم.

فعل ذلك بالإيمان به والطاعة له والعمل الصَّالح، كأنَّه إذا عمل خيرًا ردَّه إلى الله تعالى، وإذا عمل شـــرًّا عـــدَّه منه، وينظر إلـــى هذا المعنى قوله ﷺ: «**الخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[1].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًۢا﴾

الإنذار: التَّخويف بالخطر قبـــل وقوعه، وأعظم الخطر: ما أعدَّه الله من عذاب لمن كفروا به، وكذَّبوا رســـلَه، وجحدوا ما توعَّدهم به من عذاب الآخرة.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

والخطابُ في ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، لجميع العالم، وإن كانت المخاطبة لمن حضر النبي ﷺ، من الكفار.

ووصف العذاب بالقرب لتحقق وقوعه، وأنَّه آتٍ ولا بدَّ، وكل آتٍ قريب، والجميع داخل في النذارة منه، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

يقول ابن عاشور: «قُرْب العذاب مستعملٌ مجازًا في تحقُّقه، وإلَّا فإنَّه بحسَب العرف بعيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، أي لتحقُّقه فهو كالقريب.

على أنَّ العذاب يَصْدُق بعذاب الآخرة، وهو ما تقدَّم الإنذار به، ويصدُق بعذاب الدُّنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك. وعن مقاتل: هو قتل قريش ببدرٍ[(١)]. ويشمل عذاب يوم الفتح ويوم حُنَيْن، كما ورد لفظ العذاب لذلك في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]»[(٢)].

والأظهر: أنَّه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة وما وراءها من أهوال؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، ولأن من مات قامت قيامته. فإن كان من أهل الجنَّة رأى مقعده من الجنَّة، وإن كان من أهل النَّار لقي الخزي والهوان. ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٨/١٩)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٣٦٦/٥)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٦/٣٠).

QaradawiBooks.com

يبيِّن الله تعالى وقت ذلك العذاب، أي: ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في ذلك اليوم، وهو ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يرى كل ما عمله من خير أو شر.

وقيل: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ هنا: المؤمن. في قول الحسن[1]. أي: يجد لنفسه عملًا؛ فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملًا، فيتمنَّى أن يكون ترابًا. ولما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾، علم أنَّه أراد ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ المؤمن.

والأوْلى أن يكون ذلك عامًّا في كل مكلف، يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب. كما سنرى استعمال مثله في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥]. فهو يشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾

يتمنَّى في ذلك اليوم الهائل أن لو كان في الدنيا، أي: ظل ترابًا في هذا اليوم، فلم يخلق، أو لم يكلف! فلم يبعث إذ قامت!

* * *

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥٤/٢٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سورة النَّازعات

مقاصد السورة:

السُّورة مكيَّة، ولها مقاصد يعرفها من قرأها بتدبُّر كما أمر الله.

مقدِّمتها القسم بالنازعات وما يتبعها، وجواب القسم محذوف أو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ثمَّ تقرير البعث بقوله تعالى: ﴿يقولون أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، ثمَّ التذكير بقصة موسى وفرعون، وبها عبرة لمن يخشى.

وبعد ذلك التَّساؤل عمَّا خلق سبحانه من السماء والأرض وما فيهما وما بينهما: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، وما بعدها إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

يأتي بعدها حديثٌ عن القيامة وما فيها: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وفيها ينقسم النَّاس إلى أهل النَّار وأهل الجنة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

وتنتهي السورة بخاتمة، كما بدأت بمقدِّمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، إلى آخر السورة.

QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۞ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۞ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۞ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۞ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۞ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾

السور الخمس المفتتحة بالقسم بالمخلوقات:

هذه رابع سورة في القرآن الكريم من سور خمس، تفتتح بهذا القسم بمخلوقات لها أوصاف تميز من اتصف بها، وإن لم تعرفهم في الغالب تعريفًا دقيقًا يتفق النَّاس عليه.

كل ما يميِّز هذه السورة أنَّها كلها مكيَّة، وأنَّها كلها مبدوءة بهذا القسم، وأنَّها جميعًا تقسم بالمخلوقات، كما هو شأن الله تبارك وتعالى الَّذي من حقه وحده أن يقسم بما شاء من عباده، ليلفت عقولنا وقلوبنا إليه.

هذه السُّور بدأت بسورة الصافات: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۞ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۞ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ [الآيات: ١ ـ ٤].

والثانية: سورة الذاريات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۞ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ [الذاريات: ١ ـ ٥].

والثالثة: سورة المرسلات: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۞ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۞ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۞ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧].

والرابعة: هي سورتنا، سورة النازعات: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ إلى آخره.

QaradawiBooks.com

والخامسة: سورة العاديات: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ١ ـ ٦].

فهذه هي السُّور الخمس الَّتي جاء بها القرآن الكريم، ونحن الآن أمام واحدة منها، وهي الرابعة في ترتيب سور القرآن: النازعات.

ما المراد بالنازعات؟

قد اختُلف في تعيينها وتحديدها مفسرو السلف؛ فمنهم من قال: إنَّها الملائكة. يعنون: حين تنزع أرواح البشر، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من أنشوطة وعقال.

قال الإمام الرَّازي في تفسيره الكبير: «اعلمْ أنَّ هذه الكلمات الخمس، يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد، ويحتمل ألَّا تكون كذلك؛ أمَّا على الاحتمال الأول، فقد ذكروا في الآية وجوهًا: أحدها: أنَّها بأسرها صفات الملائكة، فقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، هي: الملائكة الَّذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفس الكفَّار نزعوها بشدة. وهو مأخوذ من قولهم: نزع في القوس فأغرق. يقال: أغرق النازع في القوس، إذا بلغ غاية المدى، حتَّى ينتهي إلى النصل. فتقدير الآية: والنازعات إغراقًا. والغرق والإغراق في اللُّغة بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، النَّشط: هو الجذْب، يقال: نشطت الدلو أنشطها وأنشطتها نشطًا: نزعتها برفق، والمراد هي: الملائكة الَّتي تنشط روح المؤمن فتقبضها، وإنَّما خصصنا هذا بالمؤمن، والأوَّل بالكافر؛ لما بين النزع والنشط من الفرق، فالنزع جذْب بشدة، والنشط جذب برفق

QaradawiBooks.com

ولين، فالملائكة تنشط أرواح المؤمنين، كما تنشط الدلو من البئر، فالحاصل أن قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، قسم بملك الموت وأعوانه، إلَّا أنَّ الأوَّل إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفَّار، والثاني: إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين.

السابحات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟

أمَّا قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، فمنهم من خصصه أيضًا بملائكة قبض الأرواح، ومنهم من حمله على سائر طوائف الملائكة.

أمَّا الوجه الأول: فنقل عن علي وابن عبَّاس رضي الله عنهما، وعن مسروق رحمه الله: أنَّ الملائكة يسُلُّون أرواح المؤمنين سلًّا رفيقًا. فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، ثمَّ يتركونها حتَّى تستريح رويدًا، ثمَّ يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة، كالذي يسبح في الماء، فإنَّه يتحرك برفق ولطافة؛ لئلا يغرق، فكذا هاهنا يرفقون في ذلك الاستخراج، لئلا يصل إليه ألمٌ وشدة، فذاك هو المراد من قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾.

وأمَّا الَّذين حملوه على سائر طوائف الملائكة، فقالوا: إنَّ الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، فجعل نزولهم من السماء كالسباحة. والعرب تقول للفرس الجواد: إنَّه السابح.

السابقات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟

وأمَّا قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فمنهم من فسره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح الكفَّار إلى النَّار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنَّة، ومنهم من فسره بسائر طوائف الملائكة».

QaradawiBooks.com

وجوه السبق للملائكة الكرام:

«ثم ذكروا في هذا السبق وجوهًا:

أحدها: قال مجاهد وأبو روْق: إنَّ الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة[١]. ولا شكَّ أنَّ المسابقة في الخيرات درجة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

وثانيها: قال الفراء والزجاج: إنَّ الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء؛ لأنَّ الشياطين كانت تسترق السمع[٢].

وثالثها: ويحتمل أن يكون المراد: أنَّه تعالى وصفهم ـ أي الملائكة ـ فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، يعني قبل الإذن لا يتحرَّكون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال الله تعالى، وخوفًا من هيبته، وهاهنا وصفهم بالسبْق يعني إذا جاءهم الأمر، فإنَّهم يتسارعون إلى امتثاله، ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾».

الملائكة المدبرات والحكمة من قوله: (فالمدبرات أمرًا) لا (فالمدبرات أمورًا)

«وأمَّا قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، فأجمعوا على أنَّهم هم الملائكة.

وهنا سؤال: لِم قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ولم يقل: أمورًا. فإنَّهم يدبرون أمورًا كثيرة، لا أمرًا واحدًا؟

والجواب: أنَّ المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩٣/١٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢٧٨/٥)، تحقيق عبد الجليل شلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

وســؤال ثان: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمــران: ١٥٤]، فكيف أثبت لهم هاهنا تدبير الأمر؟

والجواب: لما كان ذلك الإتيان به، كان الأمر كأنَّه له، فهذا تلخيص ما قاله المفسرون في هذا الباب»[١] اهـ.

التأويل بأنَّها النجوم:

«الوجه الثاني تأويل هذه الكلمات الخمس ـ في نظر الرَّازي ـ أنَّها النجوم. وهو قول الحســن البصــري[٢]، ووصف النجــوم بالنازعات يحتمل وجوهًا:

أحدها: كأنَّها تنزع من تحت الأرض، فتنجذب إلى ما فوق الأرض، فإذا كانت منزوعــة كانت ذوات نزع، فيصح أن يقــال: إنَّها نازعة، على قياس اللابن والتامر (أي: ذو اللبن وذو التمر).

وثانيها: أنَّ النازعات من قولهم: نزع إليه ـ أي ذهب ـ نزوعًا، هكذا قاله الواحدي[٣]، فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسَّوْق.

والثالث: أن يكون ذلك من قولهم: نزعت الخيل إذا جرت. فمعنى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، أي: والجاريات على السيْر المقدر، والحد المعين.

وقوله: ﴿غَرْقًا﴾، يحتمل وجهين:

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٢٨/٣١، ٢٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٥٨/٢٤).

(٣) التفسير البسيط للواحدي (١٥٨/٢٣)، نشــر عمادة البحث العلمي ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.

QaradawiBooks.com

أحدهما: أن يكون حالًا من النازعات، أي: هذه الكواكب كالغرقى في ذلك النزع والإرادة، وهو إشارة إلى كمال حالها في تلك الإرادة، فإن قيل: إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة، فما معنى وصفها بذلك؟

قلنا: هذا يكون على سبيل التَّشبيه، كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فإنَّ الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء، ثمَّ إنَّه ذكر في الكواكب على سبيل التشبيه.

والثاني: أن يكون معنى غرقها: غيبوبتها في أفق الغرب، فالنازعات إشارة إلى طلوعها، وغرْقًا إشارة إلى غروبها، أي: تنزع، ثمَّ تغرق إغراقًا، وهذا الوجه ذكره قوم من المُفَسِّرين.

أمَّا قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، فقال صاحب الكشاف: معناه أنَّها تخرج من برج إلى برج[1]. من قولك: ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد.

وأقول (الفخر الرازي): يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، إشارة إلى حركتها اليومية، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج، وهو حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة، والعجب أن حركاتها اليومية قسرية، وحركتها من برج إلى برج ليست قسرية، بل ملائمة لذواتها، فلا جرم، عبر عن الأوَّل بالنزع، وعن الثاني بالنشط، فتأمل أيُّها المسكين في هذه الأسرار.

وأمَّا قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾، فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله: هي النجوم تسبح في الفلك؛ لأن مرورها في الجو كالسبح، ولهذا قال: ﴿كل فِي فلكٍ يسْبحون﴾ [الأنبياء: ٣٣].

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٦٩٣/٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأمَّا قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، فقال الحسن وأبو عبيدة: هي النجوم يسبق بعضها بعضا في السير، بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض، أو بسبب رجوعها أو استقامتها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، ففيه وجهان:

أحدهما: أنَّ بسبب سيْرها وحركتها يتميَّز بعض الأوقات عن بعض، فتظهر أوقات العبادات على ما قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]؛ ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة، ويختلف بسبب اختلافها أحوال النَّاس في المعاش، فلا جرم أضيفت إليها هذه التدبيرات.

والثاني: أنَّه لما ثبت بالدليل، أن كل جسم محْدث، ثبت أنَّ الكواكب محْدثة مفتقرة إلى موجِد يوجدها، وإلى صانع يخلقها. ثمَّ بعد هذا لو قدرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثرة في أحوال هذا العالم، فهذا يطعن في الدين البتة. وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضًا، لكنا نقول: إنَّ الله ﷻ أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سببًا لحدوث حادث مخصوص في هذا العالم، كما جعل الأكل سببًا للشبع، والشرب سببًا للري، ومماسة النَّار سببًا للاحتراق، فالقول بهذا المذهب لا يضرُّ الإسلام البتَّة بوجه من الوجوه، والله أعلم بحقيقة الحال»[1].

(١) تفسير الرازي (٣٠/٣١، ٣١).

QaradawiBooks.com

الكلمات الخمس صفات لأشياء مختلفة:

والاحتمال الثاني الَّذي ذكره الإمام الرَّازي وغيره من المُفَسِّرين: أنَّ الكلمات الخمس الَّتي أقسم الله بها، ليست لشيء واحد، كما ذهب التأويل الأول، بل هي لأشياء مختلفة.

منهم من قال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: هي القِسِيُّ ـ جمع قوس ـ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾: هي الأوهاق[1]. ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: هي السفن. و﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: الخيل، و﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾: الملائكة.

وعن مجاهد: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: هي الموت. وإضافة النزع وما بعده إليه، على أنَّه مجاز، بمعنى أنَّها حصلت عند حصوله. وأمَّا ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ و﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾: فهي الملائكة[2].

وقال قتادة: الجميع هي النجوم، إلَّا ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾، فإنَّها هي الملائكة[3].

والَّذي نرجِّحه: أنَّ الكلمات الخمسة المُقْسم بها صفات لشيءٍ واحد، بدليل وجود العطف بالفاء بينها، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۞ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، فهذا العطف يقتضي أنَّها سلسلة، يتبع بعضها بعضًا، ويؤثر بعضها في بعض، وليست أشياء متباينة متغايرة.

وما أبلغ ما قاله الإمام الرَّازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنَّ الوجوه المنقولة عن المُفَسِّرين غير منقولة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم، حتَّى لا يمكن الزيادة عليها، بل إنَّما ذكروها لكون اللفظ محتملًا لها»[4].

---

(١) جمع وهق: وهو الحبل تربط فيه الدابة.

(٢) رواه وكيع في الزهد (٤٣).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٦٥/٢٤).

(٤) تفسير الفخر الرازي (٣٢/٣١).

QaradawiBooks.com

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۞ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾

أين جواب القسم؟

الكلمات الخمس السابقة الَّتي أقسم الله بها، أين جواب القسم فيها، هل هو محذوف أو مذكور؟

بعضهم قال: إنَّه محذوف، والتقدير: لتبعثن أو لتحاسبن، أو لتجْزون، والدليل عليه أنَّه تعالى حكى عنهم قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، أي: أنبْعث وننشر إذا كنا عظامًا نخرة؟!

وهناك من قال: إنَّ الجواب المضمر هو: أنَّ القيامة واقعة؛ وذلك لأنَّه ﷻ قال في مثل هذا القسم: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ۞ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ۞ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ۞ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ١ ـ ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ۞ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ۞ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۞ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ۞ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ۞ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧]، فكذلك هنا، فإن القرآن كالسورة الواحدة.

والقول الثاني: إن جواب القسم مذكور، وهو قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۞ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾، والتقدير: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾، وما بعدها من المقسم عليها: إنَّه يوم ترجف الراجفة، تحصل منها قلوب واجفة، وأبصارها خاشعة، كأنَّه تعالى قال: لترجفن قلوب يوم كذا. ولما دلت القلوب على أصحابها، ذكر بعد ذلك أبصارها وخشوعها وذلها، وما يظهر منها من الهم بالحال.

وقال ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، هي

QaradawiBooks.com

النفختان الأولى والثانية[1]. ومعه غير واحد من مفسري السلف. أمَّا الأولى ـ وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ـ فهي كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]. والثانية ـ وهي الرادفة ـ فهي كقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

ما المراد بالراجفة:

الواقعة الَّتي ترجف عندها الأجرام الساكنة. أي: تتحرك حركة شديدة، وتزلزل زلزلة عظيمة، كالأرض والجبال. وقيل: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾، الأرض والجبال نفسها.

والرجف هو: الحركة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وكذلك الرجف هو: الهدَّة المنكرة، والصوت الهائل. من قولهم: رجف الرعد، يرجف رجفًا ورجيفًا، وذلك تردُّد أصواته المنكرة، وهَدْهَدَتُه في السحاب. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، فعلى هذا الوجه ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: صيحة عظيمة فيها هول وشدَّة، كالرعد.

وأمَّا ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾، فكل شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفه، أي: جاء بعده.

القلوب المضطربة الخائفة:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ القلوب الواجفة، هي المضْطربة الخائفة. يقال: وجف قلبه، يجف وجْفًا ووجوفًا: إذا اضْطرب، ومنه إيجاف الدابة وحملها على السير الشديد.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦٥/٢٤).

QaradawiBooks.com

وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير «واجفة»، ومعناها واحد. قالوا: خائفة، وجِلة، زائلة عن أماكنها، قلقة، مستوفزة، شديدة الاضطراب، غير ساكنة.

الأبصار الذليلة المنكسرة:

وصف الله سبحانه أبصار أصحاب القلوب الواجفة بالخشوع، فقال: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة لهول ما ترى، فهو كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

غير مرخصة للبيع
نسخة مجانية

المنكرون للبعث وسهولته عليه سبحانه

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۞ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۞ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾

حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، المُكذِّبون بالآيات الناطقة به، إثر بيان وقوعِه بطريق التوكيد القسمي، وذكر مقدماته الهائلة، وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار.

أي: يقول هؤلاء المُكذِّبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [هود: ٧]، قالوا منكرين متعجِّبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أوَّل الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

يقال: رجع فلانٌ في حافرته، وعلى حافرته، أي: رجع من حيث جاء. وأنشد ابن الأعرابي:

أحافرة على صَلَعٍ وشَيْبِ؟! مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وطَيْشِ[1]

يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصِّبا، بعد أن شبت وصلعت؟!

ويقال: رجع على حافرته، أي: الطريق الَّذي جاء منه.

(١) انظر: إصلاح المنطق لابن السكيت صـ ٢١٢، تحقيق محمد مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، ط١ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م. غير أن فيه: سفه وعار.

QaradawiBooks.com

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾

أي: بالية ومُفتَّتة، وهـو تأكيد لإنكار الردِّ ونفيه، بنسـبته إلى حالة منافية له، أي: أئذا كنا عظامًا بالية، نُرَدُّ ونُبْعَث، مع كونها أبعد شيء عن الحياة؟

وفسَّـر ابنُ عبَّاس نخَر العظام: إذا بلي ودخلـت الريح فيه. وقرئ: ﴿نَّخِرَةً﴾[1][2]، وكلاهما يؤدي المعنى.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

أي: رجعة خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنة، أن نرجع أحياء بعد الموت. والكرَّة: الرجوع. وقيل: خاسـرة، أي: ذات خسران، أو: خاسرة أصحابها. والكلام هنا حكاية لكفر آخر لهم، متفرع على كفرهم السابق. ولعلَّ توسيط ﴿قَالُوا۟﴾ بينهما؛ للإيذان بأنَّ صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرّ صدوره عنهم في كلِّ أوقاتهم، حسَـبما يَنْبني عنه حكايته بصيغة «المضـارع». أي: قالوا بطريق الاستهزاء، مشيرين إلى ما أنكروه من الردِّ في الحافرة، مشعرين بغاية بعدها من الوقوع: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

---

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وروح وزيد عن يعقوب: ﴿عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ بغير ألـف، وقرأ عاصم في رواية أبي بكـر، وحمزة، ورويس عن يعقوب، وخلف ﴿عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ بالألف.

واختلف عن الكسـائي: فروى أبو عمر الدوري وحمدون عنه ﴿نَاخِرَةً﴾ و﴿نَّخِرَةً﴾ بالألف وغير الألف، لا يبالي كيف قرأ. وروى أبو حمـدون وأبو الحارث عنه ﴿ناخرة﴾ بالألف، وروى قتيبة ونصير ﴿نَّخِرَةً﴾ بغير ألف. المبسوط في القراءات للنيسابوري صـ ٤٦٠، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.

(٢) تفسير الطبري (٧٢/٢٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

ذكر الله تعالى سهولة البعث عليه، فأخبرهم أنَّها صيحة واحدة، أو نفخة في الصور، ينفخها الملك المكلَّف، فإذا النَّاس قد بعثوا من الأجداث، إلى ربهم ينسلون. ﴿فَإِذَا هُم﴾، أي: الخلائق جميعًا من كل الأجناس والألوان والأديان، صاروا على الأرض، ووجهها الأعلى المُسمَّى بـ «الساهرة». أي: صاروا على وجهها بعد أن كانوا في بطنها أمواتًا.

قال الفراء: سُمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّ فيها نوم الحيوان وسهره[1]. والعرب تُسمِّي الفلاة ووَجْه الأرض سَاهِرَة، بمعنى: ذات سَهَر؛ لأنَّها يُسْهَرُ فيها خوفًا منها، فوصفها بصفة فيها.

وهي أرض غير الأرض السابقة، لم تعمل عليها خطيئة، ولم يهرق عليها دم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

(١) فتح القدير للشوكاني (٤٥٣/٥)، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.

QaradawiBooks.com

حديث موسى عليه السلام

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۞ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۞ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۞ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۞ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۞ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۞ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾

انتقل القرآن إلى موضوع جديد لـه صلة بتقوية قلب النبي ﷺ، لما يلقاه من إنكار قومه وتكذيبهم، ليلقي إليه نبأ بعض المرسلين الكبار من قبله، ليجد في سيرتهم، وما لقوه، ما ينزل في قلبه السكينة والثقة بنصر الله تعالى وتأييده.

وقد جاء بهذه الصيغة الَّتي تكررت فـي القرآن، بمثل: ﴿**هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ**﴾ [الغاشية: ١]. وهنا يقول الله تعالى لرسوله محمَّد خاتم رسله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، تشويقٌ له ليستمع إلى هذا الحديث، ويأخذ منه العظة والعبرة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ولعل هذه الآيات هي أوَّل ما أنزله الله على محمَّد في قصَّة موسى، فلم يكن أتاه قبلها من نبئها ما يعرف حقيقتها، وإن اعتبر أنَّه أتاه هذا الحديث قبل ذلك، اقتضى ذلك حمله عليه السلام على أن يقرَّ بأمر يعرفه قبل ذلك، كأنَّه قيل: أليس قد أتاك حديثه؟ أي: قد جاءك وبلغك حديثه. وهذا تسلية للرسول الكريم. أي: إن فرعون كان أقوى من كفار بلدك وعصرك، ثمَّ أخذناه أخذًا أليمًا شديدًا، وكذلك هؤلاء.

QaradawiBooks.com

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

بدأ القرآن يقصُّ على النبيِّ ﷺ طرفًا يسيرًا من قصَّة موسى، ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، حين كلمه ربه سبحانه بلا واسطة بين موسى وبينه، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. والوادي: ما كان بين جبلين. والمُقدَّس: المُطهَّر. وطُوى: اسم لهذا الوادي، على الصحيح، كما يقول ابن كثير[١].

فهو تعالى يخبر عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ، عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، الَّذي بعثه إلى فرعون، وأيَّده الله بالمعجزات، ومع هذا استمرَّ على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة من خالفك، وكذلك يفعل الله به، ولهذا قال تعالى في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

كان من النداء الَّذي ناداه ربه: أمره بالذهاب رسولًا من الله إلى فرعون. وفرعون: لقب لملوك مصر في ذلك الزمن، كان كلُّ حاكمٍ فيها يُسمَّى «فرعون»، كما كان كل حاكم لفارس يُسمَّى «كِسْرى»، وكل حاكم للرومان يُسمَّى «قَيْصَر»، وكل حاكم للحبشة يُسمَّى «النَّجَاشي»، وكل حاكم لليمن يُسمَّى «تُبَّعًا». والقرآن يعامل اسم فرعون، كما يعامل العلم المفرد، كأنَّه اسم لشخص.

(١) تفسير ابن كثير (٣١٥/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لماذا أرسل الله موسى إلى فرعون؟

نادى الله تعالى موسى عليه السلام، وقال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. لماذا أرسل الله موسى إلى فرعون؟ القرآن ذكر سببًا واحدًا استحقَّ به أن يرسل موسى إليه، هو: الطغيان ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

والطغيان: هو مجاوزة الحد. وفرعون قد تجاوز كلَّ حدٍّ في عبوديته لله وحده، وفي اعتدائه على خلق الله، فاستكبر عن عبادة الله، وادَّعى أنَّه إلٰه الناس، وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، واستكبر على خلق الله، وعلا في الأرض، واستضعف طائفةً من أهل مصر، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]. ولهذا تضمَّنت المسألة أمرين أساسيَيْن:

الأمر الأول: تحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون الحديديَّة، وإعادتهم كما خلقهم الله، وكما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

والأمر الثاني: الخضوع لله، والاعتراف بربوبيته وإلٰهيته، وسلطانه على خلقه، وطرح الاستكبار على الله، كما قال في سورة الدخان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۞ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ١٩].

موقف القرآن من الطغيان:

القرآن يعتبر الطغيان شرًّا مستطيرًا، ويربِّي المسلم على أن يرفضه في نفسه، ويقاومه في غيره، ويعد انتشاره فسادًا عظيمًا، يوجب سخط الله تعالى ونقمته في الدُّنيا والآخرة. يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [الليل: ٦، ٧]، وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، وقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]، دعوة إلى الوسطيَّة بين الطغيان في الميزان، والإخسار في الميزان.

وذم الله كثيرًا من الكفَّار والمشركين بأنَّه تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

ويجعل القرآن الطغيان وراء كل الشرور والمصائب: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، ويصف شرار الأمم السابقة، الَّتي نزل بها عذاب الله من عاد وثمود وفرعون بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

ويُذكِّر الله تعالى النَّاس بيوم القيامة، ومواقفهم فيه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

ومن الطغيان اشتُقَّ اسم **الطاغوت**، وهو اسم للأصنام، وكل ما يعظم ويطاع طاعة مطلقة، من دون الله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فلا عجب أن يقول الله لواحدٍ من أولي العزم من الرسل، موسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

أمر الله تبارك وتعالى عبدَه ورسولَه موسى: أن يكون رفيقًا ورقيقًا في دعوته لفرعون، فيأخذه بالرفق لا بالعنف، وباللين لا بالشدة، كما جاء في سورة «طه» حين خاطب الله موسى وأخاه هارون معه، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾، أي: لفرعون، ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

QaradawiBooks.com

ومن هذا القول الليِّن المأمور به، جـاء هذا القول: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أمره الله أن يخاطبَه بأسـلوب الاسـتفهام، الَّذي معناه العرض، ليستدعيه بالتلطُّف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوه. والمعنى: هل لك رغبة وتوجُّه إلى أن تزكِّي نفسك؟

والتَّزكِّي كلمة صغيرة في اللفظ كبيرة في المعنى، فهي في العربيَّة تعني عنصرين: الأول: الطهارة. والثاني: النماء. تعنـي التخلية والتحلية، يتخلى عن الرذائل، ويتحلى بالفضائل. ومما ربطه الله بها الفلاح، وهو السلامة من الشر والمكروه، والحصول على الخير والمحبوب. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشـمس: ٧ ـ ١٠]، وقال تعالـى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال سحرة فرعون في أهل الجنة: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

وأحيانًا يـراد بكلمة زكا وأزكى ونحوها: النمـاء فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولا ريـب أن أوَّل التَّزكي هو: التوحيد، والتطهر من دنس الكفر والشرك بالله.

لا تكون الخشية إلَّا بعد معرفته تعالى:

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

بعد أن عرض عليه أن يتطهَّر ويتنمَّى، فيكوِّن شخصيته المؤمنة قال لـه: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، أي: وأرشـدك إلـى معرفته سـبحانه، فتخشى، فيدخل قلبه خشيته والخوف من عذابه ﷻ. إذ الخشية لا تكون إلَّا بعد معرفتـه تعالى، كمـا قـال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

QaradawiBooks.com

[فاطر: ٢٨]، فدلَّت الآية الكريمة على أنَّ معرفة الله مقدَّمة على طاعته؛ لأنَّه ذكر الهداية، وجعل الخشية مؤخَّرة عنها ومفرعة عليها، ونظيره قوله تعالى في أوَّل سورة النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وفي طه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]. فالخشية ملاك الخيرات؛ لأن من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، وفي الحديث: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومن أَدْلجَ**[1] **بلغ المَنْزِلَ**»[2].

الآية الكبرى: العصا واليد:

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾

ذهب موسى إلى فرعون، كما أمره الله، فأطلعه وبصَّره عِيانًا الآية الكبرى، الأعظم ممَّا سواها، وهي الدليل القاطع الَّذي يستوجب اليقين. والمراد بها: مجموع ما آتاه الله من الآيتين الظاهرتين: العصا واليد. كما ذكر ذلك في سورة طه، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣].

رأى العصا يلقيها موسى من يده، فتنقلب حيَّة تسعى، أو ثعبانًا مبينًا، ويخرج يده من جَيْبه، فتراها بيضاء من غير سوء، من غير برص ولا مرض. وهنا قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، ودعا بالسحرة وحدث ما حدث. وقال موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

---

(١) إذا سار من أول الليل.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب. والحاكم في الرقائق (٣٠٧/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٣٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تكذيب فرعون وعصيانه:

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾

الفاء للترتيب والتعقيب، فهي تدلُّ على سرعة تكذيب فرعون لموسى، لأنَّه كذب بدلالة ذلك المُعجِز على صدقه، حيث زعم أنَّه ليس بأمر مُعجِز، وأنَّه ليس إلَّا نوعًا من السحر، وأن عنده مثل موسى كثيرون، يمكن أن يأتي بهم، ويتحدى بهم موسى.

وكان مع تكذيبه لموسى عصيانٌ لربه، الَّذي بعثه إليه. ولذا قال: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، أي: فكذَّب بالحق، وخالف ما أمره ربه من الطاعة، وحاصله: أنَّه كفر بقلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به حق، لا يلزم منه أنَّه مؤمن به؛ لأنَّ المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق، والخضوع له.

امتناع فرعون عن الإيمان بإصرارٍ وسعيه في الأرض فسادًا:

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾

وبعد فترة من الزمن، تدلُّ عليه كلمة ﴿ثُمَّ﴾، أدبر فرعون عن الإيمان، أو انصرف عن المجلس، وإدبارُه في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات، وإدباره يدلُّ على أنَّه كان مرعوبًا، حينما رأى ثعبان موسى، ومع هذا مشى بسرعة، وهو يمنِّي النفس، ليقف في وجه موسى.

جَمْعُ فرعون السحرة والجند وادِّعاؤه الربوبيَّة:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

حشر: أي: جمع. ومعناه: أنَّه جمع السحرة من أنحاء البلاد في مصر

QaradawiBooks.com

كلها، الوجه القبلي والوجه البحري، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]، ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، ومعنى: كيده، أي: ما كاد به من السحرة وآلاتهم، وما يحيط بهم من جنود وتجمع شعبي.

وبعد أن حشرهم وجمعهم، أسرع فنادى في قومه، أو في الجمع نفسه، أو بواسطة المنادي: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، هكذا يعلن فرعون في قومه: أنَّه الرب الأعلى! وما دلالة ربوبيته لقومه؟ هل هو الَّذي خلقهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا؟ هل هو الَّذي رزقهم منذ كانوا أجنَّة في بطون أمهاتهم؟ هل هو الَّذي يطعمهم من جوع؟ هل هو الَّذي يؤمِّنهم من خوف؟ هل هو الَّذي أوجد لهم السمع والأبصار والأفئدة؟ هل هو الَّذي علَّمهم البيان؟ هل هو الَّذي أنشأ السماء الَّتي تظلهم وأنشأ الأرض الَّتي تقلُّهم؟ أو خلق النيل الَّذي يسقيهم؟ بأي حق يدَّعي الربوبية عليهم؟ وليست مجرد الربوبيَّة، بل الربوبيَّة العليا، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

قد يسمح لهم أن يكون لهم أرباب صغرى، يصنعونها أو تصنع لهم، ولكن المهم أن يكون هو الرب الأعلى الأكبر والأعظم.

ما أعظم غرور فرعون! أي رب هذا، وهو لا يستطيع أن يتحرر من بعوض يقرصه، أو ذباب يغدو على طعامه، أو مرض ينزل به في رأسه أو في بطنه؟ بل هو أسير بوله وبرازه.

ومن قبل قال فرعون لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

QaradawiBooks.com

عقوبة فرعون عقوبة شديدة جعلته عبرة في الدُّنيا والآخرة:

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

العطف بالفاء دلالة على أن عقوبة الله ﷻ كانت له بالمرصاد، فسرعان ما أخذه أخذًا أليمًا شديدًا، كما يأخذ الظالمين أبدًا. كما جاء في حديث أبي موسى: «**إنَّ الله ليملي للظالم، حتَّى إذا أخذه لم يفْلته**»، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

والمعنى: أنَّ الله تعالى انتقم من هذا المتجبِّر انتقامًا جعله به عبرةً ونكالًا لأمثاله من المتمرِّدين والمتألِّهين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]. وقال ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤٠، ٤١].

قال ابن كثير: «وهذا هو الصحيح في معنى الآية: أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: الدُّنيا والآخرة»[(٢)].

فالنَّكال بمعنى التَّنكيل، كالسلام بمعنى التَّسليم. وهو التَّعذيب الَّذي ينكِّل من رآه أو سمعه، ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه. وهو منصوب على أنَّه مصدر، كقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦)، ومسلم في الآداب والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

(٢) تفسير ابن كثير (٣١٥/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾

يذكر القرآن قصص الرُّسل وأقوامهم، وقصص المؤمنين والكافرين، ليتَّخذ النَّاس منها عبرًا وعظاتٍ، ولهذا جمع في القرآن قصص آدم ونوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين والمؤتفكات، وذكر لنا قصَّة موسى وفرعون، وقصة المسيح وأمه، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة مؤمن سورة يس، ومؤمني أصحاب الأخدود، ومؤمني الكهف، والمؤمنين من أصحاب محمَّد وغيرهم، ليكون لنا فيهم الهداية والعبرة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

قال الرازي: «والمعنى: أنَّ فيما قصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحلَّه الله بفرعون من الخزي، ورزقَ موسى من العلوِّ والنصر، عبرةً لمن يخشى. وذلك أن يدع التَّمرُّد على الله تعالى، والتَّكذيب لأوليائه، خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلمًا بأنَّ الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذِّبين بمحمَّد بما ذكرناه. أي: اعلموا أنَّكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم»[1] اهـ.

(١) تفسير الرازي (٤٢/٣١).

QaradawiBooks.com

توبيخ المنكرين للبعث وذكر الأدلَّة المشاهدة على وقوعه

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۞ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۞ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

من قدر على خلق السماء ـ مع عظمها ـ أقدر على بعث الإنسان:

نقلة جديدة يلتفت فيها القرآن بعد خطاب الرسول، إلى خطاب أهل مكَّة ومن حولها من العرب المنكرين للبعث، بناء على صعوبته ـ بل استحالته ـ في زعمهم، بطريقِ التوبيخِ والتبكيتِ، يستدلُّ لهم وينبههم إلى أمر يعلم بالمشاهدة، وهو أن خلق الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء ـ على عظمها وعظم أحوالها ـ يسير. فيبيِّن تعالى أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدورًا لله، فكيف ينكرون ذلك؟ ولذا قال الله تعالى مُحتجًّا عليهم: أأنتم أيُّها النَّاس أشدُّ خلقًا أم السماء؟ لا شك أنَّ السماء أشدُّ خلقًا منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. فالآية تعني: السماء أشد خلقًا؛ لأنَّ الله تعالى ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

ونحن نعلم الآن ممَّا علمه لنا علم الفلك الحديث، أنَّ الأرض كلها بما فيها من الجنس الإنساني وما يسكنها معه، من جنّ وحيوان وطير

QaradawiBooks.com

وزواحف وحشرات، وأحياء مائيَّة ونباتيَّة، تعد فصائلها بالألوف وعشرات الألوف، هذه الأرض وما عليها من البشـــر، الَّذين أصبحوا يملكون من وســـائل العلم ما يملكون، ممَّا علَّمهم الله تعالى ما لم يكونوا يعلمون.. هذه الأرض جزء صغير من المجموعة الشمسية، الَّتي هي جزء صغير في مجرَّتنا الَّتي نعيش فيها، والَّتي يُسمُّونها «سكَّة التَّبَّانة»، أي: السكَّة الَّتي يســـير فيها الَّذين يحملون التبن على رواحلهـــم أو بغالهم أو حميرهم، وتنتشر منه حُفَيْنات أو ذرَّات تملأ الطريق، ممَّا يرى أثره، وتشمُّ رائحته. وكذلك نرى في هذه السكَّة النجوم الَّتي لا حصر لها.

وهذه المَجرَّة واحدة مـــن المَجرَّات العظمى، الَّتـــي يمتلئ بها هذا الكـــون الكبير الَّذي خلقـــه الله تعالى ودبَّره وأشـــرف عليه، وهو تحت سيطرته وأمره، وهو بكلِّ شيء عليم، وعلى كلِّ شيء قدير، ونحن نقول في صلواتنا إذا قمنا من الركوع: «**ربَّنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئتَ من شيءٍ بعد**»[1].

ذكر القرآن لنا هنا: أنَّ الله بنى هذه السماء، أي: رفعها فوقكم مُشيَّدة كالبناء، كما قال تعالـــى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى في ســـورة البقرة حين أمر الجميع بعبادته سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقـــرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبيـــاء: ٣٢]، وقال سبحانه في سورة النبأ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢].

وقد فسَّر تعالى بناءه لهذه الســـماء، فقال: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: رفع سقفها في الهواء. يقال: سمكت الشيء، أي: رفعته في الهواء،

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، عن ابن أبي أوفى.

QaradawiBooks.com

وسمك الشيءُ سمكًا وسـموكًا: ارتفع، ومعنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: خلقها خلقًا مستويًا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

قال الرازي: «قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عام، فلا يجوز تخصيصه بالتَّسوية في بعض الأشياء، ثمَّ قال: هذا يدلُّ على كون السماء كرة؛ لأنَّه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحًا، والبعض زاوية، والبعض خطًّا، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التَّسوية الحقيقة حاصلة، فوجب أن يكون كرَّة حتَّى تكون التَّسوية الحقيقية حاصلة»[1].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾

أي: جعله مظلمًا لا ضياء فيه، يقال: غطش الليل، وأغطشه الله، كما يقال: ظلم الليل، وأظلمه الله، ومعناه: أنَّ العتمة الحاصلة في ذلك الزمان ما بين الغروب والفجر، إنَّما حصلت بتدبير الله تعالى.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾

أي: أبرز نهارها لظهور شمسها، عبَّر عنه بالضحى، لأنَّه أشرف أوقات النهار وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخر ذكره عن ذكر الليل، وعبر عن إحداثه بالإخراج، فإنَّ إضافة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام، وأكمل في الإحسان.

(١) تفسير الرازي (٣١/٤٥).

QaradawiBooks.com

وإضافة الليل والضحى إلى السماء؛ لدوران حدوثهما على حركتها، ولأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس تضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأن ظهورها بالليل. ومن المقرر: أنَّ الليل والنهار، إنَّما يحدثان بغروب الشمس وطلوعها.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾

أي: بسطها ومدَّها وجعلها صالحة لسكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها.

ولأهل اللُّغة في هذه اللفظة طريقتان يقال: دحوت أدحو، ودحيت أدحي. ويقال: أصل الدحو أو الدحي: الإزالة للشيء من مكان إلى مكان.

وهذا يدلُّ على أنَّ دحو الأرض أو دحيها بعد خلق السماء، ولكن خلق الأرض كان قبل خلق السماء، كما دلت على ذلك بوضوح آيات سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

ولذا قال العلَّامة ابن كثير: «وقد تقدم في سورة (حم السجدة) ـ وهو اسم آخر لسورة فصلت ـ أنَّ الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنَّما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنَّه أخرج ما كان فيها بالقوَّة إلى الفعل، قال: وهذا معنى قول ابن عبَّاس وغير واحد، واختاره ابن جرير»[1] اهـ.

(١) تفسير ابن كثير (٣١٦/٨)، وانظر: تفسير الطبري (٩٤/٢٤).

QaradawiBooks.com

وقد فسَّـر القرآن الكريم كلمة ﴿دَحَىٰهَآ﴾ هنا بقوله بعدها: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾، فبعد البسـط والتمهيد لا بدَّ من تسـوية أمر المعاش من المأكل والمشرب حتما، فأخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، ووضع في قلبها الميـاه الدفينة في باطن الأرض، كما أخـرج المرعى، أي: النبات الَّذي ترعاه الحيوانات والأنعام، الَّتي تحتاجون إليها من الإبل والبقر والغنم.

«قال القتبي: دلَّ بشـيئين علـى جميع ما أخرجه مـن الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام، من العشب والشجر، والحب والثمر، والعصف والحطب واللباس، والنار والملح، لأنَّ النَّار من العيدان، والملح من الماء»[(١)].

ولكن كيف يقـول: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا﴾، والمعروف: أنَّ الماء ينزل من السـماء إلى الأرض، كما دلت على ذلك آيـات كثيرة: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]؟

والجواب: أنَّ هذا الماء النازل من جهة السماء، أو من السحاب، إنَّما هو في الواقع أصله مـن الأرض، ومن بحـار الأرض ومحيطاتها على مسـاحات واسـعة هائلة، ولكنَّه متبخر بفعل الشـمس، حسب السنن الإلٰهية، فتصعد إلى جهة السـماء، أي: إلى السـحب مـن فوق، ووفق قوانين أجراها الله تعالى أنزله إلى الأرض، ليحييها بعد موتها، ويسـقيه أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا. وقد عرف العرب ذلك، فقال شاعرهم في ممدوحه:

كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضـل عليه لأنَّه مـن مائه[(٢)]

(١) تفسير القرطبي (٢٠٥/١٩). والقتبي هو ابن قتيبة. وانظر كلامه في تأويل مشكل القرآن صـ ١٢، تحقيق إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) من شعر عبد الله الأسطرلابي، كما في معجم الأدباء (٢٧٧١/٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

ويقول شاعر آخر أقدم منه عن السحاب:

شربن بماء البحر ثمَّ ترفعت متى لجج خضْر لهن نئيج[1]

ويقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾

ومن تتمة دحو الأرض الَّتي أتمَّهـا الله على الأرض: أنَّه أكمل ذلك فأرسـاها بالجبال، حتَّى لا تميد وتضْطرب بأهلها، أي: إنَّه قرَّرها وثبَّتها وأكَّدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم.

قال تعالـى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وكرَّر المعنى نفسه في سورة لقمان [الآية: ١٠].

لماذا كان هذا الإرسـاء والترسـيخ للجبال، وإخـراج ماء الأرض ومرعاها، وهل ينتفع الله منها بشيء؟!

لا والله، إنَّه غني عن العالمين، وعـن كل ما خلق، ولكنَّه خلق هذه الأشياء وأنعم بها من أجل البشر من عباده، ولهذا قال ﷻ: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

أي: دحا الأرض، فأنبع عيونها، وأظهـر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشـجارها وثمارها، وثبَّت جبالها، لتستقرَّ بأهلها ويقرَّ

(١) من شعر أبي ذؤيب الهذلي. انظر: ديوان الهذليين (٥٢/١)، نشر الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م. و(متى) هنا: عند هذيل حرف جر بمعنى (من) أو (في) أو (اسم بمعنى وسط).

QaradawiBooks.com

قرارها، كل ذلك إنَّما فعله سبحانه متاعًا لكم أيُّها الخلق المحتاجون إليه، وإلى نعمه، أنتم وأنعامكم الَّتي تخدمكم وهي صحيحة، وتأكلونها وهي ذبيحة، وهي تعطيكم من ألبانها وجلودها، وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين.

وكثيرًا ما يذكرنا القرآن بهذه الحقيقة، وهي أنَّه سبحانه يخلق لنا من أشيائه ونعمه، من النباتات والزروع والحيوانات البريَّة والأحياء المائيَّة، ما نحتاج إليه وأنعامنا، كما قال في سورة (عبس) بعد هذه السورة: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٣٢].

وأحيانًا يقدم الأنعام على الناس؛ لكثرة انتفاعهم بما خرج من الأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، فانظر كيف قدَّم أنعام النَّاس عليهم في هذا السياق، حيث يأكلون من الزرع أضعاف ما يأكل الإنسان منه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أحداث يوم القيامة

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۞ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾

كما تبيَّن أنَّه سبحانه القادر الَّذي لا يعتريه عجز، فهو الَّذي ينشر الأموات من قبورهم، وهو الَّذي خلق الأكوان جميعًا ولم تكن شيئًا، تبيَّن صدق ما جاء به نبيه محمَّد من العقائد الصحيحة، ومنها: اليوم الآخر، الَّذي يبعث النَّاس فيه إلى ربهم، ويجزون بما عملوا، ومن هنا نبَّه على ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

أسماء يوم القيامة ودلالتها:

يختار القرآن الكريم للقيامة أسماء يراعي فيها صيغتها اللفظية، وحروفها، ووقعها على السمع، لتعبِّر عن الهول الشديد والأحداث الجسام الَّتي تقع في هذا اليوم، ولتحدث الخوف والرعب في نفس الإنسان، فهو يسمي القيامة هنا: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، ويسمِّيها في سورة عبس القادمة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، ويسمِّيها قبل ذلك: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، حروف من حروف التفخيم، فيها المد الكلمي المشدد: (الحاقَّة، الطامَّة، الصاخَّة)، كلٌّ له شدة وقْعه على سمع الإنسان وقلبه.

فقوله هنا: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، أي: الداهية العظمى، الَّتي تطم على سائر الطامات، أي: تعلوها وتغلبها، وهي الساعة أو القيامة أو النفخة الثانية في

QaradawiBooks.com

الصور، الَّتي يخرج النَّاس بها من الأجداث كأنَّهم جراد منتشر، وهو اليوم الَّذي يساق فيه الخلائق إلى محشرهم وحسابهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٤ ـ ٦].

ما هي الطَّامَّة؟ وما حقيقتها؟

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾

إنَّها يوم يُواجَه الإنسان بعمله، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، يتذكر كل واحد ما قام به من عمل، من خير أو شر، من طاعة أو معصية، من عدل أو ظلم.

وهو سيجد عمله أمامه، يشاهده في صحيفة أعماله، الَّتي كتبها الكاتبون طول عمره، له أو عليه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

سيُقال لكلِّ إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

سيجد كل امرئ عمله أمامه يشاهده بنفسه، يراه بعيني رأسه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وكل هذه الآيات تؤكِّد بقوة وجلاء: أنَّ الإنسان في الآخرة يرى عمله الَّذي عمله، وسعيَه الَّذي سعاه، وقولَه الَّذي قاله، يراه بنفسه، لا يرى جزاءه ولا ثوابه ولا عقابه فقط، فهذا تأويل للآيات لا يقبل.

ونحن نشاهد الآن: أنَّ الإنسان يمكنه أن يواجه بقوله وعمله مسجَّلًا، يراه بعينيه، ويسمع صوته بأذنيه، عن طريق عرض الأشرطة المسجَّلة عليه، فلا يستبعد على الله جلَّ وعلا: أن يسجل على الإنسان أقواله وأعماله؛ ليراها ويشاهدها ويسمعها ويعاينها بنفسه، لتكونَ شاهدًا له أو عليه. ويجب أن نأخذ آيات القرآن بظاهرها الناطق بمضمونها، ولا نؤولها ونخرجها عن ظاهرها، اتِّباعًا لفلسفات شاعت في زمن من الأزمان، كقولهم: إنَّ الأقوال والأعمال، إنَّما هي أعراض، والعرض لا يبقى زمانين. فهذه تحتاج إلى إثبات يقيني لها، وليس عندنا ذلك اليقين، فلهذا تبقى الأشياء على ما هي عليه.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾

الجحيم: اسم من أسماء النَّار الَّتي يعذب الله بها من كفر به وعصى رسلَه، مثل: السعير ولظَى وسقر، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، برزت هذه الجحيم وأظهرت إظهارًا بيِّنًا لا يخفى على أحد، لكل من له عينان يرى بهما، لا يستطيع مكابر أن ينكرها.

وبروز الجحيم المسعَّرة الظاهرة لكل من يبصر ويشاهد، مشهد ترتعد له القلوب، وترتجف له الأبدان، وتذهل منه العقول، وهو ممَّا يستعاذ بالله من شره.

QaradawiBooks.com

مصير أهل الجحيم ومأواهم، ومن هم؟

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

هكذا ينقسم النَّاس في الآخرة قسمين، وَفْقًا لعقائدهم وأعمالهم في الدنيا: قسم أهل الشـقاء، وهم أهل النَّار والجحيم، وقسم أهل السعادة، وهم أهل الجنَّة والنعيم. وهكذا بدأ هنا بالأشقياء وانتهى بالسعداء، وفي أماكن كثيرة كان العكس حسب السياق.

وقد رأيناه في سـورة النبأ بدأ بالطاغين: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وانتهى بالمتَّقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١].

وفي سورة عبس يبدأ ويقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، ثمَّ يقـول: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤٢].

وفي سـورة الانفطار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطـار: ١٣، ١٤]. وهكذا تمضي سور القرآن بين الوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، والتخويف والترجية.

ومن المُفَسِّـرين من لا يعتبر قوله تعالـى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ إلخ، هو جـواب لقولـه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، ولكنَّه يقـول: إنَّ الجواب محذوف، دلَّ عليه المذكور، والجواب الَّذي تسـتدعيه فخامة التنزيل، ويقتضيه مقام التهويل، أنَّ الجواب المحذوف يكون من عظائم الشؤون، ما لم تشاهده العيون[1].

(١) تفسير أبي السعود (١٠٤/٩).

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، أي: من عَتَا وتمرَّد على الطاعة، وتجاوز الحد في العصيان والانحراف والفساد.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾

أي: وجعل الدُّنيا عنده مقدَّمة على الآخرة، فهو يفضِّلها ويؤْثِرها لجهله وحماقته. وقد قال الصالحون: لو كانت الدُّنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى، لآثر العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والدنيا أقل وأهون من خزف، والآخرة أعظم وأغلى من ذهب؟!

قال بعض السلف: من اتَّخذ من طعام واحد ثلاثة أصناف فقد طغى[1]. أي: تجاوز الحد في مطعمه.

ولكن الطغيان الَّذي جعله الله إحدى خصلتين توجبان صلْي الجحيم، أكبر من هذا، ولا بد لنا من وقفة هنا لنتبين: بماذا ربط الله استحقاق الأوي في الجحيم، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؟

لقد ربطه الله تعالى بأمرين اثنين حدَّدهما القرآن هنا، وهما: الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: هي داره الَّتي يأوي إليها، ويستقر فيها.

فهل هاتان الخصلتان كافيتان لتوصيل المرء إلى سواء الجحيم، الَّتي يصلاها الأشقياء الَّذين استحقوا الخلود في هذا العذاب الَّذي ذكره القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۞ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۞ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٧].

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٧/١٩)، عن يحيى بن أبي كثير.

QaradawiBooks.com

نعم، إنهما أصلان كبيران من أصول الشـر والفساد: الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا. ولا بدَّ لنا من كلمة عن كل منهما، وموقف القرآن منهما.

ما الطغيان؟!

أمَّا الطغيـان، وهو مجـاوزة الحد، كمـا قال تعالـى: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: علا وأغرق، فإنَّ القرآن يعتبره أساس كل شر، وقد وصف الله به الأمم الَّتي أهلكها، وصبَّ عليها سَـوْط العذاب، مثل: عاد وثمود وفرعـون. فقـال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجـر: ١١، ١٢]. وهو يشـير إلى قضيَّة جـدّ مهمة، وهي ارتبـاط الطغيان بالفساد. وهو ما نلحظه ونشاهده باستمرار.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعـات: ١٧]، فيكفي أن يطغى فرعـون ويتجاوز الحد، ليرسـل الله له موسى، وقد قال تعالى في سـورة النبأ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

وقد ذكر لنا القرآن اعتراف (أصحاب الجنـة)، الَّذين ذكرهم القرآن في سـورة (ن)، الَّذيـن حرموا المسـاكين من ثمار جنتهم، وأقسـموا ليصْرمنها مصْبحين فـي الفجر، وألا يُمكِّنوا أحدًا مـن أهل الحاجة أن يأخذ حبة منها، فسـلَّط الله عليها آفةً سـماوية من عنـده، وهم نائمون، فأهلكها، وذكر الله عن هؤلاء أنَّهم قالوا: ﴿يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ﴾ [القلم: ٣١].

وكثيرًا ما يقرن القرآن الطغيان بالكفر، كما في قوله تعالى في الكفار: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، أي: بسبب طغيانها.

QaradawiBooks.com

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

وفي سورة الذاريات: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

وفي سورة الأعراف: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وفي سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وفي القرآن: يتلازم ذكر (العمه) مع الطغيان، دلالة على أثر الطغيان في تضليل العقول.

إيثار الحياة الدنيا:

الأمر الثاني الَّذي استحق به أهل الجحيم العذاب، هو إيثار الحياة الدنيا، فما معنى هذا؟ وما حقيقته؟

هناك حياتان للإنسان، **أولاهما**: الحياة الدنيا، **والثانية**: الحياة الآخرة، أو الباقية.

والحياة: ضد الموت، ومعناها العيش بكل ما يعنيه العيش، وهي الحياة الدنيا، اشتقت من الدنو، وله أكثر من معنى، كما يظهر في مقابله، فأحيانًا يقال في المذكر: أدنى، بمعنى: أهون وأحقر، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، فالحياة الدُّنيا هنا، أي: السفلى أو الهينة والحقيرة، ويقابلها الحياة العليا.

وأحيانًا يذكر أدنى بمعنى: أقل، ويقابله الأكثر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، ومن هنا قال

QaradawiBooks.com

القرآن: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وأحيانًا يذكر: أدنى بمعنى: أقرب، مثل: «**أدناك أدناك**»[١]، فالحياة الدُّنيا هي القريبة، والآخرة يعتبرونها بعيدة، وتسمَّى الدُّنيا بـ(الحياة العاجلة)، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

والحياة الدُّنيا الَّتي يحذر القرآن منها، ومن غرورها ومتاعها وفِتنها، تتَّصف بكل هذه الصفات الَّتي ذكرناها، فهي الحياة الهينة الحقيرة، والحياة القليلة الضئيلة، والحياة القريبة العاجلة.

والإسلام لا يرفض الحياة الدُّنيا بالكلية، فهي ضرورة للإنسان، ليقوم فيها بمعرفة الله وعبادته، وخلافته في أرضه، وعمارتها بما يحييها ويجملها، ويملأها بالحق والعدل، وهي ضرورة أيضًا ليعبر منها للآخرة، ويغرس فيها الخير لنفسه، وللناس من حوله، ليرضي ربه، وينفع النَّاس من حوله.

ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح ـ بمتاعها ولذَّاتها وشهواتها وإمكاناتها ـ إلٰهًا معبودًا للإنسان، يستحبه على الآخرة، ويفضله على ما يطلبه منه الحق، وما تبتغيه القيم، وما ينشده الناس، لهذا ذم الله قومًا بأنَّهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

ويركز القرآن الكريم في سوره وآياته المكية والمدنيَّة على التحرر من حب الدنيا، والاستغراق فيها، وأن يكون حب الله وحب الآخرة أهم وأرجح ميزانًا.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

انظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبَهم الإيمان، كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدَّدهم بما هدَّدهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۞ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

المهم أن ممَّا يريده الإسلام من المسلم: أن يحرِّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريدٍ للحياة الدنيا، بمعنى أن تكون إرادته خاضعة لها، اتخذها ربًّا، فاتخذته لها عبدًا، يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ويقول ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ليس المهم ـ إذن ـ أن تملك الدنيا، ولكن المهم جدًّا أن تريدها، يمكن أن تملك الدُّنيا في يدك، ولكن لا تجعلها في قلبك. المخوف على أهل الإيمان أن تكون الدُّنيا أكبر همِّهم، ومبلغ علمهم، ومنتهى أملهم، وغاية سعيهم، فإذا لم تكن كذلك، لا يهمنا أن تكون لهم، وأن ينتفعوا بها، ويستمتعوا بثمراتها، ولا حرج عليهم في ذلك ما داموا يستعملونها بشروطها وآدابها، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

QaradawiBooks.com

الممنوع هو (الإرادة) المتعلقة بالدنيا، التائقة لها، الحريصة عليها، المُؤْثِرة لها، لا تريد غيرها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]، فهذا هو المذموم: الَّذي لا يريد إلَّا الحياة الدُّنيا. وقد جاء في الحديث: «**اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا**»[(١)].

وقد يعبر القرآن عن ذلك بالإيثار، ومعناه: التقديم والتفضيل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وهو الأمر الَّذي نفسره في سورتنا، ومعنى إيثار الدنيا: أنَّها إذا اجتمعت هي والآخرة، قدم الدُّنيا على الآخرة، كما رأينا بعض النَّاس يضحي بالإيمان بمحمد رسول الله، من أجل الحفاظ على ملكه، كما في قصَّة هرقل ملك الروم[(٢)]، وكما في كثير من رجال مكَّة وزعمائها، الَّذين آثروا أن يبقوا على زعامتهم، وما ورثوه عن آبائهم على الإيمان بالإسلام.

وقد يعبر القرآن عن ذلك باستحباب الدُّنيا على الآخرة، كما في قوله تعالى في شأن الَّذين كفروا وأصروا على الكفر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٧].

ويعبر عنه أيضًا بالفرح بالدنيا، يعني: فرح الأشر والبطر، قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]، وذلك كفرح قارون بثروته.

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٤)، وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦)، عن ابن عمر.

(٢) إشارة إلى حديث هرقل الطويل، المتَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أكثر من ستين آية تحدثت عن الحياة الدنيا، ومتاعها وغرورها وزينتها، وتحذير النَّاس منها ومن ترفها وأعراضها، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال ﷻ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

مصير الخائفين من عظمة الله الناهين نفوسهم عن الهوى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

بيَّن الله تعالى في القِسم الماضي: مصير أهل الجحيم ومأواهم، ومن هم؟ وهنا يُبيِّن ﷻ مصير من يعاديهم ويخاصمهم، وهم أهل الجنَّة، فمن هم؟

وصفان استحقوا بهما دخول الجنة:

لقد عبَّر الله تعالى عنهم بوصفين أساسيين استحقُّوا بهما أن يأووا إلى الجنَّة، كما عبَّر عن أهل النَّار أيضًا بوصفين استحقُّوا بهما أيضًا أن يأووا إلى النَّار.

الوصف الأول: خوف مقام الرب:

أي: من حذر وخشي قيامه بين يدي سيده، وخالقه ومربيه ومالك أمره ﴿رَبِّهِۦ﴾، يوم الطامَّة الكبرى، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وخاف حكم الله فيه، يوم تنشر الدواوين، وتحكم الموازين.

QaradawiBooks.com

يعني: خوفه في الدُّنيا من ربه، عندما يواقــع الذنب، أو يقترب منه فيقلع، وكذلك عندما يراوده الشــيطان على ترك الطاعة، فهو لا يرتكب محظورًا، ولا يترك مأمورًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وهذا الخوف من صفات المُتَّقين، الَّذين يحبهم الله تعالى، كما قال ســبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنــون: ٥٧]، **ثمَّ قال:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والوصف الثاني لمن يستحق الجنة: نهي النفس عن الهوى:

الهوى هنا يقابل الحق، فهناك من يجعل نفسه مع الحق ومتطلَّباته، من الالتزام والبــذل والتضحية، وهناك من يجعل نفســه مــع ما تهواه وتشــتهيه وتميل إليه من متاع الحيــاة الدُّنيا وزخرفهــا، بحكم الجبلة البشــريَّة، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديــد: ٢٠]، وما ذكره في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

قواطع الطريق إلى الله تعالى:

وما أكثــر ما يحذِّرنا القرآن مــن قواطع الطريق إلــى الله تعالى، وأهمها وأقربها: اتباع هوى النفس الأمَّارة بالســوء، وهي التي قالت عنها امرأة العزيــز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

QaradawiBooks.com

هذه الجِبلَّة البشريَّة الَّتي طوَّعت لابن آدم الأوَّل أن يقتل أخاه فقتله، كما قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

وهي التي سوَّلت للسامري أن يتخذ العجْل، ويفتن به بني إسرائيل ليعبدوه، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه: ٩٦].

وهي التي سوَّلت لإخوة يوسف، وهم من سلالة الأنبياء أن يضعوا يوسف في الجب، ويكذبوا على أبيهم بأنَّه أكله الذئب: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ ﴾ [يوسف: ١٧، ١٨].

ولهذا حذَّر القرآن كثيرًا من اتباع هوى الأنفس، كما قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، وقال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

QaradawiBooks.com

والنُّصوص القرآنيَّة كثيرة توضِّح لنـا الخطر الكبير في اتِّباع هوى الأنفس، إذا لـم يلجمها لجـام التقـوى، وتقف متمـرِّدة على همز الشـيطان، واتِّباع خطواتـه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

بهذين الأمرين: خوف مقام الله ربِّ الناس، وزجْر النفس عن أهوائها وشـهواتها، تكون الجنَّة هي مأواه ونزله، الَّذي يـأوي إليه، ويأنس به، وينعم في ظله.

قال الإمام الرَّازي في تفسـيره الكبير: «ثم ذكر تعالى حال السُّعداء، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾. واعلمْ أنَّ هذين الوصفين مضادَّان للوصفين اللذَين وصف الله أهل النَّار بهما، فقولـه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعـات: ١٧]، وقولـه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾، ضـد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النازعات: ٣٨].

واعلمْ أنَّ الخوف من الله، لا بدَّ أن يكون مسـبوقًا بالعلم بالله، على ما قال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولما كان الخوف من الله هو السـبب المعين لدفع الهوى، لا جرم، قـدم العلة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميـع القبائح، دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات»[1].

(١) انظر: تفسير الرازي (٣١/٤٩، ٥٠).

QaradawiBooks.com

سؤال المشركين عن وقت يوم القيامة استهزاءً واستبعادًا

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾

أسلوب السؤال في القرآن:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾

أسلوب سائد في القرآن الكريم، بهذه الصيغة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، دون أن يذكر من هم السائلون، فالمسؤول هو الرسول الكريم المنزل عليه القرآن، والسياق هو الَّذي يحدد من هم، فأحيانًا يكون السائلون هم المسلمين، كما في أسئلة سورة البقرة المعروفة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ... وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ...﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١]، ونحو ذلك، فهذه أسئلة المسلمين لنبيهم يسألون عن أحكام دينهم، وقد تأتي بصيغة الفتوى، كما في قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦].

سؤال المشركين عن موعد ظهور القيامة:

وأحيانًا يكون السائلون هم المشركين، ومنها الأسئلة عن الساعة، كما جاء ذلك في عدد من سور القرآن المكيَّة، كما في هذه السورة،

QaradawiBooks.com

وسـورة الأعـراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعـراف: ١٨٧]، والمدنيَّـة، كما في سـورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وكأنه يقول هنا: يسألك المشركون عمَّا سألوك عنه دائمًا، وهو موعد ظهور القيامة، ومن أسـمائها: ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: السـاعة العظمى، والساعة الفاصلة، الَّتي ينتظرها العالمون، وقد سـألها مشركو مكَّة استهزاء، كما جاء عن ابن عباس[1]. يسألك هؤلاء عن السـاعة، أي: عن زمانها الَّذي تقوم فيه؛ لأن ﴿أَيَّانَ﴾، اسـم زمان، فهم يقولون: متى إرسـاؤها؟ أي: إقامتها وتثبيتها. كما يقال: أرسـى الجبل، أي: أقامه وثبته، يقولون: متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها؟

أو يكون المعنى: عن زمان منتهى الساعة ومستقرها، كما أنَّ مرسى السفينة حيث تنتهي إليه، وتستقر فيه.

والمشركون كانوا قد سمعوا عن السـاعة والقيامة في القرآن الكريم وسمعوا: أنَّها الطامَّة والصاخَّة والحاقَّة والقارعة، فقالوا مستهزئين: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؟ فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنَّه لا أصل لذلك، ويحتمل أنَّهم كانوا يسألون الرسـول عن وقت القيامة استعجالًا منهم، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾

إنـكار ورد لسـؤال المشـركين عنهـا، أي: في أي شـيء أنت

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤١٣/٨)، لابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضعف إسناده.

QaradawiBooks.com

يا محمد؟ وهو معنى: ﴿فِيمَ﴾، أن تذكر لهم وقتها، وتُعلِمهم به، حتى يسألونك عن بيانها! كقوله تعالى في مقام آخر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ما أنت من ذكراها لهم، وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك فرع علمك به، وأنى لك ذلك؟ وهو ممَّا استأثر الله تعالى بعلمه، وهو علام الغيوب.

ويجوز أن يكون إنكارًا على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنت من ذلك حتَّى يسألوك بيانه، ولست ممَّن يعلمه. والذكرى بمعنى الذكر.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾

أي: منتهى علمها عنده وحده، فلا يوجد عند غيره إذْ لم يؤْتِه تعالى أحدًا من خلقه، وهو كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله في آخر لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقْمان: ٣٤]، وهي من مفاتيح الغيب الخمسة الَّتي صحَّ بها الحديث[1]، ولهذا لما سأل جبريل الرسول مُحمَّدًا ﷺ عن الساعة قال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل**»[2].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾

إنَّما يبعثك الله للإنذار والتَّخويف للجميع، وللتبشير أيضًا، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وإنَّما اكتفى بالإنذار هنا لاقتضاء المقام، كما قال

(١) رواه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٩)، عن ابن عمر.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تعالـــى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هـــود: ١٢]، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

والمعنى هنا: أنَّ وظيفتك هـــو امتثال ما أمِرت به، من بيان اقترابها، كما في قوله تعالـــى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمـــر: ١]، ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبيـــاء: ١]، ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وعليك تفصيل ما فيها من فنون الأهوال، كما تحيط به خبرًا، لا تعيين وقتها الَّذي لم يفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمَّا ليس من وظائفك بيانه؟!

إنَّك إنَّما بعثت للإنذار بوجوب الســـاعة، واقترابها من الناس، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام الساعة، «بل لو أنصفنا لقلنا ـ ما قال الرَّازي ـ بأنَّ الإنذار والتَّخويف إنَّما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام الساعة حاصلًا»[1].

الحكمة من تخصيص الإنذار بمن يخشى؟

ثمَّ إنَّه ﷺ منـــذر للجميع بحكم رســـالته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، إلَّا أنَّه خصَّ الإنذار بمن يخشـــى؛ لأنَّه هو الَّذي يتأثَّر بالإنذار وينتفع به، وإن كان منذرًا لكل مكلف، وهو كقولـــه تعالـــى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يس: ١١]، وكقوله تعالـــى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، مع قوله في آية أخرى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ لأنَّ المتَّقين هم الَّذين سيستنيرون بنوره، ويحسنون فهمه واتباعه.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٥١/٣١).

QaradawiBooks.com

فهو تعالى يقول لرسوله: إنَّما بعثتك لتنذر النَّاس وتحذِّرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾

أي: أنَّهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، ورأوا الساعة الَّتي كانوا يسألون عنها، حاضرة، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى إنَّها كانت عندهم قدر عشيَّة من يوم، أو ضحى من يوم. والمعنى: أن ما أنكروه سيرونه، حتَّى كأنَّهم أبدًا فيه، وكأنهم لم يلبثوا في الدُّنيا إلَّا ساعة من نهار، ثمَّ مضت.

والمراد: تقليل مدة الدنيا، فالعشيَّة: ما بين الظهر إلى غروب الشمس. والضحى: ما بين طلوع الشمس إلى منتصف النهار. وفي آية في آخر سورة الأحقاف: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال الفراء: يقول القائل: وهل للعشيَّة ضحى؟ وإنَّما الضحى لصدر النهار، ولكن أضيف الضحى إلى العشيَّة ـ وهو اليوم الَّذي يكون فيه ـ على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها[1]. فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أوَّل النهار[2].

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢٣٤/٣)، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، نشر دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١.

(٢) تفسير القرطبي (٢١٠/١٩).

QaradawiBooks.com

وقال الــرازي: «إنَّ النحْويين قالوا: يكفي في حسْــن الإضافة أدنى ســبب. فالضحى المتقدم على عشــية، يصح أن يقــال: إنَّه ضحى تلك العشية. وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشــية، وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى، فالذين يحضرون في موقف القيامة، يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية، وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشــية، فيقولون: كأنَّ عمرنا في الدُّنيا ما كان إلَّا هاتين الساعتين. والله ﷻ أعلم»[1] اهـ.

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) تفسير الرازي (٥١/٣١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

عناية القرآن بالمستضعفين والفقراء

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۞ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۞ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۞ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۞ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۞ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۞ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾

سبب النزول:

السورة مكِّيَّة بالإجماع. وقد ذكر غير واحد من مفسري السلف: أن رسول الله ﷺ، كان يخاطب بعض عظماء قريش ـ وقيل: إنَّهم أكثر من واحد ـ وقد طمع في إسلامه، ولعلَّ بإسلامه يسلم آخرون، فبينما هو يخاطبه، ويعرض عليه دعوته ويناجيه، إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممَّن أسلم قديمًا، وله حظوة عند رسول الله، فجعل يسأل الرسول عن شيء، ويلح عليه أن يجيبه، وود النبي ﷺ أن يكف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل المشرك، طمعًا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى ما أنزل

QaradawiBooks.com

في هذه السـورة الكريمة[١]، الَّتي تعاتب رسـوله الكريم بكل صراحة، بادئة بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾.

والعبوس: تقطيب الوجه واربداده عند كراهية أمر، والتولي: الإعراض.

والعابس والمتولي هنا هو الرسول الكريم محمَّد ﷺ، ذكره الله تعالى بصيغة الغائب، ولم يذكره بصيغة المخاطب فيقول له: عبست وتوليت؛ رفقًا به، وتعظيمًا له، وحفاظًا عليه، وإن كان بعض المُفَسِّرين اعتبر ذلك مبالغة في العتْب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض.

وقد روي عن سـفيان الثوري أنَّه قال: كان النبي ﷺ، بعد ذلك إذا رأى ابن أمِّ مكتوم قال: «**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربِّي**». وبسط له رداءه[٢].

وقال أنس بن مالك: رأيت ابنَ أمِّ مكتوم يوم القادسـية وعليه درع، ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين[٣].

سرُّ العتاب الشديد على سيد الخلق:

لِم هذا العتاب الشـديد على رسـول الله ﷺ، من أجل هذا المسلم القديم الإسلام، الَّذي اعتمد النبي الكريم على قوَّة إسلامه، وقِدم إيمانه، وطمع في إسـلام الكبراء، أمثال: الوليد بن المغيـرة، وعتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة، وأمية بن خلف، وأمثالهم؟

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٣١)، واستغربه، وابن حبان في (٥٣٥) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصحح الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٦٦)، عن عائشة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢١٣/١٩).

(٣) رواه أحمد (١٢٣٤٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٥٩٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٦٠٨).

QaradawiBooks.com

كأنَّ ما فعله النبيُّ الكريم يُوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، والكبراء على المستضعفين، وبهذا تنكسر قلوب هؤلاء في مقابلة أولئك المستكبرين، والله تعالى لا يحب ذلك، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّ كل ما يوهم ترجيح الدُّنيا على الدين مرفوض بالكلية في نظر القرآن.

لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يقول قولًا فاصلًا في هذا الأمر، حتى لا يرتاب فيه مرتاب، ولا يشكِّك فيه مشكِّك، وهو أنَّ الإسلام لا يُعنى بهؤلاء النَّاس الَّذين يسمُّونهم الكبار، والطبقات الراقية، والعلية في المجتمع، من أصحاب المال والجاه، والثراء والقوة والأتباع، وإنَّ خيرًا منهم وأزكى عند الله تعالى، وعند الصالحين من عباده: أولئك المؤمنون الصالحون الأبرار، وإن كانوا من المستضعفين والفقراء، الَّذين لا يملكون مالًا ولا منزلةً ولا أتباعًا، إنَّما يعتزون بإيمانهم بالله، وصِلتهم بالله، وخشيتهم لله، ورجائهم في الله، وتوكلهم على الله.

وكان هذا البيان القرآني القوي هو العدة التي يعتد بها في هذه المعركة التي نصر الله فيها الرجل الأعمى ـ وهكذا سمَّاه القرآن ليظهر لنا ضعفه ـ على الأغنياء والكبراء، الَّذين قال منهم من قال: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١]. فإن العظمة عندهم إنَّما تقاس بما يملك الإنسان من الذهب والفضة والأموال.

QaradawiBooks.com

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾

لِمَ عبس مُحمَّد وتولَّى؟ بأيِّ سبب؟ إن ذلك كان بسبب أن جاءه الأعمى، وذِكْره بـ(الأعمى) ليس تحقيرًا له؛ بل كأنَّه قيل: إنَّه بسبب عماه استحقَّ مزيدًا من الرفق والرأفة، فكيف بك ـ يا محمَّد ـ أن تخصَّه بالغلظة؟

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾

أيُّ شيء يجعلك ـ يا مُحمَّد ـ داريًا بحاله، لعلَّه قَدِم إليك ليتعلَّم منك، وينتفع بعلمك، ويتزكَّى ويتطهَّر من الجهل أو الإثم بما يلقن منك، أو يتذكر ويتَّعظ فتنفعه ذكراك، أي: موعظتك فيكون له نصيب في بعض الطاعات. وبالجملة، فلعل ذلك العلم الَّذي ينفعه منك يطهِّره عن بعض ما لا ينبغي، وهو الجهل والمعصية، أو يشغله ببعض ما ينبغي، وهو الطاعة والخير.

الاستغناء بالمال من أسباب الطغيان:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾

أمَّا من استغنى بالمال، ورأى نفسَه مستغنيًا عن النَّاس بما لديه من ثروة، وهذا من أسباب الطغيان، إذا رأى نفسه مستغنيًا بما لديه عن غيره، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. إذا رأى نفسه استغنى، لأدَّى به ذلك إلى الطغيان.

والمراد هنا: من استغنى بالمال والثراء، عن الإيمان وعمَّا عندك من العلم والمعرفة، الَّتي ينطوي عليها القرآن.

QaradawiBooks.com

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾

تَصَدَّى: الأصل تَتَصدَّى، وحُذفت إحدى التَّائين تخفيفًا. والمعنى: تتعرَّض له، وتقترب منه، وتهتم به، وتميل إليه، وتقبل عليه، وعلى إرشاده وإصلاحه. وفيه تنفير له عليه السلام من مصاحبة هؤلاء، لأنَّ الإقبال على المُدْبر عنك ليس من كريم الشيم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

أي: ليس عليك لوم في ألَّا يتطهَّر بالإسلام من دنس الشرك.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾

والموقف المقابل لهذا، معاكس ومغاير تمامًا لما ينبغي أن يكون، ذلك أنَّ من جاءك يسعى لطلب الخير، أي: جاء في همَّة وسرعة، وليس في ثِقل وبطء، وهو متَّصف بالخشية، وإذا ذكرت الخشية فإنَّما يراد بها خشية الله وحده، ولكن القرآن هنا لا يذكر المخشي، وهو معروف، وهو الله ﷻ؛ لأنَّه نزل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم، بمعنى أنَّ الخشية أصبحت صفة ثابتة لازمة له معروفة به.

﴿مَن جَآءَكَ﴾، بهذه الصورة، وهذه السيرة، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتشاغل وتتغافل عنه، مهتمًّا بشأن الصَّناديد.

وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعل في قوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، وفي قوله قبل ذلك: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: تنبيهٌ على أنَّ مناط الإنكار خصوصيته ﷺ، أي: مثلك ـ يا محمَّد ـ خصوصًا لا ينبغي أن يتصدَّى للمستغنين، ويتلهَّى عن الفقير الطالب للخير. وبذلك يتعلم المسلم أنَّه لا يجوز أن يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى ـ معرِضًا عنه ـ لغني قط.

QaradawiBooks.com

القرآن عظة ينتفع بها من كانت عنده إرادة صادقة:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾

كلا: ردع لـه ﷺ عمَّا عُوتب لأجلـه، من التصدِّي لمن استغنى، والإعراض عمَّن جاء يسعى وهو يخشى.

﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾: إشارة إلى آيات القرآن، الَّتي نزلت في هذه السورة، وفي غيرها، فهي موعظة أي موعظة، تذكر من ينسى، وتنبه من يغفل، وتعلم من يجهل، يجب أن يتَّعظ بها، ويعمل بموجبها.

والجملة تعليل للردع، ببيان علو رتبة القرآن العظيم، الَّذي أعرض عنه، الَّذين تصدَّى لهم الرسول ﷺ، وعُني بشأنهم.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

أي: من كانت عنده مشيئة وإرادة في ذكر هذا القرآن، وقد قلنا: إنَّه مراد في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾، وإنَّما أنَّث الضمير لتأنيث الخبر، فمن شاء وعى القرآن، واتعظ به.

ومن رغب عنه، كما فعل المستغني، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره، وفي سورة المُدَّثر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥].

سرُّ اتصال هذه الآية بما قبلها:

سأل الفخر الرَّازي هنا سؤالًا عن كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها، وجعل جوابه من وجهين: «الأول: كأنَّه قيل: هذا التأديب الَّذي أوحيته

QaradawiBooks.com

إليك، وعرفته لك، في إجلال الفقـراء، وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا، أثبت في اللوح المحفوظ، الَّذي وكل بحفظه أكابر الملائكة.

الثاني: كأنَّه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأي حاجة إلـى أن يقبله هـؤلاء الكفار، فسـواء قبلوه أو لـم يقبلوه، فلا تلتفت إليهم، ولا تشـغل قلبك بهم، وإياك أن تعرض عمَّن آمن به، تطييبًا لقلب أرباب الدنيا»[1] اهـ.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾

هذا القـرآنُ الكريم في صُحُف مكرَّمة عنـد الله الكريم الَّذي أنزلها وكرَّمها، وهي مكرَّمة كذلك لما فيها من العلم والهداية والحكمة، وهي مكرَّمة لأنَّ الله تعالى صانها وحفظها من كل ما يدنِّسها أو يضيعها.

وهي ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾، بمعنى أنَّهـا رفيعة القدر عنـد الله تعالى. كما أنَّها مرفوعة ومحفوظة من الشـبه والتناقض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهي مع رفعتها ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، أي: مصونة من كل أذى، أو دنس، بحيث لا ينالها الكفار.

السَّفَرَة الكِرام البرَرَة:

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

من هم هؤلاء السَّفَرة؟ إنَّهم الملائكة الَّذين جعلهم الله سبحانه سفراء بينه وبين رسـله، فهم بَرَرة لم يتدنَّسـوا بمعصية، وهم الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، الَّتي هي الكتب، واحدهم: (سافر)، كقولك

(١) تفسير الرازي (٣١/٥٥).

QaradawiBooks.com

كاتب وكَتَبة. والسفير: الرسول والمصلح بين القوم. ويجمع على سفراء، مثل: فقيه وفقهاء.

وقال بعض المُفَسِّرين: (السَّفَرة): أصحاب النَّبي[١]. وقال الإمام ابن العربي: «لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله علية وسلم سفرة كرامًا بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها. بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم»[٢].

واستدلَّ لذلك بالحديث المروي في الصحيحين عن عائشة، وسيأتي ذكره في آخر تفسير هذه الآية.

﴿كِرَامِ بَرَرَةٍ﴾ أي: كرام على ربِّهم، كما أنَّهم كرام عن المعاصي والمدنسات، يرفعون أنفسهم عنها، ويؤْثِرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بار، يقال: بر، وبار إذا كان أهلًا للصدق، ومنه: برَّ فلان في يمينه. أي: صدق. وفلان يبر خالقه ويتبرره. أي: يطيعه، فمعنى ﴿بَرَرَةٍ﴾: مطيعون لله تعالى، صادقون لله في أعمالهم.

وفي سورة الواقعة قال الله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۞ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩]. وهؤلاء الملائكة المطهَّرون هنا هم الكرام البررة في سُورتنا.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤١٨/٨)، لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن وهب بن منبه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣٦٣/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير في شرح ﴿كِرَامِ بَرَرَةٍ﴾: «أي خَلْقهم كريم، حسنٌ شريف، وأخلاقُهم وأفعالهم بارَّة طاهرة كاملة. ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السَّداد والرَّشاد»[١].

وذكر حديث الإمام أحمد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرة الكرام البررة، والَّذي يقرؤه وهو عليه شاقٌّ، له أجران**»[٢].

مبدأ خلق الإنسان ومراحل وجوده:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾

دعاءٌ على هذا الإنسان، جنس الإنسان، لا شخص معين، كما قال بعض المُفَسِّرين، معتمدًا على ما قيل من سبب النزول[٣]، الَّذي لم يأتِ به دليل صحيح. وممَّا يدلُّ على ذلك: أنَّ الله تعالى ذمَّ المشركين لاستكبارهم بأموالهم، وترفعهم على غيرهم، فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة.

كما أنَّه تعالى زيَّف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء، على ما قال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وعموم هذا الزَّجْر يقتضي عموم الحكم. وأيضًا فإنَّ حَمْل اللفظ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٢١/٨).

(٢) رواه أحمد (٢٤٢١١)، والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٨)، عن عائشة.

(٣) تفسير القرطبي (٢١٧/١٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

على هذا الوجه أكثر فائـدة، واللفظ محتمل له، فوجب حمله عليه، كما قال الرازي[١]. والدعاء على الإنسان بالقتل من أشنع دعوات العرب؛ لأنَّ القتل غاية شدائد الدنيا.

﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، يحتمل وجهين:

الوجه الأول: إمَّـا أن تكون (ما) تعجبية، أي: ما أشـدَّ كفرَه، وما أقبح كفره بالله خالقه ورازقه، وكفره بنعمه الَّتي يسـبغها عليه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه يعجب من إفراط الإنسان في كفران نِعَم الله، مع معرفته بكثرة إحسان الله إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، تنبيهٌ على أنواع القبائح والمُنكرات الَّتي يقترفها الإنسان الكفور.

والوجه الثاني: أن تكون (ما) استفهامية، فكأنَّ الآية تقول: أيُّ شيء دعا الإنسان إلى الكفر بربِّه وبنعمته؟ فهو استفهام توبيخ.

ولقد ذكـر العلماء هنـا: أنَّ لكل مخلوق محدَث ثـلاث مراتب أو محطَّـات في وجوده، ولكنِّـي أراها أربعة: الأولى والوسـطى والآخرة والأخرى، وأنَّه تعالى ذكر هذه الأربعة للإنسان بلغة موجزة معجزة، في هذا الجزء (جزء عم)، الَّذي تميز بقصار الآيات، وقصار السور.

المحطة الأولى: خلقه من نطفة:

فالمرتبة أو المحطة الأولى تتمثَّل فـي قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، وهو اسـتفهام، وغرضه زيادة التقرير فـي التحقير، كما قال

(١) تفسير الرازي (٥٧/٣١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الـــرازي[١]، ثمَّ أجـــاب عن ذلك الاســـتفهام بقولـــه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾، ولا شـــك أنَّ النطفة ـ وهي ماء الرجل الَّـــذي يلقح بويضة المرأة ـ شيء حقير مهين، في حجمه الَّذي لا يُرَى إلَّا بالمجهر، وفي مظهره الخارج من مجرى البول، ولذا قـــال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

وليس الغرض من هذا تحقير الإنسان، فما بهذا جاء القرآن الَّذي كرَّم الإنســـان غاية التكريم، ولكن الغرض منه أن يذكر الإنسان أن من كان أصله من مثل هذا الماء المهين، فإنَّ التكبُّر والتَّجبُّر لا يكون لائقًا به.

قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من ســـبيل البول مرتين[٢]. يعني: مرَّة حين كان نطفة، ومرَّة عند الولادة.

ما معنى التقدير هنا في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؟

بعضهم قال: قدره أطوارًا: نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ عظامًا، ثمَّ تكسى العظام لحمًا، إلى آخر ما هو معلوم من خلق الإنسان.

ومنهم من قال: قدَّره على الاستواء المطلوب، الَّذي يتمُّ به الخلق، كما قال تعالـــى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]، وقال تعالى على لســـان الصاحب المؤمـــن: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

كما يحتمل أن يكون التقدير هنا: قدَّر لـــكل عضو، ولكل مفصل، وكل عصـــب، وكل خليَّة، ما يســـتحق من الإعداد والإمْـــداد، بالكميَّة

(١) تفسير الرازي (٣١/٥٧).

(٢) رواه أحمد بن حنبل في الزهد والورع (١٦٥٧).

QaradawiBooks.com

والكيفيَّة، بالقدر اللائق بمصلحته، وتمام خِلقته، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

غير مرخصة للطباعة

المحطة الثانية: تيسير السبيل:

ثم ذكر ربنا جلَّ وعلا المحطة أو المرتبة الثانية، وهي الوسطى في وجود الإنسان، وهي المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، وهذه هي المرتبة الوسطى وهي المرتبة المهمة، الَّتي يقرر الإنسان فيها مصير نفسه، بما يختاره من طريق، وما يهتدي إليه من منهج، وما يتخذه من دين، فما معنى تيسير السبيل هنا؟

قال بعضهم: المراد تسهيل خروجه من بطن أمه. قالوا: إنَّه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق، ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب. فمن الَّذي أعطاه ذلك الإلهام إلَّا الله؟ ومما يؤكِّد ذلك: أنَّ خروجَه حيًّا من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب. وهذا يمكن أن يكون جزءًا من تيسير السبيل، ولكنَّه ليس كل المطلوب ليمثل المرحلة الوسطى على أهميتها وقدرها.

ومن هنا نقل الرَّازي عن المفسر المعروف أبي مسلم الأصبهاني: أن «المراد من هذه الآية هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين. أي: جعلناه متمكنًا من سلوك سبيل الخير والشر. والتيسير يدخل فيه الإقدار، والتعريف، والعقل، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب»[1] اهـ.

(١) تفسير الرازي (٣١/٥٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا معنى كبير مهم، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، وهو ما جاء عن عدد من مفسّري السلف، مثل: مجاهد الَّذي قال: يسَّره لطريق الخير والشر، أي: بيَّن له ذلك، بدليل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[١]. وقاله الحسن وعطاء، بل ابن عبَّاس أيضًا في رواية أبي صالح عنه[٢].

المحطة الثالثة: الإماتة والإقبار:

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾

هذه هي المحطَّة الثالثة والأخيرة في الحياة الدنيا: أنَّ كلَّ حيٍّ ينتهي إلى الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائع ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الوَدَائعُ[٣]

وبعد الحياة يكون الموت أو الإماتة، كما هو تعبير القرآن، فالإنسانُ يُمات في أجله المقدور، الَّذي لا يستأخر عنه ولا يستقدم، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

ولكن من فضل الله على الإنسان: أنَّه كما قدر عليه أن يُميته ويُنهي أجله، قدَّر عليه أن يقبر، أي: يجعل له قبرًا يدفن فيه. ومعنى ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾: أي يجعل له قبرًا يوارى فيه، إكرامًا له. ولم يجعله ممَّا يلقى على وجه الأرض، تأكله الطير والسباع والعوافي.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥٣٧/٢٣).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٧٠٣/٤).

(٣) من شعر لبيد بن أبي ربيعة. انظر: ديوانه صـ ٥٦، تحقيق حمدو طمّاس، نشر دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

المحطة الرابعة: النشر بعد الموت:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

هذه هي المحطَّة الرابعة، وهي المحطَّة النهائيَّة، فليس الموت نهاية المطاف، بل بداية لمرحلة جديدة تأتي بعد ذلك، حين ينشر الله الموتى، ويبعثهم للحشر والموقف والحساب والجزاء في يوم عظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٦].

فهو يبقى في قبره إلى ما شاء الله في حياته البرزخية، على ما ورد في أمر المقبورين، ثمَّ ينفخ الملك الموكل بالصور النفخة الثانية، لينشر الله الموتى، ويحيي الجثث، ويخرج النَّاس من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

هذا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، يوم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، طالما سأل الرسل والأنبياء ربهم أن ينجيهم من هَوْل هذا اليوم، كما قال إبراهيم خليل الله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩].

وفي سور جزء عم هذا، وصف هائل لهذا اليوم، الَّذي نسأل الله تعالى أن يجعلنا في هذا اليوم من الآمنين، الَّذين يظلهم الله في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، ويشملنا ﷻ بمغفرته ورحمته، ويعفو عنا بفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه.

ترك الإنسان الكافر حقَّ الله عليه:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

(كلا): زجْر وردْع للإنسان الكافر المتطاول المدَّعي، فإن الكافر إذا

QaradawiBooks.com

أخبر بالنشور، قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]. وربما يقول: قد قضيت ما أمرت به. فـــردَّ ﷻ: ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، أنَّه قد أدَّى حقَّ الله عليه في نفسه وماله. فهو ردٌّ لما عسى أن يكون للكفار من اعتراضات في هذه الأقوال المســـرودة، ونفيٌ مؤكد لطاعة الإنسان لربه، وإثبات أنَّه ترك حقَّ الله تعالى، ولم يَقْضِ أمرَه.

نِعَم الله في ثمانية أنواع من النبات، ممَّا يحتاج إليه النَّاس وأنعامهم:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾

لمَّا ذكر جلَّ ثناؤه ابتداءَ خلق الإنســـان، ومراحـــل وجوده، إلى أن أنْشـــره الله وبعثه، ذكر ﷻ ما يسَّـــر من رزقه، وما هيَّأ له في الأرض من أسباب، وأنَّ عليه أن ينظر في هذا التدبير الإلٰهي، وما فيه من نِعم كبيرة تغمر الإنسان بفضل الله تعالى وإحســـانه. فلينظر كيف خلق الله طعامه؟ وهذا النظر المطلوب ليس مجرَّد رؤية البصر، بل هو نظر القلب بالفكر، أي التدبر كيف خلق الله طعامـــه، الَّذي هو قوام حياتـــه، وكيف هيَّأ له أسبابَ المعاش، ليستعد بها للمعاد؟

وهنا ينقلنـــا القرآن مـــن النظر في خلق الإنســـان وبدايته ووســـطه وخاتمته، حتى انتهى بالبعث والنشـــور، إلى النظر فيما حول الإنسان، وإن لم يبتعد كثيـــرًا عنه، ولكن ليكون أبدًا بين آيـــات الله في الأنفس، وآياته في الآفاق.

QaradawiBooks.com

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

بَيَّن الله تعالى بصيغة الجمع ﴿أَنَّا﴾ يعدِّد ما قام به ﷻ من إحداثات وإجراءات كونيَّة، يرتب عليها رزق الإنسان، الَّذي ينبع أساسًا من الأرض، وما ينبت فيها من زروع وثمار وخضروات وفواكه وحشائش.

قَصَّ الله سبحانه علينا في كتابه ما فعله في أرضه؛ ليتم علينا النعمة بالنبات والحب والزرع الَّذي نأكله ونشبع منه، ونتنعم به.

فأول ما يفعله ربُّنا: أنَّه يصبُّ الماء علينا صبًّا. والمراد بالماء هنا: ماءُ الغيث والأمطار، فهو الَّذي يصب حين ينزل بقوة من فوق. وهذا لا يمنع من أن بعض النَّاس يسقون بالأنهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

يقول الرازي: «انظر كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة، وكيف يبقى معلَّقًا في جوِّ السماء مع غاية ثقله، وتأمَّل في أسبابه القريبة والبعيدة، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته، وفي تدبير خلقة هذا العالم»[1].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾

المراد: شقُّ الأرض بالنبات، أي: أسكنا الماء فيها، فدخل في تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودَع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض.

ثم ذكر ﷻ ثمانية أنواع من النبات، ممَّا يحتاج إليه النَّاس وأنعامهم:

(١) تفسير الرازي (٣١/٥٩).

QaradawiBooks.com

الأول: الحب، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾، مثل القمح والشعير والذرة والأرز والبقول، وغيره من كل ما يحصد ويُدَّخر. وإنَّما قدم ذلك؛ لأنَّه الأصل في الأغذية.

الثاني: ﴿وَعِنَبًا﴾، وإنَّما ذكر العنب بعد الحب، لأنَّه غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، وقد ذكره تعالى من فاكهة الجنَّة، كما قال تعالى في سورة النَّبأ، وقد مر بنا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢].

الثالث: ﴿وَقَضْبًا﴾، القضب، وهو: القت والعلف، قاله الحسن[١]. وسمِّي بذلك لأنَّه يقضب، أي يقطع بعد ظهوره مرَّة بعد مرَّة، وأهل مكَّة يسمون القت: القضب.

وقال ابن عبَّاس: هو الرطب؛ لأنَّه يقضب من النخل، ولأنه ذكر العنب قبله[٢]. وقد قوَّى ابن عبَّاس رأيه هنا بذكره مع العنب في آية واحدة. وأزيد أيضًا: بأنَّه ذكر مع مجموعة المأكولات البشريَّة كلها من: الحب والعنب والقضب والزيتون والنخل.

وقال بعضهم: القضب: اسم يقع على ما يقضب من أغصان الشجرة، ليتَّخذ منه سهام أو قسي[٣]. ويعني جميع ما يقضب، مثل: القت والكراث، وسائر البقول الَّتي تقطع، فينبت أصلها.

الرابع والخامس: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾، وهما من أسماء النباتات الَّتي هيَّأها الله لينتفعَ بها الناس. الزيتون: ممَّا يؤْتَدم به، وكذلك عصيره، ويستصبح به،

(١) رواه الطبري في تفسيره (١١٦/٢٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٢١/١٩).
(٣) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

ويدهن به، فهو طعام ودواء ووقود، وقد مدحه الله تعالى في القرآن، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وأقسم به تعالى في كتابه مع التين فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١].

﴿وَنَخْلًا﴾، وهو النَّخيل المبارك الذي ينتفع بكل شيء فيه، حتى بجريده وخوصه ولحائه وجذوعه ونواه، ويؤكل بلحًا وبسرًا ورطبًا وتمرًا، ونيئًا ومطبوخًا، ويعتصر منه زيت وخل.

والسادس: ما عبَّر عنه بقوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، أي: بساتين، واحدها: حديقة. قالوا: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة. وما لم يحط عليه فليس بحديقة.

ومعنى ﴿غُلْبًا﴾: أنَّ شجرها عظام، يقال: شجرة غلباء. ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنَّه مصمت العنق، لا يلتفت إلَّا جميعًا. ورجل أغلب بين الغلب، إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستعير. وحديقة غلباء: ملتفة الشجر.

والمراد: أنَّ هذه الحدائق التي تحيط بهذه الأرض المزروعة، ذات أشجار ملتفَّة، وفروع سامقة، وأوراق خضر، تعطي المنظر الجميل، والظلَّ الظليل، والنعمة بما فيها من حبوب وزروع وأشجار، كما أنَّها تلطِّف الجو، وتحمي البلاد من التلوُّث البيئي الَّذي يشكو منه العالم في عصرنا.

والنبات السابع: نجده في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾، وهو كل ما يُتفكَّه به من النباتات، مثل: الرمان والجوافة والكمثرى والتفاح والبرتقال والبِطيخ والشمام والفراولة والكرز والمشمش والخوْخ والبرقوق وغيرها، ممَّا أخرجه الله من الأرض، وهو ألوان وأنواع.

QaradawiBooks.com

والنبات الثامن والأخير: هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾، وقد اختلفوا في تحديد معناه. والأولى: أنَّه ـ كما قال ابن عبَّاس والحسن ـ كل ما أنبتت الأرض ممَّا لا يأكله الناس. وما يأكله الآدميون هو الحصيدة[١].

وإنَّما سمي أبًّا؛ لأنَّه يؤب، أي: يؤمُّ ويُنتجع.

روى الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري بسنده، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فلمَّا جاء على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأبّ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إنَّ هذا لهو التكلف[٢]. وذكره ابن كثير، وقال: «هذا إسنادٌ صحيح. وقد رواه غير واحد عن أنس به. وهذا محمول على أنَّه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلَّا فهو ـ وكلُّ من قرأ هذه الآية ـ يعلم أنَّ الأبَّ ـ من نبات الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾، أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة»[٣] اهـ.

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

أي أنَّ الله تعالى أخرج هذه النباتات الثمانية بأنواعها وأصنافها، وكلياتها وجزئياتها، ليجعلها متاعًا ومنفعة لكم ولأنعامكم، وجميع الحيوانات التي تخدمكم وتنفعكم، وليس لله فيها أو منها شيء.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٢١/٢٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٢٢/١٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٢٠/٢٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٢٥/٨).

QaradawiBooks.com

أحوال القيامة وأهوالها

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۞ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۞ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۞ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۞ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾

بدأ القرآن الكريم يشرع في بيان أحوال المعاد وما فيه من أهوال، بعد أن ذكر مبدأ خلق الإنسان ومعاشه، والفاء في قوله: ﴿ فَإِذَا ﴾، للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، من فنون النِّعم والنباتات التي وفَّرها الله سبحانه للناس وأنعامهم، ثمَّ أخذ ينذر النَّاس بمجيء الصَّاخة، ليتزوَّدوا لها بالأعمال الصَّالحة، والإنفاق بما امتنَّ عليهم.

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، من الأسماء القرآنيَّة التي سمَّى بها يوم القيامة، وقد جاء اسمها بهذه الألفاظ الضخمة القويَّة مثل الصاد والخاء، وبهذا الوزن القائم على المد الكلِمي المثقل، كما مر في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۞ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣] ومثل الطامة، وكما يأتي في سورة (القارعة)، حتَّى إنَّ القرآن هنا غير في صيغ الآيات وخواتيمها للتنبيه على التميز.

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، هنا كالطامَّة الكبرى، الَّتي حدثنا القرآن عنها في سورة (النازعات) السابقة، وهو ما يحدث يوم القيامة، حين ينقلب النظام الكوني، وتتبدَّل الأشياء غير الأشياء، ويُفاجأ النَّاس بما لم يكونوا يحتسبون، في الأرض والسماوات والنجوم والشمس والقمر، وكل شيء، ومن ذلك هذه ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، وهي: الداهية التي يصيخ إليها الخلائق.

QaradawiBooks.com

قالوا: هي الصيحة الهائلة التي تكون عنها القيامة، تصخُّ الأسماع، أي: تصمُّها فلا تسمع إلَّا ما يدعى به الأحياء.

«قال الخليل: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، صيحة تصخُّ الآذان، أي تصمُّها بشدَّة وقعتها.

وأصل الكلمة في اللُّغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صخَّه بالحجر إذا صكَّه... ومن هذا الباب قول العرب: صخَّتهم الصَّاخَّة، وباتتهم البائتة، وهي الداهية.

وقال العلَّامة ابن العربي: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، الَّتي تورث الصَّمم، وإنَّها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتَّى لقد قال بعض حديثي الأسنان، حديثي الأزمان:

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا[1]!

وقال آخر:

أصمني سرهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بسر يورث الصمما[2]؟

لعمر الله إنَّ صيحة القيامة لمسمعة، تصم عن الدُّنيا وتُسمِع أمور الآخرة»[3] اهـ.

يوم الأنانية والفردية المطلقة:

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمۡرِئٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾

(١) شطر بيت لأبي تمام كما في شرح التبريزي لديوانه (٢/٢٢٥)، فهرسة راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

(٢) شرح التبريزي لديوان أبي تمام (٢/٨٠).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/٢٢٤).

QaradawiBooks.com

يوم القيامة يوم ليس كسائر الأيام في كل شيء، في طوله، في زحامه، في عرقه، في أحواله، في انكشاف النَّاس فيه، في خوف النَّاس منه، في اشتغال كل امرئ بأمر نفسه، إنَّه يوم الأنانية، ويوم الفردية المطلقة، كل الروابط الفطريَّة والطبيعيَّة التي كانت تربط النَّاس بعضهم ببعض، من الأبوَّة والأمومة والبنوَّة والأخوَّة والزوجيَّة، فضلًا عن العمومة والخؤولة، لم يعد لها تأثير في ذلك اليوم.

الأم الَّتي كانت تلقِي بنفسها إلى التَّهلكة من أجل ولدها، والأب الَّذي كان يفدي أولاده بنفسه وماله، والأخ الَّذي كان يخوض المعارك من أجل إخوته، والزوج الَّذي كان يضحِّي بنفسه حماية لزوجته، والزوجة الَّتي كانت تلاقي الأهوالَ لتحمي زوجها، كل هؤلاء لم يعودوا في يوم القيامة يذكرون أحدًا إلَّا أنفسهم، فاليوم رهيب، والموقف عصيب، والمصير مجهول، ولا يعرف أحد ماذا يكون في حسابه، أو ماذا تحمل موازينه؟ ولا يدري أهو ناجٍ أم هالك، أم بين بين؟

لا يستطيع أحد أن يتنازل لأحد ـ أيا كان هذا الأحد ـ عن حسنة من حسناته، فهو لا يدري: لعل ميزانه قد يفتقر إلى هذه الحسنة، لا يمكنه في هذا اليوم أن يؤْثِر بهذه الحسنة ابنًا أو بنتا، أو أبًا أو أمًّا، أو زوجةً أو زوجًا، أو أخًا أو أختًا.

لماذا هذا البخل، وهذا الشح؟ لماذا لا يجود النَّاس بعضهم على بعض؟

لقد وضَّح القرآن عن ذلك حين قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، يفرُّ منهم بعد أن كان يقبل عليهم؛ لأنَّه مشغول عنهم بأمر نفسه، وقد علم من كتاب ربِّه وسنَّة نبيِّه أنَّهم مشغولون مثله، لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١]،

QaradawiBooks.com

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [لقمان: ٣٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «**يُحشر النَّاس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا**». لم يختنوا. قلت: يا رسولَ الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضُهُم إلى بعض؟! قال: «**يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[(١)].

ورواه الترمذي في جامعه، عن ابن عبَّاس، عن النبيِّ ﷺ قال: «**تُحشرون حفاة عراة غرْلًا**». فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «**يا فلانة، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾** [عبس: ٣٧]». وقال: حديث حسن صحيح[(٢)].

وجوه السعداء المضيئة ووجوه الأشقياء المظلمة:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۞ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۞ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾

بعدما حدثنا القرآن عن أحوال النَّاس بعد الصَّاخَّة، وفرار كل امرئ بنفسه من أقرب النَّاس إليه، فهو لا يذكر إلَّا نفسه.

حدثنا: أنَّ الوجوه في يوم القيامة نوعان، كما أنَّ النَّاس نوعان: سعداء وأشقياء، فللسعداء وجوههم، وللأشقياء وجوههم، والمرء يعرف من وجهه، فهو مرآته الناطقة.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣٢)، والحاكم (٢٥١/٢)، كلاهما في التفسير، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

وجوه السعداء في هذا اليوم مسفرة، أي: مشرقة مضيئة متهلِّلة، من: أسفر الصبح، إذا أضاء، وفي القرآن: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، فهي منيرة بادٍ ضوؤها وسرورها. تجد هذا الإسفار والنور والإشراق على تلك الوجوه، وليس هذا فحسب، بل هي وجوهٌ ضاحكة، أي: مسرورةٌ فرِحة، كأنَّ الوجه كله يضحك، والضحك إنَّما يكون من الفرح والابتهاج، وهي كذلك مسْتبْشِرة، من سرور قلوبهم، قد ظهر البِشْر على وجوههم.

أي: تستشعر البشر في مستقبلها، لا تخافه، ولا تتهيَّب منه، فلا تحزن على ماضٍ، ولا تجزع من حاضر، ولا تخاف من مستقبل، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۞ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾

الغبرة: الغبار والدخان والسواد.

ترهق هذه الوجوه التي تعلوها وتغشاها قترة، أي: كسوف وسواد.

وفسَّر ابن عبَّاس القترة بالذلَّة والشدَّة[1]. يريد أنَّ العبرة ليست باللون فقط، فبعض النَّاس قد يكون هو أسود اللون بحسب بيئته، ولكن المهم هو الكآبة والمذلَّة الَّتي تحيط بالإنسان وتغشاه في هذا اليوم.

وقال زيد بن أسلم: القترة: ما ارتفعت إلى السماء. والغبرة: ما انحطَّت إلى الأرض، والغبار والقترة واحد[2].

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٢٧/٢٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾

بيَّن الله بصريح العبارة من هم هؤلاء أصحاب هذه الوجوه المنكرة، فأوجزهم في الآية القصيرة، وهذه العبارة الموجزة، فوصفهم بهذين الوصفين الكبيرين: الكفر والفجور، والكفر أمر يتعلق بالقلوب والعقول والاعتقادات، والفجور يتعلق بالأبدان والأعمال، فإذا اجتمع الكفر والفجور في فرد أو جماعة كان من شرِّ الناس، كما قال تعالى في قوم نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وفي الحديث وصف الرسول الكريم المنافق الخالص بأربع خصال منها: أنَّه «**إذا خاصم فجر**»[1]. أي: غلا في الخصومة.

وقد يعبِّر القرآن عن الكفر بالفجور، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغضب (٢٤٥٩)، ومسلم في الإيمان (٥٨)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة التكوير

مقاصد السورة:

السورة مكِّيَّة بالإجماع، وهي تتحدث عن القيامة ومقدماتها وتوابعها، ثمَّ يقسم الله فيها بالنجوم والليل والصبح وبعض ما خلق الله، على عظمة هذا القرآن، وقوة من جاء به إلى رسول الله، وهو جبريل عليه السلام، وما له من مكانة وطاقة، وما يتَّصف به من قوَّة وأمانة، ويوكل في النهاية الأمر إلى الله رب العالمين.

روى الإمام أحمد والترمذي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنَّه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾**». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[1].

نسخة مجانية

(١) رواه أحمد (٤٨٠٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي (٣٣٣٣)، والحاكم (٥١٥/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

أحداث خطيرة تحدث قبل قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۞ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾

الشمس هي هذا الكوكب العظيم، الَّذي ينسب الفلكيون ورجال العلم مجموعتنا الكبيرة إليه، فيسمونها: المجموعة الشمسية، وهي المجموعة الفلكية والأرضية، التي ترتبط بهذه الشمس، وتتحرك وتسبح وتدور، بحسب حركتها وتوجهها. وهذه المجموعة منها: أرضنا التي نعيش عليها، والتي بسطت لنا ومدَّت وجعلت ذلولًا. ومنها القمر، ومنها سائر الكواكب المعروفة، وهي: زحل والمشتري والمريخ والشمس وعطارد وغيرها، مع القمر والأرض.

والشمس كغيرها سابحة في الكون، كما يقول القرآن الذي اختار لها لفظ السباحة، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وردت الشمس في القرآن ثلاثًا وثلاثين (٣٣) مرَّة باسمها الصريح، وذكرت مرتين بوصفها: أنَّها سراج، أو سراج وهاج. وقد بيَّن الله في

QaradawiBooks.com

سورة نوح أنَّه جعل الشمس سراجًا، حين قال نوح لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، وقال تعالى في سورة النبأ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]، وفي سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

والسراج يحمل عنصرين: الضوء والحرارة، ولهذا خصَّ الله الشمس بأنَّها ذات الضوء الَّذي معه الحرارة، بخلاف القمر فليس فيه إلَّا النور، أمَّا الشمس فهي جسم ملتهب شديد الحرارة.

وحرارة الشمس شيء هائل، حتى إنَّ بعض العلماء الَّذين حاولوا التفسير العلمي للقرآن، اعتبرها «الجحيم» في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]، ولكن هذا التفسير خاطئ؛ لأنَّ الفعل المضارع المؤكد بالنون يكون للمستقبل، فنحن سنرى الجحيم في الدار الآخرة، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. بيد أنَّ المتَّفق عليه بين الجميع: هو القوة الشديدة الفظيعة الَّتي أمدَّ الله بها الشمس.

لماذا الشمس؟!

يتحدَّث العالم الكوني الكبير الدكتور زغلول النجار عن طاقة الشمس في كتابه «موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: السماء»، فيقول:

«تطلق الشمس من الطاقة ما يقدَّر بنحو خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان في كل ثانية، ويصل إلى الأرض منها واحد في الألف فقط تقريبًا، ويمثل ذلك مصدر كل من الحرارة والضوء وغيرهما، من

QaradawiBooks.com

مختلف صور الطاقة على الأرض ـ باستثناء الطاقة النووية ـ وتعتمد كل الأنشطة الطبيعيَّة على سطح الأرض على الطاقة الشمسيَّة، فقد أعطى الله تبارك وتعالى، للشجر الأخضر القدرة على اختزان جزء كبير من طاقة الشمس، على هيئة روابط كيميائيَّة فيما تنتجه من سكريات ونشويات وزيوت وغيرها من المنتجات النباتية، وذلك بتفاعل أشعة الشمس مع كل من العصارة الغذائية للنبات ـ المكونة من معادن الأرض والماء ـ وثاني أكسيد الكربون مطلِقًا الأوكسجين؛ كما أعطى ربنا تبارك وتعالى كُلًّا من الإنسان والحيوان القدرة على الاستفادة بتلك الطاقة الشمسية المخزونة في المنتجات النباتية في جميع أنشطتها الحيوية، وذلك بإحراقها في أثناء عملية التمثيل الغذائي، فتتحول هذه المواد مرَّة أخرى إلى ماء وثاني أكسيد الكربون.

ثم من فضلات كلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، تتكوَّن مصادر أخرى للطاقة مثل الخشب، والقش، وروْث الحيوان، وفضلات الإنسان الَّتي تتكون منها أغلب مصادر الطاقة الطبيعيَّة، مثل الفحم النباتي، الفحم الحجري، النفط، الغاز الطبيعي، وغيرها»[1].

ولهذا أقسم الله سبحانه بالشمس وضحاها، وهو الغنيُّ عن القسم لعباده، لينبهنا على الأهمية القصوى للشمس، الَّتي بدونها ما قامت الحياة على الأرض، ولا عاش إنسان ولا حيوان ولا نبات.

ثم تحدَّث الدكتور النجَّار عن الشمس ومجموعتها الشمسيَّة، والمسافات الشاسعة بين بعضها وبعض، فيقول: «تتراوح المسافة بين

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي للدكتور زغلول النجار، السماء (١/٤٤٥، ٤٤٦)، نشر وزارة الأوقاف القطرية، سنة ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

الشمس والكواكب السـيَّارة المرتبطة بها، والدائرة في فلكها بين «٥٨» مليون كيلومتر وأكثر من «٦٠٠٠» مليون كيلومتر.

وتختلف الظروف الطبيعيَّة على الكواكب في مجموعتنا الشمسـيَّة تبعًا لقربها من الشمس أو بعدها عنها، وتبعًا لحجم كل منها، وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط بها.

والكواكب ـ في مجموعها ـ تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائرية في الاتجاه نفسه، وهي في مساراتها تلك تختلف المسافة بين كل منها والشمس، كما تختلف سرعة جري الكوكب الواحد باختلاف بعده عن الشمس، فتصل سرعة الكوكب أقصاها، وهو أقرب ما يكون من الشمس، وتقل بالتدريج بابتعـاده عنها، حتَّى تصل سـرعته أدناهـا، وهو أبعد ما يكون عن الشمس.

وحركات الكواكب حول الشـمس يحكمها توازن دقيق بين قوتين متضادتين، هما قوَّة جذب الشـمس للكوكب، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشـمس، والتعادل الدقيق بين هاتين القوتين هو الَّذي حـدد للكواكب أفلاكها الثابتة، وحـدد جريها فيها، وحفظها من الانطلاق إلى فسـحة الكون أو السقوط في سعير الشمس، وذلك كله بتقدير من الخالق الحكيم الخبير ﷻ.

والكواكب في الوقت نفسـه تتجاذب فيما بينهـا تجاذبًا أقل من جذب الشـمس لكل منها، ممَّا يعين على احتفاظها بأبعادها الثابتة فيما بينها.

والنهار والليـل يتعاقبان على كل كوكب في مجموعتنا الشمسـية، ويتم ذلك في مـدد متفاوتة تفاوتًـا كبيرًا؛ لاعتماده علـى حجم وكتلة

QaradawiBooks.com

الكوكب وسرعة دورانه حول محوره، وكذلك تتفاوت سنة كل كوكب بتفاوت بعده عن الشمس، وبتفاوت سرعة جريه في مداره حولها، حتَّى يتم دورة كاملة.

وبدوران الأرض حول محورها تتم الحركة الظاهرية لكل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب الَّتي تتراءى لنا عبر السماء، وتتتابع الفصول على أرضنا بسبب ميل محور الأرض في دورانها حول الشمس»[١].

هذه الشمس المخلوقة المُسخَّرة العظيمة، لن تظل كما هي أبد الدهر، بل لا بدَّ لها أن تدخل في النظام الكوني، الَّذي قدَّر الله أن يصيبه التفكُّك والانهيار، والتبدُّل والتغيير، وَفْق إرادة إلٰهيَّة، تحسب لكل شيء حسابه، وتعد له عدته.

أخبرنا الله في كتابه العزيز المحفوظ القرآن الكريم بهذا التغيير، حينما قال: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وفي هذا التبدل الكوني نزلت هذه السور الكريمة، من هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم، سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، ليعلمنا ما لا بدَّ أن نتعلمه، وينبهنا إلى ما يجب ألَّا نغفل عنه، من أحداث ضخام في هذا الكون ستتغير رأسًا على عقب، يحدِثها من خلقه من عدم، ومن رعاه بقدر، ومن حفظه من الفناء الكلي أو الجزئي، إلى وقت معيَّن مقدَّر له في علمه وحكمته.

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي (السماء) (٤٤٤/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ستة أحداث كبرى تحدث قبل قيام القيامة:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾

ذكرت السورة هنا اثني عشر شيئًا من الأشياء المهمة والخطيرة تحدث بعضها قبل قيام الساعة، وبعضها بعد قيام الساعة. وأول ما يحدث من التغييرات في النظام الكوني: تكوير الشمس، الَّذي عبر الله عنه بهذا الأسلوب، فالأصل في شرط «إذا» أن يكون الفعل بعدها، مثل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: ٣٤] إلخ، ولكن في هذه السورة جاء الاسم بعد إذا.

١ ـ تكوير الشمس:

اختلف مُفسِّرو السلف في معنى التكوير، ذكر ابن كثير: «قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، غُوِّرت. وقال الربيع بن خثيم: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، يعني: رُمي بها. وقال أبو صالح: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، ألقيت. وعنه أيضًا: نكست[(١)]. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض»[(٢)].

وقال أبو السُّعُود: «﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، أي: لفَّتْ، من كورت العمامة إذا لففتها، على أنَّ المراد بذلك إمَّا رفعها وإزالتها منْ مقرِّها، فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف لفًّا ويُطْوى، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وإمَّا لف ضوئها المنبسطِ في الآفاق،

(١) روى هذه الآثار الطبري في تفسيره (١٢٩/٢٤ ـ ١٣١).
(٢) تفسير ابن كثير (٣٢٨/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

المنتشر في الأقطارِ على أنَّه عبارة عن إزالتها والذهاب بها، بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم، أو ألقيت عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار من: طعنه فكوره، إذا ألقاه على الأرض»[١].

والمهم من هذا كله: أن تكوير الشمس معناه: أن هذا النجم ذا الطاقة الهائلة، قد شاخ وهرم، وأصابه ما أصابه، كتلك المخلوقات التي تخضع طوعًا وكرهًا، لما أراده خالقها، الَّذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

٢ ـ تناثر النجوم وتساقطها:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾

هذا الأمر الثاني من الأمور الاثني عشر، ومن الستة التي تحدث قبل قيام القيامة، ومعنى ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: أي: تناثرت وتساقطت، بعد أن كانت تزيِّن السماء، ويهتدي النَّاس بها في ظلمات البرِّ والبحر، «كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، والأصل في الانكدار الانصباب، قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم، إذا جاؤوا أرسالًا فانصبوا عليهم»[٢].

قال القرطبي: «ويُحتمل أن يكون انكدارها طمْس آثارها. وسُمِّيت النجوم نجومًا لظهورها في السماء بضوئها.

وعن ابن عبَّاس أيضًا: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾، تغيَّرت[٣] فلم يبق لها ضوء، لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب»[٤].

(١) تفسير أبي السعود (١١٤/٩).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٦٣/٣١).
(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٣٣/٢٤).
(٤) تفسير القرطبي (٢٢٨/١٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٣ ـ تسيير الجبال:

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾

هذا هو الأمـر الثالث: تسـيير الجبال، هذه الأجـرام العظيمة على الأرض، فلقت منها ونسِفت، وسيِّرت في الهواء، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهـف: ٤٧]، وقيل: تسـييرها: تحويلها عن منزلة الحجـارة، فتكون كثيبًا مهيلًا. أي: رملًا سـائلًا، وتكون كالعهن، وتكون هباءً منثورًا، وتكون سـرابًا، مثل السَّـراب الَّذي ليس بشـيء. وعادت الأرض قاعًا صَفْصَفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا. وهو ما توضحه آيات القرآن في سورٍ شتى.

٤ ـ تعطيل النُّوق الحوامل:

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾

هذا هو الأمر الرابع. والعِشار: جمع عُشَـرَاء، وهي الناقة الَّتي عليها في الحمل عشرة أشهر، ثمَّ لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضًا. وهذه النُّوق من أعزِّ الأموال عند العرب، وخصوصًا الحوامل، التي في بطونها أولادها، ومن عادة العرب الاهتمام بها، والاشـتغال بأمرها، ولكن في هذا الزمـان الذي كوِّرت فيه الشـمس، وانكـدرت النجوم، وسُـيِّرت الجبال، لم يعـد أحد يعنى بعشـراء أو بإبل أو بقـر أو غنم، والغرض: ذهاب الأموال، وبطلان الأملاك، واشـتغال النَّاس بأنفسـهم، لا بأنعامهم ولا إبلهم، كما قال تعالى: في يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشـعراء: ٨٨، ٨٩]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

QaradawiBooks.com

جمع الوحوش من كل ناحية:

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

وهذا الأمر الخامس. الوحوش: جمع وحش، وهو كل حيوان من دوابِّ البر لا يستأنس، وهو أنواع وألوان بالمئات والألوف من الفصائل، الَّتي تمتلئ بها البراري والوديان وأقطار الدُّنيا المختلفة.

ومعنى حشرها: أي جمعها من كل ناحية لما دهم أوكارها من الزلزال والتخريب.

قال الإمام محمَّد عبده في تعيين المراد من جمعها: «وحشر الوحوش إمَّا جمعها لاستيلاء الرعب عليها، وخروجها من أجْحارها وأوكارها، ونسيانها ما كانت تخافه فتفر منه، فتحشر هائمة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يخشى جميعها سطوة الإنسان.

وقيل: حشر الوحوش: موتُها وهلاكُها، يقال إذا أجحفت بالقحط والجدب وأضرت بالناس: حشرتهم السَّنَة، أي: أهلكتهم، وهلاكها من هوْل ذلك الحادث الأعظم.

وقد قيل في حشر الوحوش: إنَّه جمعها يوم القيامة للحساب، وهو ضعيف بعيد؛ لأنَّ الكلام الآن في حوادث التَّخريب قبل البعث بالفعل، وأول الكلام في البعث قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾»[1].

(١) تفسير جزء عم للإمام الشيخ محمد عبده صـ ٣٠.

QaradawiBooks.com

٦ ـ امتلاء البحار نارًا:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

الأمر السادس: تسجير البحار، من المعلوم أنَّ حوالي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، بحار ومحيطات عظيمة، تزخر بالمياه، وبينها حواجز ذكرها القرآن، تحجز بين البحار المالحة، والأنهار العذبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

كما رأينا بين النيل والبحر الأبيض المتوسط، وهناك حواجز بين البحار بعضها وبعض، بحيث لا يختلط ماؤها بماء تلك، ولا أسماك هذه وأحياؤها بأسماك تلك وأحيائها، كما شاهدنا ذلك في جنوب أفريقيا، بين المحيط الأطلسي، والمحيط الهندي، ووقفنا هناك بين المحيطين، ورأينا بأعيننا احتفاظ كلٍّ منهما بخصائصه وأحيائه وأسماكه وكثافته ولونه، إلخ.

ولكن عندما يتغيَّر النظام الكوني الَّذي عرفه الناس، وعرفه آباؤهم وأجدادهم طوال القرون، فتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتحشر الوحوش، نجد هذا التغيير يحدِث أثره في البحار الكبرى في العالم، فسجِّرت البحار، ومعنى التَّسجير، مأخوذ من قولهم: «سَجَرْتُ التنور إذا أوقدتَه، والشيء إذا أوقدت فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقي في البحار شيء من المياه البتة.

ثم إنَّ الجبال قد سيِّرت، على ما جاء في هذه السورة وفي غيرها، وحينئذ تصير البحار والأرض شيئًا واحدًا في غاية الحرارة والإحراق،

QaradawiBooks.com

ويحتمل ـ كما قال الإمام الرَّازي ـ أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربت ـ أي: زادت وانتفخت ـ فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال.

قال: ويحتمل أنَّ الجبال لما اندكَّت، وتفرَّقت أجزاؤها، وصارت كالتراب، وقع ذلك التراب في أسفل الجبال، فصار وجه الأرض مستويًا مع البحار، ويصير الكل بحرًا مسجورًا»[1].

وقالوا: يجوز أن تكون ﴿سُجِّرَتْ﴾ بمعنى: فجِّرت، بمعنى: أنَّ الله رفع الحواجز والبرازخ، الَّتي كانت بين البحار بعضها وبعض، ففاض بعضها في بعض، وأصبح بحرًا كبيرًا واحدًا.

هذه العلامات الستِّ التي تقع قبل القيامة، وأمَّا الست الباقية الأخرى، ممَّا ذكرته السورة، تختص بالوقوع في يوم القيامة.

(١) تفسير الإمام الفخر الرازي (٦٥/٣١).

QaradawiBooks.com

بقية الأحداث الَّتي تقع في يوم القيامة

١ ـ اقتران الأرواح بالأجسام وضم كل شيء إلى نظيره:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

أوَّل هذه الست الَّتي تختص بالوقوع في يوم القيامة: أن تزوَّج النفوس، **وكيف تزوَّج النفوس؟**

لمفسِّري السلف في ذلك أقوال متعددة. منهم: من فسَّر النفوس بالأرواح. ومعنى ذلك: أن تقترن بالأجسام، وقال بعضهم: «أن يُضَمَّ إلى كلِّ صِنْف من كان في طبقته من الرجال والنساء، فيضم المُبَرِّز في الطاعات إلى مثله، والمتوسِّط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله. فالتزويج هنا: أن يُقْرَنَ الشيء بمثله. والمعنى: أن يُضَمَّ كلُّ واحد إلى طبقته في الخير والشَّرِّ»[(١)]. وهو ما عبَّر عنه بعضهم بقوله: يجمع كلُّ شكل إلى نظيره. وعن مجاهد قال: الأمثال من النَّاس جُمِعَ بينهم[(٢)]. وقال الحسن: يصيرون فيها ثلاثة أزواج، كما قال الله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ ـ ١١].

وقيل: يُضَمُّ كلُّ رجل إلى من كان يلزمه من مَلِكٍ أو سلطانٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. وقيل: قُرِنَ كلُّ امرئٍ بشيعته، اليهودي باليهودي، والنَّصراني بالنَّصراني، والمجوسي بالمجوسي. وقيل: قُرِنَتْ النُّفوسُ بأعمالها المناسبة لها.

---

(١) تفسير الرازي (٦٥/٣١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٤٣/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال الـرَّازي بعد أن ذكر سـبعةً من هذه الأقاويـل: «واعلَمْ أنَّك إذا تأمَّلت في الأقوال الَّتي ذكرناها، أمكنك أن تزيدَ عليها ما شئت»[١].

«وممَّا رواه ابنُ أبي حاتم من طرق عن النُّعمان بن بَشِـير، أنَّ عمر خطبَ النَّاس فقرأ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، فقال: تَزَوُّجُها: أن تُؤَلَّفُ كلُّ شيعةٍ إلى شيعتهم. وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنَّة أو النَّار. وفي رواية: يُقرَن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويُقـرَن بين الرجل السـوء مع الرجل السـوء في النَّـار، فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية: هو الرجـل يُزَوَّج نظيره من أهـل الجنَّة، والرجل يزوَّج نظيره من أهل النار»[٢]. وكلَّها معان متقاربة.

٢ ـ سؤالُ مَنْ قتل الموؤدة بأشنعِ وسيلةٍ عن سبب قتلها؟

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾

المـوؤودة: هي البنـت الصغيرة الَّتـي كان أهل الجاهليَّـة العربيَّة يدفنونها حيَّة، يدسُّونها في التراب، كراهيةً للبنات.

كان العرب يتشاءمون من ولادة البنات ويكرهونها، حتَّى إنَّ أحدهم قيل له: إنَّ امرأتَك ولدت. قال: وما ولـدتْ؟ قالوا: أنثى. قال: ما هي بنِعْمَ الولد، نَصْرُها بكاء، وبرُّها سـرقة. أي: إذا أرادت أن تنصر أباها على خصومه، ليس معها سلاح إلَّا دموعها، وإذا أرادت أن تَبَرَّه تسرقُ من مال زوجها!

---

(١) تفسير الرازي (٦٥/٣١).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٣٢/٨).

QaradawiBooks.com

هذه فكرة كثير من عرب الجاهليَّة عن الابنة الأنثى، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. فجنت عليهم الجاهليَّة الَّتي توارثوها، أن يجزوا هذه المولودة الصغيرة بالوأد. أي: القتل، عن طريق دفنها حية، ثمَّ يغطى عليها بالتراب حتَّى تموت.

وحَسْب الإسلام فخرًا أنَّه قضى على هذه الجريمة الكبيرة الجاهليَّة، فقد كانت هذه جريمة مضاعفة، تحمل عدَّة جرائم كبرى في جريمة واحدة.

ما فعلته الجاهليَّة المتوحِّشة في قتل الأطفال:

فإنَّ القتل في حدِّ ذاته جريمة من أكبر الجرائم في نظر الإنسان في أيِّ بلد، وفي أيِّ قرن. ولكن من المعروف لدى الجميع: أنَّ قتل الأطفال، يكون أكبر جرمًا، وأعظم إثمًا من قتل الكبار، وخصوصًا إذا زاد صغرهم.

وكذلك حين يكون القتل من أجل أنَّه يزاحم الكبار في رزقهم، فيقتل ولده مخافةَ أن يطعم معه، مع أنَّ الأب من شأنه أن يجوع ليشبع ولده، ويتعبَ ليرتاح ولده.

ثم إنَّ المفروض أن يكون القاتل غريبًا عن المقتول، أمَّا هنا فالمصيبة أنَّ القاتل هو الأب، وكيف يكون الوالد قاتلًا لولده؟!

هذا ما فعلته الجاهليَّة المتوحشة، الَّتي لا تخشى خالقًا، ولا ترحم مخلوقًا. ثمَّ ليتها نفَّذت جريمة القتل بما يقتل به النَّاس عادة، بالسيوف

QaradawiBooks.com

أو الرماح، أو الحراب، أو الضرب بالسهام، ممَّا يعجل بقتل الإنسان وإزهاق روحه، ولكن هؤلاء اختاروا أسوأ وسيلة للقتل، وهي الوأد، والدس في التراب، والبنت حيَّة، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

هذه الجريمة الَّتي نصَّ عليها القرآن هنا؛ لتكون مأساة، وفضيحة للجاهليَّة، ولكل الجاهليَّات، الَّتي لا تبالي بسفك الدماء، وقتل البرآء، وخصوصًا من الأطفال، فكم قتلوا من نفس زكية بغير نفس ولا فساد في الأرض، فجزاهم الله بما يستحقون.

روى عبد الرزَّاق عن عمر، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي وأدتُ بناتٍ لي في الجاهليَّة. فقال: «**أعتقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ رَقَبَة**». قال: يا رسولَ الله، إنِّي صاحب إبل؟ قال: «**فانحرْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ بَدَنَة**»[(١)].

القرآن الكريم ذكر هذه القضيَّة من ضمن الأحداث الستَّة، الَّتي تَبْرُز يوم القيامة: أن يسأل اللهُ الموؤودةَ المقتولة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾؟! وليست البنت المسكينة هي المقصودة بالسؤال، فهي لا تُحسن الجواب، وربَّما لا تُحسن أن تفهم السؤال. فهي صغيرة السنِّ، قليلة الرشد، إنَّما السؤال مُوجَّه إلى منْ قتلها بغير حقٍّ، وقتلها بأشنعِ وسيلة.

ومعنى هذا في يوم القيامة: أنَّ الحساب والسؤال قد بدأ للناس عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

(١) رواه البزار (٢٣٨)، والطبراني (٣٣٧/١٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤٦٩): رواه البزار والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الأيلي وهو ثقة، من طريق عبد الرزاق.

QaradawiBooks.com

٣ ـ نشر صحف الأعمال:

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

هذا هو الأمر الثالث ممَّا يحدث في يوم القيامة. والمراد بالصحف: صحف الأعمال الَّتي يدوَّن فيها ما عمله الإنسان، من كبير أو صغير، وقول وفعل ونيَّة جازمة، فهذه كلها يكتبها قلم التسجيل الإلٰهي على الإنسان، بواسطة الملائكة الموكلين بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقال ﷻ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

فهذه الصحف مفتوحة ما دام الإنسان حيًّا، يكتب فيها جميع أعماله من خير وشر، طاعة أو معصية، أو ما ليس بطاعة ولا معصية، فإذا ماتَ الإنسانُ طُويت هذه الصُّحُف، حتى يأتي يوم القيامة، فتنشر مرَّة أخرى، وتكشف، ليقرأها صاحبها بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

قال قتادة: صحيفتك ـ يا ابنَ آدم ـ تُمْلِي فيها، ثمَّ تُطْوى، ثمَّ تُنْشَر عليك يوم القيامة، فلينظرْ رجلٌ ماذا يُمْلِي في صحيفته[١]!

وقال الضَّحَّاك في معنى الآية: أُعْطِيَ كلُّ إنسان صحيفة بيمينه أو بشماله[٢].

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤٨/٢٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٣٣٥/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤ ـ إزالة السماء:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾

هذا هو الأمر الرابع، ومعنى الكشط هنا: القطع والإزالة، قالوا: الكشط: قلعٌ عن شدَّة التزاق، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الذبيحة، وكما يكشف الغطاء عن الشيء المستور به، فتكشف السماء عمَّا فوقها، وهو عرش الله والجنة.

وقيل: كشطت، أي: طويت، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٥ ـ تسعير الجحيم:

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾

هذا هو الأمر الخامس، كما تذكر السورة ممَّا يقع يوم القيامة، وهو: تسعير الجحيم، بمعنى: إحمائها وإيقادها إيقادًا شديدًا، وتهيُّئِها لمن أُعِدَّت له. قال قتادة: إنَّما سعَّرها غضب الله تعالى، وخطايا بني آدم[1].

٦ ـ تقريب الجنة:

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾

هذا هو الأمر السادس في الأمور الَّتي تحدث في الآخرة، وهو الثاني عشر والأخير، في كل ما ذكرته السورة، فيما يقع قبل القيامة وبعدها.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٥٠/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومعنى أزلفت: أي أُدنيت وقُرِّبَت للمتقين، كما سُعِّرت الجحيم للفجار.

والزُّلفى في كلام العرب: القُربى، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾

بعد وقوع الأمور الاثني عشر الَّتي ذكرتها السورة، كشروط لـ ﴿إِذَا﴾، من تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار، وحشر الوحوش، وتسجير البحار، ممَّا يقع قبل القيامة. ثمَّ تزويج النفوس، وسؤال الموؤودة، ونشر الصحف، وكشْط السماء، وتسعير الجحيم، وإزلاف الجنَّة، وهو ما يقع في القيامة. هنا يأتي الجواب على ذلك كله، إذا حدث ذلك، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾. هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور، حينئذ تعلم كل نفس ما عملت في الدُّنيا من خير أو شر.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وعن عمر: أنَّه لمَّا نزلت: ﴿إذا الشمْس كورتْ﴾، قال لمَّا بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾: لهذا أُجْرِي الحديث[1].

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٣٥/٨)، بإسناد ابن أبي حاتم.

QaradawiBooks.com

القسم ببعض مخلوقات الله على عظمة هذا القرآن

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾

دلالة القسم المنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾

بعض المُفَسِّرين قالوا هنا: «لا» في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ زائدة، والمراد: أقسم. وأحسب أنَّ القول بزيادة حروف في القرآن غير مقبول، فكل حرف فيه له وضعه، وله دلالته، وأعتقد أنَّ «لا» النافية لها معناها، أي: لستُ في حاجة إلى القسم بهذه الأشياء؛ لأنَّ هذه الأشياء بينة واضحة، وليست غامضة ولا خافية، مثل هذا في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وقبله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

فهو هنا يؤكد أنَّ القسم موجود وأنَّه قسم عظيم؛ لأنَّ المعنى هنا يراد به: أنَّه لا يحتاج إلى قسم.

ومثل ذلك ما سيأتي في هذا الجزء من قوله في سورة الانشقاق: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٨]، وقوله في سورة البلد: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢]،

QaradawiBooks.com

فكلها تصبُّ في المجـرى الكبير، وهو أن ما يقسـم الله به من هذه الأشـياء والمخلوقات، ليس سـبحانه مفتقرًا إلى الإقسـام بها؛ لأن ما يقسم عليه في غاية الوضوح والتأكيد؛ لأنَّ الأمر واضح ولا يحتاج إلى قسم.

القسم بالنجوم:

فبماذا يقسم الله تعالى هنا؟ إنَّه يقسم بالنجوم، الَّتي تخنس وتختفي بالنهار، وتظهر وتتجلى بالليل، وهو مرويٌّ عن سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه [١].

وقال بعض الأئمَّة: إنَّما قيل للنجوم: الخُنَّس، أي: في حال طلوعها، ثمَّ هي جوارٍ في فلكهـا، وفي حال غيبوبتها يقال لهـا: كُنَّس. من قول العرب: أوى الظبيُّ إلى كِنَاسِه: إذا تغيَّب فيه[٢].

«والخنَّـس: جمـع خانـس وخانسـة، والخنـوس: الانقبـاض والاسـتخفاء، يقولون: خنس من بين القـوم وانخنس. وفي الحديث: «**الشيطانُ يُوَسْـوِس إلى العبد، فإذا ذكر الله خنس**». أي انفض. لذلك سُمِّي الشيطان: الخنَّاس.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: جمع كانس وكانسة، يقال: كنس إذا دخل الكِناس، وهو مَقَرُّ بَقَرِ الوحش[٣]، يقال: كَنَس الظِّبَاءُ في كنسـها، وتكنَّست المرأةُ إذا دخلت هَوْدَجها، تُشَبَّه بالظبي إذا دخل الكِنَاس»[٤].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٥٢/٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٣٧/٨).

(٣) في الرازي: مقر الوحش، وأثبتنا الصواب.

(٤) تفسير الرازي (٦٧/٣١).

QaradawiBooks.com

القسم بالليل والنهار:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

وبعد أن أقسم الله تعالى بالنجوم في خنوسها، وفي جريانها وكنوسها، أقسم بظاهرتين أخريين من ظواهر هذا الكون الَّذي نعيش فيه: ظاهرة الليل إذا أظلم، والصبح إذا أشرق، وقد عبر عنه بهذين التعبيرين الجميلين: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

فما معنى عسعسة الليل؟

قيل: إنَّ العسعسة من المتضادات، فتحمل على الإقبال، وعلى الإدبار، ولهذا قال بعضهم هنا: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أقبل وأظلم وانتشر ظلامه، وعكسه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي أسفر واستنار وأشرق، وامتد ضوءه وتكامل سفوره.

وقال آخرون: إنَّه يريد الإقسام بظهور النور بعد الظلام، والصباح بعد الدجى، فمراده بالليل إذا عسعس، أي: إذا أدبر وذهب، وبالصبح إذا تنفس، ليكمل مسيرة الضياء والإسفار، فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، مشيرًا إلى تكامل طلوع الصبح، فلا يكون فيه تكرار.

والتَّعبير بتنفس الصبح، يوحي كأنَّ الليل المظلم مكروب محزون ضاق به الصدر، حتى تنفَّس، فجاءته الحياة، ووجد الروح والراحة، وأقبل بإقبالة الصبح عليه نسيمٌ ونشاطٌ.

قال الحافظ ابن كثير: «وعندي أنَّ المراد بقوله: ﴿عَسۡعَسَ﴾، إذا أقبل. وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضًا، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنَّه

QaradawiBooks.com

أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إنَّ لفظة: ﴿عَسۡعَسَ﴾، تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم»[1] اهـ.

مكانة جبريل عليه السلام وأوصافه:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾

بعد أن فرغ من المقسم به، وهو بعض خلقه، وله أن يقسم بما شاء من خلقه لينوِّه به وينبه عليه، ذكر المقسم عليه وهو القرآن العظيم، ومن نقله إلى الناس، وحمله إليهم، وبلغه إلى الرسول البشري محمَّد ﷺ، ليحفظه فلا ينسى، ويبلغه إلى من حوله، ليحفظوه ويكتبوه، ويبلغوه ويعلموه؛ ولذا قال هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾، إشارة إلى القرآن، مع أنَّه لم يذكره، ولكنَّه غائب حاضر، هو في كل قلب، وعلى كل لسان.

والرسول الكريم هنا هو الرسول الملائكي، وهو ملك شريف، حسن الخلْق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه السلام، فهو الَّذي ينزل بالقرآن، كما قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٣٨/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وقد وصفه الله هنا بعدة صفات تميزه وتعرفه، ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كما قال في سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٤ ـ ٦]، أي شديد الخلْق، شديد البطش والْفِعْلِ.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾

له مكانة عند الله ربِّ العالمين، صاحب العرش، والعنديَّة هنا ليست عنديَّة المكان، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وليست عنديَّة الجهة، بل عنديَّة الإكرام والتشريف والتعظيم.

والمكين: هو ذو المكانة والمنزلة، والمراد هنا: المكانة والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى، كما قال ملك مصر ليوسف بعد أن ظهرت براءته، ونصعت صفحته: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

أي: إنَّ جبريل له وجاهة، وهو مسموع القول، مُطاع الأمر في الملأ الأعلى، فهم جميعًا يعرفون فضله، ويحفظون مقامه، وينزلون عند أمره، ومعنى ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك في السماوات الَّتي تجتمع فيها الملائكة، يعنى هو من جماعة الملائكة، بل هو من سادتهم وأشرافهم وكبرائهم، معتنًى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة، لينقل أعظم كتب الله، إلى أعظم رسل الله.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾، صفة أخرى لجبريل عليه السلام، وصفه بالأمانة، وهي صفة عظيمة يحتاج إليها كل رسول، ملكيًّا كان أو بشريًّا، وهي ضرورية لكي ينقل الرسالات من الله تعالى إلى عباده، ولهذا قال عن جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

QaradawiBooks.com

نفي تهمة الجنون عن النَّبيِّ ﷺ:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾

الخطابُ للعـرب عامَّة، وقريش خاصَّة، الَّذيـن بعِث إليهم محمَّد ﷺ خاصة، وإلى النَّاس كافَّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، وإنَّما سـماه صاحبهم؛ لأنَّه كان منهم، ونشأ معهم، وعاش بينهم، وكان من أقرب النَّاس إليهم، فلا غرو أن يكون صاحبهم.

ولقد صاحبوه وعرفـوا أنَّه من أعقل الناس، وأزكاهـم وأكثرهم اتزانًا، فكيف يصفونه بالجنون؟ وهل يسـتطيع المجنون أن يأتي بكلام بليغ بينٍ مبين مثل القرآن؟ وهل يمكن أن يتصـف بأخلاق عظيمة متوازنة كأخلاق محمَّد ﷺ، ولهذا قال تعالـى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلـم: ١ ـ ٤]، فالمجنون ذو شخصية مضْطربة، يفعل الأمر وضده، ويسوي بين المختلفيْن، ويفرق بين المتساوييْن، على خلاف شخصية صاحب الخلق العظيم، الَّذي يضع كل شـيء في موضعه، فلا يتكلم إلَّا بتفكيـر، ولا يعمل إلَّا بتدبير، ولا يتصرف إلَّا بحكمة، ولا ينطق إلَّا بالحق، ولا يحكم إلَّا بالعدل.

رؤية النَّبي جبريل في صورته الأصليَّة:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾

يشـير القرآن هنا إلـى أنَّ النَّبـيَّ محمَّدًا ﷺ، قـد رأى جبريـلَ أمين الوحي ﷺ، الَّذي كرَّمه الله ومدَحه بهذه الآيات، في صورته الأصلية، وهيئته الَّتي خلقه الله عليها، بالأفق المبين، أي: بمطلع الشـمس من قِبَل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه مطْلع الشمس، فهو مبين، من جهته نرى الأشياء.

QaradawiBooks.com

روى عبد الرزاق، والطبري في تفسيره، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: رأى جبريل له خمسمائة جناح، قد سدَّ الأفق[١].

وهي الرؤية الأولى الَّتي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠]، كما هو مُبَيَّن في سورة النجم.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه السورة، سور التكوير، نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنَّه لم يذكر فيها إلَّا هذه الرؤية، وهي الأولى.

وأمَّا الثانية، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٨]، فتلك إنَّما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء.

لا يكتم النبي شيئًا ممَّا أوحي إليه:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾

الضمير هنا يعود إلى النَّبي محمَّد ﷺ، الذي انتقل الحديث إليه، والغيب هنا هو: القرآن، وما فيه من الأنباء والقصص، وكل ما يجيء به عن ربه من أخبار يوم القيامة، ودقائق الوجود الَّتي تخفى على كثير.

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٥٢٢)، والطبري في تفسيره (١٦٦/٢٤)، والأثر متَّفق عليه عن ابن مسعود بلفظ: أنَّه رأى جبريل، له ستمائة جناح. رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢)، ومسلم في الإيمان (١٧٤).

QaradawiBooks.com

والضَّنين بالضاد: «البخيل»، أي: ليس بخيلًا بما أنزل الله. والباء في قوله: ﴿بِضَنِينٍ﴾ لتأكيد نفي ما بعدها عمَّا قبلها.

قال قتادة: كان القرآنُ غيبًا فأنزله الله على محمَّد، فما ضن به على الناس، بل نشره ونقله وبذله لكل من أراده[١].

وقال الفرَّاء: يأتيه (أي محمَّد) غيب السماء، وهو شيء نفيس، فلا يبخل به عليكم[٢].

وقال أبو عليٍّ الفارسي: المعنى: أنَّه يُخبر بالغيب، فيُبَيِّنه ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ذلك، ويمتنع عن إعلانه، حتَّى يأخذ عليه حُلْوانًا[٣]!

وهناك قراءة أخرى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، أي: بمتَّهم، واختار بعض العلماء قراءة الظاء ﴿بِظَنِينٍ﴾[٤]، واختار الطبري قراءة الضاد ﴿بِضَنِينٍ﴾، قال ابن كثير: «وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح»[٥].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

أي: وما هذا القرآن بقول شيطانٍ مرجومٍ مطرودٍ من رحمة الله، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٣٥/٨)، لعبد بن حميد.

(٢) معاني القرآن للفراء (٢٤٢/٣).

(٣) تفسير الرازي (٧٠/٣١).

(٤) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس بالظاء، وانفرد ابن مهران بذلك عن روح أيضًا، وقرأ الباقون بالضاد. النشر في القراءات العشر (٣٩٨/٢، ٣٩٩)

(٥) تفسير ابن كثير (٣٣٩/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القرآن ذكرٌ لجميع النَّاس يهتدي به من وجه مشيئته الحرة للاستقامة:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾

أين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقًّا من عند الله تعالى، كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة ـ قوم مسيلمة الكذاب بعد قتله ـ حين قدِموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه من قرآن مسيلمة، الَّذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال لهم: ويحكم! أين يذهب بعقولكم؟! والله إنَّ هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ[1]. أي: من إلٰه.

وقال قتادة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ أي: عن كتاب الله وطاعته[2]. والمعنى: أي طريق تسلكون أبْين وأقْوم من هذه الطريق المستقيمة الَّتي بَيَّنت لكم؟! «وهذا استضلال لهم، يقال لتارك الجادَّة اعتسافًا: أين تذهب؟! مُثِّلت حالُهم بحاله في تركهم الحقَّ، وعدولِهم عنه إلى الباطل»[3].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

إنَّ هذا القرآن ذكر لجميع الناس، ليس لقوم دون قوم، ولا لإقليم دون إقليم، ولا أهل لغة دون أهل لغة أخرى، ولا طبقة دون طبقة، بل هو ذكرٌ للناس جميعًا، يتذكرون به ويتَّعظون.

(١) تفسير ابن كثير (٣٤٠/٨).
(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٧١/٢٤).
(٣) تفسير الرازي (٧١/٣١).

QaradawiBooks.com

وهذه السـورة من أوائل السـور في القرآن المكي، وقد أكَّد القرآن عالميَّته، وعالميَّة رسـوله، وعالميَّة الإسـلام، كما قال في سورة القلم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وفي سورة ص: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨]، وفي سورة الأنعام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي سـورة الأنبياء قال تعالى يخاطب رسـوله محمدًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفي سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سـبأ: ٢٨]، وفـي سـورة الأعراف خاطـب الله محمدًا فقـال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وكل هذه الآيات في القرآن المكي، فإعلان العالميَّة أصيل وقديم في هذا الدين، لم يأتِ نتيجة التفوق المادي أو الانتصار على المشركين، بل جاء وتكرر وانتشر والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطفهم النَّاس فآواهم الله وأيَّدهم بنصره.

خصوص الإنذار للعرب لا ينافي عموم رسالته:

وقد زعم بعضهم أنَّه لم يَدْع إلى العالميَّـة إلَّا بعد صلح الحُدَيْبِيَة، حين أرسـل رسـائله إلى كسـرى وقيصر وإلى ملوك العالـم القريبين يدعوهم إلى الإسلام، وأنَّه قبل ذلك كان مشغولًا بالعرب وحدهم، كما قال القرآن: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وهذا سـوء فهم لما قرَّره القرآن فـي هذا الأمر الكبير، فالرسـول لا شـك رحمة الله للعالمين، ورسـوله إلى النَّاس جميعًا، ولكنَّه مرسل لإنذار العرب في أم القرى ومَنْ حولها بصفـة خاصة، والخصوص هنا لا ينافي العموم؛ لأنَّه يجب أن يبدأ أوَّل ما يبدأ بمن حوله وأقرب النَّاس

QaradawiBooks.com

إليه، ثمَّ يمضي في دعوته إلى النهاية، كما قال أيضًا في هذا الوقت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فهل ينذر عشيرته الأقربين من بني هاشم، أو بني عبد مناف، أو قريش، ويعرِض عن سائر العرب لم يفهم أحد ذلك من هذه الآية، ولا يمكن أن نفهم ذلك.

ولكن الَّذي جعله يؤخر الأكاسرة والقياصرة والملوك والأمراء إلى الدخول في الإسلام، وأن يسلموا ليَسلموا، إلى ما بعد الحديبية: أنَّه لم يفرغ لدعوة هؤلاء قبل ذلك؛ لأنَّه في العهد المكي، كان محصورًا في قلب بلده، يؤْذَى ويضطهد، ويُحْرم هو وأصحابه من كل حقوق الآدميين، حتى اضْطر إلى الخروج من أحب بلاد الله إلى الله، ومن أحب بلاد الله إليه، إلى المدينة، ليقيم فيها للإسلام دارًا جديدة، ودولةً جديدة، فرموه عن قوس واحدة، واجتمعوا على حربه، وتجمَّعوا على إبادته في مدينته، ولكن الله نصره عليهم، وردَّ كيدهم، وأبطل مكرهم، حتى أجبروا على أن يعقدوا معه هذا الصلح، فتنفس ﷺ الصعداء، وارتفع الخناق عن عنقه، وشعر بأنَّه أمسى قادرًا على أن يكتب لزعماء العالم بعالمية الرسالة.

فهكذا يجب أن نفهم ما قرره الله هنا في هذه السورة من قديم، من عالمية هذه الدعوة، بعالمية قرآنها، وعالمية رسولها، وعالمية مضمونها، وعالمية أمتها.

الاهتداء إلى الإسلام ميسر لمن شاء بإرادته الحرة:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

ومع أن هذه الدعوة العالميَّة تدعوهم وتنذرهم وتذكرهم، إلَّا أنَّ الَّذي يهدى بنورها، ويتذكر بذكرها، ويسترشد بهديها، إنَّما هو من شاء

QaradawiBooks.com

من المدعوين جميعًا أن يستقيم، صاحب المشيئة الحرة، والإرادة المستقلة، التي لا يدخل عليها النَّاس فيعوقونها، أو يحرفونها، أو يخرجونها عن طبيعتها فتموت أو تضعف أو تذبل، ولا تقوم بدورها، بل تقوم بأدوار مضادة لدورها الأساسي، فتفسد حين يجب الإصلاح، وتؤخر حين يجب التقديم.

فالمستفيد من المدعوين في العالم ـ وهم اليوم فوق السبعة بلايين ـ هو من شاء أن يستقيم، والاستقامة هنا تعبير عن الاهتداء إلى الإسلام، كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

وقد وهب الخالق سبحانه كل إنسان هذه المشيئة المستقلة، ليستخدمها في العمل لما يريده من خير أو شر، ومن حق أو باطل، ومن رشد أو غي. ولا يمنعه مانع من نفسه أو غيره، من إنس أو جن: أن يهتدي ويستقيم، فالباب مفتوح، والطريق مسلوك، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، فمن شاء الاستقامة استقام، ومن شاء الانحراف انحرف، هكذا أعطى الله سبحانه الإنسان هذا الإمكان، إن شاء اهتدى، وإن شاء ضل، وإن شاء آمن، وإن شاء كفر، وإن شاء أحسن، وإن شاء أساء.

الله تعالى هو الَّذي منح الإنسان المشيئة الحرة:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ولكن مشيئة الإنسان ليست مفروضة على النظام الذي وضعه الله لهذا الكون بما فيه ومن فيه، ولكنها جزء من مشيئة الله الَّذي نظَّم هذا

QaradawiBooks.com

العالم أفضل تنظيم، ورتَّبه أكمل ترتيب، فكل شـــيء فيه في موضعه، وكل مخلوق في مكانه، والله وحده هو الَّذي منح الإنســـان ـ وهو أحد مخلوقاته المكرمة عنده ـ هذه المشـــيئة الحرة، فلا يظـــن أحد أنَّه هو صانع نفسه، أو أنَّه إلٰه صغير. بل هو مخلوق لم يكن شيئًا مذكورًا، ربه العظيم هو الذي أوجده مـــن عدم، وأحياه من مـــوات، وأعطاه العقل والمواهب والقدرة والإرادة، فنحن نشـــاء ونريد، وننفذ ما نشـــاء وما نريد، لأنَّ الله خالقنا ﷻ، هو الَّذي شاء لنا هذا، وامتن علينا بهذا، لأنَّه ربنا ورب العالمين.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقاصد السورة:

السورة مكِّيَّة بالإجماع، وهي نظيرة سورة التكوير، وجاءت على طريقتها، مبدوءة بكلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيَّة، وإن كانت أهدأ نفسًا، وأكثر رقة من الأولى. وكل من السورتين يذكر بعلامات فارقة ومهمة قبل القيامة، ثمَّ هنا نداء من الله تعالى للإنسان: ما الَّذي غرَّه بربِّه الكريم خالقه ومسوِّيه ومصوره، وصاحب الفضل عليه، والإحسان إليه.

ثم ندد بالمكذبين بالآخرة، وما فيها من الجزاء والحساب، مع أن كل شيء مسجل عليهم، ومدوَّن في صحفهم، الَّتي كتبها الملائكة الَّذين يحفظونهم، ويكتبون ما يفعلون، ثمَّ بين ـ كما هو شأن كثيرٍ من سور هذا الجزء، كما مرَّ في «عمَّ» و«النَّازعات» و«عبس» ـ انقسام النَّاس في يوم الدِّين، يوم الجزاء إلى سعداء وأشقياء، أو إلى أبرار وفجَّار، وعاقبة الأبرار: النعيم، ونهاية الفجَّار: الجحيم، سيصلَوْنها يوم الدِّين، يوم لا تملك فيه نفسٌ لنفسٍ شيئًا، والأمر يومئذ لله.

روى الإمام النَّسائي بسنده، عن جابر قال: قام معاذ فصلَّى العشاء

QaradawiBooks.com

الآخرة، فطوَّل، فقال النبـــيُّ ﷺ: «**أفتَّانٌ أنت يا معـــاذ؟! أين كنتَ من: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؟**»[١].

وأصـــل الحديث مُخرَّج فـــي الصحيحين، ولكـــن ذكر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ في أفراد النَّسائي[٢].

وتقدَّم من حديث عبد الله بن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «**من سَـــرَّه أن ينظر إلى القيامة رأيَ العَيْن، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾**»[٣].

(١) رواه النسائي في الافتتاح (٩٩٧).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٦)، ومسلم في الصلاة (٤٦٥).

(٣) سبق تخريجه صـ١٥٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أشراط الساعة الهائلة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

تبدأ السورة بالحديث عن أشراط الساعة الهائلة، الَّتي تقع قبل قيامها، وهذه الأشراط أربعة: اثنتان منها تتعلَّق بعالم العلويَّات، واثنتان تتعلَّق بعالم السفليَّات.

١ ـ انفطار السماء:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

أولها: قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾: والفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير، إذا طلع. أي: انشقت، كما قال في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]. وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]. قال الخليل: لم يأتِ هذا على الفعل، بل هو كقولهم: مرضع وحائض، ولو كان على الفعل، لقال: السماء منفطرة به!

٢ ـ تناثر الكواكب وتساقطها:

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾

أي: تساقطت وتناثرت، يقال: نثرت الشيء أنثره نثرًا، فانتثر، والمعنى ظاهر؛ لأن عند انتقاض تركيب السماء، لا بدَّ من انتثار الكواكب على الأرض.

QaradawiBooks.com

٣ ـ تفجير البحار:

هذان هما الأمران العلويان، وأمَّا الأمران السفليان، فهما في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾

ذكر العلماء في معنى تفجير البحار هنا: أنَّــه ينفذ بعض البحار في البعض الآخر؛ لارتفاع الحاجز، الَّذي جعلــه الله برزخًا بينهما، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، وحينئذ يصير الكل بحــرًا واحدًا، وإنَّمــا يرتفع ذلك الحاجــز، لتزلزل الأرض وتصدعها، حتَّى إنَّ الجبال ينسفها ربُّنا نسفًا.

والمراد: أنَّ البحار هنــا تتغير عن صورتها الأصليــة وصفتها، وهو كتغير الأرض والســماوات عن صفتهما، في قولــه تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [إبراهيــم: ٤٨]. كما تتغير الجبال، حتَّى تصبح هباءً منثورًا، أو كالعهن المنفوش.

٤ ـ بعثرة القبور:

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾

أي: قلبت، وقلب ترابها، وأثيرت ونثرت، كما يبعثر الشيء المصفوف في صحن أو إناء، فيقع على الأرض ويتبعثر، وينتشــر على الأرض غير مرتب، فهكذا يفعل بالقبور الَّتي يدفن فيها النَّاس موتى، لينقلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، ويخــرج ما فيها من الموتــى أحياء، كما قال تعالــى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلــة: ٢]. أمَّا ما يذكــر من إخراج الذهب والفضة وأفلاذ كبد الأرض، فهو ممَّا لا يكون في القبور.

QaradawiBooks.com

فائدة ترتيب أشراط الساعة الهائلة الَّتي تقع قبل قيامها:

وقد ذكر الإمام الرَّازي فائدة هذا الترتيب، فقال: «واعلمْ أنَّ المراد من هذه الآيات: بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف. والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار، فإنَّه يبدأ أولًا بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، ثمَّ يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾، ثمَّ إنَّه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب، يخرب كل ما على وجه الأرض، وهو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، ثمَّ إنَّه تعالى يُخرب آخر الأمر الأرضَ الَّتي هي البناء، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فإنَّه إشارةٌ إلى قلْبِ الأرض ظهرًا لبطن، وبطنًا لظهر»[1].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

هذا هو جواب: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، كما كان الجواب في سورة التكوير: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، أي: إنَّه إذا انشقت السماء، وتساقطت النجوم، وانزاحت الحواجز بين البحار، فصارت بحرًا واحدًا، وأخرج ما في القبور من موتى أحياء إلى ربهم ينْسلون، هناك تعلم كل نفس ما قدَّمت وما أخَّرت، ما عملت من حسن أو سيئ، من طاعة أو معصية، من خير أو شر، فلم يعد هناك أحد قادر على أن يخبِّئ شيئًا، أو يَدَّخره لغد، فما عاد بعد ذلك غد.

(١) تفسير الرازي (٣١/٧٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والمقصود من هذا: الزَّجْر عن معصية الله تعالى، والترغيب في الطاعة، أي: يعلم كل واحد في هذا الحين ما قدَّم فلم يقصر فيه، وما قصَّر فأخَّر فيه.

أو ما قدَّمه من عمل أنجزه في حياته، وما أخَّره منه فيستمر من بعده، كالصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الَّذي يدعو له[1].

أو ما قدَّم من أعمال صالحة قضاها وأنجزها، وما أخَّر من أعمال ضيَّعها ولم يؤدِّها كما أمر الله، كترك الصلوات وتأخير الزكوات.

أو ما قدَّمه في أوَّل عمره، وما أخره في أواخره.

أو ما قدَّمه في حياته ممَّا يستوعبه في عمره، وما يتأخَّر من بعده من أعمال آخرين، تُكتب عليه؛ لأنَّه كان سببًا فيها، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

(١) إشارة إلى الحديث: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**». رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

مخاطبة الإنسان وتحذيره من مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۞ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾

خاطب الله جلَّ جلاله، في القرآن الإنسان المخلوق خطابًا مباشرًا له مرتين كلتاهما في هذا الجزء، مرَّة في هذه السورة، والأخرى في سورة الانشـــقاق حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. وهنا خاطب الرب الأعلى، الأحد الصمد، الإنسان المخلوق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، إنَّـــه خطـــاب لجنس الإنســـان، لا لشـــخص واحد، ولا لشعب واحد، ولا للون واحد، بل هو لهذا النوع كله: أبيضه وأصفره وأسوده، رجاله ونسائه.

وإذا نادى الربُّ العظيم، فعلى الإنسان أن يستمع ويلبي، ويعلم ماذا يريد الله منه، وما يجب أن يعلمه الإنسان، وما يجب أن يعرفه، وما يجب أن يفعله، وما يجب أن يتركه.

ينادي الله جل ثنـــاؤه الإنســـان: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، أي: ما خدعك عنه، وأبعدك عن طريقـــه أو اتباع مرضاته، مع ما أعطاك من العقل الَّذي به تفكر، والإرادة الَّتي بها ترجح، والقدرة الَّتي بها تنفذ، وما يســـر لك من معينات كثيرة تســـدد خطاك، وترشد قواك، بعث لك خير نبي أرسل، وهيَّأ إليك خير كتاب أنزل، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، فما الَّذي يجعلـــك تطرح هذا كله وراء ظهرك،

QaradawiBooks.com

وتمضي في طريق الشيطان الَّذي هو عدوك، وقد حذرك الله منه، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، فكيف تطيع وترضي الشيطان، وتعصى وتغضب الرحمن؟!

لقد تحدَّث الكثير من المُفَسِّرين عن الأمور الَّتي خدع بها الإنسان، ويمكنه أن يجيب بها، فكان بعضها حقًّا، وبعضها لا شك باطلًا.

فممَّا قاله بعضهم: قوله: غرَّني كرمك. وقال بعضهم: غرَّه حمقه وجهله. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: ما غرَّك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول: غرَّني ستورك المرخاة. فنظمه محمَّد بن السماك، فقال:

يا كاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي ... واللهُ في الخَلْوَةِ ثَانِيكَا؟
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُه ... وَسَتْرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا

وقال ذو النون المصري: كم من مغرور تحت الستر، وهو لا يشعر. وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري في هذا المعنى:

يا مَنْ غلا في الغَيِّ والتِّيهْ ... وَغَرَّهُ طولُ تَمادِيهْ
أَمْلَى لَكَ اللهُ فَبارَزْتَهُ ... وَلَمْ تَخَفْ غَبَّ مَعَاصِيهْ

وناس يقولون: ما غرَّك؟ أي: ما خدعك وسوَّل لك حتى أضعت ما وجب عليك[1]؟

(١) تفسير القرطبي (١٩/٢٤٥، ٢٤٦).

QaradawiBooks.com

وقال ابن مسـعود: ما منكم من أحد إلَّا سـيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: يا ابـنَ آدم، ما غرَّك بي؟ يا ابنَ آدم، مـاذا عملت فيما علمت؟ يا ابنَ آدم، ماذا أجبتَ المرسلين[١]؟

وزعم بعضهم: أنَّه إنَّما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، دون سـائر أسـمائه وصفاته الأخرى، كأنَّه لقَّنه الإجابة، أي: ليقـول: غرَّني كَرَمُك. قال ابن كثير: «وهذا الَّذي تخيلـه هذا القائل ليس بطائل؛ لأنَّه إنَّما أتى باسـمه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لينبِّه على أنَّه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء»[٢] اهـ. وهذا كلامٌ مقبولٌ مَوْزون.

خلق الإنسان وتسويته وتعديله وتصويره:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

أي: الَّذي أوْجدَك وأنشأك بعدَ أن لم تكن شيئًا، وجعلك سويًّا معتدلَ القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وهنا جمع للإنسان بعد الخلق التسوية، فالعدل. والتسوية: هي جعل الأعضاء سليمة سـويَّة مُعَدَّة لمنافعها. وعَدَلَها: أي عدل أعضاءك بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت أو تتضارب، وصرفها عن خِلقةٍ غير مناسبة لها.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى في المواعظ (١١٨٤٣)، والطبراني (١٨٢/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٧٦): رواه الطبراني في الكبير موقوفًا، ورجال رجال الصحيح غير شـريك بن عبد الله، وهو ثقة، وفيه ضعف.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٤٢/٨).

QaradawiBooks.com

ومن قرأ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتشديد[١]، فمعناها: صيَّرك معتدلًا متناسب الخَلْق، من غير تفاوت فيه، وبهذا ميَّز اللهُ الإنسانَ عن البهائم.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

أي: ركَّبك ربُّك وجمع أعضاءك بعضها إلى بعض، وألَّف بينها في أيِّ صورة أرادها واختارها لك من الصُّوَر المختلفة العجيبة الحسنة، ومن أسمائه تعالى: «المُصَوِّر».

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾:

و﴿مَّا﴾، قالوا: إنَّها مزيدة، وما معنى مزيدة؟ إن كان ذلك في الإعراب، فلا بأس بذلك، أمَّا الزيادة بمعنى أنَّها لا فائدة لها، فهذا ما لا نوافق عليه في القرآن، فكلُّ حرف فيه يقال: إنَّه مزيد، له معنى، وله ثمرة من غير شكٍّ، وزيادتها تدلُّ على تفخيم ما اتَّصلت به، وتوكيد المعنى وتحقيقه.

وإنَّما لم يعطف الجملة على ما قبلها؛ لأنَّها بيان لـ «عَدَلَكَ».

ويجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ شرطيَّة، أي: إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان، من صورة قرد أو حمار أو كلب أو خنزير، و﴿مَّا﴾، بمعنى الشرط والجزاء، أي: ما شاء أن يُرَكِّبَك فيها ركَّبَك.

(١) قرأ الكوفيُّون (عاصم وحمزة والكسائي) بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها. النشر في القراءات العشر (٣٩٩/٢).

QaradawiBooks.com

التَّحذير من التَّكذيب بيوم الدين:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾

﴿كَلَّا﴾: ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى، وجعْله ذريعة إلى الكفر والمعاصي؛ مع كونه موجبًا للشكر والطاعة.

وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي: إنَّما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ومبارزته بالقبائح: تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، فإنكار الآخرة وما فيها من سؤال وحساب، وجنة ونار، هو أساس المشكلة كلها. و﴿بَلْ﴾، لنفي شيءٍ تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلومًا، وإن لم يجْرِ له ذكر في هذه السورة.

«قال القاضي[١]: معناه: أنَّكم لا تستقيمون على توجيه نِعمي عليكم، وإرشادي لكم، بل تكذبون بيوم الدين.

قال القفال: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما تقولون من أنَّه لا بعث ولا نشور؛ لأنَّ ذلك يوجب أنَّ الله تعالى خلق الخلق عبثًا وسُدًى، وحاشاه من ذلك، ثمَّ كأنَّه قال: وإنَّكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون»[٢].

الملائكة الموكَّلون بالرقابة على الإنسان وكتابة أعماله:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

يُؤكِّد الله تعالى هنا بحرف ﴿وَإِنَّ﴾، بأنَّ على النَّاس حافظين

(١) عبد الجبار بن أحمد أبو الحسن الهمذاني الأسداباذي المعتزلي.
(٢) تفسير الرازي (٣١/٧١).

QaradawiBooks.com

ورقباء، من جنود الله: الملائكة الَّذين يُجَنِّدهم فيما يشاء من الأعمال المختلفة، فمنهم من يُكَلَّف بالنزول على الأنبياء، ومنهم المُوَكَّل بالنفخ في الصور، ومنهم المُوَكَّل بالموت، ومنهم المُوَكَّل بالجنَّة، ومنهم الموكَّل بالنَّار، وغير ذلك من الأعمال، الَّتي ذكرها القرآن في سورٍ متعدِّدة، وآيات كثيرة.

ومنهم هؤلاء الموكَّلون بالرقابة على الإنسان وكتابة أعماله، من حسنات وسيئات، ومعاصي وطاعات، كما قال في سورة أخرى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

هل تكتب الحفظة ما يكون من الكفَّار من حسناتٍ وسيئاتٍ؟

ولهذا نُرجِّح أنَّ الجميع عليهم هؤلاء الرقباء، من مؤمنين وكافرين؛ لأنَّ الجميع يسجل الله عليهم كلَّ شيء، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وإذا قيل: إنَّ المَلَك يكتب الحسنات والسيئات، والكافر لا حسنة له، فلماذا يكتب؟ والجواب: أنَّ من الكفَّار من له بعض الحسنات يخفِّف الله بها عنه من العذاب، فلماذا تضيع عليه، ولا توضع في حسابه؟ والله تعالى أخبرنا أنَّ كلَّ إنسان له كتاب: يأخذه المؤمن بيمينه، ويأخذه الكافر بشماله، ومن وراء ظهره، كما ذكر في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وفي سورة الكهف يقول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

QaradawiBooks.com

أوصاف الرقباء الحفظة:

هؤلاء الحَفَظَة الرُّقباء وصفهـــم الله بقوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أي: هم كرام علـــى الله؛ لأنَّهم من ملائكته الَّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤْمرون، كقوله عنهم: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦].

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أنَّهم لا يَخْفى عليهم شيء من أعمالنا الظاهـــرة والخفيَّة، ممَّـــا يريد الله أن يكتـــب علينا، ولذلك يطلعون على ما ظهر منا، دون ما حدَّثنا به أنفسنا، أمَّا النيَّة الجازمة الَّتي يُثاب الإنســـان بها على فعل الخير، ويعاقب فيها على الشـــرِّ، فهي ممَّا يُقدرهم على معرفته ليكتبوه.

وتوكيل الله تعالى ملائكته الكرام، لكتابة أعمال الإنسان، دليلٌ على أنَّه عند الله تعالى من جلائـــل الأمور، ولولا ذلك ما وكَّل هؤلاء الكُتَّاب الكرام بضبطه وتدقيقه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بيان ما أعدَّه سبحانه للأبرار وللفجار

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۞ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

تقسيم الخلق إلى فريقين: أبرار كثير خيرهم، وفجار كثير شرهم:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾

ختم الله السورة ببيان ما أعدَّه سبحانه للأبرار وللفجار، أو للمؤمنين والكفار، فأخبرنا بعبارتين موجزتين ما فصَّله في سور أخرى، وخصوصًا في هذا الجزء من سورِ: النبأ والنازعات وعبس، وما يأتي في السور الأخرى، وأعلمنا أنَّ الأبرار في نعيم، هو نعيم الجنَّة، وأنَّ الفجار في جحيم، وهو جحيم النَّار. والأبرار: جمع بَرّ، بوزن «رَبّ»، وهو المطيع المتوسِّع في أعمال الخير، والنَّعيم: الحال الحسنة. والفجَّار: جمع فاجر، وهو الَّذي يكذِّب بالتوحيد والبعث. والجحيم: النَّار المحرقة. واللام المتكررة مرتين في قوله: ﴿لَفِى﴾ هي المزحلقة للمبالغة في التوكيد والاستقبال.

وفي تنكير «النَّعيم»، و«الجحيم» ما لا يخفى من التَّفخيم والتَّهويل.

وهذا التقسيم للخلق كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦].

QaradawiBooks.com

ما حال أهل الجحيم فيها؟

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾

أجمل القرآن هنا بالنسبة لفريق أهل السعادة، وهم الأبرار، وأهل البرِّ والتقوى، بأنَّهم في النَّعِيم، ولكنَّه فصَّل في شأن أهل الشقاوة، فقال بعد ذكر أنَّهم في الجحيم: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، فهذا استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من تهويلها، كأنَّه قيل: ما حالهم فيها؟ فقيل: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها، ويقاسون حَرَّها وعذابها، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي يوم الجزاء الَّذي كانوا يُكَذِّبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾

ليسوا بغائبين عن هذه الجحيم طَرْفَة عَيْن، ولا يُخفَّف عنهم من عذابها، ولا يُجَابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يومًا واحدًا.

تهويل شأن يوم الدين:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

يخاطب الله رسوله معظمًا شأن يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، «وإنَّما خاطبه بذلك؛ لأنَّه ما كان عالمًا بذلك قبل الوحي»[1].

ثُمَّ أكَّد هذا التعظيم بتكرار هذه الآية مع ﴿ثُمَّ﴾، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، ثم فسَّره تعالى بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، فهو اليوم الَّذي لا يقدر فيه أحد

(١) تفسير الرازي (٣١/٨٠).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

على نفع أحـــد، ولا تخليصه ممَّا هو فيه، إلَّا أن يأذن الله لمن يشـــاء ويرضى، وفي هذا جاء حديث النبي ﷺ حين قال لأقرب النَّاس إليه: «**يا بني هاشم، أنقذوا أنفسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلب، أنقذوا أنفسَكم من النَّار، يا فاطمةُ، أنقذي نفْسَـــكِ من النَّار، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئًا**»[1].

ولهذا قال ســـبحانه: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، كقوله في ســـورة غافر: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافـــر: ١٦]، وقوله في ســـورة الفرقان: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقـــان: ٢٦]، وقوله الَّذي نتلـــوه في الفاتحـــة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحـــة: ٤]. وهو لا شـــكَّ يملك الأمور كلَّها اليوم، كما كان يملك في الأزل، ولكن ربَّما نازعه من نازع بالباطل في الدنيا، ولكن غدًا لا ينازعه فيه أحد.

وهذا التَّعميم في هذه الآيـــة خصصته آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقـــرة: ٢٥٥]، وقولـــه ســـبحانه عـــن الملائكـــة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبيـــاء: ٢٨]، وقوله تعالـــى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قال الإمام الـــرازي: «إنَّ أهـــل الدُّنيا كانوا يتغلَّبـــون على الملك، ويُعين بعضهم بعضًا في أمور، ويحمي بعضهـــم بعضًا، فإذا كان يوم القيامة، بطل ملك بني الدنيا، وزالت رئاستهم، فلا يحمي أحدٌ أحدًا، ولا يغْني أحـــدٌ عن أحدٍ، ولا يتغلـــب أحدٌ على ملـــك، ونظيره قوله

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢٠٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تعالـــى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وهو وعيد عظيم من حيث إنَّه عرفهم أنَّه لا يغني عنهم إلَّا البرُّ والطاعة يومئذ، دون سائر ما كان قد يُغني عنهم في الدُّنيا من مالٍ وولدٍ وأعوانٍ وشفعاءَ.

قال الواحدي[1]: والمعنى أنَّ الله تعالى لم يُملِّك في ذلك اليوم أحدًا شيئًا من الأمور، كما ملَّكهم في دار الدنيا»[2].

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

غير مرخصة للطباعة

(١) في تفسيره البسيط (٣٠٣/٢٣).

(٢) تفسير الرازي (٨١/٣١).

QaradawiBooks.com

سورة المُطفِّفين

سورة المُطفِّفين سورة مكيَّة:

سورة المُطفِّفين سورة مكيَّة، وقال بعضهم: مدنيَّة، وذكروا فيها أحاديث لم يجمع العلماء على تصحيح سندها، والَّذي يظهر لي من موضوعها وأسلوبها: أنَّها مكيَّة. والَّذين قالوا: إنَّها مدنيَّة، ذكروا أنَّها في أولها عنيت بما يتعلق بالكيل والميزان والتطفيف فيهما، وهو من شأن السور المدنيَّة.

ونحن نعلم أنَّ القرآن الكريم كثيرًا ما يودع في السور المكية بعض القواعد الَّتي تمهد لما يحتاج إليه المجتمع فيما بعد، فكما وضع أساس التعامل الطيب في السوق، ووضع أساس الشورى في سياسة الناس، وأساس الدفاع عن النفس أمام البغي، كما في قوله تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۞ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٣٨ ـ ٤٢].

ومن هنا ذكر القرآن الوعيد على التطفيف في الكيل والميزان،

QaradawiBooks.com

ليمهد لإقامة سوق العدل والحرية والوفاء بالحقوق، وهو ما قرره القرآن في سوره المكية المتعددة، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام المكية، في الوصايا العشر: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ٤٠]، وفي سورة الإسراء المكية في وصايا الحكمة: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وفي سورة الرحمن المكية، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

وأكد القرآن هذا بما ذكره في أكثر من سورة عن نبي الله شعيب، الَّذي عني بالجانب الاقتصادي أكثر من غيره، وتحذيره قومه من بخس النَّاس أشياءهم، وتطفيف الكيل والميزان، كما في سورة هود، وسورة الشعراء وغيرهما، يقول تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦].

من مقاصد السورة:

ومن مقاصدها: المحافظة على أسواق المسلمين أن تفسدها تلاعبات أهل رأس المال والتجار وغيرهم، من الَّذين يريدون العبث والنقص في المكاييل والموازين. ومثلها كل المقاييس العامة، فأنزل الله فيها هذه الآيات المنذرة بالويل والعذاب لهم، والمهددة لهم بيوم عظيم، يوم يقوم

QaradawiBooks.com

النَّاس لرب العالمين، وبيان ما يجب أن يكـــون عليه الكيل والوزن في البيع والشراء.

كما بينت الآيات مصير الفجار وحقيقتهم، وهم الَّذين يكذبون بيوم الدين، من كل معتـــدٍ أثيم، إذا تليـــت عليه آيات القرآن قال: أســـاطير الأولين. وما ينتظر هؤلاء من جحيم يصلونها.

وفي مقابل هؤلاء الفجارِ: الأبرار، فهؤلاء فـــي عِلِّيِّين، وأولئك في سِجِّين.

ثم بيَّن النَّعيم الَّذي يتمتع به الأبرار فـــي جنَّات النعيم، وما هم فيه من رضا وسكينة، وعيش رغد، وشراب وقرة عين.

وفي النهاية بيَّنت السورة موقف المجرمين من المؤمنين، الَّذين كانوا يضحكون منهم، ويستهزئون بهم، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا رجعوا إلى منازلهم رجعوا يسخرون منهم، ويتفكهون بما فعلوه بهم، واليوم قد انقلبت الموازين، وتغيرت العناوين، ونشـــرت الدواوين، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

فقرات السورة:

انقسمت ســـورة المُطفِّفين إلى أربعة مقاطع، أربع فقرات: فقرة عن المُطفِّفين وعذابهم، والفقرة الثانية: عن الفجـــار وكتابهم، والثالثة: عن الأبرار وكتابهم، والرابعـــة: عن موقف الَّذين أجرموا مـــن الَّذين آمنوا، حيث كانـــوا يضحكون مـــن المؤمنين فـــي الدنيا، فأصبـــح المؤمنون يضحكون عليهم في الآخرة.

QaradawiBooks.com

تفسير السورة:

المطففون وعذابهم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

بعد إنهاء سـورة الانفطار بقوله تعالى ـ بعد بيان مصير الأبرار من النعيم، والفجار من الجحيم ـ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، كان من المناسب أن تبدأ السورة التالية لها بهذا الإنذار للمُطفِّفين بالويل.

الويل: هو الهلاك والعذاب، تقول العرب لمن يفعل الشرَّ: ويلٌ له، أو يخاطب فيقال له: ويلٌ لـك. وما قيل من أنَّه وادٍ فـي جهنَّم، ليس من معنى الويل لغة، ولم يصحَّ به حديث[1].

والإنـذار بالويل والعذاب للمُطفِّفين يقتضـي الزجْر والتخويف من رذيلة التطفيف، وهو البخس في المكيال والميزان بالشـيء القليل على سبيل الخفية، وذلك لأنَّ الكثير يظهر فيمتنع منه، وذلك القليل إن ظهر أيضًا منع منه، فعلمنا أنَّ التطفيف المذموم هنا، هو: البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخُفية والتمويه.

(١) رواه أحمد (١١٧١٢)، وقال مخرِّجوه: إسـناده ضعيف. والترمذي في الزهد (٢٣٨٣)، وقال: حديث غريب لا نعرفـه مرفوعًا إلا من حديث ابـن لهيعة. وضعفـه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٣٦)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

والأَوْلى أن نفسر التطفيف بما فسره الله تعالى به، فبعد أن هدد الله تعالى بالويل للمُطفِّفين، عرفهم للنَّاس، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، فالمراد بالذين إذا اكتالوا على الناس: الَّذين يشترون منهم، ويتناولون عنهم، أي: منهم، فهم لذلك يستوفون، يأخذون منهم ما يحبون أن يأخذوا من الزيادة من الكيْل والوزن، في حين أنَّهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم، أي: في حالة البيع لهم، يخْسرون، أي: ينقصون. والله تعالى يريد عكس ذلك، وقد جعل ذلك من الوصايا العشر الَّتي وصَّى بها في سورة الأنعام، حين قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه في وصايا الحكمة في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. فربط هذا بالميزان الكوني الَّذي وضعه لتوازن هذا العالم واعتداله، فكل شيء فيه ميزان ومقدار.

وقد علمنا القرآن أهمية هذا الأمر، حين ذكر ما فعله من إرسال نبيه شعيبًا إلى مدْين وأصحاب الأيْكة، الَّذين أمرهم بعد توحيد الله: أن يوفوا الكيْل والميزان ولا يبخسوا النَّاس أشياءهم، ولا يعثوا في الأرض مفسدين، ولكنهم خالفوا شعيبًا، وأصروا على حيفهم وبغيهم وتجاوزهم، حتَّى نزل بهم عذاب الله، فبعدًا للقوم الظالمين.

وعن ابن عبَّاس ﷺ قال يخاطب الأعاجم: إنَّكم مَعْشَرَ الأعاجم، وُلِّيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال والميزان[1]. وخصَّ

(١) رواه البيهقي في البيوع (٦/٣٢).

QaradawiBooks.com

الأعاجـــم؛ لأنَّهم يجمعـــون الكيل والـــوزن جميعًا، وكانـــا مُفَرَّقين في الحَرَمين، كان أهل مكَّة يَزِنون، وأهل المدينة يَكِيلون.

وذلـــك أنَّ أهل مكَّة كانوا تُجَّـــارًا؛ لأنَّهم بوادٍ غيـــر ذي زرع، فكان الوزن أعدلُ عليهم في تجارتهم، من الدراهم والدنانير والأواقي وغيرها، أمَّا أهل المدينة فكانوا زُرَّاعًا وأهل نخيل، وكان الكيل هو المستعمل في تقدير مقادير الزروع والثمار والتمور وأمثالها في ذلك الوقت.

وروى الإمام أحمد، أنَّ أبا هُرَيْرة قدم المدينـــة وقد خرج النبيُّ ﷺ إلى خيبر، واســـتخلف على المدينة سِـــبَاع بن عُرْفُطة، فقال أبو هُرَيْرَة: فوجدناه في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وقرأ في الركعة الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾. قـــال أبو هُرَيْرة: فأقول في صلاتي (أي يقول في نفســـه): ويلٌ لأبي فلان، كان له مكيالان، إذا اكتال ـ أي: اشترى ـ اكتال بالوافي، وإذا كال ـ أي: باع ـ كال بالناقص[1].

وفي الحديث الَّـــذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رســـول الله فقال: «**يا معشـــرَ المهاجرين، خمسُ خصالٍ إذا ابتُليتم بهنَّ، وأعوذُ بالله أن تدركوهنَّ**» وذكر من هذه الخمسة: «**ولم يَنْقُصوا الكيلَ والميزان، إلَّا أُخِذُوا بالسِّنِين، وشدَّةِ المؤونة، وجوْرِ السُّلْطان عليهم**»[2].

«وأخذوا بالســـنين»: جمع سَـــنَة، ويراد بها القَحْط، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، و«**شِدَّة المؤونة**»: قيل: الموارد والثمرات، و«جوْر السلطان عليهم»: زيادة في النقمة والعقوبة عليهم.

---

(١) رواه أحمد (٨٥٥٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتـــن (٤٠١٩)، والحاكم في الفتن والملاحـــم (٥٤٠/٤)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٦).

QaradawiBooks.com

نسيان الآخرة وأهوالها:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتــراء على التطفيف؛ كأنَّه لا يخطر في بالهم، ولا يخمنون مجرد تخمين: أنَّهم مبعوثون من قبورهم يومًا، ومسؤولون عمَّا يفعلون، أي: أمَّا يخاف أولئك من البعث، والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخَطْب، من خسر فيه أدخل نارًا حامية.

المراد بالظنِّ في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

و«الظنُّ» هنا، قال بعض المُفَسِّرين: إنَّه بمعنى اليقين، أي: ألا يوقن أولئك أنَّهم مبعوثون، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن.

وقال آخرون ـ وأنا معهم ـ: الظنُّ على حالــه، بمعنى: الغالب على الفكر أو التردُّد، أي: إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلَّا ظنُّوه ظنًّا، حتَّى يتدبَّروا لأنفسهم، ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط لهذا اليوم العظيم.

وكثيرًا ما يســتخدم القرآنُ الظنَّ في مثل هذه المواقف، باعتبار أنَّه كان كافٍ لأصحابــه في هذا الموقــف، كقوله تعالى في ســورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقــرة: ٤٦]، وَقَوْلِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

تعظيم هول الموقف يوم الدين:

وفي هذا الإنكار والتعجيب، وكلمــة الظنِّ، ووصف اليوم بالعظيم،

QaradawiBooks.com

وقيام النَّاس فيه لله خاضعيـــن، ووصف ذاته ﷻ بـ «ربِّ العالَمين»: بيانٌ بليغ لهول الموقف، وعِظَم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحَيْف، وترك القيام بالقســط، والعمل على التســوية والعدل في كلِّ أخذٍ وعطاء، وفي كلِّ قولٍ وعملٍ.

روى مالك والشــيخان وغيرهما، عن ابن عمــر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **حتَّــى يغيــب أحدُهم في رَشْــحه إلى أنصافِ أُذُنَيْه**»[(١)]. وصحَّت أحاديث كثيرة عن شدَّة العرق ومقداره في هذا اليوم الطويل.

هذا، وهناك مطفِّفون من أهل الإيمــان؛ لأنَّهم كانوا في مكَّة، أو في المدينــة ـ كما جــاءت بعض الروايــات ـ من الأوس والخــزرج، فهم مســلمون، وأصابهم ما أصابهم من أجل القليل الَّــذي يأخذونه بطريق التطفيــف والبخس في المكيــال والميزان، فما بالكــم بالذين ينتهبون الأموال انتهابًا بلا كيل ولا وزن، ولا بيع ولا شراء، وإنَّما يظلمون النَّاس ويبغون في الأرض.

وقد رَوَوا أنَّ أعرابيًّا قال لعبدِ المَلِك بن مروان: قد سمعتُ ما قال الله تعالى في المُطفِّفيــن[(٢)]! أراد بذلك أنَّ المُطفِّفين قــد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الَّذي سمعت به، فما ظنُّك بنفســك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيلٍ ولا وزن؟!

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٨)، ومسلم في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٦٢)، كما رواه أحمد (٤٦١٣).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٤/٧٢٠).

QaradawiBooks.com

كتاب الفجَّار في سِجِّين

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۞ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾

هذه الفقرة الثانية من الفقرات الأربع الأساسيَّة الَّتي تتضمَّنها هذه السورة، فبعد أن ذكر الله ذنب التطفيف وعِظمه، وأنزل فيه من الوعيد ما أنزل، أتبعه بلواحقه وأحكامه، بداية بحرف ﴿كَلَّآ﴾، وهي للرَّدْع والزَّجْر، والتنبيه على أنَّ الأمر ليس ما هم عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب، فليرتدعوا وليتنبهوا.

وكتاب الفُجَّار هو الكتاب الجامع الَّذي هو ديوان الشرِّ، تدوَّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثَّقَلَيْن، و﴿سِجِّينٌ﴾ منقول من وصفٍ، كخاتَم، وأصله «فِعِّيل» من السَّجْن، وهو الحبس والتضييق؛ لأنَّه سبب الحبس والتضييق في جهنَّمَ.

والمعنى: أنَّ المكتوب في صُحف الفجَّار، الَّذين من جملتهم المطفِّفون، أي: ما يكتب من أعمالهم، أو كتابة أعمالهم، لفي ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين. أي: إنَّ مأواهم ومصيرهم لفي سِجِّين، كما يقال: فِسِّيق، وشِرِّيب، وخِمِّير، وسِكِّير، ونحو ذلك، أي: هو أمر عظيم، وسَجْن مُقيم، وعَذاب أليم.

QaradawiBooks.com

وقوله تعالـــى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، تهويلٌ لأمـــره، أي: هو بحيث لا يبلغه دراية أحد. والدليل على أنَّ سِجِّينًا ليس ممَّا كانت العرب تعرفه، قولـــه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، أي: ليـــس ذلـــك ممَّـــا كنـــتَ تعلمه أنت ولا قومك. وما ذكر ذلك إلَّا تعظيمًا لشـــأن سِّجِّين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

قال الفخر الرازي: «إذا عرفتَ هذا، فنقـــول: قد ذكرنا أنَّ الله تعالى أجرى أمورًا مع عباده علـــى ما تعارفوه من التعامـــل فيما بينهم وبين عظمائهم. فالجنَّة موصوفة بالعُلُوِّ والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المُقَرَّبين، والسِّـــجِّين موصوف بالتســـفُّل والظلمـــة والضيق وحضور الشـــياطين الملعونين، ولا شـــكَّ أنَّ العُلُوَّ والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المُقَرَّبين، كلُّ ذلك من صفات الكمال والعزَّة. وأضدادها من صفات النقـــص والذلة، فلمَّـــا أريد وصف الكفـــرة وكتابهـــم بالذِّلَّة والحقـــارة، قيل: إنَّـــه في موضع التســـفُّل والظلمـــة والضيق وحضور الشـــياطين، ولما وصف كتاب الأبرار بالعـــزة قيل: إنَّه ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، و﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾»[1].

وقال ابـــن كثير: «ولمَّـــا كان مصير الفجَّار إلى جهنَّم، وهي أســـفل الســـافلين، كما قال تعالـــى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥، ٦]، وقال هاهنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]»[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٩٢/٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٤٩/٨).

QaradawiBooks.com

المراد بالكتاب المرقوم هنا:

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾

أي: مسطور بيِّن الكتابة، أو مُعَلَّم؛ يعلم من يراه أنَّه لا خير فيه، وقيل: هو اسم المكان، والتقدير: ما كتابُ السِجِّين؟ أو مَحَلُّ كتابٍ مرقومٍ[١].

وقال ابن كثير: «كتاب مرقومٌ ليس تفسيرًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، وإنَّما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سِجِّين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يُزاد فيه أحد، ولا يُنقَص منه أحد»[٢]. قالوا: والتقدير هنا: هو كتاب مرقوم.

ما المراد بقوله: يومئذ؟

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

قال ابن عطيَّة: «إشارة إلى ما يتضمَّنه المعنى في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾، وذلك أنَّه يتضمَّن أن يرتفع ليومِ عرضٍ وجزاء، وبهذا يتمُّ الوعيد، ويتَّجه معناه»[٣].

وبعضهم أعاد ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، في الفقرة السابقة، وهو محتمِل، وإن كانت الفقرة الأولى قد خُتِمَت بهذه الآية. والأوَّل أَوْلى.

---

(١) تفسير البيضاوي (٢٩٥/٥)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٤٩/٨).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٥١/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من المكذِّبون الَّذين توعَّدهم الله بالويل؟

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

إنهم الَّذين يجْحدون البعث، ولا يؤمنـــون بالآخرة، ويكذبون بيوم الدِّين، يوم الحساب، الَّذي حدَّثنا الله عنه في السورة السابقة بهذا الاسم: «يوم الدِّين»، وجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

وصف المُكَذِّبين بثلاث صفات:

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

وصف القرآن المُكَذِّبين بثلاثِ صفاتٍ أساسيَّة:

أوَّلها: صفة الاعتداء:

المعتدي: هـــو من تجاوز عـــن المنهج الحقِّ، وتعـــدى حدود النظر والاعتبار، وألقى عقله، وغلا في الجمود والتقليد، حتَّى استقصر قدرة الله وعلمه تعالى، على إعادة الخلق بعد موتهم، بعد ما شاهد البدء، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وثانيها: صفة الإثم:

الأثيم، مبالغة في آثم، وهو مرتكب الآثام والشرور والمعاصي. أي: منهمك في الشـــهوات، بحيث شـــغلته عمَّا وراءها، ممَّا يقتضيه العقل السليم، من اللذات التامة الباقية، وحملته على إنكارها.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وثالثها: الإعراض عن القرآن:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فلا يستمع إلى القرآن، ولا يصغي إلى قوله، وآياته البيِّنات، وما يقيمه من حُجَج ظاهرة، وبيِّنات ساطعة على ما يدعو إليه، وإنَّما يقول من فَرْط جهله، وإعراضه الَّذي لا يحيد عنه، إذا تليت عليه آيات الله الناطقة بذلك: أساطير الأوَّلين. أي: هي حكايات الأولين، وما فيها من خيالات وأباطيل، أخذت منهم بعجرها وبجرها، ليتلوها علينا بكرة وأصيلًا. فهذا شأنهم؛ إذا سمع أحدهم كلام الله تعالى مع الرسول، يكذب به، ويظنُّ به ظنَّ السوء، فيعتقد أنَّه مفتعل مجموع من كتب الأوائل. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

معاصيهم غطَّت قلوبهم:

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

﴿كَلَّا﴾، هنا: زجْر وردٌّ لقوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وردع للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه.

وقوله: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، بيانٌ لمَّا أدَّى بهم إلى التفوهِ بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقولات الباطلة، بل إن ما اكتسبوه من الكفر والطغيان والعلو، قد ران على قلوبهم، أي: غطى عليها وغلب، حتَّى صارت كالصدأ في المرآة، فهم مع ذلك لا يبصرون رشدًا، ولا يخلص إلى قلوبهم خير،

QaradawiBooks.com

فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحقِّ. يقال: رانتِ الخمر على عقلِ شاربِها، وران الغشْي على عقل المريض.

فالقرآن ليس أساطير الأولين، وإنَّما هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله، وإنَّما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الريْن، الَّذي لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا الَّتي ارتكبوها.

والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين، كل على حسب منزلته.

وقد ذكر ابن كثير هنا ما رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه، بإسنادهم، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقِل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1]. وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ النَّسائي: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نكت في قلبه نكتة، فإنَّ هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبه، فإن عاد زيد فيها حتَّى تعلو قلبه، فهو الران الَّذي قال الله تعالى:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[2].

الكفَّار محجوبون عن رحمة الله ورؤيته:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

﴿كَلَّآ﴾، هنا رَدْع وزَجْر عن الكسب الَّذي يرين على القلوب ويغطيها، وتقرير أنَّ هؤلاء الكفرة الفجرة يوم القيامة في أسوأ حال، فهم

(١) رواه أحمد (٧٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والترمذي التفسير (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، والحاكم في التفسير (٥١٧/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٧٩).

QaradawiBooks.com

محجوبون عن رحمة ربهم وكرامته، وعن رؤيته سبحانه كما يراه المؤمنون وحدهم، وليس الأمر كما كان يحسبه هؤلاء الكفَّار في الدنيا، كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

احتجَّ الإمام مالك بهذه الآية على اختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى في الآخرة، من جهة دليل الخطاب، وإلَّا فلو حجب الرؤية عن الكلِّ، لما أغنى هذا التخصيص. وقال الإمام الشافعي: فلمَّا حجب قومًا بالسخط، دلَّ أن قومًا يرونه بالرضا[1].

قال ابن كثير: «وهذا الَّذي قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غاية الحسن. وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دلَّ عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنَّات الناضرة»[2].

صَلْي الجحيم بعد الحرمان من ربِّهم:

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾

أضف إلى هذا الحرمان من رؤية ربهم: أنَّهم من أهل النيران، يدخلون النَّار المحرقة ويقذفون فيها ليكابدوا الأهوال، فهم في هذا العذاب، بعد عذاب الحرمان من التنعم برؤية الله جل وعلا.

(١) تفسير الرازي (٣١/٨٩، ٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٥١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

وفي النهاية يقـال لهم ـ وهم فـي الجحيم ـ على معنـى التوبيخ والتقريع لهم والتصغير والتحقير: هذا الَّذي كنتم به تكذبون، إشارة إلى التعذيب وصلْـي الجحيم والحجاب عن الله تعالـى؛ وهو ما يلقونه في النَّار. فذوقوا عذابه، جـزاء تكذيبكم الَّذي تنكـرون صحته في الدنيا، وتجْحدون صدْقَ حصوله.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

كتاب الأبرار في عليين

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۞ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

طريقة القرآن في ذكر الوعد مع الوعيد:

هذه هي الفقرة الثالثة من فقرات السورة الأربع، الَّتي تتحدث عن مصير الأبرار، بعد أن تحدثت عن مصير الفجار، الَّذي عرفنا الله تعالى أنَّهم في سِجِّين، والآن يُبَيِّن الله من يقابل هؤلاء، كما هي طريقة القرآن في ذكر الوعد مع الوعيد، والتبشير مع الإنذار، والترغيب مع الترهيب.

والقرآن يجعل أحيانًا الأبرار في مقابلة الفجار، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، كما جعل التقوى في مقابلة الفجور، في قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

يقول جلَّ جلاله هنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

المراد بعليين:

يُحدِّثنا القرآن هنا عن كتاب الأبرار إنَّه في عِلِّيِّين، وليس ككتاب الفُجَّار في سِجِّين، وعِلِّيُّون جمع عِلِّيٍّ، على وزن فِعِّيل، وهو مشتق من

QaradawiBooks.com

العلو، الَّذي يعني الرفعة والسمو، ولذا قال من قال من السلف: إنَّه عند سدرة المنتهى. وقال من قال: إنَّه في السماء الرابعة، أو السماء السابعة، أو في الجنة. وذهب بعض العلماء إلى أنَّه في السماء الدنيا. والمعنى: أن كتابهم الَّذي فيه أعمالهم هنالك، تهممًا بها، وترفيعًا لها. وأعمال الفجار في سِجين في أسفل سافلين.

وقال آخرون: هـي مراتب عالية محفوفة بالجلالـة، قد عظمها الله، وأعلى شأنها. وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة.

قال الفخر الرَّازي في تفسيره الكبير: «وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير؛ لأنَّ الله تعالى قال لرسوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، تنبيهًا له على أنَّه معلوم له، وأنَّه سيعرفه، ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فبيَّن أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم، الَّذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنَّه تعالى كما وَكَّلهم باللوح المحفوظ، فكذلـك يُوَكِّلُهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب، الَّذي هو أمُّ الكتاب، على وجه الإعظام له.

ولا يمتنع أنَّ الحَفَظَة إذا صعدت بكتب الأبرار، فإنَّهم يُسلِّمونها إلى هؤلاء المُقَرَّبين، فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب، الَّذي وُكِّلـوا بحفظه، ويصير علمُهم شهادةً لهؤلاء الأبرار. فلذلك يحاسبون حسابًا يسيرًا؛ لأنَّ هؤلاء المُقَرَّبين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء، صحَّ قول من تأوَّل ذلك على أنَّه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذا كان الَّذي ذكرناه أولى.

واعلمْ أنَّ المعتمد في تفسـير هذه الآية ما بيَّنَّا: أنَّ العلوَّ والفُسْـحَة والضياء والطهارة من علامات السـعادة. والسـفل والضيق والظلمة من

QaradawiBooks.com

علامات الشقاوة، فلمَّا كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين، وفي أضيق المواضع، إذلال الفجار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليِّين، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنِهم»[1].

وقال ابن كثير: «والظاهر أنَّ عليِّين مأخوذٌ من العلو، وكلَّما علا الشيء وارتفع عظم واتَّسع؛ ولهذا قال معظِّمًا أمره ومفخِّمًا شأنه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، ثمَّ قال مؤكدًا لما كتب لهم: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، وهم الملائكة»[2]. وذلك لفضله ومقامه عندهم، وفضله يدلُّ على فضل من الله عليهم به.

غير مرخصة للطباعة

نعيم الأبرار في الجنة:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾

لا زال القرآن يؤكِّد ما للأبرار عند الله من منزلة وكرامة، ولهذا يقول الصالحون: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فماذا يقول القرآن؟ يقول: إنَّهم لفي نعيم، وهو ما ذكره في سورة الانفطار من قبل، فهو يُكَرِّره ويؤكِّده هنا، فهم يتنعَّمون فيما منَّ الله عليهم من فضله في جنَّته.

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٩٧/٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٥٢/٨).

QaradawiBooks.com

إلى من ينظر الأبرار؟

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾

الأرائك: جمع أريكة، وهي الأسِـرَّة في الحِجال، جمع حَجَلة، وهي بيت مُرَبَّع مـن القماش الفاخـر، يُرخى على السـرير للزينة والسَّتْر.

وهم فـوق هذه الأرائـك على سـررهم يمتعون أنظارهـم إلى كل ما حولهم من ألوان البهجة والسـرور والترف والنعيم، وما أعد الله لهم من الكرامات، يختصون بها دون غيرهم من أهـل النَّار، الَّذين يعذبون فيها. ويمكن أن يفتح لهم ما يرون به ما يعانيه أهل النَّار، فيحمدون الله على ما آتاهم. كما أن ﴿يَنظُرُونَ﴾، هنا من حقهـا أن تتجه إلى الله تبارك وتعالى، فإذا كان الفجار الكافرون، الَّذين رفضوا رسالة الله وتعاليمه، قد حجِبوا عن رؤيته عقابًا لهم، كما قال سـبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فإنَّ مـن حق معارضيهم مـن الأبرار أن ينظـروا إلى ربهم، فأولئك محجوبون، وهؤلاء منعمون.

نعيم الأبرار يعرف في وجوههم:

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾

الخطاب لكلِّ من يَتأتَّى خطابُه من المؤمنين، وفي مقدمتهم الرسول الكريم، أي: تعرف القوم من وجوههم، كالكتاب يقرأ من عنوانه، وعنوان هؤلاء الأبرار في وجوههم، تعـرف فيها بهجة التنعـم ونضارته ونوره وحسنه. يقال: نضر النبات، إذا أزهر ونوَّر.

QaradawiBooks.com

ماذا يُسقى الأبرار؟

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾

يُسقى هؤلاء في الجنَّة من رحيق مختوم. والرحيق ـ كما قال المفسرون ـ هو الخمر الصافية، أو أقصى الخمر وأجودها، أو هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة.

المهم أنَّهم يسقون من هذا الشراب الصافي، الَّذي لا غِش فيه، ثمَّ يمتاز ميزة أخرى: أنَّه مختوم، والمراد: مغلقة أو آنية بغطاء كما هو شأن الشيء النفيس، وأن ختامه مسْك، والمعنى: أنَّهم إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، انختم ذلك بخاتم المسك، فختامه آخر طعمه؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنَّة بأن رائحة آخره رائحة المسك. والمسك: نوع من الطيب مشهور، وكل ما في الجنَّة لا يدرك أهل الدُّنيا حقيقته.

التنافس المطلوب:

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

أي: لأجل التَّنعم بالرحيق المذكور، فليرغب الراغبون في المبادرة إلى طاعة الله تعالى، وليتفاخر المتفاخرون، وليتباه المتباهون، وليتكاثر المتكاثرون، وليعمل العاملون، لإعلاء كلمته، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، أي: وليتسابق المتسابقون في الخيرات، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، والمائدة: ٤٨].

QaradawiBooks.com

«وأصـــل التَّنافس: التَّغالب في الشـــيء النفيس. وأصلـــه من النَّفْس لعزَّتها. قال الواحدي[١]: نَفَسْتُ الشيء، وأنفُسه نفاسةَ، والتنافس: تفاعل منه، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يســـتأثر به. وقال البغوي[٢]: وأصله من الشيء النفيس، الَّذي تَحْرِص عليه أنفُس الناس، ويريده كلُّ أحدٍ لنفسه، وينفس به على غيره. أي: يضِنُّ به»[٣].

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾

صفة أخـــرى لـ «رحيق»، فختامه مســـك، ومزاجه من تســـنيم. أي: ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تســـنيم، وهو أشـــرف شراب في الجنَّة يأتي من مكان مرتفع.

و«تسنيم»: اسمٌ علمٌ لعين في الجنَّة، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول للمبالغة، فعله: سنم، أي: علي وعظم.

ما تفسير التَّسنيم؟

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

﴿عَيْنًا﴾، منصوبة علـــى الاختصاص، أي: نبعًـــا جاريًا ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، لم يقل منها؛ لأنَّ المعنى لأنَّهم يرتوون بها، أي تكون الباء بمعنى: مِنْ لابتداء الغاية المكانية، أو ضمن «يشرب» معنى: يلتذ.

---

(١) التفسير البسيط (٣٤١/٢٣).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣٨٦/٨)، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين، نشر دار طيبة، ط ٤، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) تفسير أبي السعود (١٢٨/٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جاء عن ابن عبَّاس قوله: هـذا ممَّا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

ومن الأحاديث القدسيَّة الصحيحة: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين في الجنَّة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾** [السجدة: ١٧]»[(١)].

* * *

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنَّة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

أحوال النَّاس ومصايرهم في الآخرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۞ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۞ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

الفقرة الرابعة: ختام السورة:

هذه هي الفقرة الرابعة والأخيرة، وبها خُتمت سورة المُطفِّفين.

الفقرة الأولى: كانت حديثًا عن المُطفِّفيـــن، وما يجب أن يلقوه من ربهم، والثانية: كانت عن الفجار وكتابهم ومصيرهم، والثالثة: كانت عن الأبرار وكتابهم ومصيرهم.

وهذه الفقرة تتحدَّث عن أحوال النَّـــاس ومصايرهم في الآخرة، وكيف تتقلَّب الأمور على الناس، وتتغيَّر أحوالهم رأسًا على عقب، فنجد الفرِحيـــن في الدُّنيا أهل أحزان في الآخـــرة، والمحزونين في الدنيا، أهل فرح وبهجة في الآخرة، يسفل الأعلون في الدنيا، ويعلو الَّذين كانوا في الأســـفل؛ لأنَّ النَّاس في الآخرة لا يقاسون بما كان يقيس به النَّـــاس بعضهم بعضًا فـــي الدنيا، لا بالمـــال ولا بالجاه، ولا بـــالأولاد ولا بالأصحـــاب، ولا بالقوَّة ولا بالعـــدد والعدة. بل بالإيمان الصادق، والعلـــم النافع، والعمل الصالـــح، والدعوة إلى الخير، والجهاد في ســـبيل الله، والتضحية من أجـــل الحق والخير، وإرضاء الله تبارك وتعالى.

QaradawiBooks.com

ولذلك نجد من كانوا يضحكون عليهم في الدنيا، ويستهزئون بهم، ويستصغرون أمرهم، هم الَّذين يضحكون على الآخرين، الَّذين أصابهم منهم ما أصابوا. وهذا ما تبينه هذه الفقرة النهائية من سورة المُطفِّفين.

المجتمع المكي بين المجرمين والمؤمنين:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

وصف الله هؤلاء النَّاس بالذين أجرموا، فهم فئة من المجرمين، مرتكبي الجرائم، جرائم الانتقاص من الناس، والاستهزاء بهم، وتحقير شأنهم، وهذا هو الإجرام الحق، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

كان المجتمع المكي في ذلك الوقت يضم طائفتين متميزتين، لكل منهما أصولها وسماتها، صفة الفئة الأولى الَّتي تتمحور حولها كل أقوالها وأعمالها هي الإجرام، وهي تشمل أغلبية الَّذين يعيشون في مكَّة وما حولها. وصفة الفئة الأخرى الَّتي تتمحور حولها كل أقوالها وأعمالها هي الإيمان. فهناك ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، وهناك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

موقف الَّذين أجرموا من الَّذين آمنوا:

ماذا يفعل الَّذين أجرموا بالذين آمنوا؟ يقرر القرآن بوضوح وجلاء أنَّ المجرمين ـ وهم الكفَّار المشركون ـ وخصوصًا الكبراء الصناديد من قريش، مثل: الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث،

QaradawiBooks.com

وأمثالهم. كانوا يقومون بأربعة أمور، كلها استخفاف بالمؤمنين، وتحقير لهم، واستكبار عليهم.

١ ـ الضحك من المؤمنين:

أول هذه المواقف: ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾. والضحك من خصائص الإنسان، ولكن ينبغي أن يجعله الإنسان فيما يضحِك حقًّا، من النوادر والغرائب، فإنَّ الضحك من غير سبب من قلة الأدب. ولكن هؤلاء يضحكون من قوم خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فغيرتهم من وثنية إلى توحيد، ومن جاهليَّة إلى إسلام، ومن عصبية بغيضة إلى أخوة حميدة، ومن إطلاق للشهوات بلا حاجز، إلى التزام بتقوى الله تعالى، وحب الخير للناس.

٢ ـ التغامز عليهم:

والأمر الثاني لهؤلاء المجرمين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ **أي:** إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون عليهم، يشير بعضهم إلى بعض، أن انظروا إلى هؤلاء الَّذين فارقوا قومهم، وخرجوا من طوْع جماعتهم، وسفَّهوا آباءهم وأجدادهم، حتَّى هؤلاء الفقراء الضعفاء منهم، يضللون الأكابر منا، وهم لا في العير ولا في النفير، ولا لهم شاة ولا بعير، ولا يكاد المرء يحس بأنَّهم موجودون!

يغمز هؤلاء المجرمون بعضهم لبعض، ساخرين من أمثال: عمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وأمثالهم من المستضعفين، من الَّذين آمنوا، ممَّن ليس لهم ثروة ولا ظهر ولا قبيلة تحميهم وترد عنهم ما يؤذيهم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والتغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب. ويكون الغمز أيضًا بمعنى: العيب. يقال: غمزه إذا عابه. فهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء، يتعبون أنفسهم، ويحرمونها لذاتها، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه.

٣ ـ التفكُّه بالحديث عنهم في بيوتهم:

والأمر الثالث الَّذي وصف به الَّذين أجرموا مع المؤمنين: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ إذا انصرفوا إلى أهلهم وبيوتهم، وإلى أصحابهم وذويهم، انصرفوا فكِهين، أي: متفكهين بذكر المؤمنين وأحوالهم، يسخرون منهم، ويستهزئون بهم، وهم الأحق بالسخرية والاستهزاء. سواء قرأنا الآية ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير الألف، كما هي قراءة حفص وغيره. أو قرأناها بالألف، كما في قراءات أخرى (فاكِهِينَ)[1]. وقد قيل: الفَكِه: هو الأشِرُ والبَطِرُ. والفاكه: المترف الناعم. وكلاهما مذموم. فهم يعيشون على ذمِّ المؤمنين، في مجتمعهم أو داخل أسرهم.

٤ ـ رَمْيهُم بالضلال:

الأمر الرابع من أوصاف هؤلاء المجرمين: أنَّهم قوالون بالباطل، شاهدون بالزور، فيصفون هؤلاء المؤمنين، الَّذين شرح الله صدورهم للاهتداء بهدى الله، والإيمان به، يقولون إذا ابصروهم عيانًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ضلُّوا الطريق إلى الحقِّ، ومشوا وراء الباطل، حين اتَّبعوا محمَّدًا وصدَّقوه!

وإنَّك لتعجب أن يرمي الضالُّ الغارقُ في الضلال إلى أذنيه ـ الَّذي طبع الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غِشاوة ـ أو يصف المهتدين

(١) انظر في القراءتين وتوجيههما: الحُجَّة للقرَّاء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (٦/٣٨٨).

QaradawiBooks.com

الهـداةَ، الَّذين استنارت بصائرهم وقلوبهم، وعرفوا الإيمان الحقَّ، وصدَّقوه وآزروه، بأنَّهم ضالُّون، فمن المهتدون إذن؟! إنَّهم يعيشون في متاهات وضلالات وظلمات: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

لم يبعث الله المجرمين حافظين على المؤمنين:

يقولون عن الَّذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه وبالدار الآخرة، هذا الكلام المردود، ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: وما هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أقوالهم وأعمالهم، ولا كلفوا بأمرهم، فلم اشتغلوا بهم، وجعلوهم نصب أعينهم؟ يعني أنَّهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى، موكلين بهؤلاء المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم، ويهتمون بأعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم، وهذا تهكم بهم، وإشعارٌ بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١١].

انقلاب الحال في الآخرة:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

وفي الآخرة تنقلب الدائرة، وتتغير الأمور أساسًا على عقب، في هذه الدار تعتدل الأشياء، ويستقيم المعوج، ويأخذ كل ذي حق حقه،

QaradawiBooks.com

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، هنالك يصبح المؤمنون هم السادة المتحكمين، فالشأن شأنهم، والأمر أمرهم، واليوم يومهم، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، وهو ضحك في موضعه، وضحك من حقهم، يضحكون على الكفَّار المجرمين، حتَّى يروْنهم أذلاء مغلولين في السلاسل يسحبون إلى جهنَّم، قد غشيهم الهوان والصغار، بعد العزة والكِبْر، ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه، أصبح الضاحكون على النَّاس في الدُّنيا مضحوكًا عليهم.

كان الكفَّار يضحكون على فقراء المؤمنين وضعفائهم بسبب ما هم فيه من الضرر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على أكابر المشركين المجرمين، بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنَّهم كانوا في الدُّنيا على غير شيء، وأنَّهم قد باعوا باقيًا بفانٍ، ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنَّة، فعاشوا ينظرون كيف يعذب أعداؤهم في النَّار، وكيف يصطرخون فيها، ويدعون بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضًا.

الأبرار على أرائكهم ينظرون إلى كل ألوان النعيم:

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾

المؤمنون في روضات الجنات على سررهم، وعلى أرائكهم كالملوك ينظرون إلى كل ما في الجنَّة من ألوان التنعم والرفاهية والنعيم، وينظرون بتدبر وشماتة إلى ما يلقى أعداؤهم من الأشقياء المجرمين من عذاب أليم، وأعظم ما ينظرون إليه، هو الله رب العالمين.

QaradawiBooks.com

كما دلت هذه السـورة أنَّ الكفَّار الفجار المجرمين عند ربهم يومئذ لمحجوبـون، وأنَّ المؤمنيـن وحدهم هـم المتنعمون برؤيتـه تعالى ورضوانه، وهو من أجل مفردات النعيم، إنَّهم إذن ليسـوا بضالين، كما زعم الأفاكون، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى هي الجنَّة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

الجزاء من جنس العمل:

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

التثويب: المجازاة. يقال: ثوبه ـ بتشـديد الواو ـ وأثابه، أي: جازاه. واشتهر في المجازاة بالخير، ويكون اسـتعماله في مجازاة الكفَّار على سـبيل التهكم كما في قولـه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمـران: ٢١]. والجملة الاستفهامية مسبوقة بقول مقدر وقع حالًا من ضمير ﴿يَنظُرُونَ﴾ والأصل: يجلسـون على الأرائك في حال قوله تعالى لزيادة سرورهم: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزي أعداؤكم على ما كانوا يقابلون بـه المؤمنين من الاسـتهزاء والتنقص؟ يعني: قـد جوزوا بما يسـتحقون أوفر الجزاء، والجزاء من جنس العمل. صدق وعدك، فلك الحمد والشكر الجزيل.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الانشقاق

مقاصد السورة:

السورة مكِّيَّة باتفاق، وقد اشتملت السورة على ما تشتمل عليه السور المكية من الأصول العقدية والأخلاقية ومنها:

التنبيه على أشراط الساعة، وما يجري في الكون قبلها، وحلول يوم البعث والحساب، واختلاف أحوال النَّاس في ذلك بين أهل الجنَّة وما هم فيه من النعيم، وأهل النَّار وما هم فيه من شقاء، كما تضمنت القسم بالليل وما وسق أي: جمع وضم، وما عطف عليها بتغيير الأحوال.

والتأكيد على الكفَّار بضرورة الإيمان والإذعان إلى القرآن، والامتناع عن تكذيبه، فإنَّ المكذبين تنزل عليهم عقوبة الله ومقته، إلَّا الَّذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تفسير السورة:

أشراط الساعة، وما يجري في الكون قبلها

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾

بدأت السورة، بنحو ما بدأت به سورة التكوير، وسورة الانفطار، بمقدمة الجملة الشرطيَّة، المبدوءة بـ﴿إِذَا﴾، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، ولكن الجملة الشرطيَّة وما عطف عليها ختمت بالجملة الجوابية الواضحة في التكوير: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وفي الانفطار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]، بخلاف الجملة هنا.

انشقاق السماء واستجابتها لأمر الله:

ومعنى ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ أي: انصدعت وتفطرت، فانشقاق السماء هو تفطرها لهول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، قالوا: هي تنفطر بالغمام، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، فحين يريد الله لهذا العالم الَّذي نعيشه أن يخرب، وتتفكك أجزاؤه، ويختل نظامه، وينهد بنيانه، فلا بدَّ أن يكون ذلك بحادثة من الحوادث الكبيرة، تحدث في سير العالم، كأن يمر نجم في مسيرته بالقرب من نجم آخر، فيتجاذبا فيتصادما، فيضطرب النظام الشمسي كله، ويقع من ذلك غمام وأي غمام! يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، ويكون هذا إيذانًا من الله تعالى بانحلال نظام الكون على النحو الَّذي يريده، وتتكور الشمس، وتنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتتغير الأمور.

QaradawiBooks.com

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

أي: استمعت لربها، وأطاعت أمره فيما أمرها به أمرًا كونيًّا، من الانشقاق.

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنَّه العظيم الَّذي لا يمانع ولا يطالب، بل قد ظهر على كل شيء، وذل له كل شيء، فأذنت: معناها استمعت واستجابت، كما في الحديث الصحيح: «**ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبيٍّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**»[(١)]. ومنه قول قَعْنَبٍ[(٢)]:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

وهنا يكون المعنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت وانقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى، حين تعلقت إرادته بانشقاقها، انقياد المأمور المطواع، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، والتعرَّض لعنوان الربوبية (ربها)، مع الإضافة إليها، للإشعار بعلية الحكم.

وهذه الجملة ونظيرتها الآتية، بمنزلة قوله تعالى في ذكر بدء الخليقة، حين قال للأرض والسماء: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٢)، عن أبي هريرة.

(٢) هو قعنب بن ضمرة الفزاري المشهور بقعنب بن أم صاحب، ترجمته في تاريخ دمشق (٣٥٧/٤٩)، والبيت في الحماسة لأبي تمام (١٧٠/٢)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم العسيلان، نشر جامعة الإمام سعود، السعودية، ١٩٨١م، وانظر: شعر قعنب بن أم صاحب صـ ٥٠، جمع إبراهيم بن سعد الحقيل، نشر إلكتروني معهد المخطوطات العربية.

QaradawiBooks.com

وقيل: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد، من قولهم: هو محقوق بكذا، وحقيق به. والمعنى: انقادت لربها وهي حقيقة بذلك. عن ابن عبَّاس وابن جبير: وحق لها أن تسمع وتطيع.

قال ابن عطيَّة: «ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى»[١].

بسط الأرض وإخراج ما في بطنها من الأموات وتخليها ممَّا استحفظت:

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾

أي: بُسِطَتْ، وقلَّ ثِخَنُها، ووسعت، بعد دكِّها وإزالة جبالها وآكامها من مقارِّها، وتسويتها بحيث صارت: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧]، أو زيدت سعة وبسطة. من مدَّه بمعنى: أمدَّه، أي زاده.

وفي الحديث الَّذي رواه الحاكم بسندٍ جيِّد، عن جابر مرفوعًا: «**تُمَدُّ الأرضُ يومَ القيامة مدَّ الأديم، ثمَّ لا يكون لابنِ آدم فيها إلَّا موضعُ قدميه**»[٢]. الأديم: الجلد.

قال الإمام الرازي: «واعلمْ أنَّه لا بدَّ من الزيادة في وجه الأرض، سواء كان ذلك بتمديدها أو بإمدادها؛ لأنَّ خلق الأوَّلين والآخرين لمَّا كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها، فلا بدَّ من الزيادة في طُولها وعَرْضها»[٣].

(١) تفسير ابن عطية (٤٥٦/٥).

(٢) رواه الحاكم في الأهوال (٥٧٠/٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) تفسير الرازي (٩٧/٣١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

أي: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلَّت منهم، أي لم تُمْسِكْ منهم بشيء.

وقيل: ألقت ما استُودعت، وتخلَّت ممَّا استحفظت؛ لأنَّ الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتًا، واستحفظها بلاده مزارع وأقواتًا، وهو كقول الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

فمعنى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: وخلتْ غاية الخلو، حتَّى لم يبق في باطنها شيء، كأنَّها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرم الكريم، وترحم الرحيم. إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة، وتكلَّفا فوق ما في طبعهما.

قال الرَّازي رحمه الله تعالى: «واعلمْ أنَّ التحقيق أنَّ الله تعالى هو الَّذي أخرج تلك الأشياء من بطن الأرض إلى ظهرها، لكنَّ الأرض وُصِفَتْ بذلك على سبيل التَّوَسُّع»[(١)].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

كرَّرها تأكيدًا لمعناها في الإلقاء والتخلِّي، وهي حقيقة بذلك.

وذهب الرَّازي إلى أنَّ الآية الأولى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ في السماء، وهذه الآية في الأرض، وإذا اختلف وجه الكلام لم يكن تكرارًا[(٢)].

(١) تفسير الرازي (٣١/٩٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

أين جواب ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وما عُطِفَ عليها؟

الجواب معلوم، عرف من السور السابقة في التكوير والانفطار وغيرها، والتقدير: علمت نفسٌ ما أحضرت، وعلمت ما قدَّمت وأخرَّت، وانكشف لها ما في يوم القيامة من أهوال، وما يجري فيه من وقوف وانتظار، وحساب وسؤال، حيث تُنشر الدواوين، وتُحْكَم الموازين، ويسأل النَّاس عمَّا كانوا يعملون، ويُجْزَون بما قَدَّموا، ويعفو الله عمَّن يشاء، ويشفع من أنبيائه وملائكته والمؤمنين فيمن يشاء من عباده من غير المشركين، وينتهي الجميع إلى جنَّة أو نار. وقال في «الكشَّاف»: «حُذِفَ جواب «إذا» ليذهب المُقَدِّر كلَّ مذهب»[1].

(١) الكشاف للزمخشري (٤/٧٢٥).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الإنسان جاهِدٌ في عمله إلى لقاء ربِّه، وحال السعداء والأشقياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۞ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾

النداء الثاني للإنسان في هذا الجزء من القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾

هذا هو النداء الثاني للإنسان بوصفه إنسانًا في القرآن العزيز، كان النداء الأوَّل في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. وهذا هو النداء الثاني للإنسان بهذه الصيغة، أي: للجنس. أمَّا النداء للإنسان جميعًا، فيأتي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. وقد ورد في القرآن، وهو نداء إلى بني الإنسان عامَّة، بحيث يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، ولهذا جاء في القرآن المكي والمدني، فالمراد جنس الناس، كما يقال: «يا أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل». فكذا هنا، فكأنَّه خطاب خص به كل واحد من الناس، وهو أبلغ من العموم؛ لأنَّه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين، بخلاف اللفظ العام، فإنَّه لا يكون كذلك.

ما معنى الكدح؟

و«الكدح»: جهد النفس في العمل والكد، بحيث يؤثر فيها، من قولهم: كدح جلده: إذا خدشه.

والمعنى: يا أيُّها الإنسان الَّذي من شأنه كثرة الغفلة عن نهايته، من أي بلد كنت، وبأي لسان تكلمت، تنبه إلى أنَّك لست بخالد فيما أنت

QaradawiBooks.com

فيه، بل أنت مسـرع إلى الموت، فكل خطوة تخطوهـا في عمرك هي خطوة إلى نهاية أجلك، ثمَّ تلاقي بعد ذلك جزاء عملك.

كلام الرَّازي في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

قال الإمام الرازي: «أمَّا قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: إنَّك كادحٌ إلى لقاء ربِّك وهو الموت، أي: هذا الكدح يستمرُّ ويبقى إلى هذا الزمان. وأقول في هذا التفسـير نكتةٌ لطيفة، وذلك لأنَّها تقتضي أنَّ الإنسان لا ينفكُّ في هذه الحياة الدنيويَّة من أوَّلها إلى آخرها عن الكدح والمشقَّة والتعب، ولما كانت كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فهي تدلُّ على وجوب انتهاء الكدح والمشـقَّة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدُّنيا محْضَ السعادة والرحمة، وذلك معقول، فإنَّ نسبة الآخرة إلى الدُّنيا كنسبة الدُّنيا إلى رحم الأمِّ. فكما صحَّ أن يُقال: يا أيُّها الجنين، إنَّك كادح إلى أن تنفصل من الرحم. فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسـبة إلى ما قبله خالصًا عن الكدح والظلمة، فنرجو من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك.

وثانيهما: قال القفال: التقدير: إنَّك كادح في دنياك كدحًا تصير به إلى ربك. فبهذا التأويل حسن استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾ هاهنا.

وثالثها: يحتمـل أن يكون دخول ﴿إِلَىٰ﴾ على معنـى أنَّ الكدح هو السعي، فكأنَّه قال: ساعٍ بعملك إلى ربِّك»[1].

إلامَ يعود الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؟

والضمير في ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، يحتمل لقاء العمل ذاته، فكل إنسان سيلقى

(١) تفسير الرازي (١٠٥/٣١).

QaradawiBooks.com

عمله، ويرى عمله خيرًا كان أم شـرًّا، طاعة أو معصية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ويقول تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ويقول: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال ابن كثير: «ويشـهد له ما رواه أبو داود الطيالسـي، بسنده عن جابر، قال: قال رسـول الله ﷺ: «**قال جبريل: يا محمَّد، عِشْ ما شـئتَ فإنَّك مَيِّـت، وأحببْ ما شـئتَ فإنَّـك مفارقُه، واعملْ ما شـئت فإنَّك ملاقيه**»[(١)].

ويحتمل الضمير: أن يعود إلى قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، أي: اعملْ أيُّها الإنسان واكدحْ إلى ربِّك، فإنَّك سـتلقى ربَّك لا محالة، فيجازيك على عملك، ويُكافئك على سـعيك؛ فإنَّ الله تعالى لا يُضيع أجرَ من أحسـن عملًا. وعلى هذا فكلا القولين متلازم.

قال العَوْفي، عن ابن عبَّاس في تفسير الآية يقول: تعمل عملًا تلقى الله به، خيرًا كان أو شـرًّا[(٢)]. وقال قتادة في تفسيرها: إنَّ كدحَكَ يا ابنَ آدمَ لضعيفٌ، فمن اسـتطاع أن يكـون كَدْحُه في طاعـة الله فليفعلْ، ولا قوَّة إلَّا بالله[(٣)]»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي (١٨٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥٥).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٣٥/٢٤).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير ابن كثير (٣٥٦/٨).

QaradawiBooks.com

أخذ كتاب الأعمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

كلُّ إنسانٍ له كتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والنَّاس في يوم القيامة صِنْفان: سعداء وأشقياء، فالسعداء هم أهل الجنَّة.

دلائل سعادة أهل الجنَّة:

وأول بوادر سعادته: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ فهو يُؤْتى كتابَ أعمالِه بيده اليمنى. وفي ذكرها بشارةٌ وسرورٌ وتكريم. وقد عبَّر فيه بالماضي عمَّا سيكون للدلالة على تحقُّقه، كأنَّه وقع فيما مضى.

وثاني بشائره: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي: يحاسب حسابًا هينًا خفيفًا سهلًا عليه، بلا تعسير ولا تضييق، فيعرض عليه ما قدم وأهمل من العمل بحيث لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة.

روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذِّبَ**». قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «**ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العَرْض، من نوقش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب**»[1].

(١) رواه أحمد (٢٤٢٠٠). والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٠٣)، ومسلم في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٧٦).

QaradawiBooks.com

وروى أحمد بسنده، عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «**اللهمَّ حاسِبْني حسابًا يسيرًا**». فلمَّا انصرف قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما الحسابُ اليسير؟ قال: «**أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنَّه من نوقش الحساب ـ يا عائشةُ ـ يومَئِذٍ هَلَكَ**»[(١)].

كلام الفخر الرَّازي في معنى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾:

قال الإمام الرَّازي معقِّبًا على الحساب اليسير: «و«سوف» من الله واجب، وهو كقول القائل: اتبعْني فسوف تجد خيرًا. فإنَّه لا يريد به الشكُّ، وإنَّما يريد ترقيق الكلام. والحساب اليسير: هو أن تعرض عليه أعماله، ويعرف أنَّ الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثمَّ يثاب على الطاعة، ويتجاوز عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنَّه لا شدَّة على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا؟ ولا يطالب بالعذر فيه، ولا بالحجَّة عليه. فإنَّه متى طولب بذلك لم يجد عُذرًا ولا حُجَّة فيفتضح، ثمَّ إنَّه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسرورًا، فائزًا بالثواب، آمنًا من العذاب»[(٢)].

وثالث بشائره: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: يعود ويرجع إلى أهله وأسرته في الجنَّة، أو أهله من إخوانه المؤمنين، فرِحًا مغتبطًا مستبشرًا ممَّا أعطاه الله من فضله. فالمرء حريص على أن يسر أهله بنجاحه وفوزه،

---

(١) رواه أحمد (٢٤٢١٥)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح دون قوله: سمعت النبي ﷺ يقول في صلاته: «اللهمَّ حاسبني حسابًا يسيرًا» فهذه الزيادة تفرَّد بها محمد بن إسحاق، وقد قال الذهبي في الميزان: وما تفرد به فيه نكارة. وصحَّحه ابن كثير في التفسير (٣٥٧/٨) على شرط مسلم.

(٢) تفسير الرازي (٩٨/٣١).

QaradawiBooks.com

وأن يرى فرحهم بذلك، فهذا ممَّا يسـره ويشـرح صدره، بل يحب أن يعرف النَّاس بذلك.

وفي سـورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۞ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٢].

حال أهل الشقاوة:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾

بعد أن ذكر أهل السعادة، ثنَّى بأهل الشقاوة، فالأوَّلون أُعطوا كتابهم بأيمانهم، وحوسبوا حسابًا يسيرًا، وهؤلاء الأشقياء على عكسهم، أعطوا كتابهم بشمائلهم من وراء ظهورهم كارهين لكتابهم مُدْبِرين عنه.

وقد بيَّنت آيات أخرى أنَّهم أعطوه بشمائلهم، كما في سورة الحاقَّة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩]، فكلُّ واحدٍ من هؤلاء الأشقياء يُؤْتى كتابه بشماله، من وراء ظهره، فاكتفى هنا بإبداء صورته من وراء الظهر، وفي سـورة الحاقَّة أظهر أخذه بالشمال، وكلاهما واقع، وهو يشعر بكراهته لتناوله؛ لأنَّه حُجَّة عليه.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾

إنَّه يتمنَّى الثبـور، وهو الهلاك، والفنـاء النهائي، بل يدعـو به وينادي ويطلب حصوله، يقول: يا ثبوراه، يا هلاكاه. يقال: فإنَّه أوانك، وأنَّى له ذلك؟!

QaradawiBooks.com

دلائل شقاء أهل النار:

أوَّل مصائبه: أن يأخذ كتابه من وراء ظهره، **وثاني مصائبه:** أن يدعو على نفسه بالثبور والهلاك، **وثالث بلاويه:** أن يَصْلى ويدخل النَّار المستعرة: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾. والسعير: اسمُ من أسماء النَّار، وقرئ: (وَيُصَلَّى) بضم الياء وفتح الصاد واللام المشدَّدة، أي: يُدْخَل، كقوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]. وقرئ: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤].

سرور الكفَّار في الدنيا:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾

أي: كان في الدُّنيا بين عشيرته وأهله وأقاربه مسرورًا مترفًا، بطِرًا مستبْشرًا، كديْدن الفجَّار، الَّذين لا يُهِمُّهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يُفَكِّرون في العواقب، ولم يكن حزينًا مُتَفَكِّرًا في حالِهِ ومآلِه، كسُنَّة الصلحاء المتَّقين.

والإسلام لا يذمُّ السرور ولا الفرح في الدنيا، ولكنَّه يذمُّ فرح البَطَر والغرور، كما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. ومدح الفرح بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥].

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنَّة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧].

QaradawiBooks.com

قال: ووصف أهل النَّار بالسـرور في الدنيا، والضحـك فيها والتفكُّه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾.

كلام الرَّازي على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾:

قال الرازي: «ذكر القفَّال فيه وجهين: **أحدهما**: أنَّه كان في أهله مسرورًا أي: مُنَعَّمًا مستريحًا من التعب، بأداء العبادات، واحتمال مشقَّة الفرائض، من الصلاة والصوم والجهاد، مُقْدِمًا على المعاصي، آمنًا من الحساب والثواب والعقاب، لا يخاف الله ولا يرجوه، فأبدله الله بذلك السرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمن الَّذي أوتي كتابه بيمينه متَّقِيًا من المعاصي، غير آمنٍ من العذاب، ولم يكنْ في دُنْياه مسرورًا في أهله، فجعله الله في الآخرة مسرورًا، فأبدله الله تعالى بالغَمِّ الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد.

الثاني: أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٣١]، أي: متنعِّمين في الدُّنْيا، مُعْجَبين بما هم عليه من الكفر، فكذلك هاهنا يحتمل أن يكون المعنى: أنَّه كان في أهله مسرورًا بما هم عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث، يضحك ممَّن آمن به وصدَّق بالحساب، وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الدُّنْيا سجنُ المُؤمنِ، وجنَّة الكافر**»[(١)]»[(٢)].

سبب سرور الكافر في الدنيا:

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾

يُعَلِّل الله تعالى سروره في الدنيا: إنَّه ظنَّ أن لن يرجع بعد الموت،

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٦)، عن أبي هريرة.
(٢) تفسير الرازي (١٠٠/٣١).

QaradawiBooks.com

تكذيبًا بالمعاد، كما قال تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، ظنَّ أن لن يرجع حيًّا مبعوثًا فيحاسب، ثمَّ يثاب أو يعاقب. كان فرِحًا في دنياه لا يفكر في العواقب، ولا يخاف ممَّا أمامه، فأعقبه ذلك الفرحُ اليسير الحزنَ الطويل، قال لَبِيد بن رَبِيعة:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَمَا هُوَ سَاطِعُ[1]

وقال ابن عبَّاس: ما كنتُ أدري: ما يحور؟ حتى سمعتُ أعرابيَّة تدعو بُنَيَّة لها: حُوري. أي ارجعي إليَّ[2]. فالحَوْر في كلام العرب: الرجوع. ومنه قوله ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر**»[3]. يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

تهديد ووعيد:

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾

﴿بَلَىٰ﴾: حرف يفيد إبطال المظنون قبله، وإثبات نقيضه، أي: ليس الأمر كما تظن، بل يحور إلينا، ويرجع، معلومًا لنا ومكشوفًا. يعني: بل سيعيده الله تعالى كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرِّها، فإنَّه كان به بصيرًا، أي: عليمًا بالإنسان وأعماله وأحواله كلها، لا يخفى منه عليه خافية.

(١) ديوانه صـ ٣٠، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٣/١٩).

(٣) رواه مسلم في الحج (١٣٤٣)، وأحمد (٢٠٧٨١)، عن عبد الله بن سرجس.

QaradawiBooks.com

القسم بالشَّفَق واللَّيل وما وَسَق، وما عُطف عليها بتغيير الأحوال

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۞ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

ما معنى الشَّفَق المُقْسَم به؟

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾

الشفق الَّذي جاء في القسم القرآني: هو الحُمْرة الَّتي يشاهدها النَّاس في الأُفق بعد غروب الشمس، وفي أوَّل الليل، إلى قريب من العتمة، ولا يدري الإنسان ما سيكون وراءه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو، الذي رواه عنه مسلم، أنَّ النبي ﷺ قال: «**وقتُ المغربِ ما لم يَغِبِ الشَّفَقُ**»[1].

وقال الخليل: الشفق: الحُمرة، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة[2]. إذا ذهب. قيل: غاب الشفق. ولذا قيل: أصل الكلمة من رِقَّة الشيء؛ يقال: شيءٌ شَفِق. أي: لا تماسك له لرِقَّته. وأشفق عليه. أي: رقَّ قلبه عليه، والشَّفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رقَّة القلب.

القسم بالليل في القرآن الكريم:

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾

والقسم التالي في هذا السياق بالليل وكل شيء شمله ظلامه، وقد

(١) رواه مسلم في المساجد (٦١٢)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) العين للخليل بن أحمد (باب القاف والشين والفاء معهما) (٤٥/٤)، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، نشر دار ومكتبة الهلال.

QaradawiBooks.com

أقسم القرآن بالليل في أكثر من سورة في هذا الجزء من سورة التكوير قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]، وفي سورة الشمس: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وفي سورة الليل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وفي سورة الضحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢].

معنى ﴿وَمَا وَسَقَ﴾:

وهنا قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، أي: جمع وضمَّ ولفَّ. ﴿وَمَا﴾ اسم بمعنى الذي، أي: كل الَّذي جمعه الليل وستره في ظلامه.

قال ابن جرير: «أقسم الله تعالى بالنهار مُدْبِرًا، وباللَّيْل مُقْبِلًا»[(١)]. قالوا: ومن فضل الله تعالى أن جعل لنا الليل لباسًا بظُلمته وستره للنَّاس، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: بالنهار، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، فالليل يجمع ويضمُّ ما كان منتشرًا بالنَّهار.

القسم بالقمر عند اجتماعه وتمام نوره:

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾

قال ابن عبَّاس: إذا اجتمع واستوى[(٢)]. ومنهم مَنْ قال: إذا امتلأ. وقيل: إذا استدار. ومعنى كلامهم: أنَّه إذا تكامل نوره وأبدر، وذلك في الليالي البيض وهي ليالي ١٣ و١٤ و١٥ من كل شهر قمري، جعله مقابلًا لليل وما وسق.

(١) تفسير الطبري (٢٤٤/٢٤).
(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤٩/٢٤).

QaradawiBooks.com

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

قراءة الجمهور: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ الخطاب في الآيــة للجماعة، وفي بعض القراءات خطاب للفرد، أي: للنبيِّ ﷺ ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾، وبعضهم قال: خطابٌ للإنسان(١).

ومعنى: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: أي: حالًا بعد حال، أيًّا كان المخاطب.

فهو إمَّا خطاب للجماعة، يقول لهم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، أي: لتلاقُنَّ حالًا بعد حال، كل واحدة فيها مطابقة لأختها في الشدَّة والفظاعة، سواء كان ذلك في أحوال الدُّنيا من الإيذاء والهجرة، والإخراج من الديار، أم في أمور الآخرة من الموت وما بعده، من القيامة والنشــور والسؤال والحساب، والثواب والعقاب، والجنَّة والنَّار.

أو ﴿لَتَرْكَبَــنَّ﴾، يا محمَّد حالًا بعد حال، مــن الإيذاء في مكَّة، إلى الهجرة إلى المدينة، إلى الجهاد في سبيل الله، وفيه ما فيه من انتصار أو انكسار، حتَّى تكون العاقبة لك، ويُتِمَّ الله نورَه عليك.

أو ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ أيُّها الإنســان وتلاقي الأحــوال المتدرِّجة من العاقبة والبلاء، ومــن الضعف والقــوة، ومن الخــوف والأمن، ومــن النصر والهزيمة.

---

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بفتح الباء ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾، وقرأ الباقون بضمها ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾. النشر في القراءات العشر (٣٩٩/٢)، وانظر في توجيه هاتين القراءتين: الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (٣٩١/٦). وسيأتي تفصيل ذلك في ثنايا تفسير الآية.

QaradawiBooks.com

وقيل: الطبق جمع «طبقة»، وهي: المرتبة. وهو الأوفق لركوب الشيء عن اعتلاء. والمعنى هنا: لتركبنَّ أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدَّة، بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها.

وروى ابن جرير بسنده، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس كان يقول: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، قال: يعني نبيَّكم ﷺ، يقول: حالًا بعد حال[١]. وهذا لفظه. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس وعددٍ من تلاميذه ومُفَسِّري السَّلَفِ نحو ذلك.

قال ابن كثير: «ويَحتَمِل أن يكون المراد: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، حالًا بعد حال. قال: هذا ـ يعني المراد بهذا ـ نبيُّكم ﷺ، فيكون مرفوعًا على أنَّ «هذا» و«نبيُّكم» يكونان مبتدأً وخبرًا، والله أعلم.

ولعلَّ هذا يكون هو المتبادر إلى كثيرٍ من الرواة، كما روى أبو داود الطيالسي، وغُنْدر بسندهما إلى ابن عبَّاس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، قال: محمَّد ﷺ[٢]. ويؤيِّد هذا المعنى قراءة عمر وابن مسعود وابن عبَّاس وعامَّة أهل مكَّة والكوفة: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح التاء والباء.

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى الشَّعْبِيِّ قال: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾: لتركبنَّ يا محمدُ، سماءً بعد سماء. وهكذا رُوِيَ عن ابن مسعودٍ ومسروقٍ وأبي العالية: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: سماء بعد سماء[٣]. يعنون ليلة الإسراء. ومعنى هذا: أنَّ الآية تُبشِّر بحادث الإسراء المعروف قبل وقوعه.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٥١/٢٤).

(٢) رواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٢٣٩)، من طريق أبي داود الطيالسي، والطبري في التفسير (٢٥١/٢٤)، من طريق غندر.

(٣) روى هذه الآثار الطبري في التفسير (٢٥٣/٢٤، ٢٥٤).

QaradawiBooks.com

وجاء أيضًا عن ابن عبَّاس في تفسير الآية: منزلًا على منزل، وأمرًا بعد أمر، وحالًا بعد حال»[١].

كلام الإمام الرَّازي في تفسير هذه الآية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾:

قال الإمام الرازي: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قُرِئ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ على خطاب الإنسان في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بالضم على خطاب الجنس؛ لأنَّ النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] للجنس، و«**لَتَرْكَبِنَّ**» بكسر الباء[٢]، على خطاب النفس، و«**لَيَرْكَبَنَّ**» بالياء على المغايبة[٣]، أي ليركبنَّ الإنسان.

المسألة الثانية: الطبق: ما طابق غيره، يقال: ما هذا يطبق كذا، أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق، وطباق الثرى: ما يطابق منه، قيل: للحال المطابقة لغيرها: طبق، ومنه قوله تعالى: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: حالًا بعد حال، كلُّ واحدة مطابقة لأختها في الشدَّة والهول.

ويجوز أن يكون جمع «طبقة»: وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات، والمعنى: لتركبُنَّ أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدَّة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة.

ولنذكر الآن وجوه المُفَسِّرين، فنقول: أمَّا القراءة بضم الباء، وهو خطاب الجمع، فتحتمل وجوهًا:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٥٩/٨، ٣٦٠) بتصرُّف.

(٢) وهي قراءة شاذَّة لم نقف على من قرأ بها.

(٣) وهي قراءة ابن مقسم، كما في الكامل في القراءات لأبي القاسم الهُذَلي اليشكري المغربي صـ ٦٥٩، تحقيق جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، نشر مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

أحدها: أن يكون المعنى: لتركبُنَّ أيُّها النَّاس أمورًا وأحوالًا، أمرًا بعد أمر، وحالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، إلى أن يستقرَّ الأمر على ما يُقضى به على الإنسان أو له، من جنَّة أو نار، فحينئذ يحصل الدوام والخلود، إمَّا في دار الثواب، أو في دار العقاب، ويدخل في هذه الجملة أحوال الإنسان من حين يكون نطفة، إلى أن يصير شخصًا، ثمَّ يموت، فيكون في البرزخ، ثمَّ يُحشر، ثمَّ ينقل إمَّا إلى جنَّة وإمَّا إلى نار.

وثانيها: أنَّ معنى الآية: أنَّ النَّاس يلقون يوم القيامة أحوالًا وشدائد، حالًا بعد حال، وشدَّةً بعد شدَّة، كأنَّهم لمَّا أنكروا البعث أقسم الله: أنَّ البعث كائن، وأنَّ النَّاس يلقون فيها الشدائد والأهوال، إلى أن يفرغ من حسابهم، فيصير كلُّ أحد إلى ما أعد له من جنَّة أو نار، وهو نحو قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وثالثها: أن يكون المعنى: أنَّ النَّاس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عمَّا كانوا عليه في الدنيا، فمِنْ وضيعٍ في الدنيا، يصير رفيعًا في الآخرة، ومن رفيعٍ يتَّضع، ومِنْ متنعِّمٍ يشقى، ومن شقيٍّ يتنعَّم، وهو كقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]. وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية؛ لأنَّه تعالى لمَّا ذكر حال من يُؤْتى كتابه وراء ظهره، أنَّه كان في أهله مسرورًا، وكان يظنُّ أن لن يَحُور، أخبر الله أنَّه يَحُور، ثمَّ أقسم على النَّاس أنَّهم يركبون في الآخرة طبقًا عن طبق، أي حالًا بعد حالهم في الدنيا.

ورابعها: أن يكون المعنى لتَرْكَبُنَّ سُنَّة الأولين ممَّن كان قبلكم في التَّكذيب بالنبوَّة والقيامة».

QaradawiBooks.com

توجيه الرازي لقراءة فتح الباء ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾:

«وأمَّا القراءة بفتح الباء ففيها قولان:

القول الأول: قول من قال: إنَّه خطاب مع محمَّد ﷺ، وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بشارة للنبيِّ ﷺ بالظفر والغلبة على المشركين المكذِّبين بالبعث، كأنَّه يقول: أُقْسِمُ يا محمَّد، لتركبَنَّ حالًا بعد حال، حتَّى يختم لك بجميل العاقبة، فلا يَحْزُنْك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم. وفي هذا الوجه احتمال آخر يَقْرُب ممَّا ذكرنا، وهو أن يكون المعنى: أنَّه يركب حالَ ظَفَرٍ وغلبة بعد حالِ خوفٍ وشدَّة. واحتمال ثالث: وهو أن يكون المعنى أنَّ الله تعالى يُبدله بالمشركين أنصارًا من المسلمين، ويكون مجاز ذلك من قولهم: طبقات الناس. وقد يصلح هذا التأويل على قراءة مَن قرأ بضم الباء، كأنَّه خطاب للمسلمين بتعريف تنقُّل الأحوال بهم وتصييرهم إلى الظَّفَر بعدوِّهم، بعد الشدَّة الَّتي يَلْقَوْنها منهم، كما قال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وثانيهما: أن يكون ذلك بشارة لمحمَّد ﷺ بصعوده إلى السماء لمشاهدة ملكوتها، وإجلال الملائكة إياه فيها، والمعنى: لتَرَكَبَنَّ ـ يا محمَّد ـ السماواتِ طبقًا عن طبق، وقد قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وقد فعل الله ذلك ليلةَ الإسراء، وهذا الوجه مرويٌّ عن ابن عبَّاس وابن مسعود.

وثالثها: لتركبَنَّ يا محمَّد درجةً ورتبة بعد رتبة في القُرب من الله تعالى.

QaradawiBooks.com

القول الثاني في هذه القراءة: أنَّ هذه الآية في السماء وتغيُّرها من حالٍ إلى حال، والمعنى لتركبَنَّ السماءُ يوم القيامة حالةً بعد حالة؛ وذلك لأنَّها أولًا تنشقُّ كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ثمَّ تنفطر كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ثمَّ تصير: ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وتارة: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]. على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، فكأنَّه تعالى لما ذكر في أوَّل السورة أنَّها تنشق، أقسم في آخر السورة أنَّها تنتقل من أحوال إلى أحوال، وهذا الوجه مرويٌّ عن ابن مسعود»[1].

كلام الإمام القرطبي في تفسير آية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾:

وقال الإمام القرطبي في «تفسيره»: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: قرأ أبو عمرو، وابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبو العالية، ومسروق، وأبو وائل، ومجاهد، والنخعي، والشعبي، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء، خطابًا للنبيِّ ﷺ، أي: لتركبَنَّ يا محمَّد، حالًا بعد حال. قاله ابن عبَّاس. وعن الشَّعْبي: لتركبَنَّ يا محمَّد، سماءً بعد سماء، ودرجةً بعد درجة، ورُتبةً بعد رتبة، في القُرْبة من الله تعالى.

وعن ابن مسعود: لتَرْكَبَنَّ السماءُ حالًا بعد حال. يعني: حالاتها الَّتي وصفها الله تعالى بها، من الانشقاق والطي، وكونها مرَّة ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، ومَرَّة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾.

وعن إبراهيم، عن عبد الله: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: السماء تَقَلَّبُ حالًا بعد حال. قال: تكون: ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾، وتكون: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾.

---

(١) تفسير الرازي (١٠٢/٣١، ١٠٣).

QaradawiBooks.com

وقيل: أي: لتركبَنَّ أيُّها الإنسان حالًا بعد حال، من كونك نطفة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ حيًّا وميتًا، وغنيًّا وفقيرًا. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾. وهو اسمٌ للجنس، ومعناه النَّاس.

وقرأ الباقون ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بضم الباء، خطابًا للنَّاس، واختاره أبو عُبَيد، وأبو حاتم، قال: لأنَّ المعنى بالناس أشبه منه بالنبيِّ ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية، فمَنْ أوتي كتابه بيمينه، ومَنْ أوتي كتابه بشماله. أي: لتركبُنَّ حالًا بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركبُن سُنَّة من كان قبلكم في التَّكذيب والاختلاف على الأنبياء».

قال القرطبي: «وكلُّه مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث»[1].

قال ﷺ: «**لتركبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه**». قالوا: يا رسولَ الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**»[2].

وأمَّا أقوال المُفَسِّرين، فقد ذكرها القرطبي وهي تدلُّ على التَّغيُّر من حالة إلى حالة: من صِغَر إلى كِبر، ومن رضاعة إلى شيخوخة، ومن استقامة إلى اعوجاج، ومن سنَّة إلى بدعة، ومن رخاء بعد شدَّة، وشدَّة بعد رخاء، ومن ضعةٍ في الدُّنيا إلى رفعة في الآخرة، والعكس، ومن الشدائد والأحوال من الموت وما بعده من أمور الآخرة، إلخ.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٧٨/١٩).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

«فقال عكرمة: حالًا بعد حال، فطيمًا بعد رضيع، وشيخًا بعد شابٍّ، قال الشاعر[١]:

كَذَلِكَ المَـرْءُ إنْ يُنْسَـأْ له أَجَلٌ يَرْكَبْ عَلَى طَبَقٍ مِـنْ بَعْدِهِ طَبَقِ

وعن مكحول: كلُّ عشرين عامًا تحدِثون أمرًا لم تكونوا عليه.

وقال الحسن: أمرًا بعد أمر، رخاءً بعد شدَّة، وشدةً بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرًا بعد غنى، وصحَّة بعد سَقَم، وسقمًا بعد صحَّة.

وقال سـعيد بن جُبَيْر: منزلة بعـد منزلة، قوم كانوا فـي الدُّنيا متَّضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدُّنيا مرتفعين فاتَّضعوا في الآخرة.

وقيـل: منزلة عن منزلـة، وطبقًا عن طبق، وذلـك أن من كان على صلاحٍ دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فسـاد دعاه إلى فساد فوقه، لأنَّ كلَّ شيء يجرُّ إلى شكله.

وعن ابن زيد: ولتصيرنَّ من طبق الدُّنيا إلى طبق الآخرة.

وقـال ابن عبَّاس: الشـدائد والأهـوال: الموت، ثـمَّ البعث، ثمَّ العرض.

والعرب تقول لمن وقع في أمرٍ شديد: وقع في بنات طبق، وإحدى بنات طبـق. ومنه قيل للداهية الشـديدة: أمُّ طبق، وإحـدى بنات طبق. وأصلها من الحيَّات، إذ يقال للحيَّة: «أم طبق» لتحوِّيها.

(١) هو كعب بن زهيـر رضي الله عنه، كما في ديوانـه صـ٥٦، تحقيق علي الفاعور، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

والطبق فـي اللُّغـة: الحال كمـا وصفنا، قـال الأقرع بـن حابس التَمِيمي[١]:

إنِّي امْرُؤ قد حلبتُ الدهرَ أَشْطُرَه وسـاقني طبـقٌ منـه إلـى طبقِ

وهذا أدلُّ دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع»[٢].

وقوله تعالى: ﴿عَن طَبَقٍ﴾ أي: بعد طبق كقول الشاعر[٣]:

مَا زِلْـتُ أَقْطَعُ مَنْهَـلًا عن منهلٍ حتَّى أَنَخْتُ ببابِ عَبْـدِ الوَاحِدِ

ووجه هذا: أنَّ الإنسان إذا صار من شـيء إلى شيء آخر، فقد صار إلى الثاني بعد الأوَّل، فصَلَحت «بعد» و«عن» معاقبة، وأيضًا فلفظة «عن» تفيد البعد والمجاوزة، فكانت مشابهة للفظة «بعد».

(١) انظر: تفسـير الثعلبي (١٦٢/١٠)، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) تفسير القرطبي (٢٧٩/١٩، ٢٨٠).

(٣) ذكره من غير نسبة: علي بن الحسن الهُنائي في المنتخب من غريب كلام العرب صـ ٦١٧، تحقيق د. محمد بن أحمد العمري، نشـر جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

تهديد الكافرين وبشارة المؤمنين

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۞ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۞ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

استفهام إنكار أو تعجب لعدم الإيمان مع كثرة براهينه:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

أي: أيُّ شيء يمنعهم من الإيمان، بعدما وضحت لهم الآيات، وقامت الدلالات؟! وهذا استفهام إنكار، وقيل: تعجيب. أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان، مع وجود هذه الآيات.

كلام الإمام الرَّازي عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

قال الإمام الرازي: «الأقرب أنَّ المراد: فما لهم لا يؤمنون بصحَّة البعث والقيامة؛ لأنَّه تعالى حكى عن الكافر: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]. ثمَّ أفتى سبحانه بأنَّه يحور، فلمَّا قال بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، دلَّ على أنَّ المراد: فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة.

ثمَّ اعلمْ أنَّ قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، استفهام بمعنى الإنكار، وهذا إنَّما يحسن عند ظهور الحُجَّة، وزوال الشُّبهات، الأمر هاهنا كذلك، وذلك لأنَّه سبحانه أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإنَّ الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها، وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فإنَّه يدلُّ على حدوث ظلمة بعد نور،

QaradawiBooks.com

وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، فإنَّه يدلُّ على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصًا.

إنَّه تعالى أقسم بهذه الأحوال المتغيِّرة على تغيُّر أحوال الخلْق، وهذا يدلُّ قطعًا على صحَّة القول بالبعث، لأنَّ القادر على تغيير الأجرام العلويَّة والسفليَّة، من حالٍ إلى حال، وصفة إلى صفة، بحَسَب المصالح، لا بدَّ وأن يكون في نفسه قادرًا على جميع الممكنات، عالمًا بجميع المعلومات. ومن كان كذلك، كان لا محالة قادرًا على البعث والقيامة، فلمَّا كان ما قبل هذه الآية كالدلالة العقليَّة القاطعة على صحَّة البعث والقيامة لا جرم قال على سبيل الاستبعاد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[1] اهـ.

الإيمان مقدور لكل إنسان:

وهذه الآية وأمثالها دليل على أنَّ الإيمان مقدور لكلِّ إنسان، وأنَّ الله تعالى مكَّن الإنسان بحُكْم فطرته وإنسانيَّته من الإيمان بربِّه، ومن هنا أنكر عليه ابتعاده عن الإيمان، ونفوره منه، مع ما قربه الله إليه من الدلائل والموجبات، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٨].

التَّعجُّب من عدم خضوعهم للقرآن وإيمانهم به لإعجازه:

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فكيف يقرأ على هؤلاء المشركين القرآن ثمَّ

(١) تفسير الرازي (١٠٣/٣١).

QaradawiBooks.com

لا يلينون لـه ولا يخضعون بـأن يؤمنوا به لإعجازه ومـا فيه من الحق والبيان والأخبار والعلوم. كما هو شـأن العقلاء الَّذين يدعوهم سـماع القرآن إلى الإيمان والخشوع لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وبعد قراءة: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ يسجد السامع والقارئ المتطهران.

أسباب تكذيب الكافرين:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾

أي: الَّذين جَحَدوا النبوَّة والتوحيد يكذِّبـون بالقرآن الناطق بما ذكر من أحـوال القيامـة وأهوالها، مـع تحقق موجبـات تصديقه. والمعنى: أنَّ الدلائل الموجبة للإيمان، وإن كانت جلية ظاهرة، لكن الكفَّار يكذبون بها، إمَّا لتقليد الأسلاف، وإمَّا للحسد، وإمَّا للخوف من أنَّهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصـب الدُّنيا ومنافعها. وهذه كلها لا تنفعهـم، ولا تغني عنهم شـيئًا، فعملهم إنَّمـا هو تكذيبٌ محض، لا يسنده عقل ولا فطرة.

الله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

أصل الكلمة من الوعاء، فيقال: أوعيتُ الشيء، أي: جعلته في وعاء، كما قال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعـارج: ١٨]، والمعنـى: والله أعلم وأكثر إحاطة منهـم بما يحفظـون ويضمرون في صدورهـم من الشِّـرك والتَّكذيب

QaradawiBooks.com

والحسـد والبغي والبغضاء والعناد للحق، فهو مجازيهم عليه في الدُّنيا والآخـرة. أو بما يجمعون في صحفهـم من أعمال السُّـوء، ويدَّخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وإذا كان ربـك ـ أيُّهـا النبي ـ يعلـم ما يخفون مـن الكيد لك وللإسلام، فأخبرهم محذِّرًا لهم، باستحقاق هذا العذاب الموجع على تكذيبهم وكفرهم. والتبشير هنا من باب السخرية والتهكم بهم، فإنَّما هو إنذار.

المراد بالاستثناء في الآية:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

«فيه قولان قال: صاحب «الكشَّـاف»: الاسـتثناء منقطـع[1]، وقال: الأكثرون: معناه إلَّا من تاب منهم، فإنَّهم وإن كانوا في الحال كفارًا، إلَّا أنَّهم متـى تابوا وآمنـوا وعملوا الصالحـات فلهم أجر، وهـو الثواب العظيم»[2]. وهو أجر غير ممنون.

معنى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾:

ذلك الأجر والمكافأة والثواب يصل إليهم بلا منٍّ ولا أذًى، ومن غير انقطاع، ومن غير تنغيص، ومن غير نقصان.

---

(١) الكشاف (٤/٧٢٨).

(٢) تفسير الرازي (٣١/١٠٥).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ونرى الأوْلى أن يحمل اللفظ على الكل؛ لأنَّ من شرط الثواب حصول الكل، فكأنَّه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب، دائم لا انقطاع فيه، ولا نقص، ولا بخس، وهذا نهاية الوعد، فصار ذلك ترغيبًا في العبادات، كما أنَّ الذي تقدَّم هو زجْر عن المعاصي والله ﷻ أعلم، والحمد لله ربِّ العالمين[1].

(١) تفسير الرازي (١٠٥/٣١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

الأقسام الأربعة في هذه السورة:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾

بدأت هذه السورة بهذه الأقسام الأربعة، من الله تبارك وتعالى: بالسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود.

أول ما أقسم الله به هنا هو السماء، الَّتي تعلونا وتظلُّنا كما يظلُّ السقف ما تحته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، و«أل» حرف التعريف في السماء، هو للجنس أو للعهد، وتشمل كلَّ السماوات السبع، كما يُسمِّيها القرآن.

QaradawiBooks.com

و﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ قد اختلف في تعيينها المفسرون، فقال ابن عبَّاس ـ كما في محرر ابن عطيَّة ـ ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾: النجوم؛ لأنَّها تتبرج بنورها، والتبرُّج: التَّظاهر والتبدِّي[1] اهـ. وجاءت عن ابن عبَّاس وعن غيره أقوال أخرى.

والبروج في كلام العرب: هي القصور والحصون، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والذي يظهر لي هنا أنَّها: النجوم؛ فإنَّها أعظم ما في السماء، وأظهر دلائلها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

قال العلَّامة ابن كثير: «يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثواقب، لمن تأمَّلها، وكرَّر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هنا هي: الكواكب»[2] اهـ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، والسراج هنا يعني به الشمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]، وقال نوح لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦].

فالسماء إذن تحوي النجوم والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٤٦٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٨).

QaradawiBooks.com

وما جاء عن بعض مُفسِّري السلف: أنَّها منازل الشمس والقمر، لا يمثِّل الحقيقة كلَّها، فالشمس والقمر بالنسبة لنجوم السماء شيءٌ قليل ضئيل جدًّا، وقد قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

وما ذكر أنَّها البروج الاثنا عشر المعروفة عند الفلكيِّين ومن سار على دربهم، فأظن أنَّه يبعد أن يخاطب به الإنسان العادي، فأولى ما يفسَّر به البروج هو: النجوم؛ لأنَّها أبنيةٌ رفيعة هائلة ضخمة عظيمة، كما دلَّت على ذلك آيات القرآن، فيصح إطلاق البروج عليها، تشبيهًا لها بما يبنى من القصور العالية، والحصون المنيعة في الأرض.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾

أقسم الله بالسماء، وهي مكانٌ عظيم، ثمَّ أقسم باليوم الموعود، وهو زمانٌ عظيم، بل هو أعظم أيام الزمان. وهو القَسم الثاني في السورة.

والمراد: الموعود به، والَّذي وعد به وبضرورة إتيانه هو الله تبارك وتعالى: وهو يوم القيامة، من غير خلاف بين أهل التأويل فيه.

قال ابن عبَّاس: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه[1]. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۞ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۞ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٤ ـ ٦]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۞ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٨٣/١٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٩].

هذا هو اليوم الآخر، الَّذي أخَّره الله ليبعثهم فيه ويحشرهم ويحاسب فيه العباد، ويجزيهم على أعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فهذا من الغيب الَّذي وعد الله به، ولن يخلف الله وعده، وما وعد به سيتحقَّق لا محالة ولا ريب، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾

نكَّرهما للإبهام في الوصف، أي: وشاهد ومشهود لا يُكْتنه وصفهما، أو للمبالغة في الكثرة. وهذان هما القَسمان، الثالث والرابع في السورة. وقد أقسم الله أولًا بالسماء وهي من عالم الشهادة، وباليوم الموعود، يوم القيامة، وهو من عالم الغيب، ثمَّ أقسم بالشاهد والمشهود، وهما يشملان كل شيء بعد ذلك، لأن كل ما في الوجود إمَّا شاهد، وإمَّا مشهود، والشاهد إمَّا يشهد بالحس، وإمَّا يشهد بالعقل، أو يشهد باللسان، أو يشهد بالدلالة. وكلها شهادات معتبرة.

والمشهودُ: ما يُشهد بإحدى الحواس، بالبصر أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس. وقد يشهد بالعقل، كما يشهد بأن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، وكما يشهد العقل على أنَّ القرآن الكريم يحتوي على آيات باهرات، يعجز البشر بأن

QaradawiBooks.com

يأتوا بمثلها، ويشـــهد العقل على أنَّ محمدًا ﷺ، قـــد ظهرت على يديه آيات حسيَّة وعقليَّة كثيرة متواترة ومتوافرة، تؤكِّد أنَّه رسول الله حقًّا.

وما رُوي عن السَّلف في هذا من تحديد يوم معين، كيوم الجمعة أو يوم التروية أو يوم عرفة أو يوم النحر، من أنَّه شـــاهدٌ أو مشهودٌ، فهو من باب التمثيل وليس حقيقة التفسير. وهذا التمثيل يدخل فيه كثيرون وكثيرات من الأشياء والمعاني والأشخاص، وبعض الألفاظ القرآنيَّة تدلُّ عليه.

وما أجمل ما قالـــه الإمام القرطبي هنا: «قلـــت: وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشـــاهد، فقيـــل: الله تعالى، عن ابن عبَّاس والحســـن وسعيد بن جبير. بيانه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: محمَّد ﷺ، عن ابن عبَّاس أيضًا والحســـين بن علي، وقرأ ابن عبَّاس: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقرأ الحسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

قلـــت (القرطبـــي): وأقـــرأ أنـــا: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الأنبياء يشهدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: آدم. وقيل: عيسى ابن مريم؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، والمشهود: أمَّته.

وعن ابـــن عبَّاس أيضًا ومحمد بن كعب: الشـــاهد الإنســـان، دليله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

QaradawiBooks.com

وقال مقاتل: أعضاؤه، بيانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمَّة، والمشهود سائر الأمم. بيانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشاهد: الحَفَظة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الليالي والأيام. وقد بيَّناه.

قلتُ (القرطبي): وقد يشهد المال على صاحبه، والأرض بما عمِل عليها، ففي صحيح مسلم[١]، عن أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ هذا المالَ خَضِر حُلْوٌ، ونِعْم صاحبُ المسلم هو، لمن أعطى منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيل** ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ **وإنَّه من يأخذه بغير حقِّه كان كالَّذي يأكلُ ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة**»[٢].

وفي الترمذي عن أبي هُرَيْرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّ أخبارها: أن تشهد على كل عبد أو أمَة بما عمِل على ظهرها، تقول عمِل يوم كذا: كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها**». قال: حديث حسن غريب صحيح[٣].

وقيل: الشاهد: الخَلْق، شهدوا لله ﷻ بالوحدانيَّة، والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى.

---

(١) كذا ذكره الإمام القرطبي، والحديث متَّفق عليه.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٢).

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٩)، وأحمد (٨٨٦٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وقيل: المشـــهود يوم الجمعـــة، كمـــا روى أبو الدرداء، قـــال: قال رســـول الله ﷺ: «**أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنَّه يومٌ مشـــهود تشهده الملائكة...**». وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه وغيره[١].

قلت (القرطبي): فعلى هذا يوم عرفة مشهود؛ لأنَّ الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النحر إن شاء الله.

وقال أبو بكر العطَّار: الشـــاهد: الحجر الأســـود، يشـــهد لمَن لمسه بصدقٍ وإخلاص ويقين، والمشهود: الحاجُّ.

وقيل: الشاهد: الأنبياء، والمشـــهود: محمَّد ﷺ. بيانه: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ**﴾ إلـــى قوله تعالى: ﴿**وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١]»[٢].

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾

﴿**قُتِلَ**﴾ معناه: فعل الله بهم ذلك لأنَّهم أهل له. فهو على جهة الدعاء بحسب البشر، لا أنَّ الله يدعو على أحد.

وقيل عن ابن عبَّاس: معنـــاه: لُعِن. وهذا تفســـير بالمعنى، قال ابن عبَّاس: كلُّ شيء في القرآن ﴿**قُتِلَ**﴾ فهو لعن[٣].

وهذه الجملة هي «جواب القســـم في قول الفراء، واللام فيه مضمرة كقولـــه: ﴿**وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا**﴾ [الشـــمس: ١]، ثمَّ قـــال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٩]، أي: لقد أفلح» كما في تفسير القرطبي[٤]. والتقدير: لقد قُتِلَ.

---

(١) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٦٣٧)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٨٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٣) رواه الطبري في التفسير (١١/٤١٥).

(٤) تفسير القرطبي (١٩/٢٨٦).

QaradawiBooks.com

وقيل: هو محذوف لعلم السامع به. وأيًّا ما كان فالجملة خبريَّة، والأظهر أنَّها دُعائيَّة، دالَّة على الجواب، كأنَّه قيل: أقسم بهذه الأشياء إنَّهم ـ أي كُفَّار مكَّة ـ مقتولون أو ملعونون، كما لُعِنَ أصحاب الأخدود.

كما أنَّ السورة نزلت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذيَّة الكفرة، وتذكيرهم بما جرى على مَنْ تقدَّمهم، من التعذيب على الإيمان، وصبرهم على ذلك، حتَّى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقَون من قومهم، ويعلموا أن هؤلاء عند الله بمنزلة أولئك المعذَّبين.

والأخدود، من الخد، وهو الشقُّ في الأرض. وهؤلاء الكفرة الملعونون شقُّوا في الأرض شقوقًا، وخدُّوا فيها أخدودًا أو أخاديد، وملؤوها بالنيران المستعرة، وألقوا فيها كل مؤمن مُصِرٍّ على عقيدته، لا يتراجع عنها، ولا يساوم على شيء منها. ولذا فسَّر الأخدود بقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾.

ما الأخدود؟ هو النَّار ذات الوقود، وهو ليس شيئًا إلَّا هذه النَّار المتأجِّجة المستعرة، فهي بدل اشتمال من الأخدود.

وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾: وصف بغاية العِظم، وارتفاع اللهب، وكثرة ما يوجبه من الحطب وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

أي: لعنة الله ونقمته عليهم. أو: هؤلاء الكفَّار الجبابرة المُتسلِّطون على المؤمنين، وهم الَّذين خَدُّوا هذه الأخاديد، على هذه النَّار، أي: عندها وبالقرب منها قعود، ﴿إِذْ﴾ ظرف ﴿قُتِلَ﴾، أي: لُعِنُوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها، في مكان مشرفٍ عليها، من حافات الأخاديد.

QaradawiBooks.com

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

الشـــهود هنا: إمَّا من الشـــهادة بمعنى أنَّ بعضهم يشهد لبعض عند الحاكم الجبَّار، الَّذي سلَّطهم على إيذاء المؤمنين: أنَّ أحدًا لم يقصِّر فيما أُمِر أو كُلِّف به.

أو أنَّهم يشـــهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وإمَّا من الشـــهود بمعنى الحضور، وتكون ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «مع». والمعنى: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، حضور لا يرقُّ لهم قلب، ولا تدمع لهم عين، لقســـوة قلوبهم كأنَّها الحجارة أو أشدّ قسوة، فقد كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبى ألقوه في النَّار، وفي ذلك وصفهم بالقسوة، ثمَّ بالجد في ذلك.

وهذا الَّذي يســـتدعيه النظم الكريم، تنطق به الروايات المشـــهورة، الَّتي وردت بها الآثار.

المراد بهؤلاء الجبابرة الملعونين:

اختلف المفسِّرون من قديم في المراد بهؤلاء الجبابرة الملعونين، إذ القرآن الكريم لم يحدِّد إلَّا وصفهم الإجمالي، ولم يعلمنا مَن هم؟ على طريقة القرآن في ربط العقل المســـلم بالموضوع والمعنى، دون اهتمام بتحديد الزمان والمكان والأشخاص والأســـماء، فنُعنى بأخذ العبرة من القصة ولا نتشاغل بالأشـــياء الأخرى، الَّتي ربَّما كان كثرة الاهتمام بها ملهيًا عن الالتفات إلى جوهرها.

ولهذا قال مَـــنْ قال: إنَّهم أناسٌ بالشـــام. وقال آخـــرون: بل هم

QaradawiBooks.com

بنجران، أو باليمن. وقال غيرهم: بل هم بفارس. وقال قوم: هم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين. وكل هذا ممكن، تحتمله الآيات.

روى مسلم في صحيحه، عن صهيب رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمَّا كبِر قال للملك: إنِّي قد كبِرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.**

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللَّهمَّ إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتَّى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب، فأخبره فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابْتليت فلا تدل عليَّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي النَّاس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمِي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إنِّي لا أشفي أحدًا، إنَّما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ قال ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله.

QaradawiBooks.com

فأخذه فلم يزل يعذبه حتَّى دلَّ على الغــلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل.. وتفعل؟! قال: أنا لا أشــفي أحدًا، إنَّما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتَّى دلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتَّى وقع شِقاه.

ثم جــيء بجليس الملك فقيل لــه: ارجع عن دينــك. فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتَّى وقع شِقّاه.

ثمَّ جيء بالغلام فقيل له: ارجع عــن دينك. فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كــذا.. وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فــإن رجع عن دينه وإلَّا فاطرحــوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللَّهمَّ اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل، فسقطوا.

وجاء يمشــي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعــل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعــه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبــوا به فاحملوه في قرْقور، فتوسَّــطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلَّا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللَّهمَّ اكفنيهم بما شــئت. فانكفأت بهم الســفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنَّك لستَ بقاتلي حتَّى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع النَّاس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثمَّ خُذ ســهمًا من كِنانتي، ثمَّ ضع السهم في كبد القوس، ثمَّ قل: باسم الله رب الغلام، ثمَّ ارمني، فإنَّك إذا فعلت ذلك قتلتنــي. فجمع النَّاس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمَّ أخذ ســهمًا من كِنانته، ثمَّ وضع الســهم في كبد القوس، ثمَّ قال: باســم الله رب الغلام، ثمَّ رماه فوقع السهم في صدغه،

QaradawiBooks.com

فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام!

فأتي الملك فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تحذر؟ قد والله، نزل بك حذرُك، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود في أفواه السِّكك، فخدَّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ـ أو قيل له: اقتحم ـ ففعلوا، حتَّى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنَّكِ على الحقِّ»[1].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: أَعْلَمَ اللهُ ﷻ المؤمنين من هذه الأُمَّة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤْنسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصَّة الغلام، ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقَّات الَّتي كانوا عليها، ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلُّبه في الحقِّ وتمسُّكه به، وبذله نفسه في حقِّ إظهار دعوته، ودخول النَّاس في الدين، مع صغر سنِّه وعِظَم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسُّك بالحق حتَّى نُشر بالمنشار. وكذلك كثير من النَّاس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النَّار ولم يرجعوا في دينهم.

قال ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حسب ما تقدَّم بيانه في سورة النحل[2]».

قال القرطبي: «ليس بمنسوخٍ عندنا، وأنَّ الصبر على ذلك لمَن قَوِيت نَفْسُه، وصلب دِينَه أولى، قال الله تعالى مخبرًا عن لقمان:

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٥)، عن صهيب الرومي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣٧٤/٤).

QaradawiBooks.com

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. وروى أبو سعيد الخدري، أنَّ النبي ﷺ قال: «**إن من أعظم الجهاد: كلمة عدل عند سلطان جائر**». خرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب[(١)].

وروى ابن سنجر (محمد بن سنجر)، عن أُمَيْمَة مولاة النبي ﷺ قالت: كنتُ أُوَضِّئ النبيَّ ﷺ، فأتاه رجل، فقال: أوصني. فقال: «**لا تشركْ بالله شيئًا، وإن قطعت أو حرقت بالنار...**» الحديث[(٢)].

قال علماؤنا: ولقد امْتُحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصَّة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك»[(٣)].

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۞ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾

وما عابَ هؤلاء الجبابرة الملعونون على هؤلاء المؤمنين الصابرين الممتحنين، الَّذين حرَّقوهم بالنار، ولا كان لهم ذنب إلَّا إيمانهم وتصديقهم الراسخ بالله «العزيز»، أي: الغالب المنيع الَّذي يقهر ولا يقهر، ويهزم ولا يهزم، ولا يضام من لاذ بجنابه، ولجأ إلى رحابه.

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: المحمود في كلِّ حال، في جميع أقواله وأفعاله،

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٧٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩١).

(٢) انظر: أسد الغابة (٢٤/٧) ترجمة (٦٧٣٨)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٣) تفسير القرطبي (١٩١/٢٢ ـ ١٩٣).

QaradawiBooks.com

وشـــرعه وقدره، وخلقه وأمره، وإن كان قد قَدَّر على عباده هؤلاء، هذا الَّذي وقع بهم بأيدي الكافرين به، فهو العزيز الحميد، وإن خفِي سبب ذلك على كثير من الناس.

الحكمة من الجمع بين اسمي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾:

والقرآنُ دائمًا في الأوصاف يجمع بين الأسماء المتقابلة، الَّتي تجمع الجمال إلى الجـــلال، والحمد إلى الملـــك، ولله كل الكمال والإجلال والإكرام. ولهذا جمع هنا بين العزيز والحميد، كما جمع في آيات أخرى بين العزيز والغفـــور، وجمع بين العزيـــز والغفار، وجمـــع بين العزيز والحكيم، وبين العزيز والحليم، وبين العزيـــز والوهاب، إلى غير ذلك من الآيات القرآنيَّة، الَّتي نرى فيها صفات الإلٰهية الواضحة لكل ذي لب.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومن أوصاف عزَّته وقوَّته وغلبته: أنَّه يملك هذا الكـــون الكبير بكل من فيه، وكل ما فيـــه، فهو الَّذي له ملك الســـماوات والأرض، يحكم فيهما بما يشـــاء، ويُعطي منْ يشاء، ويمنع منْ يشاء، ويُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، بيده الخير، إنَّه على كل شيء قدير.

لا يملك أحدٌ من الإنس والجن، أو غيرهما ذرَّة واحدة في الســـماء ولا في الأرض وما بينهما، لا اليوم، ولا الأمس، ولا الغد، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في الســـماء، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه ســـر ولا علانية، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

QaradawiBooks.com

عاقبة الكافرين المُصرِّين على جرائمهم وعاقبة المؤمنين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾

النساء شقائق الرجال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾

فتنوا المؤمنين والمؤمنات، أي: لم يكتفوا بفتنة الرجال، فجمعوا معهم النساء، ممَّا يدلُّ على أنَّ النساء شقائق الرجال، كما قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، أي: الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، فلا غرو أن تقع الفتنة والتعذيب للجنسين معًا.

معنى ﴿فَتَنُواْ﴾:

ومعنى ﴿فَتَنُواْ﴾، أي: حَرَّقوهم بالنَّار. والعرب تقول: فتن فلان الدرهم الفضي، أو الدينار الذهبي: إذا أدخله النَّار، لينظر جودته، وليعلم أهو فضَّة أو ذهب حقيقي أم مغشوش.

كرم الله وجوده في دعوة الكافرين إلى التوبة:

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي: لم يندموا ويقلعوا عن قبيح صُنْعهم، وعن كفرهم وفتنتهم، فإنَّ ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يتصور من غير الكافر قطعًا، وهم لم يكتفوا بالكفر بالله تعالى وتكذيب رسوله، بل

QaradawiBooks.com

أضافوا إليه تعذيب من آمن به، وتحريقهم. فهم الَّذين كفروا وظلموا وصدوا عن سبيل الله.

قال ابن كثير: «لم يُقْلِعوا عمَّا فعلوا ويندموا على ما أسلفوا... قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!»[1].

للمجرمين المستكبرين: عذابان جزاء كفرهم وظلمهم:

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، هؤلاء المستكبرون في الأرض، الَّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وحرَّقوهم بالنَّار، لن يهربوا من عذاب الله وانتقامه، بل إذا كان لبعض الكفَّار عذاب واحد، فهم لهم عذابان، كما ذكرت الآية: عذاب جهنَّم، الَّذي يصلاه الكافرون عامَّة، جزاء كفرهم، وهذا في الآخرة. ولهم فيها عذاب زائد على عذاب كفرهم، بما أحرقوا المؤمنين.

والقرآنُ يقرِّر أنَّ الله يزيد الكافرين عذابًا بمقدار ما ظلموا وأفسدوا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقيل: العذابان كلاهما في الآخرة، فالأول: عذاب جهنَّم، الَّذي يُعذَّب به كلُّ الكفَّار العاديين. والثاني: عذاب الحريق، وهو اسم من أسماء النَّار، وكأنهم يعذَّبون في جهنَّم بالزمهرير، ثمَّ يُعذَّبون بعذاب الحريق، فالأول: عذاب ببردها، والثاني: عذاب بحرِّها. نعوذ بالله منها كلها.

(١) تفسير ابن كثير (٢٧١/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سنَّة القرآن الكريم بذكر الوعد مع الوعيد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

بعد أن بيَّن القرآن عاقبة الكافرين به، والمكذِّبين لرسله، المُضطهدين لعباده المؤمنين، الَّذين يفتنونهم عن دينهم بالتحريق في الأخاديد، ثنَّى بذكر أضدادهم من أهل الإيمان والعمل الصالح، كما هي سنَّة القرآن الكريم، يذكر الوعد مع الوعيد، والترغيب مع الترهيب، والتبشير مع الإنذار، ليحذِّر من يحذر الآخرة، ويرجو من يرجو رحمة ربِّه.

فهؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا وأيقنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو تعبير قرآني يشمل كل ما يصلح به الفرد، ويصلح به المجتمع، ما يصلح به ماديًّا، وما يصلح به معنويًّا، ومن عمل الصالحات: أن يعمل لدنياه ولا يتكاسل عنها، ومنها: أن يعمل لعبادة ربه، ويفعل الخير، ويدعو إليه، فإن عجز فليجعله في نيته، «**وإنَّما لكل امرئ ما نوى**»[1].

هؤلاء ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ أي: بساتين، تجري من تحتها الأنهار، الَّتي وصفها القرآن، من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغيَّر طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفًّى.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وأيُّ فوز أكبر من هذا الفوز؟ فهو فوز عظيم لا فوز يشبهه، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أُعدَّ لهم في هذه الجنات، ممَّا تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

شدة بطشِه تعالى بالظلمة الطغاة والكفرة العتاة

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۞ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۞ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

البطش هو: الأخذ بعنف، وإذا وُصف بالشـدَّة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشـه تعالى، بالجبابرة والطغاة والظالمين، وأخذه إيَّاهم بالعذاب والانتقام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقولـه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

والجملة اسـتئناف، خُوطِب بها النَّبي ﷺ، إيذانًا بـأنَّ لكفار قومه نصيبًا موفورًا مـن بطش الله وانتقامه، إذا أصرُّوا علـى كفرهم وعِنادهم وفتنتهم للمؤمنين، كما ينبئ عنـه التعرُّض لعنوان الربوبيَّة، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾

أجل هو سبحانه المُبْدئ المُعيد، يُبْدئ الخلق بالإنشاء، ويُعيده بعد الإماتة بالبعث والإحياء، وذُكر عن ابن عبَّاس: أنَّه عام في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنَّه يفعل كل شـيء، أي: يبتـدئ كل ما يبدأ، ويعيد كل ما يعاد، وهذان قسمان مستوفيان جميع الأشياء.

QaradawiBooks.com

واختار الطبري: أنَّه يُبدئ في العذاب، ويعيده على الكفَّار[١]. والأوَّل أَوْلى. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾

ومن صفات الكمال الواجبة لله تعالى، واللائقة بذاته الكريمة، وبها تكتملُ الذات الإلٰهية الَّتي تجمع بين الجلال والجمال، والملك والحمد: أنَّه تعالى ـ كما أنَّه ذو البطش الشديد، والمبدئ والمعيد ـ هو الغفور الودود.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: لمن تاب وآمن ـ من الغفْر، وهو السَّتْر ـ الَّذي يستر ذنوب عباده المؤمنين، لا يفضحهم بها.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾: المُحبُّ لأوليائه، وهو يتودَّد إليهم بنِعمه وفضله وعفوه ومغفرته ورحمته. قال ابن عبَّاس: كما يَوَدُّ أحدُكم أخاه بالبُشرى والمحبَّة[٢]. كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾

وصف الله تعالى نفسه بأنَّه صاحب العرش العالي على جميع الخلائق، وهو العظيم في ذاته وصفاته، وهو واجب الوجود، تامُّ العلم والقدرة، كامل الإرادة والحكمة. هذا إذا كان ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع.

(١) تفسير الطبري (٢٨٣/٢٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٦/١٩).

QaradawiBooks.com

أمَّا إذا كان بالخفض ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾[١]، أي صاحب العرش العظيم، كما جرت عادة النَّاس في وصف الملوك بما لهم من عروش كبيرة، كما قال الهدهد في وصف ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، فهناك قراءتان: بالرفع على أنَّه وصف الرب تعالى، وبالجر على أنَّه وصف العرش[٢]، وكلاهما معنى صحيح.

ومن العلماء من قال: «معنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أي ذو المُلْك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير مُلْكه، وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُلَّ عرشُه، أي ذهب سلطانه»[٣].

والَّذي أرجِّحه: أن نمضي على ظاهر ما جاء في القرآن، فقد امتدح الله سبحانه نفسه بأنَّه ربُّ العرش العظيم، وربُّ العرش الكريم[٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

---

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ فقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بخفض الدال، وقرأ الباقون برفعها. النشر (٣٩٩/٢).

(٢) الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (٣٩٣/٦).

(٣) تفسير القرطبي (٢٩٧/١٩).

(٤) قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وقال على لسان هدهد سليمان: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

QaradawiBooks.com

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

أيْ: مهما أراد فعله، لا مُعقِّب لحكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل، بحيث لا يتخلَّف مرادٌ من أفعاله تعالى وأفعال غيره، وذلك لعظمته وقهره، وحكمته وعدله. كما رُوي عن أبي بكر الصديق أنَّه قيل له، وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إنِّي فعَّال لما أريد[1].

وإنَّما قال «فعَّال» بصيغة المبالغة؛ لأنَّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٥٨١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تسليته ﷺ بأنَّه سيصيب قومه ما أصاب الجنود

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۞ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۞ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۞ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۞ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۞ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾

استئنافٌ مقرَّرٌ لشدَّةِ بطشِه تعالى بالظَّلَمة الطغاة، والكَفَرة العُتاة، المفسدين العُصاة، وكونه تعالى فعَّالًا لما يريد: متضمِّن لتسليته ﷺ، بالإشعار بأنَّه سيصيب قومه ما أصاب الجنود.

دلالة كلمة: ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾:

وجاء الخطاب بهذه الصيغة الاستفهامية، للتشويق والإثارة، وهو قد أتاه حديث هؤلاء، الَّذين سمَّاهم الله ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾، إشارة إلى الصفة العسكريَّة الَّتي تلبَّسوا بها، واشتهروا عند العالم بأنَّهم أهل الحرب والقتل، والقوة والعنف، كما قال تعالى في سورة «ص» مؤكدًا هذه الصورة: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [ص: ١١].

وهذا يُخوِّف ويحذِّر من الصفة العسكريَّة، إذا انفردت بالقوَّة والسلاح وحدها، دون وازع من إيمان أو خُلُق. وكم عانت بلادنا وغيرها من الانقلابات العسكريَّة، الَّتي تجعل الجنود العسكريِّين وحدهم هم قادة الأمَّة وحاكموها. والواجب أن يكونوا حُمَّاتها فقط.

من هم هؤلاء الجنود؟

﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ اقتصر القرآن على ذكر هذين النموذجين

QaradawiBooks.com

الطاغيين، من نماذج الجنود أو العسكر أصحاب القوة الغاشمة، ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

والمراد بحديث الجنود: ما صدر عنهم ـ فرعون وثمود ـ من التمادي في الكفر والضلال، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال. والمعنى: قدْ أتاكَ حديثهم، وعرفت ما فعلوا، وما فعِل بهمْ، حين كذبوا رسله، وخالفوا أمره، فذَكِّرْ قومك بشؤونِ الله تعالى، وأنذرْهم أنْ يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم. وما هي من الظالمين ببعيد.

وإنَّما اكتفى بذكر فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم كانت عندهم مشهورة، وإن كانوا من العرب المتقدمين، من العرب البائدة، وأمر فرعون كان مشهورًا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك، فدل بهما على أمثالهما في الهلاك والدمار. والله أعلم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾

بل: حرف إضراب، والجملة للإضراب عن مماثلة كفار قريش وأمثالهم، الَّذين كفروا برسالة محمَّد ﷺ، لأولئك الكفَّار الجبابرة المعتدين، وبيان لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان، كأنَّه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب، واستيجاب العقاب، فإنَّهم مستقرُّون في تكذيب شديد للقرآن الكريم، وليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم، بل هو مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن، الناطق بذلك.

وقد تحدَّث الإمام الرَّازي عن هذه الآية فكان ممَّا قاله فيها: «والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفَّار في جميع الأزمنة مستمرة

QaradawiBooks.com

على هذا النهج، وهذا هو المراد من قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾. ولمَّا طيَّب قلب الرسول ﷺ بحكاية أحوال الأوَّلين في هذا الباب، سلاه بعد ذلك من وجه آخر، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾»[1].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾

أي: والله تعالى قادرٌ عليهم، قاهرٌ قوتهم، محيطٌ بهم من كلِّ جهة، ثمَّ لا يفوتونه ولا يعجزونه، فلن ينجوا من بأس الله، الَّذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، كما قال تعالى للمشركين: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

القرآن المجيد:

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾

إضراب آخر، فيه ردٌّ لكفرهم، وإبطالٌ لكذبهم، وتحقيق للحق، أي: ليس الأمر كما قالوا، بل هو كتاب شريف، عالي المنزلة، رفيع الدرجة، بين الكتب الإلٰهية في النظم والمعنى والموضوع والأسلوب، أعجز البشر أن يأتوا بسورةٍ من مثله، وهذا هو معنى وصفه بالمجيد.

القرآنُ محفوظٌ مَصُون:

﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾

أي: هو في الملأ الأعلى محفوظٌ مصُونٌ من الزيادة والنقص، والتغيير والتبديل، فلمَّا حكم فيه بسعادة أقوام، وشقاوة أقوام، وبتأذي

(١) تفسير الرازي (٣١/١١٥، ١١٦).

QaradawiBooks.com

قوم من قوم، أو جماعة من جماعة، امتنع تغيُّره وتبدُّله، فوجب الرضا به، ولا شك أنَّ هذا من أعظم موجبات التسلية.

وقوله تعالى هنا: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، يشبه ما قاله في آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، قال الرازي: «فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون، واللوح المحفوظ شيئًا واحدًا.

ثم كونه محفوظًا، يحتمل أن يكون المراد كونه محفوظًا، عن أن يمسَّه إلَّا المطهَّرون، كما قال تعالى عن الكتاب المكنون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، ويحتمل أن يكون المراد: ألَّا يجري عليه تغيير ولا تبديل»[(١)].

قال ابن عطيَّة في «مُحَرَّره الوجيز»: «قرأ جمهور القُرَّاء: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ بالخفض، صفة للَّوْح المشهور بهذه الصفة، وقرأ نافعٌ وحده ـ بخلافٍ عنه ـ وابن محيصن الأعرج: بالرفع، صفة للقرآن[(٢)]. على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أي هو محفوظ في القلوب لا يدركه الخطأ والتبديل»[(٣)].

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تفسير الرازي (١١٦/٣١).

(٢) وانظر: الحجة للقراء السبعة لحسن بن أحمد الفارسي (٣٩٦/٦).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٦٣/٥).

QaradawiBooks.com

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة:

السورة مكيَّة، وقد روى عبد الله بن الإمام أحمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد، قال عبد الله: وسمعتُه أنا منه، بسنده إلى عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العَدْوَاني، عن أبيه، أنَّه أبصر رسولَ الله ﷺ في مُشرِّق ثقيف وهو قائم على قوس ـ أو عصًا ـ حين أتاهم يبتغي عندهم النَّصر، فسمعتُه يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ حتَّى ختمها، قال: فوَعِيتها في الجاهليَّة وأنا مشرك، ثمَّ قرأتُها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيفٌ فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتُها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحنُ أعلم بصاحبِنا، لو كُنَّا نعلم ما يقول حقًّا لاتَّبعناه[1].

وروى النَّسائي بسنده، عن جابر قال: صلَّى مُعاذٌ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «**أفتانٌ أنت يا معاذ؟! ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو ذلك؟!**»[2].

(١) رواه أحمد (١٨٩٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١٦٠٠). وأصلُ الحديث مخرَّج في الصحيحين سبق تخريجه صـ١٩٠.

QaradawiBooks.com

مقاصد السورة:

تتضمَّن السورة الإقسام من الله تعالى بهذا الطارق، والنجم الثاقب، على أنَّ كلَّ نَفْس من أنفس البشـــر عليها من الله حافظ ورقيب يحرسها، ويكتب أعمالها.

وأنَّ على الإنسان أن ينظر في بداية خلقه، وأنَّه خُلِق من مَنِيِّ الرجل، ومن ماء المرأة، فهو من كليهما خُلِقَ.

وأنَّ الله قادر على إعادته، كما خلقه من هذه المادَّة المهينة، بتأكيد البعث.

وأنَّه سيعاد يوم الحساب، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وتنكشف الستور، فما له من قوَّة تحميه، أو أحد ينصره.

ثمَّ يحلف الله بالسماء الَّتي تتراجع بالأمطار، وبالأرض الَّتي تتصدَّع بالنبات، على عظمة القرآن وصوابه.

ثم يُبشِّر الرسول الكريم والمســـلمين بالنصر المبين، وأنَّ الكافرين يمكرون ويكيدون المكايـــد، والله لهم بالمرصاد، وسيُفْشِـــل خططهم، ويُحْبِط مكرهم.

القســـم بالطارق على أنَّ كلَّ نفْـــس عليها من الله حافظ يحرســـها ويكتب أعمالها

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۞ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۞ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾

بدأ القسمَ بالســـماء، كما في السورة السابقة، ولكن هنا أضاف إليها الطارق، بهذا الوصْف.

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ اســم فاعل من طَرَقَ يَطْــرُق، فهو طــارق، إذا جاء ليلًا، وأصل الطَّرْق: الدَّقُّ، ومنه سُــمِّيتْ «المِطْرَقة»، وإنَّما سُمِّي قاصد الليل طارقًا، لاحتياجه إلى طَرْق الباب، ثمَّ اتَّسع معناه لكلِّ ما ظهر في الليل كائنًا ما كان. والمراد هنا: النَّجْم البادي ليلًا، إمَّا على أنَّه اسم جنس، أو نجم معهود.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾

فخَّمه حين أقســم به، ثمَّ نوَّه بشــأنه، ونبَّه على رِفعة قدره، بحيث لا ينالها إدراك الخلــق، فلا بدَّ أن تُتَلقَّى مِن الخــلَّاق العليم. والمعنى: وأيُّ شيءٍ أعلمك عن حقيقة الطارق؟!

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾

خبرٌ لمبتدأ محذوف، أيْ: هو النجم الثاقب، أيْ: المضيء أو النافذ، كأن الليل جِلْد أســود، وهو يثقب هذا الجِلد ويخرقه، فهو يثقب الظلام والأفلاك بضوئه وينفذ فيها.

والمراد به: إمَّا الجنس، فإن لكل نجم ضوءًا ثاقبًا لا محالة، وهو الأولى، وقيل: نجم معين مثل: زحل، أو الثريَّا، أو غير ذلك. وقيل: المراد الشــهاب واحد الشــهب، الَّتي ذكــر القرآن أنَّهــا ترجم بها الشــياطين، قال تعالــى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، تفْخيم لشأن هذا المُقْسَم به، وقال ســفيان بن عُيَيْنة: كل ما في القرآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، فقد أخْبر الرسول به ـ

QaradawiBooks.com

يقصد: قد أخبر الله تعالى نبيه بشأنه وحاله ـ، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، لم يخْبر به[١].

قال الرازي: «اعلمْ أنَّه تعالى أكثر في كتابه ذكْر السماء والشمس والقمر؛ لأنَّ أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة. وأمَّا ﴿ٱلطَّارِقُ﴾: فهو كل ما أتاك ليلًا، سواء كان كوكبًا أو غيره، فلا يكون الطارق نهارًا، والدليل عليه قول المسلمين في دعائهم: نعوذ بالله من طوارق الليل.

وروي أنَّه عليه السلام، نهى عن أن يأتي الرجل أهله طروقًا[٢]، والعرب تستخدم الطروق في صفة الخيال؛ لأن تلك الحالة إنَّما تحصل في الأكثر في الليل، ثمَّ إنَّه تعالى لما قال: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾، كان هذا ممَّا لا يستغني سامعُه عن معرفة المراد منه، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾... ثمَّ قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، أي: هو طارقٌ عظيم الشأن، رفيع القدر، وهو النجم الَّذي يهْتدى به في ظلمات البرِّ والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار»[٣].

جواب القسم:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

هذا هو جواب القسم، ﴿إِن﴾ نافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى «إلَّا»، والمعنى: لا يوجد نفس بشريَّة إلَّا وعليها من الله حافظ، وعلى الجميع حفظة

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في باب فضل ليلة القدر (٤٥/٣)، ووصله ابن حجر في التغليق (٢٠٤/٣ ـ ٢٠٥).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٤٣)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) تفسير الرازي (١١٧/٣١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يحرسونهم، ويحفظون على كل نفس عملها ورزقها وأجلها وكل ما يتعلق بها، وما تكسب من خير أو شر، فعليها ﴿حَافِظٌ﴾، أي: حارس ورقيب وراصد لِما تقوله وما تفعله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

والمراد: أنَّ كلَّ نفْسٍ عليها رقيب وحافظ، يحفظها من الآفات حتَّى يسلمها إلى المقادير.

«وقيل: الحافظ على الإنسان: عقله، يرشِده إلى مصالحه، ويكفُّه عن مضارِّه.

قلت (القرطبي): العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جلَّ وعز، قال الله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]»[1].

وقال الرَّازي في بيان ما يحفظه هذا الحافظ أو هؤلاء الحفظة: «ففيه وجوه، **أحدها**: أنَّ هؤلاء الحفظة يكتبون عليه أعماله، دقيقها وجليلها، حتَّى تخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا.

وثانيها: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، يحفظ عملها ورزقها وأجلها، فإذا استوفى الإنسان أجله ورزقه قبضه إلى ربه، وحاصله يرجع إلى وعيد

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٠).

QaradawiBooks.com

الكفَّار وتسلية النبي ﷺ، كقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]، ثمَّ ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقونه.

وثالثها: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، يحفظها من المعاطِب والمهالِك، فلا يصيبها إلَّا ما قدر الله عليها.

ورابعها: قال الفرَّاء: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، يحفظها حتَّى يسْلِمها إلى المقابر»[1].

(١) تفسير الرازي (١١٩/٣١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النظر في بداية خلق الإنسان وقدرة الله على بعثه

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۞ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾

قال الإمام الـرازي: «واعلمْ أنَّه تعالى لما أقسـم على أنَّ لكلِّ نَفْس حافظًا يراقبهـا، ويعدُّ عليها أعمالها، فحينئذ يحـق لكل أحد أن يجتهد ويسْـعى في تحصيل أهم المُهمَّات، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أن أهم المهمات: معرفة المبْدأ ومعرفة المعـاد، واتفقوا على أن معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد، فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدلُّ على المبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾»[1].

أي: إذا تَبيَّن للإنسان أنَّه لا يوجد نفسٌ إلَّا عليها رقيبٌ وحافظٌ من الملائكـة وجنـود الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثـر: ٣١]، فعلى الإنسان أن ينظر ويتفكر بعقله في خلقه وتكوينه العجيب، الَّذي جمع بين حُسْـن الصورة والتقويـم، وقوة الفكـرة، والاسـتعداد للتعلم والتعليم، والتأهل للدار الآخرة، يتفكـر: ماذا كان أمره، وإلام صار؟ ومِمَّ خلقه الله من الأساس؟ كما قال تعالى حين لخَّص مراحل الإنسان كلها في سـطر أو سـطرين من القرآن: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۞ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨ ـ ٢٣].

(١) تفسير الرازي (١١٩/٣١).

QaradawiBooks.com

الإنسان خُلِقَ من منيّ الرجل وماء المرأة:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾

الدَّفْق: صبُّ الماء. يقال: دفقت الماء. أيْ: صببْتُه، وهو مدفوق، أي: مصبوب، وإنَّما قال: ﴿دَافِقٍ﴾؛ لأنَّ معناه: «ذو دَفْقٍ»، كما يقال: «دارع»، و«فارس»، و«نابل»، أي: ذو درع، وذو فرس، وذو نَبْل، كما أنَّهم يُسمُّون المفعول باسم الفاعل، كقولهم: «سرٌّ كَاتِم»، و«هَمٌّ نَاصِب»، و«ليلٌ نائم»، وكقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. أي: مَرْضِيَّة.

والجواب عن هذا السؤال أو الاستفهام: أنَّه ـ كما يعلم الجميع ـ خُلِق من ماءٍ دافق.

لمْ يُخْلق من ذهبٍ، أو من جَوْهر من الجواهر النفيسة، بل خُلِقَ من الماء المَهِين ـ كما سمَّاه الله في سورة السجدة في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] ـ وهو ما نسمِّيه الآن «الحيوان المنوي»، الَّذي تخرج الدَفْقة أو الدفقات منه، من صلب الرجل، فيها الملايين، وعشرات الملايين، وربَّما مئات الملايين، كلُّ واحدٍ منها صالحٌ لأن يكون نواة لإنسان كامل.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾

هذا الماءُ الدافق يخرج من الجنسين كليهما: الرجل والمرأة، فمنهما يكون خلق الإنسان، يجتمع الماء من صلب الرجل، وهو عظام ظهره الفقاريَّة، ويجتمع كذلك من ترائب المرأة ـ جمع تريبة ـ وهي عظام صدرها العلويَّة، وكان هذا أمرًا مجهولًا للبشر كافَّة، لا يعلمه أحدٌ منهم، فهو من الحقائق العلميَّة الَّتي لم تكشف عنها العلوم المُكتسَبة إلَّا في

QaradawiBooks.com

العقود المتأخِّرة من القرن العشرين، حيث اطَّلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنَّه في عظام الظهر الفقَّاريَّة يتكوَّن ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلويَّة يتكوَّن ماء المـــرأة، وورودها في القرآن بهذا الوضوح، وبهذا التأكيد في سياق الاستشهاد على صحَّة البعث والرجوع إلى الله ربِّ العالمين، دليل على أنَّ هـــذا القرآن لا يُعبِّر عن علم محمَّد بحدود البيئة العربيَّة القاصرة، إنَّما يُعبِّر عن علم الله بالكون الَّذي خلقه، وخلق كلَّ ما فيه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

الله قادر على إعادة الإنسان كما خلقه من هذه المادَّة المهينة:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾

بعد بيان هذه الحقائق العلميَّة الهائلة، يؤكِّد القرآن أنَّ الله تعالى قادرٌ بيِّنُ القدرة على رجْع الإنسان وإعادته بعد موته، كما بدأه أوَّل مرَّة، كما قـــال تعالـــى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو لله تبارك وتعالى، وإن لم يسبق له ذِكْر مباشر في الكلام، ولكنَّه حاضرٌ دائمًا، وكأنَّه قال: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، وهو الخالـــق، والضمير في قولـــه: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾، يرجع إلى الإنســـان، المذكور من قبل.

دلالة تولُّد الإنسان عن النُّطفة على وجود الله:

قال الإمام الرَّازي في تفسيره: «قد بيَّنَّا في مواضع من هذا الكتاب أنَّ دلالة تولُّد الإنســـان عن النطفة على وجود الصانـــع المختار من أظهر الدلائل، لوجوه:

QaradawiBooks.com

أحدها: أنَّ التركيبات العجيبة في بدن الإنسان أكثر، فيكون تولُّده عن المادَّة البسيطة أدلُّ على القادر المختار.

وثانيها: أنَّ اطِّلاع الإنسان على أحوال نفسه أكثر من اطِّلاعه على أحوال غيره، فلا جرم كانت هذه الدلالة أتمَّ.

وثالثها: أنَّ مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال في أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة، فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى.

ورابعها: وهو أنَّ الاستدلال بهذا الباب، كما أنَّه يدلُّ قطعًا على وجود الصانع المختار الحكيم، فكذلك يدلُّ قطعًا على صحَّة البعث والحشر والنشر، وذلك لأنَّ حدوث الإنسان، إنَّما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلمَّا قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، حتَّى خلق منها إنسانًا سويًّا، وجب أن يقال: إنَّه بعد موته وتفرق أجزائه لا بدَّ وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجَعْلها خَلْقًا سويًّا، كما كان أولًا»[1].

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾

وهو يوم القيامة، الَّذي يُكشف فيه كلُّ شيء، ويُصبِح المكنونُ منشورًا، ويظهر السرُّ علانيةً، وتُخْبَر سرائر الناس، وما أسرُّوه في نيَّاتهم، فإذا هذا كلُّه يبدو ويتَّضح، فيُعْرَف ويَفْتَضِح ما أكنَّته الضمائر، وما خبَّأته القلوب، من العقائد والنيَّات والخواطر والعزمات، وما خفي من الأعمال والأهوال، ويميِّز بين ما طاب منها وما خَبُث، يقول تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

(١) تفسير الرازي (٣١/١٢٠، ١٢١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أنَّ الرسـول ﷺ قال: «**يُرْفَع لكُلِّ غادرٍ** ـ أي يوم القيامة ـ **لواءٌ عِنْدَ اسْـتِهِ، يُقالُ: هذه غَدْرةُ فلانِ بن فلانٍ**»[1].

«قال أبو مسلم: «بَلَوْتُ» يقع على إظهار الشيء، ويقع على امتحانه كقوله: ﴿**وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد: ٣١]، وقولـه: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم** ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ثمَّ قال المفسِّرون: السرائر الَّتي تكون بين الله وبين العبد، تختبر يوم القيامة حتَّى يظهر خبرها من سرِّها، ومؤدِّيها من مُضَيِّعها، وهذا معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما: يُبدي الله يوم القيامة كلَّ سـرٍّ منها، فيكـون زَيْنًا في الوجوه، وشـيْنًا في الوجوه. يعني من أدَّاها كان وجهه مشـرقًا، ومن ضيَّعها كان وجهه أغْبر»[2].

﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

فما للإنسـان في هذا اليـوم ﴿**مِن قُوَّةٍ**﴾، في نفسـه أو قومه، تحميه ويمتنع بهـا، ﴿**وَلَا نَاصِرٍ**﴾، ولا أحد مـن الخارج، كالحليف يسـتنصره ويتعزَّز بسنده، فكلُّ واحد في هذا اليوم لا يُفَكِّر إلَّا في أمر نفسه، لا في أمر أحد غيره، ولو كان أقرب النَّاس إليه، ﴿**وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ**﴾ [لقمان: ٣٣].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٥).

(٢) تفسير الرازي (١٢٢/٣١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

القسم بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصَّدْع على عظمة القرآن وصوابه

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۞ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۞ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۞ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۞ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾

أعاد الله هنا القَسم بالسماء الَّتي أقسم بها في أوَّل السورة، ولكنَّه يقسم بها هنا على أمر جديد، كما وصفها هنا بوصف عجيب، يذكره القرآن لأول مرَّة في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾.

قال الإمام القُرْطبي: «أي ذات المطر. ترجع كلَّ سنة بمطرٍ بعد مطر. كذا قاله عامَّة المُفَسِّرين. وقال أهل اللُّغة: الرجْع: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصفُ سيفًا شبَّهه بالماء:

أَبْيَضُ كالرَّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا ما ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي[1]

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنُّجوم يَرْجِعْن في السماء، تطلع من ناحيةٍ، وتغيب في أخرى»[2].

قال الرَّازي في تفسيره: «اعلمْ أنَّه ﷻ لما فرغ من دليل التوحيد، والمعاد أقسم قَسَمًا آخر. أمَّا قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، فنقول: قال الزجاج: الرجْع: المطر؛ لأنَّه يجيء ويتكرَّر.

واعلمْ أنَّ كلام الزجَّاج وسائر أئمَّة اللُّغة صريح في أنَّ الرَّجْع ليس

(١) انظر: مجاز القرآن (٢٩٤/٢)، والبيت في شعره في ديوان الهذليين (١٢/٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/٢٠).

QaradawiBooks.com

اسمًا موضوعًا للمطر، بل سُـمِّي رَجْعًا على سبيل المجاز، ولحُسْن هذا المجاز وجوهٌ:

أحدها: قال القفَّـال: كأنَّه من ترجيع الصوت، وهـو إعادته ووصل الحروف به. فكذا المطر، لكونه عائدًا مرَّة بعد أخرى سُمِّيَ رجعًا.

وثانيها: أنَّ العرب كانوا يزعمون أنَّ السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثمَّ يرجعه إلى الأرض[١].

وثالثها: أنَّهم أرادوا التفاؤل فسمَّوْه رَجْعًا ليَرْجِع.

ورابعها: أنَّ المطر يرجع في كلِّ عام»[٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾

قال الإمام القرطبي: «﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، قسـم آخر، أي تتصدَّع عن النبات والشـجر والثمـار والأنهار، نظيـره: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦]. والصدْع: بمعنى الشقّ؛ لأنَّه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنَّه قال: والأرض ذات النبات، لأنَّ النبات صادع للأرض.

وقال قتادة: والأرض ذات الطرق الَّتي تَصْدَعُها المشـاة. وقيل: ذات الحَرْث؛ لأنَّه يَصْدَعُها. وقيل: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم للنشور»[٣].

ويمكن أن يراد هذا كلُّـه بـ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، ويمكن أن يُزاد عليه بما يقبله اللفظ.

---

(١) وأقول: وهذا ليس مجرد زعم، بل هو الحقيقة الثابتة الآن بكل الدلائل.

(٢) تفسير الرازي (١٢٢/٣١).

(٣) تفسير القرطبي (١١/٢٠).

QaradawiBooks.com

يقول العلَّامة الدكتور زغلول النجَّار في «موسوعة الإعجاز العلمي» في كتابه «خَلْق الإنسان في القرآن»: «ثم تُتْبع الآيات بقَسَمَيْن آخرين من الله تعالى، وهو الغَنِيُّ عن القَسَم لعباده، يقول فيها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۞ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، ورجْع السماء هو قدرتها على إرْجاع النافع المفيد من مختلف صور المادَّة والطاقة الَّتي ترتفع إليها من الأرض إلى ذلك الكوكب المبارك مرَّة أخرى، وذلك من مثل: صدى الصوت، المطر، الرجْع الحراري بعد غروب الشمس، عودة الغبار المرتفع بواسطة الرياح من الأرض إليها، وانعكاس موجات البث الإذاعي والتلفازي على سطح النطاق المتأين من الغلاف الغازي للأرض، ورجوعه مرَّة أخرى إلى أماكن توجيهه، ولولا ذلك ما تمكَّن الإنسانُ من أيِّ بثٍّ إذاعي أو تلفازي أو اتصال لا سلكي، وغير ذلك من صور الرجع الداخلي.. وقدرة سماء الأرض أيضًا على إرجاع الضارِّ المهلك من صور المادَّة والطاقة الَّتي تهبط من السماء في اتِّجاه الأرض إلى فسحة السماء مرَّة أخرى، وذلك من مثل: الزائد من حرارة الشمس الَّذي تردُّه السُّحُب، والأشعَّة فوق البنفسجيَّة وتردُّها طبقة الأوزون، والأشعَّة الكونيَّة ويردُّها كلٌّ من النَّطاق المتأيِّن وأحزمة الأشعَّة الموجودة فيه، وغيرها.

وتحصي العلوم المكتسبة اليوم أكثر من عَشْر صُوَر لرَجْع السماء بشكليه الداخلي العائد إلى الأرض، والخارجي المندفع بعيدًا عنها، جمعتها هذه السورة الكريمة في كلمة واحدة هي «الرجْع»، وقد يرى القادمون من بعدنا في هذه اللفظة «الرجْع» ما لا نراه نحن الآن.

والقسم بـ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾: يشمل انصداع التربة عن النبات، وعن أجساد الأموات يوم البعث، كما يشمل شبكة الصدوع الَّتي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، والَّتي يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس،

QaradawiBooks.com

ممتدة لعشرات الآلاف من الكيلومترات في مختلف الاتجاهات، وبأعماق تتراوح بين ٦٠ كم ـ ٦٥ كم في صخور قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحورها، وبين ١٠٠ كم ـ ١٥٠ كم في صخور اليابسة؛ لتشكل صمام أمن للأرض، تنطلق منه الطاقة الزائدة عن حاجتها، والناتجة من تحلُّل العناصر المشعَّة الموجودة في داخل الأرض.

ولولا تلك الشبكة الهائلة من الصدوع المتَّصلة ببعضها البعض وكأنَّها صدع واحد لانفجرت الأرض على هيئة قنبلة ذريَّة كبيرة منذ اللحظة الأولى لتيبُّس قِشْرتها؛ ومن هنا كانت أهميَّة ذلك الصدع لاستقامة وجود الأرض وجعلها صالحة للعمران بالحياة، ولذلك جاء هذا القسم الإلٰهي المغلَّظ به، والله تعالى غَنِيٌّ عن القسم لعباده؛ جاء تنبيهًا لنا إلى أهمية الأمر المُقْسَم عليه، أَلَا وهو صدْع الأرض»[1].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾

أقسم الله تعالى بالسماء ذات الرَّجْع، والأرض ذات الصَّدْع، على هذا الأمر: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: القرآن الَّذي مثلته هذه السورة، وهذه الآيات منها، ولم يتقدَّم له ذكر في الآي الَّتي معنا، يفصل بين الحقِّ والباطل، وبين الهُدَى والضلال، وبين الرُّشْد والغَيِّ.

وقد جاء الحديث الَّذي رواه الترمذي من طريق الحارث الأعور، عن عليٍّ رضي الله عنه في وصف القرآن: «**كتاب الله، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْم ما بينَكم، هو الفصلُ ليس بالهزل...**» الحديث[2].

(١) موسوعة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار (خلق الإنسان في القرآن) (٢٦٤/٤ ـ ٢٦٦).

(٢) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

QaradawiBooks.com

ولهذا سُمِّيَ القرآن: الفرقان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال بعضهم: «القول الفَصْل»: ما تقدَّم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، ورجَّحه القرطبي[1].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾

الهزل: ضِد الجِدِّ، والمعنى: أنَّ القرآن ليس بالباطل ولا اللعب. وقد هَزَل يَهْزِل، كما قال الكُمَيْتُ:

أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وطُولِهَا تَجِدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ونَهْزِلُ[2]

قال العلَّامة زغلول النجَّار: «ويأتي جواب القسم بقول ربِّنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: أنَّ القرآن الكريم المشتمل على هذه السورة المباركة، وعلى ما جاء فيها من أمور الغيب، وحقائق الكون، هو «قول فصل» يفصل بين الحق والباطل، بل هو الفصل ذاته، الَّذي ليس فيه شائبة من شوائب الهزل؛ لأنَّه قاطعٌ في فصله، حازمٌ في حكمه، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الخالق الَّذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحْيِهِ ـ اللُّغة العربيَّة ـ وحفظه حفظًا كاملًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بهذا الحفظ الإلٰهي إلى ما شاء الله، في حين ضاعت كل أصول صور الوحي السابقة ضياعًا تامًّا، وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى قدر من التحريف الَّذي أخرجها عن إطارها الربَّانِي، وجعلها عاجزة كل

(١) تفسير القرطبي (١١/٢٠).

(٢) انظر: اللسان مادة (هـ. ز. ل)

QaradawiBooks.com

العجز عن هدايـة أتباعها الَّذين تسـببوا في أغلب الحروب والمآسـي والكوارث والانهيارات الإنسانيَّة الَّتي عانت منها البشريَّة كلُّها ولا تزال، باسم أديانهم، والدِّين منهم بريءٌ براءة الذئب من دم ابن يعقوب»[١].

تسلية الرسول الله ﷺ وتسكين قلبه:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

إنَّ أعداء الله من المشركين الكافرين بالله ورسالاته، يمكرون بالإسلام ورسـوله والمؤمنين من حوله مكـرًا، ويحتالون لإيذائهم في أنفسـهم وأموالهـم وكل ما يسـتطيعون من قـوة، والله تعالى غيـر غافل عنهم، ولا سـاكت عليهم، بل يجازي مكرهم بمكر، وكيدهم بكيد، وإن كان مكر الله أكبر من مكرهم، وأسـرع من مكرهـم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وقـال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾

«أي: لا تشـتغل بالانتقـام منهم، ولا تـدعُ عليهـم بالهلاك، أو لا تسـتعجل به. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلهـا. فإن الإخبار بتوليه تعالى لكيدِهـم بالذات، بما يوجب إمهالهـم، وترك التصدِّي لمكايدتِهم قطعًا»[٢].

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾، أجل أمرهم قليلًا، ولا تعجل عليهم، وترقب ما وعدك الله من نصر، وما أوعدهم من هـلاك، وثق أنَّ الله ناصرك، ومظهر دينك

(١) موسوعة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار (خلق الإنسان في القرآن) (٢٦٦/٤).
(٢) تفسير أبي السعود (١٤٢/٩).

QaradawiBooks.com

على الدين كله، ولو كره المشركون، وترى ماذا أحل الله بهم من العذاب والنَّكال والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وما ينزل بالكافرين هنا ليس على مجرَّد كفرهم، فهذا حسابه عند ربِّهم في الآخرة، ولكن ما ينزل بهم إنَّما هو لظلمهم وبغيهم على المؤمنين، فهم ليسوا مجرد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، بل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾. فهو كفر عدواني يحمل الشَّرَّ والأذى للناس في طبيعته؛ لذا قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وفي ذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وتسكينٌ لقلبه، وملئه بالاطمئنان والسكون إلى أنَّ العزَّ له، والنصر قريبٌ منه، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

السورةُ مكيَّة، وقد ثبت في الحديث الصحيح، أنَّ النبي ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الغاشية في الجمعة والعيد[1].

وهي تتضمَّن أمر النبيِّ ﷺ بالتَّسبيح باسم ربِّه الأعلى، ووصْفِه بما يستحقُّه من الصفات العلى، والأسماء الحسنى، ثمَّ ذُكر للنبيِّ ﷺ أنَّه سيقرئه هذا القرآن فلا ينساه، إلّا ما شاء الله أن ينسيه، وأنَّه يعلم الجهر وما يخفى، ويُيسِّره لليسرى.

كما أمره بالتَّذكير الَّذي هو دأبه ورسالته دائمًا، وإن كان تذكر القوم بعيدًا، ولكن من يخشى الله سيستفيد وسينتفع، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

ثم يُبيِّن القرآن أنَّ الفلاح والفوز في الآخرة إنَّما هو لمن تزكَّى؛ تزكَّى إيمانيًّا وأخلاقيًّا، وزكاة نفسه هذه إنَّما تكون بذكر الله والصلاة.

وأخيرًا يُعلن القرآن هذه الحقيقة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وهذا هو ما يشغل عموم الناس: أن يقدموا أمور

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٧٨)، عن النعمان بن بشير.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحياة الدُّنيا ومطالبها، مع أنَّهم إذا قارنوها بالآخرة، كانت الآخرة خير وأبقى.

والحقيقة الأخيرة أنَّ ما قرَّره محمَّد في دينه ليس جديدًا، وإنَّما هو أمر قررته الأديان السماوية السابقة، وقرَّره الأنبياء الكبار في صحفهم وكتبهم، كما في صحف إبراهيم وموسى.

إنَّ هذه الرسالة تُصدِّق الرسالات السابقة؛ فهي تتضمَّن تسبيح الرب الأعلى وتنزيهه، والإشارة إلى وحدانيته، وتأييد نبيه محمَّد ﷺ، وتثبيته وإقرائه القرآن، وأنَّ الله سبحانه آتاه شريعة سَمْحة ميسَّرة، وكتابًا يذكر الناس، فلا يعرض عنه إلَّا أتباع الدُّنيا المتكالبون عليها، وأن رسالة محمَّد هي اتباع للرسالات الأولى.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حقائق كونيَّة أربعة تدلُّ على وجود الله تعالى

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥].

كمال الربوبيَّة كما يصورها القرآن:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾

الخطاب للنبيِّ ﷺ، المنزَّل عليه القرآن، ولكل من يتأتَّى خطابه معه، وهو أمر من الله تعالى بتسبيح اسمه ﷻ. والتسبيح إحدى المعبرات الأربعة عن كمال الألوهية، كما يصورها القرآن العظيم، وهي: التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير. وهي الَّتي يعبر عنها بالكلمات الطيبات، أو الباقيات الصالحات، الَّتي تتمثل فيما جاءت به الأحاديث الصحاح: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر**»[1].

فـ«سبحان الله»: تنزيهٌ له تعالى شأنه عمَّا لا يليق بجلاله وكماله.

و«الحمد لله»: وصفٌ له بالحمد الَّذي بدأ به كتابه وافتتح به سورة «الحمد».

و«لا إلٰه إلَّا الله»: إعلان لحقيقة التوحيد الَّذي يبطل كل ما سوى الله ممَّا يعبد ويقدس، فلا إلٰه غيره، ولا معبود سواه.

و«الله أكبر»: إعلانٌ عن عظمته وعُلوِّه على كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه إنَّما هو مخلوق له، يجري بقضائه وقدره.

---

(١) رواه البخاري في التهجد (١١٥٤)، عن عبادة بن الصامت.

QaradawiBooks.com

عناية القرآن بالتسبيح:

اهتمَّ القرآن بالتَّسبيح؛ لأنَّه تنزيهٌ لله عن كل النقائص والمحذورات الَّتي ألحقها به المشركون الَّذين ينكرون النبوَّة والرسالة، والمحرِّفون الَّذين ثبتت عندهم الرسالة، ثمَّ شوَّهوها وحرَّفوا كَلِمها عن مواضعه، فنسبوا إلى الله الأبناء والأولاد، ونسبوا إلى الله التشبُّه بالخلق، ونسبوا إليه كثيرًا من النقائص، ولكن القرآن أثبت له التسبيح على ألسنة الملائكة الَّذين قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وعلى لسان الرسل والأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعلى لسان المؤمنين جميعًا، كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعلى لسان الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

QaradawiBooks.com

صيغ التَّسبيح في القرآن:

جاء القرآن بالتَّسبيح في كل صيغه، وبدأ به سورة الإسراء، فجاء به في صيغة المصدر، كما في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وجاء بالتسبيح في صيغة الفعل الماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وكذلك في مفتتح سورة الصف.

وجاء في صيغة الفعل المضارع، كما في بدْء سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]. وكذلك بدء سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقد جاء القرآن في بدء هذه السورة بفعل الأمر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ليبين لنا القرآن أنَّ الله تعالى يسبح بكل صيغة، في الماضي والحاضر والمستقبل، وبالأمر والمصدر، حتَّى إننا نبدأ صلاتنا بالتسبيح: «**سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك**»[1].

كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال لنا رسول الله ﷺ:

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٩)

QaradawiBooks.com

«**اجعلوها في ركوعكم**». فلمَّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[(١)].

وروى الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس، أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال: «**سبحان ربي الأعلى**»[(٢)].

وقال القرطبي: «يُسْتَحَبُّ للقارئ إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، أن يقول عقبه: «سبحان ربِّي الأعلى». قاله النبيُّ ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين[(٣)]»[(٤)].

ومعنى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، أي: عظِّمْه، ونزِّهْه عمَّا لا يليقُ به، نزِّهْ اسم ربك عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة، وعن إطلاقه على غيره بوجْه يشعر بتشاركهما فيه، وعن ذكره، لا على وجه الإعظام والإجلال، نزهه عن النقائص والغِير، وعن كل ما يقوله المشركون والمحرفون، ونزِّه اسمه تعالى أن يسمَّى به صنم أو وثن، أو نزه اسم ربك عن أن تذكره إلَّا وأنت خاشع.

---

(١) رواه أحمد (١٧٤١٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده محتمل للتحسين. وأبو داود في الصلاة (٨٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٧)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٥٢).

(٢) روي مرفوعًا وموقوفًا: رواه مرفوعًا أحمد (٢٠٦٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح موقوفًا. وأبو داود في الصلاة (٨٨٣)، وقال عقبه: خولف وكيع في هذا الحديث. ورواه أبو وكيع وشعبة عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفًا، والحاكم في التأمين (٢٦٣/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي. ورواه موقوفًا: عبد الرزاق (٤٠٥١)، وابن أبي شيبة (٨٧٣٤)، كلاهما في الصلاة، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند بعد أن ذكر كلام أبي داود: كأنه يريد تعليل هذا المرفوع بذلك! وما هذه بعلة.

(٣) رواها ابن أبي شيبة في الصلاة (٨٧٢٩ ـ ٨٧٣٨).

(٤) تفسير القرطبي (١٢/٢٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هل الاسم هو المُسمَّى؟

هذا إذا أخذنا بظاهر اللفظ، وهناك من يقول: إنَّما المراد بالاسم هو المُســمَّى، والمراد: عَظِّم ونَزِّه ربَّك الأعلى. وذكر الاسم قصد به تعظيم المُسَمَّى، كما قال لَبِيدٌ:

إلى الْحَوْلِ ثمَّ اسمُ السلامِ عليكما ومَنْ يَبْكِ حــولًا كاملًا فقد اعتذرْ[1]

وروى نافع، عن ابن عمر: لا تقلْ: علا اســم الله؛ فإنَّ اســم الله هو الأعلى[2].

ومن هنا صحَّت الأحاديث المرفوعــة والموقوفة أنَّهم كانوا يقولون: سبحان ربي الأعلى.

وهذا كله يدلُّ على أنَّ الاسم هو المسمى؛ لأنَّهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى.

و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ في الآيــة: صفة للرب ﷻ، وهــو الأجْلى والأظهر، وبعضهم قال: صفة للاسم، والدليل على الأوَّل قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. لم يقل: «ذو الجلال والإكــرام»، فيكــون وصفًا للاســم، بل قــال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، ليكون وصفًا للرب، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمــن: ٢٧]، فكان الوصف للوجه، والوجه هو الذات.

---

(١) ديوان لبيد صـ ٧٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/٢٠).

QaradawiBooks.com

خلقٌ تكمله التسوية، وتقديرٌ تكمله الهداية:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

الله تعالى هو الخالق لكل شيء، وقد أشار إلى ذلك منذ أوَّل آيات أنزلت من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

وهنا تشير الآيتان اللتان معنا إلى خلق تكمله التسوية، وتقدير تكمله الهداية، فهي حقائق كونيَّة أربعة تدلُّ على وجود الله تعالى، وعلى تأثيره وتدبيره لهذا الكون الفسيح، الَّذي خلق كل شيء فيه فسوَّاه، والَّذي قدَّر كل شيء فهداه.

لهذا وجدنا القرآن يشير إلى التسوية بعد الخلق، كما في خلق آدم أبي البشر، فقد خلقه من طين، ثمَّ سوَّاه لينفخ فيه من روحه، ويسجِد له ملائكته، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

وعُني القرآن بذكر التسوية في مخلوقات الله الكثيرة، ومنها الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، وعرض ذلك في سورة السجدة، حين حدثنا عن خلق الإنسان: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩].

كما حدَّثنا القرآن عن الهداية العامَّة الَّتي جعلها الله مكمِّلة للتقدير الإلٰهي، الَّذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

QaradawiBooks.com

فهذا التَّقدير الإلٰهي العجيب الشـامل يُتمُّه ويُكمِّله هداية الله العامَّة الشاملة أيضًا، وهو ما عبَّر عنه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

الدلائل الكونيَّة الأربعة:

وقد تحدَّثنا في كتابنا «وجود الله» عن هذه الدلائل الأربعة، التي أشار الله إليها في كتابه المعجز، وفصَّل في آثارها، لتدلَّ على وجود الله تعالى، الَّذي أحسـن كلَّ شـيء خلقه، وأتقن كلَّ شـيء صنعه، ولا يوجد مخلوق كبر أو صغر إلَّا ولله فيه آيـة دالَّة على أنَّه الخالق المصور.

دلالة الخلق على الرب الأعلى:

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث، أي إبراز الشيء من العدم إلى الوجود. وذلك مثل: خلق الحياة فـي الكائنات الحية على ظهر الأرض الَّتي بث فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج.

ومثل خلق الإنسان العاقل، الَّذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثمَّ كان. وهو ما نبَّه عليه القرآن في أوَّل سـورة أنزلت على رسول الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

ومثل خلق السماوات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس، وقد دلَّنا علم الفلك على عِظم الأجرام العلويَّة، وسعة المسافات بينها، حتَّى إنَّها لتقاس بملايين السنين الضوئية.

تُرى، منْ خالق الحياة على هذه الأرض؟ ومَنْ خالق هذا الإنسـان العاقل المفكر؟ ومنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه؟ هل وجدت

QaradawiBooks.com

الحياة ووجد الإنسان، ووجدت المخلوقات العلويَّة والسفليَّة وحدها بلا واجد؟ أو لا بدَّ لها من خالق أوجدها؟ ومن هو؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرَّة على كوكب الأرض؟

إنَّ ظهور الحياة ـ المادَّة الصمَّاء ـ وضع الماديِّين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلًّا ولا تفسيرًا إلَّا على نحو ما قال الشاعر:

وَبَاتَ يَقْدَحُ طُولَ اللَّيلِ فِكْرَتَهُ وفَسَّر الماءَ بعْدَ الجَهْدِ بالمَاءِ[1]

من ذلك ما قاله بعضهم: إنَّ الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العلويِّ عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء. ولكن السؤال يبقى: ومن خلق الحياة هناك في عالم الأفلاك، أو في أي كوكب من الكواكب؟

وقال بعضهم: إنَّ المادَّة فيها طبيعة الحياة، بعد تركيب وتناسُق خاصٍّ. ولكنَّ السؤال يبقى أيضًا: ومن ركَّبها ونسَّقها وهي مادَّة عمياء صمَّاء؟!

ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلَّا أن يأخذ بأحد قولين: فإمَّا أنَّها خاصَّة من خواصِّ المادَّة ملازمة لها، فلا حاجة بها إلى خالق مريد. وإمَّا أنَّها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد.

فإذا كان العالم كلُّه مادَّة ولا شيء غير المادَّة، لزم من ذلك أنَّ المادَّة أزليَّة أبديَّة، لا أوَّل لها ولا آخر، وأنَّها موجودة منذ الأزل بكامل قواها، وجملة خصائصها، وأنَّ خصائصها ملازمة لها حيث كانت، بدون تفرقة بين المادَّة في هذا الكون من الفضاء، والمادَّة في غير هذا المكان.

---

(١) عزاه لابن الذروي: ابنُ شاكر في فوات الوفيات بلفظ مشابه (١١٦/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١.

QaradawiBooks.com

ولا معنى ـ إذن ـ لظهور الحياة في كوكب الأرض دون كوكب، وفي زمان دون زمان، ولا معنى لأنْ تظلَّ خصائص الحياة بلا عمل ملايين الملايين من السنين، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين، ثمَّ تظهر بعد ذلك في زمان يحسب تاريخه بالآلاف، ولا يقاس إلى الأزل الَّذي لا يدخل الحساب.

فلماذا تأجَّلت خصائص الحياة كلَّ هذا الزمن، الَّذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة، بكل ما يلزم لها من تدبير، وليس للمادة الصماء تدبير؟

على العقل أن يبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض، على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد. ولا نعرف أسبابًا لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير.

والفرض اليسير هو الفرض الآخر، وهو أنَّ الحياة ظهرت من صنع خالق مريد.

إن هذا الفرض اليسير هو الَّذي يحل لغز ظهور الحياة من المادَّة الصماء، أو بعبارة أخرى: خروج الحي من الميت، ويحل لغز الوجود كله، حين يستجيب المرء إلى صوت البداهة والعقل، ويرد الخلق والأمر كله لله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ [الأنعام: ٩٥]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

هذا الدليل يسمى دليل «**الخلق**»، أو دليل «**الإبداع**»، أو دليل «**الاختراع**».

QaradawiBooks.com

وقد يوجد في صورة أخرى فيُسمَّى دليل «**الحركة**»، سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، أم الانتقال من حال إلى حال، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيز الإمكان إلى حيز الوجود.

وفحوى هذا الدليل: أنَّ كلَّ متحرِّك لا بدَّ له من محرِّك، وأن هذا المحرِّك لا بدَّ أن يستمد الحركة من غيره. وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرِّك أزلي قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، وإلَّا لزم الدور أو التَّسلسل إلى ما لا نهاية، وكلاهما باطل، وذلك المحرك هو الله.

وقد عرضه المتكلِّمون في صورة ثالثة، وسمَّوه دليل «**الحدوث**».

قالوا: العالم متغيِّر، وكل متغيِّر حادث، وكل حادث لا بدَّ له من مُحْدِث. ولا بدَّ أن يقف العقل عند مُحدِث غير حادث، وإلَّا للزم الدوْر والتسلسل المحالان. وذلك المحدث هو الله. والعلم الحديث يقر بحدوث العالم، ويرجع حدوثه إلى ملايين يقدرها من السنين.

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون ـ كالفارابي وابن سينا ـ في أسلوب آخر وسمَّوْه دليل «**الإمكان**».

وفحوى هذا الدليل: أنَّ الموجودات ـ حسب القسمة العقليَّة ـ إمَّا أن تكون واجبة الوجود جميعًا ـ وواجب الوجود هو الَّذي لا يتصور العقل عدمه، لاستلزام المحال ـ وإمَّا أن تكون ممكنة الوجود، على معنى أنَّها يمكن أن توجد وألا توجد، فليس هناك علة لذاتها تقتضي وجودها أو عدمه، وإمَّا أن يكون بعضها واجبًا وبعضها ممكنًا.

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود؛ لأنَّها بين متحركة تحتاج إلى محرك، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها، ولا بدَّ أن تسبقها أجزاؤها.

QaradawiBooks.com

ومحال أن تكون كلُّها ممكنــة الوجود؛ لأنَّ الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل.

بقي الفرض الثالث: وهو أن يكــون بعضها ممكن الوجود وهو هذا العالم، وبعضها واجب الوجود وهو الله، وهو السبب الأوَّل لوجود هذا العالــم. ومن المحال أن يكون مســبوقًا؛ لأنَّ الَّذي يســبقه يكون أولى بالوجوب.

دلالة التَّسوية على الربِّ الأعلى:

وإذا كان الخلق يدلُّ على الله، فالتســوية أدل عليه، والتسوية أخص من الخلق، إذ من الممكن أن يخلق الشيء غير مسوى.

فمعنى تسوية الشيء: إحســان خلقه، وإكمال صنعته، بحيث يكون مهيئًا لأداء وظيفته، وبلوغ كمالــه المقدر لنوعه، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلًا، متناسب الأجزاء، بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها.

والقرآن يعبِّر عن هذه التســوية بعبارات مختلفــة الألفاظ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل «**الإحسان**»، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، و«**الإتقــان**»، في قولــه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، و«**إعطاء كل شــيء خلقه**»، في قوله تعالى على لسان موســى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، ومعنى إعطائه خلقه: إعطاؤه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له.

كما عبَّر عن التسوية بـ «**نفي التفاوت في خلق الله**»، في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

QaradawiBooks.com

وهذه التَّسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجهٍ أخص.

١ ـ **فالأرض** ـ مثلًا ـ قد سوَّاها صانعها، بحيث تصلح مهادًا ومستقرًّا لنوع الإنسان، فلهذا مدها وبسطها، وجعلها ذلولًا، وألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتَّى لا تميد، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، فلو كانت قشرة الأرض كلها صخرية، أو كلها يابسة، أو كلها محيطات، ما صلحت للإنبات ولا إخراج الثمرات، ولو كانت قشرة الأرض أسمك ممَّا هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة للنبات.

٢ ـ وكل ما على الأرض من **كائنات حية**، قد سويت خلقته، وأحكمت صنعته، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة. **فالجمل** ـ مثلًا ـ قد أعطي الصورة الخلقية الَّتي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خلق برقبة طويلة، تعلي رأسه، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما منح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأعطي سنامًا يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا في الصحاري القاحلة، ولم تنتهِ رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سمَّوْه «سفينة الصحراء». وهكذا نجد أثر التسوية في كل الأحياء.

فكل حي أعطي الوسائل الَّتي يحصل بها على غذائه الملائم، وأعطي من الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام. **فالحيوانات المفترسة** أعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكن به من الافتراس، كما كون جهازها الهضمي بحيث يهضم اللحم النيئ، **والأنعام** الَّتي تأكل العشب أعطيت كرشًا

QaradawiBooks.com

كبيرًا يعد بمثابة مخزن لما تلتهمه بسـرعة، إلى أن تجتره وتعيد مضغه مرَّة أخرى، **والطيور** أعطيت مناقير تساعدها على التقاط غذائها، واتخذ المنقار صورة من الطول أو القصر أو الاستدارة أو غيرها، ممَّا يناسب نوع الغذاء الَّذي يلائمه.

كما زوِّدت الكائنات الحيَّة جميعها بأسلحة مناسبة لتدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها، فالناب سلاح، والمخلب سلاح، والقرن سلاح، والسم سلاح، والمنقار المدبب سلاح، والزعانف الحادة سلاح، وسرعة العَدْو سلاح، والقدرة على الطيران سلاح، والقدرة على الاختفاء سلاح. ولولا هذه الأسلحة الَّتي زُوِّدت بها تلك الأحياء، لأفنى قويُّها ضعيفَها، وأباد كبيرُها صغيرَها.

٣ ـ **تسوية الإنسان**، وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سويت له، ونرتقي إلى الإنسان، نجد مظاهر التسوية وأماراتها أوضح وأعظم، فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم.

إنَّ الإنسان قد خُلق لمهمَّة جليلة، وهي السيادة في الأرض والخلافة فيها، ولهذا أعطي من الخصائص والمميِّزات، والأجهزة الماديَّة والروحيَّة، ما يُعينه على أداء وظيفته، وييسِّر له سبيل مهمَّته.

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التَّسوية، ودقَّة التَّصميم، وتناسق الأجهزة المختلفة الَّتي لا يعد شيئًا بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا، فتدهش له العقول، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام.

الجهاز العضلي، والجهاز العظمي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللمفاوي،

QaradawiBooks.com

والجهاز العصبي، والجهاز البولي، وأجهزة الذوق والسمع والبصر، كل منها آية من الآيات، تسجد لها العقول، وتخشع لها القلوب.

تقول مجلَّة العلوم الإنجليزيَّة: إنَّ يد الإنسان في مقدِّمة العجائب الطبيعيَّة الفذَّة، وإنَّه من الصعب جدًّا، بل من المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشريَّة من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيُّف، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثمَّ تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي الَّتي تصحح وضعه تلقائيًّا، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع إصبعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة الَّتي تقلبها بها، ثمَّ يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافَّة الآلات الَّتي تلزم الإنسان من ملعقة، إلى السكين، إلى آلة الكتابة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان، واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة، وتسع عشرة مجموعة من العضلات، لكلٍّ منها.

وإنَّ جزءًا من أذن الإنسان ـ الأذن الوسطى ـ هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حَنِيَّة (قوس) دقيقة معقدة، متدرجة بنظام بالغ، في الحجم والشكل، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنَّها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما، كل وقع صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر، فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كلِّ أداة موسيقيَّة في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة.

ومركز حاسَّة الإبصار في العين، الَّتي تحتوي على مائة وثلاثين مليونًا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الَّذي يقيها ليلًا ونهارًا، والَّذي تعتبر حركته اللاإرادية،

QaradawiBooks.com

الَّذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدة الشـمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أمَّا السـائل المحيط بالعين والَّذي يعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطَهِّر»[1].

دليل التقدير على الربِّ الأعلى:

التقدير: هو خلق كلِّ شـيء بقدرٍ وميزانٍ وترتيبٍ وحسـاب، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيـدة عنه، فلا يعطل وظيفتهـا، أو يعوق سـيرها لما خلقت له، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل، ينتظم به سير الوجود كله.

فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به، فإن التقدير أن يكون بالقدر الَّذي ينفعه في نفسـه ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وضـع في مكانه الملائـم وزمانه المناسـب، وبالكـم الَّذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفية الَّتي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقديـر ظاهرة عامَّة في كل شـيء كما نبَّه القـرآن على هذه الحقيقة إذ قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمـر: ٤٩]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٨٤٨، ٣٨٤٩)، نشر دار الشروق، بيروت، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

QaradawiBooks.com

الماء مثلًا، سوَّاه الله بمعنى أنَّه أحسن خلقه، وهيَّأه لأداء وظيفته من السَّقْي والري والتَّطهير والتَّنظيف، ونحو ذلك. ولكن الماء الَّذي خلقه الله وأسكنه في الأرض خلقه بقدر، وأنزله بقدر، بحيث لا يقل عن حاجة الخلق، فيكون الجدب والقحط، ولا يزيد عنها فيكون الغرق والضرر، ولا تطغى المحيطات على اليابسة، ولا المالح على العذب، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨].

الشمس، أحسن الله خلقها لتؤدِّي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية، ولكنَّه خلقها بحيث تجري إلى غايتها في مدار محدود، لا تصطدم بكوكب آخر، ولا تقترب من الأرض قربًا يحرق أحياءها، ولا تبعد عنها بعدًا يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

وكل إنسان في أي عصر يستطيع بتأمُّله وإدراكه الفطري أن يشهد ـ على قدر حاله ـ أن كل شيء في الكون قد خلق بحساب ومقدار، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله، فأماط اللثام عن الحكمة البالغة، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود، وضوابط وموازنات.

إنَّ في الفضاء الفسيح الَّذي لا نعرف له حدودًا، ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجواز السماء، وبعض هذه أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها، **كالشِّعْرى** الَّذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرَّة، ونورها ضعف الشمس خمسين مرَّة، و**سُهَيْل** أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرَّة، وهكذا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويقول الفلكيُّون: «إنَّ من هذه النجوم والكواكب ـ الَّتي تزيد على عدَّة بلايين نجم ـ ما يمكن رؤيته بالعين المجـرَّدة، وما لا يرى إلَّا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تُحِسَّ به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلُّها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسـي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلَّا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسـط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد بسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيدًا جدًّا إن لم يكن مستحيلًا».

ومع هذا التَّباعد بين كلِّ نجم وآخر، فقد وضع كلُّ نجم في مكانه، بحيث يتَّسـق في آثاره وتأثيراته مع سـائر النجوم والكواكب، وتؤدي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته.

ولنأخذْ **الشـمس والقمر والأرض وما بينها من علاقـات** مثلًا لهذا التقدير المُحْكَم الدقيق، الَّذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانيَّة على الأرض واستمرارها إلى اليوم.

إنَّ هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النُّجوم، الَّتي تصلح لجعْل الحياة على الأرض ممكنة، وإن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشـعتها ودرجة بعدها عنا، كلُّ ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الَّذي هو الأرض.

يقول العلَّامة «أ. كريسـي موريسـون»: تدور الكـرة الأرضية حول محورها مرَّة في كل (٢٤) سـاعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض أنَّها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة، ولم لا؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول ممَّا هو الآن عشـر مرات، ففي هذه الحالة قد تحرق شـمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل قد يتجمد كل نبت في الأرض.

QaradawiBooks.com

إنَّ الشـــمس الَّتي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها (١٢٠٠) درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي أن تمدنا هذه النَّار الهائلة بالدفء الكافي، لا بأكثر منه، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب.

وكان تغيُّرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها.

ولو أنَّ درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فإن كل نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقًا أو تجميدًا.

والكرة الأرضيَّة تدور حول الشـــمس بمعدل (١٨) ثمانية عشر ميلًا في الثانية، ولو أن معدل دورانها كان مثلًا (٦) ستَّة أميال أو أربعين ميلًا في الثانية، فإنَّ بُعْدَنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا.

والنجوم ـ كما نعلم ـ تختلف في الحجم، وأحدها يبلغ من الضخامة حدًّا لو كان هو شمســـنا لكان محور الكرة الأرضية داخلًا في ســـطحه لمسافة ملايين الأميال.

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها، وكثير من أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة، وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرَّة، ولو أن شمسنا أعطيت نصف إشـــعاعها الحالي فقط لكنا تجمدنا، ولو أنَّها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رمادًا من زمن بعيد.

ومن ذلك نجد أنَّ شمســـنا هـــي الصالحة لحياتنا مـــن بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة.

QaradawiBooks.com

ويبعد القمر مسافة (٢٤٠) ألف ميل، ويذكر المد الَّذي يحدث مرتين تذكيرًا لطيفًا بوجود القمر، والمـد الَّذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدمًا في بعض الأماكن، بل إن قشـرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسـافة عدة بوصات بسـبب جاذبية القمر، ويبدو لنا كل شيء منتظمًا لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة، الَّتي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام، وتحني قشرة الأرض الَّتي تبدو لنا صلبة للغاية.

والمريخ له قمر، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال، ولو كان قمرنا يبعد عنا (٥٠) ألف ميل مثلًا، بدلًا من المسـافة الشاسعة الَّتي يبعدهـا عنا فعلًا، فإنَّ المـد كان يبلغ من القـوة بحيث إن جميع الأراضي الَّتي تحت منسـوب الماء كانت تغمر مرتين فـي اليوم بماء متدفق، يزيح بقوته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة ربَّما كانت لا توجد الآن قـارة قد ارتفعت مـن الأعماق بالسـرعة اللازمـة، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب، وكان المدُّ الَّذي في الهواء يُحدث أعاصير كل يوم[1].

ترى من الذي وضع كل هذه المخلوقـات في مواضعها الصحيحة، وقدر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور؟ كلا.

أمَّا نحـن فجوابنا: أنَّـه «الله» الـذي: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقـان: ٢]، ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(١) العلم يدعو إلى الإيمـان صـ ٥٥ ـ ٥٨، ترجمة محمود صالح الفلكي، نشـر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

دلالة الهداية على الربِّ الأعلى:

خَلْقُ الأشياء المبثوثة في هذا الكون دليل على الله، وإحسان خلقها وتسويتها لتؤدي ما خلقت له دليل آخر على الله، وخلق هذه الأشياء المسواة بمقدار وترتيب يحقق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على الله.

وبقي هنا دليل رابع هو دليل «الهداية»، فكما أنَّ كلَّ شيء في الكون قد خلق على الصورة الَّتي تناسب وظيفته، وتعينه على أدائها، فهو أيضًا قد هُدِي إلى ما خلق لأجله، وألهِم غاية وجوده، ويسر له الطريق ليدرك غاية الكمال الَّذي يناسبه. وهذه هي الهداية، إنَّها شيء فوق الخلق والتسوية والتقدير، إنَّها **الإلهام أو التعليم**. سمه ما شئت. إنَّها الهداية الَّتي يتم بها التقدير، ويكمل الخلق والتدبير.

هذه الهداية عامَّة مبثوثة في كل شيء في الكون، حي أو جامد، صامت أو ناطق، عاقل أو غير عاقل، فليست هي هداية خاصَّة بالمكلفين أو العقلاء، كما قد يظن لأول وهلة، وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة، كالناس والدواب والطيور والحشرات، وهذا ما ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]. وقد كان يدعي هو أنَّه الرب الأعلى فقال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فما من شيء في الوجود إلَّا أعطي هداه، كما أعطي خلقه.

١ ـ **ومن مظاهر هذه الهداية**: أنَّ كلَّ حيوان أعطي من الحواس والأجهزة الخاصَّة ما يعينه على معيشته، وأداء وظيفته المنوطة به، فتجد طائرًا كالصقر كأنَّما أعطي بصرًا تلسكوبيًّا، يستطيع أن يشاهد به ـ وهو

QaradawiBooks.com

محلق فـي الجو ـ صيده الصغيـر على الأرض. ولا بدَّ أن للحشـرات الدقيقة عيونًا ميكروسكوبية، لا ندري مبلغها من الإحكام. وتجد حاسَّة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسـان؛ لأنَّه يكمل عتـاده القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها، أمَّا في الطائر كالحمام الزاجل فإنَّه يقطع آلاف الأميال عائدا إلى وطنه بلا «بوصلة» ولا خارطـة ولا دليل، فإذا التبس عليه الطريق حينا، حوَّم برهة ثمَّ يقصد قُدُمًا إلى موطنه دون أن يضلَّ.

والنَّحلة تهتدي إلى خليَّتها، مهما طمسـت الريـح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى.

والطيور تهاجر من قُطر إلى قُطر، بل من قارة إلى قارة، ثمَّ تعود إلى مقرها الأوَّل دون أن تخطِئ.

ومن أعجب ما عُرف في هجرات الحيوان وهدايتها: **هجرة ثعابين الماء**، الَّتي تهاجر ـ حين يكتمـل نموها ـ من مختلف البرك والأنهار، وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط، لتقصد كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي «برمـودا»، وهناك تبيض وتمـوت، أمَّا صغارهـا ـ تلك الَّتي لا تملك وسـيلة لتعرف بها أي شيء سـوى أنَّها في مياه قفرة ـ فإنَّها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الَّذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثمَّ إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحـار، لقد قاومـت التيارات القويـة، وثبتت للأمداد والعواصف، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شـاطئ، ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل، حتَّى تصـل إلى مياهها الخاصَّة بها، ولم يحدث مرَّة أن صيد ثعبان أفريقي في مياه آسـيوية، أو أوربي في مياه أمريكية أو العكس.

QaradawiBooks.com

إنَّ المجال ذو سعة للحديث عن **الهداية في عالم الحشرات والطير والدواب**، حتَّى إنَّ المرء ليقف متحيرًا عن أي شيء منها يتحدث؟ وما الَّذي يخصه منها بالحديث دون غيرها؟

هل نتحدَّث هنا عن الهداية في **مملكة النحل**، وكيف تُصمِّم وتهندس، وتبني وتنسق، وكيف توزع العمل، وتتعاون على الإنتاج والحراسة، ممَّا يعلمه الدارسون، وما أفاض فيه الكاتبون؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهداية: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

أم نتحدَّث عن **الهداية عند النمل** (تلك الحشرة الاجتماعيَّة)، الَّتي يُضرب المثل بتعاونها وتضامنها، والَّتي يبدو أنَّها تُطبِّق المبدأ القائل: «أعظم خير لأكبر عدد». إنَّها تدخر رزقها في الصيف، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها، حتى تنتفع به في أيام الشتاء، حيث يتعذر عليها الكسب والسعي والخروج من البيت، وإذا كان فيما خزنته ما ينبت، عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربع، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثمَّ أعادته إليها. فمن علمها هذا، وهداها إليه؟

ومن عجيب أمرها: أنَّها تدرك بالشمِّ من البُعد ما يدرك غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله، وإن كان أكبر من وزنها، فإن عجزت

QaradawiBooks.com

عن حمله ذهبت إلى جحرها، وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا، حتَّى يتعاونوا على حمْله ونقله، وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل، إلَّا أنَّ لها رائدًا لا يكذبها، يطلب الرزق في مظانه، فإذا وقف عليه أخبر جماعته، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا، وكلُّ نملة تجتهد في صالح جماعتها، غير مختلسة لنفسها من الحبِّ شيئًا.

أم نتحدَّث عن **الهداية عند طير الحمام**، الَّذي نرى الذكر والأنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، ومعظم جلب القوت والرزق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر، وإنهما ليتعاونان في إطعام فراخهما، ويتدرجان به من حب لين رخْو مخلوط بلعابهما إلى ما هو أشد منه وأقوى، حتَّى إذا علما أنَّه قد أطاق الالتقاط بنفسه، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاد، فإذا أدركا أنَّ حوصلته قد اتسعت وقويت، وأنَّ قوته قد تمت، وأنهما إن فطماه فطمًا تامًّا قوي على الاستقلال بأمره، تركاه يسعى ويكد في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه، وإذا سألهما الرزق ـ كما كان من قبل ـ منعاه وضرباه، ونزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما، وبدءا يعملان من جديد لإنجاب آخر.

أم نتحدَّث عن **الهداية عند سائر الحيوانات**، وقد قال ابن القيِّم: «وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر، حدِّثْ عنه ولا حرج».

وفيها يقول: «من هَدَى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل، لأنَّها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه، وتحوله من مكان إلى مكان حتَّى يشتد؟

QaradawiBooks.com

ومَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب، عفى على أثر مشيته بذنبه؟

ومَنْ عَلَّم الثعلب إذا اشتدَّ به الجوع أن يستلقي على ظهره، ويحتبس نَفَسَه إلى داخل بدنه حتَّى ينتفخ، فيظن الطير أنَّه ميتة فيقع عليه، فيثب على من انقضى عمره منها؟

ومَنْ علَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه، ويضعه على جرحه كالمرهم؟

ومَنْ علَّم الأنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه، لأنَّها دون الحيوانات لا تلد إلَّا قائمة، لأنَّ أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطًا وتضعه فيها، يكون كالفراش اللَّيِّن والوِطاء الناعم؟

ومَنْ علَّم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتَّى يجيء فيطيرون حول الفرخ، ويحُرِّكونه بأفعالهم، ويُحدثون له قوَّة وهمية وحركة حتَّى يطير معهم؟

ومَنْ علَّم الحمامة إذا باضت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يقيما له حروفًا تشبه الحائط، ثمَّ يُسَخِّناه ويحْدثا فيه طبيعة أخرى، ثمَّ يُقَلِّبان البيض في الأيام حتَّى يفرخ؟

ومَنْ علَّم المرسلة منها ـ الحمام الزاجل ـ إذا سافرت ليلًا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت، وإذا عرفت الطريق مرت كالريح؟

QaradawiBooks.com

ومَنْ علَّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطا ثمَّ تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشـبكة تدلت إليها فاصطادتها؟

ومَنْ عَلَّم الظبي ألا يدخل كُناسـه إلَّا مسـتدبرًا، ليسـتقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخِشْفه[1]؟

ومَنْ عَلَّم السِّنَّوْر إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليه بالعودة، ثمَّ يشير إليها بالرجوع، وإنَّما يريد أن يدهشها، فتنزلق فتسقط؟

ومَنْ عَلَّم اليربوع أن يحفر بيته في سـفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدق الحفر، ومجرى الماء، ويُعمِّقه، ثمَّ يتخذ في زواياه أبوابًا عديدة، ويجعل بينها وبيـن وجه الأرض حاجزًا رقيقًا، فإذا أحس بالشـر فتح بعضها بأيسـر شـيء وخرج منه، ولما كان كثير النسـيان لم يحفر بيته إلَّا عند أكمة أو صخرة علامـة له على البيت إذا ضل عنه؟».

قال العلَّامة ابن القيِّم بعد أن أطال في هداية الحيوان: «وهذا باب واسع جدًّا، ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]»[2].

ويكفينا هنا أن نسـأل الماديِّين: كيف أتيح للذرَّات الَّتي تتكون منها النحلـة أو النملة أو الحمامـة أو غيرها أن تهتدي إلـى تلك العمليات المعقدة دون خالق يرشدها؟!

---

(١) الخشف: ولد الغزال، يطلق على الذكر والأنثى، انظر: المصباح المنير للفيومي مادة (خ. ش. ف).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر صـ ٧٣ ـ ٧٧.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

غير أنَّ الَّذي ينبغي ذكره هنا: هو بعض ما أمدنا به العلم الحديث من معرفة اتسع بها مدلول الهداية لأكثر ممَّا التفت إليه وعُني به علماؤنا المتقدمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعايشها، وما به بقاؤها وتكاثرها، وبهذه السعة في معنى الهداية. اسْتبنَّا في ضوء العلم سر التعميم المطلق في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

٢ ـ ولن نتحدث هنا عن **عجائب الهداية في عالم النبات**، وكيف يمتص كل نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة، رغم اتحاد التربة، واختلاط العناصر فيها، فإذا هذا ملح، وهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مُرٌّ، وهذا مرٌّ، وهذا بَيْن بين.

ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة، والتراب واحد، والماء واحد، ولكن شجرة منها لا تخطئ يومًا فتأخذ ما ليس من مخصصاتها أو فوق ما ينبغي لها، أو دون ما ينبغي. وهي الحقيقة الَّتي سجلها القرآن المعجز فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾

﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾: النبات والكلأ الأخضر، قال الشاعر:

وقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا[1]

(١) من شعر زفر بن الحارث الكلابي، انظر: شرح نقائض جرير والفرزدق (٨٩٦/٣)، تحقيق محمد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، نشر المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط٢، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

والغثاء: ما قذف به السيْل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش. وهو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء.

والمعنى: أي الَّذي أنبت من جميـــع صنوف النبات والزرع ما ترعاه الدواب غضا طريًّا، فجعله بعد ذلك ﴿غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾.

وقال قتـــادة: «الغثاء»: الشـــيء اليابس. ويقال للحشـــيش إذا تحطم ويبس: غثاء وهشـــيم. و«الأحوى»: الأســـود، أي أنَّ النبات يضرب إلى الحوة من شدة الخضرة كالأســـود، والحوة: سمرة الشـــفة. يقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وقد حويت.

و﴿أَحۡوَىٰ﴾: صفة لـ ﴿غُثَآءً﴾، والمعنى: أنَّه صار كذلك بعد خضرته، وقال أبو عبيدة: فجعله أسود من احتراقه وقدمه، والرطب إذا يبس اسود.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثمَّ لما يبس اسود من احتراقه، فصار غثاء تذهب به الرياح والســـيول. وهو مثل ضربه الله تعالى للكفَّار، لذهاب الدُّنيا بعد نضارتها[1].

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٠).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مكتبية
QaradawiBooks.com

بيان الهداية الخاصَّة لرسوله ﷺ

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾

الخطاب للنبـــيِّ مُحمَّد ﷺ من ربِّه، أي: ســـنقْرِئك القرآن يا محمَّد، فتحفظه وتعلمه ولا تنســـاه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وهذا إخبار من الله ووعد منه لرسوله بأنَّه ســـيقرئه قراءة لا ينساها. وهو بيانٌ من الله لهدايته الخاصَّة برســـوله، بعد الهدايـــة العامَّة لجميع مخلوقاته، وهي هداية لتلقـــي الوحي، وحفظ القـــرآن، الَّذي هو هدًى للعالمين، وتوفيقه لهداية النَّاس أجمعين.

وسين التنفيس: إمَّا للتأكيد، أو أنَّ المراد إقراء ما أوحى الله إليه حينئذ، وما ســـيوحي إليه بعد ذلك، فهو وعدٌ كريمٌ باســـتمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء، أي: ســـنقرئك ما يوحى إليك الآن، وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام، فلا تنســـى من قوَّة الحفظ والإتقان، مع أنَّك أمِّيٌّ لا تدري ما القراءة ومـــا الكتابة؛ ليكون ذلك آية أخرى لـــك، مع ما في تضاعيف ما تقرأه من الآيات، من حيث الإعجاز، ومن حيث الإخبار بالمغيبات.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾

استثناءٌ مفرَّغ من أعم المفاعيل أي: لا تنســـى ممَّا نقرئك شيئًا، إلَّا ما شاء الله أن تنســـاه أبدًا، وذكر اســـم الله هنا لتربية المهابة في النفس، وللإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية، المستتبعة لسائر الصفات.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وبعضهم قال: المراد: النسيان في الجملة على القلة والندرة، كما روي أنَّه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب بعض الصحابة أنَّها نسخت، فسأله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**نسيتها**»[1]. فهذا من النسيان الطبيعي الَّذي يعرض لكل إنسان، ثمَّ يذكر ويعود إلى الأصل.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾

تعليل لما قيل، أي: يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور، الَّتي من جملتها ما أوحي إليك، تنسى ما شاء إنساءه، ويبقى محفوظًا ما شاء إبقاءه، لما نِيط بكل منهما من مصالح دينكم وحياتكم، فهو يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه ويخبئونه من أقوالهم ومن أفعالهم، ومن نياتهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كما قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

الشريعة الحافلة باليُسر من كل جوانبها:

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

ولما كان في الوعد بالإقْراء وعدم الإنساء: وعد ضمني بتشريع الأحكام، الَّتي قد يكون فيها ما يصعب على المخاطبين احتماله، أردف ذلك بما يفيد أنَّ الله لا يشرع لهم في هذا الكتاب، وفي هذا الدين إلَّا ما فيه يسر لهم، بل ما فيه اليسرى.

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٥)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والنسائي في الكبرى في المناقب (٨١٨٣)، عن عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي.

QaradawiBooks.com

لذا قال لرسوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، ونُيسِّرك ونسهِّلك للشريعة الحافلة باليُسر من كل جوانبها، فهو عليه السلام ممكن كل التمكين من اليسْرى، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال ﷺ: «**فإنما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**»[1].

أي: نوفِّقك توفيقًا مستمرًّا للطريقة اليُسرى، في كل باب من أبواب الدين، علمًا وتعليمًا، اهتداء وهداية، لتتدرج فيه إلى طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمْحة، والنواميس الإلٰهية، ممَّا يتعلق بتكميل نفسه عليه السلام، وتكميل غيره.

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأمر بالاستمرار بالتذكير وإن كان تذكر القوم بعيدًا

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾

أمر ﷺ: أن يستمر في تذكيره للناس حتَّى لا ينسوا ولا يغفلوا عمَّا هو مطلوب منهم، وهو مأمور دائمًا بالتذكير: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ذكر النَّاس حسبما يسَّرناك له ممَّا يوحى إليك، واهْدهم إلى ما في تضاعيفه من الأوامر والنواهي والهداية، واجتهد أن يكون تذكيرك لقلوب تنفعها الذكرى، وتستجيب للقول الحسن، وتأنس للوعظ والإرشاد. وطالما كان الرسول الكريم يذكرهم، ويستفرغ فيه غاية المجهود، ويتجاوز في الجهد كل حد معهود، حرصًا على إيمانهم، وما كان يزيد ذلك بعضهم إلَّا كفرًا وعِنادًا، فأمر ﷺ أن يخص التذكير بمواد النفع، في الجملة بأن يكون من يذكره ـ كلا أو بعضًا ـ ممَّن يرجى منه التذكر، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يورثه التذكير إلَّا عُتُوًّا ونفورًا، ممَّن طبع الله على قلوبهم، وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقال بعضهم: إنَّما قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: اعتراض

QaradawiBooks.com

بين الكلامين، على جهة التوبيخ لقريش. أي: إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كما يقول الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[1]

المنتفعون بالتذكير والمتجنبون له:

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾

إنَّ تذكيرك لن يضيع سُدًى، لا بدَّ أن يكون في النَّاس من يستجيبون للدعوة، ويتذكرون للتذكير، ممَّن لهم قلوب تخشى الله، ولهم آذان تحسن السماع للحق، ولهم عقول تهتدي لما يهدي، فالمراد هنا بـ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾: من ثبتت خشية الله في قلبه، فأمسى من شأنه أن يخشاه، ويعلم أنَّه ملاقيه، أو من يخشى الله تعالى في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير، فيتفكر في أمر ما يذكر به، فيقف على حقيقته، فيؤمن به.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾

ويَتجنَّب التذكرة الإنسان الأشقى، الَّذي أصبح الشقاء عنوانًا له، مُسجَّلًا عليه، بل ليس مجرَّد الشقاء ـ وهو ما هو ـ بل الأشقويَّة، فهو أشقى الناس، والعياذ بالله.

والشَّقاء ضدُّ السعادة، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فإذا كان السعيد من فاز بالجنة، فإن الشقي من كان جزاؤه النَّار، فهذا الأشقى

(١) من شعر كثير عزة في قصيدته في رثاء خندق الأسدي، انظر: معجم البلدان (٤٢٩/٥)، نشر دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، وقد نُسب لعبد الرحمن بن الحكم في الأغاني (٨٢/١٥)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

ينأى بنفسه أن يتعرض للهدى ودين الحق، وأن يكشف عن نفسه أسباب الغواية، وأن يسعى إلى الحق، ولهذا وصفه ﷻ بقوله:

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾

هذا الأشقى لا بدَّ أن تصل به أشقويَّته وطريقته المنكوبة والمنكودة إلى النَّار الكبرى، إنَّها نارٌ عظيمة أعدَّها الله للكافرين المعاندين من عباده الشـــريرين، بعدما أقام عليهم الحجة، وأبلغهم الرسالة، وأزال عنهم كل ما يعتذرون به، ووضح لهم كل السبل، وأجاب عن كل التساؤلات، فما لانت لهم شكيمة، ولا ســـكنت لهم نفس، ولا استقام لهم منطق: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وإنَّما كانت هذه النَّار كبرى؛ لأنَّ نار الدنيا، وإن حميت واستعرت، وكبُرت واستمرَّت، إنَّما هي جزءٌ من ســـبعين جزءًا من نار الآخرة، كما أخبرنا الرسول الكريم[1].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

أي: لا يموتُ فيها الأشقى حتى يستريح بموته من عذاب هذه النَّار، ولا يحيا حياة تنفعه، ويحسُّ فيها بمعنى الحيـــاة، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في مراتب الشدة، لأنَّ التردد بين الحياة والموت هو من أفظع ما يلاقيه أهل النَّار، والعياذ بالله.

---

(١) إشارة إلى الحديث المتَّفق عليه: «**ناركم جزء من ســـبعين جزءًا من نار جهنم**». قيل: يا رســـول الله إن كانت لكافية. قال: «**فضلت عليهن بتسعة وســـتين جزءًا كلهن مثل حرها**». رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنَّة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الطريق إلى الفلاح وتنكُّب النَّاس له بسبب إيثارهم لذَّات الدُّنيا العاجلة

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

تأكد فلاح من تزكَّى، والفلاح: أن يظفر بما يحب، وينجو ممَّا يكره، وغاية هذا ما قاله القرآن: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وهنا يؤكد القرآن بالحرف ﴿قَدۡ﴾ أفلح من تزكى، فلاحه في الدنيا، وفلاحه في الآخرة.

وفلاحه في الدنيا: أن يرزقه الله السكينة في نفسه، والطمأنينة في قلبه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وأن يؤمن بأنَّ الله معه، وأنَّه يؤيده، ويحفظه ويرزقه من حيث لا يحتسب، ففلاح المتزكي يبدأ من الدنيا.

والتَّزكِّي: أن يقومَ المؤمن بتزكية نفسه حتى يتحقَّق لها الفلاح، ولا يتركها فيدسِّيها، ويجلب لها الخيبة، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

والتَّزكية تتضمَّن معنيين أصليين، أحدهما: التطهر. والثاني: النماء. فهو يطهر نفسه من معتقدات الشرك، ومن رذائل النفاق، ومن أدران آفات القلوب، من الكِبْر والعجْب والحسد والحقد والرياء وغيرها من المعاصي الباطنة، ومن كل ما يدنس النفس من المعاصي وآثارها،

QaradawiBooks.com

وبعد هذا التطهير، ينمي نفسه بعمل الصالحات، ومنها عبادة الله وحده، وفعل الخيرات، والدعوة إلى الله، والتواصي بالحق، وهذه التزكية النفسية الأخلاقية، تسوق المؤمن إلى ذكر الله ﷻ، ودعائه والصلاة له، وبهذا تتم التزكية، إذ لا تزكية لمن يجحد بالله وآياته وحسابه وجزائه، ولذا قال تعالى هنا: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى ذكر اسم الله تعالى كما قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]. وأهم ما ينتهي إليه المؤمن بالذكر هو الصلاة، قرة عين المؤمن.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب عن مقدر هنا ينساق إليه الكلام، كأنَّه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح: لن تفعلوا ذلك، بل تفضلون لذات الدُّنيا العاجلة الفانية، فتسعون لتحصيلها والاستزادة منها.

والإسلام لا يحرم على المسلم الاستمتاع بطيبات الدنيا، بل يعتبرها نعمة من الله على المؤمن، ويحارب من حرم طيباتها على عامَّة الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إنَّما يمنع الإسلام ـ إذا كانت الدُّنيا والآخرة أمام الإنسان ـ أن يؤْثر الأولى على الآخرة، كما قال هنا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، وكما في سورة النازعات: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى في سورة النجم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. فهذا معنى إيثار الحياة الدنيا، أي: لم يرِد إلَّا إيَّاها، وليس للآخرة مكان يذكر بجوارها.

QaradawiBooks.com

الموازنة بين الدُّنيا والآخرة:

﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

ومن وازن بين الدارين، تبين له بكل وضوح: أنَّ الآخرة خير وأبقى من الدُّنيا من غير شك، لأسباب كثيرة:

أولها: أنَّ الدُّنيا فانية، والآخرة هي الباقية.

ثانيها: أنَّ متاع الدُّنيا قليل، بل الدُّنيا كلها بكل متاعها متاع قليل.

ثالثها: أنَّ متاع الدُّنيا مع قلته متاع غرور، وليس متاعًا حقيقيًّا.

رابعها: أنَّ الآخرة خير من الدُّنيا كلها؛ لأن فيها الجنَّة، ورضوان من الله أكبر.

عن أبي مسعود: أنَّه قرأ هذه الآية: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال: أتدرون لِم آثرنا الحياة الدُّنيا على الآخرة؟ لأنَّ الدُّنيا حضرت، وعجلت لنا طيباتها، وطعامها وشرابها، ولذتها وبهجتها، والآخرة غيبت عنا، فأخذنا العاجل وتركنا الآجل.

وروى ثابت، عن أنس قال: كنَّا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فريًا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة. ثمَّ قال: يا أنس، ما ثبر الناس؟ ما بطأ بهم؟ قلت: الدُّنيا والشيطان والشهوات. قال: لا، ولكن عجلت الدنيا، وغيبت الآخرة، أمَّا والله، لو عاينوها ما عدلوا ولا مِيْلوا[1].

(١) تفسير القرطبي (٢٣/٢٢، ٢٤)، والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٨٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: إشارة إلى ما في هذه السورة من حقائق وأخبار وتوجيهات، وخصوصًا بعد قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وما بعده، لثابت فيما جاء به رسل الله السابقون، فهو قول مصدق، ومتَّفق عليه، ليس أمرًا ناشزًا أو منفردًا بما جاء به لا يشركه غيره، بل هو في كتب الأولين المعروفين، وخصوصًا الرسولين العظيمين من أولي العزم من الرسل، الَّذين قال الله لرسوله فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

فاختار من الرُّسل الأربعة أقربهم إلى العرب، وهما إبراهيم وموسى، فإبراهيم لأنَّه أبو إسماعيل، وإسماعيل أبو العرب المستعربة، الَّذين منهم محمَّد ﷺ وقبيلته وقومه، وموسى ذو الصحف أو الكتاب الَّذي أنزله الله نورًا وهدى للناس.

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، كان يحبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه، أنَّه عليه الصلاة والسلام، كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وربَّما اجتمعا في يوم واحد فيقرأهما[2].

---

(١) رواه أحمد (٧٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

(٢) سبق تخريجه صـ٣١١.

QaradawiBooks.com

وروى الترمذي، عن النعمان بن بشير، أنَّ رسول الله ﷺ، كان يقرأ في العيدين، ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[1].

وذلك لأنَّ هاتين السورتين فيهما من الدلائل على عظمة الله تعالى، وإبداع تكوينه، وعلى صدق نبيه، وعلى دلائل حمْده وتمجيده، وضرورة لقائه في الآخرة، ما تحتاج النفس الإنسانيَّة إليه، لتمتلئ جوانحها بحبه تعالى والاطمئنان إليه، والاستراحة إليه، فلا غرو أن كان عليه الصلاة والسلام يُكثر من القراءة بهما في المناسبات الطيِّبة كالجمعة والعيدين.

غير مرخصة للطباعة

(١) رواه أحمد (١٨٤٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والترمذي في الصلاة (٥٣٣)، وقال: حسن صحيح.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مكِّيَّة في قول الجميع.

تتعلَّق بالحديث عن الآخرة، واختلاف النَّاس فيها بين أشقياء وسعداء، تتفطر القلوب لما يعانيه أهل الشقاء، وتنشرح الصدور وتفرح القلوب لما ينعم به أهل السعادة.

وينبغي للعقلاء من الخلق، أن يستعينوا على الوصول إلى الحق بالنظر فيما حولهم وما يحيط بهم، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، فكل إنسان يجد من روائع الكون من فوقه، ومن تحته، ما يمهِّد لعقله أن يفكِّر، ولإرادته أن تحقِّق، ولجسده أن ينفِّذ.

المهم أن يتذكَّر ولا ينسى، وأن يذكِّر غيره، حتَّى لا تأكله الغفلة واللهو عن المصير المحتوم، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

وانتهت السورة بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، الإياب والرجوع إلى الله وحده، وليس إلى أحد غيره، والحساب بعد ذلك عنده، وإنَّه لسريع الحساب، ودقيق الحساب، لا يخدعه أحد، ولا يحابي أحدًا لقوته أو لبطشه، بل كلهم عبيد عنده، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

QaradawiBooks.com

الآخرة واختلاف النَّاس فيها بين أشقياء وسعداء

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۞ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۞ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۞ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۞ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۞ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۞ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

ألوان الاستفهام في القرآن:

من تأمَّل في هذا القرآن، وجده رائعًا في كلِّ ما يأتي به من معان، ومن بيان، فله أساليبه الَّتي ينفرد بها، ولم تعرف عن أحد قبله، ومنها هذه الألوان من الاستفهام الَّتي نجدها في القرآن، ولا نجدها في غيره، مثل هذا الاستفهام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، ومثل هذا الحديث الَّذي بدأ به هذه السورة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وفي سورة أخرى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

بعض المُفَسِّرين قالوا: هل: بمعنى قد. وليس ذلك بسديد، بل هو استفهام أريد به التعجب ممَّا في خبره، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنَّه من الأحاديث المهمة، الَّتي حقها أن يتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقيها الدعاة، من كل حاضر وبادٍ.

و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: الداهية الشديدة الَّتي تغشى النَّاس بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها، وهي القيامة. من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

QaradawiBooks.com

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾

جملة مستأنفة، وقعت جوابًا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي، كأنَّه قيل من جهته ﷺ ما أتاني حديث الغاشية، فما هو؟ فقيل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، يوم إذا غشيت الغاشية، خاسئة ذليلة خاضعة، تخشع ولا ينفع عملها.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

أي: إنَّها تمارس أعمالًا شاقَّة مُجْهدة، عملت عملًا كثيرًا، تنصب فيها وتتعب في أدائها، ومع هذا صليت نارًا حامية يوم القيامة، بجرِّ السلاسل والأغلال، والخوض في النَّار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلال النَّار ووهادها. فأي عمل أشد وأصعب على النفس من مثل هذا العمل.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾

هذه الوجوه الذليلة، تدخل نارًا متناهية في الحرارة، هي بالنسبة لنار الدُّنيا أشد وأقسى منها، بسبعين مرة!

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾

هذه الوجوه ـ والمقصود أصحابها ـ تُسقى وتشرب وتتجرَّع من عين آنية، أي: متناهية في درجات الحرارة، كما في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

أي: من شرِّ الطعام وأبشعه وأخبثه، لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

QaradawiBooks.com

يقول أبو السُّعُود رَحِمَهُ اللَّهُ، حول هاتين الآيتين، وخصوصًا الآية الأخيرة: «أي: ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا. وإنَّما هو شيء يضطرون إلى أكله، من غير أن يكون له دفع لضرورتهم، لكن لا على أن لهم استعدادًا للشبع والسمن، إلَّا أنَّه لا يفيدهم شيئًا منهما، بل على أنَّه لا استعداد من جهتهم، ولا إفادة من جهة طعامِهم.

وتحقيق ذلك: أنَّ جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النَّشأة، من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة؛ لبدل ما يتحلل من البدن، مشوقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيد منهما قوَّة وسمنًا عند انهضامِهما. بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النَّار في أحشائهم، إلى إدخال شيء كثيف يملؤها، ويخرج ما فيها من اللهب، وأمَّا أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما، أو التذاذ به عند الأكل، واستغناء به عن الغير، أو استفادة قوة، فهيهات!

وكذا عطشُهم عبارةٌ عن اضطرارهم عند أكل الضريعِ والتهابه في بطونهم، إلى شيء مائع بارد يطفئه، من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه، أو استفادة قوَّة به في الجملة، وهو المعني بما روي أنَّه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش، فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم، ويُقطِّع أمعاءَهم»[1].

(١) تفسير أبي السعود (١٤٨/٩، ١٤٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حال السُّعداء:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾

كما ذكر حال الأشـقياء، ثنَّى بذكر حال السعداء، وإنَّما قدَّم حال أهل النـار؛ لأنَّه أدخل في تهويل الغاشـية، وتفخيـم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنَّة بعد حكاية سوء حال أهل النَّار ممَّا يزيد المحكي حسـنا وبهجة. وإنَّما لم يعطف عليهـا؛ إيذانًا بكمال تباين مضمونيهما.

و﴿نَّاعِمَةٌ﴾، أي: ذات بهجة وحُسْـن، متنعِّمة بالخير والسعادة، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المُطفِّفين: ٢٤].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾

أي: راضية متقبلة باطمئنان وسعادة لسعيها وعملها الَّذي عملته في الدنيا، حيث شاهدت ثمرته، وأدركت حقيقته.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

هذا التَّنعُّم والرِّضا في جنَّـة أعدها الله للمؤمنين مـن عباده، عالية مرتفعة المحل، عالية المقدار، هي رفيعة من حيث المسـافة والمكان، ومن حيث الدرجة والمكانة.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾

لا تسمع أنت، أو لا تسـمع الوجوه الناعمة في الجنَّة كلمة لاغية، أي: ذات لغو، ممَّا يتحدث في الباطل، أو الأذى للخلق، أو نفسًا لاغية، أو جماعة لاغية؛ لأنَّ الجنَّة لا يؤذى أحد فيها بشيء، يُبصر أو يُسمع أو

QaradawiBooks.com

يُحسُّ، وقد قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾

في الجنَّة عينٌ تجري مياهُها سارحة، لا ينقطع جَرْيُها أبدًا، تسرُّ بمنظرها النفوس.

و«عين» نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عينًا واحدة، فإنَّما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وفي سورة الإنسان: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان: ٥].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۞ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، السُّرر: جمع أسِرَّة، واحدها: سرير. وفي الجنَّة سُرُر مرفوعة السمك أو المقدار. أي: عالية كثيرة الفراش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ اللهِ أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾

الأكواب: جمع كوب، وهو إناء لا عروة له. ومعنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾، أي: بين أيديهم، قريبة منهم، معدة لشربهم.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾

النَّمارق: جمع نُمْرقة، وهي: الوسادة. مصفوفة: أي: منظمة بعضها إلى بعض، فوق السرر والطنافس، تريح الناظر.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

الزَّرابي: جمع زِرْبِيَّة. وهي: البُسط الفاخرة. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي: مبسوطة منتشرة، معدة ممهدة في أنحاء القصور، وهي الَّتي تحدث عنها الشاعر، فقال:

بُسُــطٌ أجاد الرَّسْــمَ صَانِعُها ... وزها عليه النَّقْشُ والشَّــكْلُ

فيَــكادُ يقطفُ مــن أزهارِها ... ويكادُ يسقطُ فوقَها النَّحْلُ[1]

(١) البيتان للســيد توفيق البكري، ذكرهما في اللؤلؤ في الأدب صـ ٣، ٤، شرح عثمان شاكر، ط١، ١٩٢٧م.

QaradawiBooks.com

توبيخ الكفَّار على غفلتهم عن النظر في آيات الله

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى حالَ أهل الدارين في الآخرة: أهل النَّار وما هم فيه من شقاء ونَصَب، وأهل الجنَّة وما هم فيه من سعادة ونعيم، أراد سبحانه أن يخاطب أهل الدُّنيا الغافلين عن الآخرة وأخبارها وحقائقها، وطلب إليهم بصيغة الاستفهام المشوقة، أن ينظروا إلى آيات الله المحيطة بهم، من حولهم، من فوقهم، ومن بين أيديهم، ومن خلفهم، ليتنبهوا ويعُوا لمصيرهم الكبير، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾. و«الإبل»: اسم جمع لا مفرد له من لفظه، وإنَّما يقال في مفرده: جمل أو ناقة. أي: هل عميت بصائرهم حين ينكرون البعث ويستبعدونه على قدرة الله أفلا ينظرون نظر تأمل واعتبار إلى الإبل وهي أقرب شيء إليهم، كيف خلقت خلقًا بديعًا دالًّا على دقة صنع خالقها وحسْن تدبيره.

وهنا يُعلِّمنا القرآن في مجال الدعوة والتعليم: أن نبدأ للإنسان بما هو أقرب إليه، وما يجب أن يتعلم منه، ولذا كان أقرب شيء إلى العرب «الإبل»، الَّتي يراها في الصباح وفي المساء، في السفر وفي الإقامة، يشرب من لبنها، وينتفع بوبرها، ويأكل من لحمها إذا نحرها، وتحمل أثقالَه إلى بلد بعيدة، ويحج عليها ويعتمر، إلى آخر ما يعرفه النَّاس من فوائدها.

من هنا بدأ بها، وهي من أعظم ما ينفع الناس، لا تغيب عن أي متأمِّل. وقد سخَّر الله سبحانه هذا الحيوان الكبير للإنسان، يسيِّره ويسخِّره

QaradawiBooks.com

للمشاوير الطويلة، ويحمل الأحمال الثقيلة، وقد يسيِّره الصبي الصغير، ولا يستعصي عليه، وفي خلق الإبل كل ما يساعد الإنسان على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

وقد هيَّأ الله تعالى جسمها الكبير لهذه الانتقالات، ذات المسافات البعيدة، والأثقال الشديدة، ابتداء من الأخفاف في الأرجل، القادرة على المشي في الرمال، والأعناق الطويلة، والسنام الَّذي تخزن الدهن والطعام، وغير ذلك ممَّا لاحظه كثير من المُفَسِّرين القدماء، وزاد عليه كثير من علماء الحيوان الفضلاء.

قال الماوردي: «الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات؛ لأنَّ ضروبه أربعة: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعمَّ، وظهورُ القدرة فيها أتمَّ»[1].

وانظر ما قاله العلَّامة المُفسِّر أبو السعود: «﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾، الَّتي هي نُصْب أعينهم، يستعملونها كلَّ حين، إلى أنَّها كيف خلقت خلقًا بديعًا، معدولًا به عن سَنَن خِلْقة سائر أنواع الحيوانات، في عِظَم جُثَّتها، وشدَّة قوَّتها، وعجيبِ هيأتها اللائقة، بتأتِّي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقَّة، كالنَّوْء بالأوقار الثقيلة، وجرِّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النَّازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش، حتَّى إن أَظْمَاءها لتبلغ العَشْر فصاعدًا[2]، واكتفائها باليسير، ورعيها لكلِّ ما يتيسَّر من شوك وشجرٍ وغير ذلك، ممَّا لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك

(١) النكت والعيون للماوردي (٦/٢٦٢).

(٢) أي أنَّها تتحمل الظمأ عشرة أيام فأكثر.

QaradawiBooks.com

للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء، ويقتادها بقِطَارها[١] كلُّ صغير وكبير»[٢].

وقد كتب الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي، أستاذ علم البيولوجيا، وعميد كلية العلوم، وعضو المجمع اللغوي في فوائد الجِمال أو الإبل، كتابة قيمة، يجب أن ينتفع بها؛ لأنَّها كتابة مبنيَّة على ما وصل إليه العلم في عصرنا[٣].

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

بعد أن ينظر الإنسان نظرة العاقل المفكر إلى إبلِه من حوله، بأنواعها وأسنانها ووظائفها، يجب أن يعلو بنظره إلى هذا السقف العظيم المرفوع من حوله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ [لقمان: ١٠].

وهذه السماء الَّتي نراها فوقنا هي جزء من سبع سماوات خلقها الله طباقًا، كما قال نوح لقومه من قديم: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۞ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

---

(١) قطار الإبل: عدد مِنْهَا بعضه خلف بعض على نسق وَاحِد. المعجم الوسيط مادة (ق. ط. ر).

(٢) تفسير أبي السعود (١٥٠/٩، ١٥١).

(٣) راجع كتابه: الإبل عز لأهلها: إعجاز فريد في الخلق، وأمان من المجاعة والفقر، نشر كنوز العلم، القاهرة.

QaradawiBooks.com

ويستطيع علم الفلك الحديث بما انتهى إليه من بحوث ودراسات، أن يمدنا بأفكار ومعلومات موثقة، عن الكون من فوقنا، وأضحى الكثير منه مبسوطًا ومشروحًا، لدى الكثير من جماهير الناس، الَّذين يشاهدون السماء في كل لحظة بالليل والنهار، كيف رفعت رفعًا سحيق المدى، بلا عِماد ولا إمساك، بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾

كما يجبُ أن ينظر الجميع إلى الجبال، الَّتي خلقها الله لتكون أوتادًا للأرض، تربطها وتمنعها أن تميد وتضطرب، وقد نُصبت نصبًا رصينًا، فهي راسخة راسية، لا تميل ولا تميد، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

والعنصر الرابع الَّذي يجب النظر إليه نظر التدبُّر والاعتبار، إلى كيفيَّة خلق الله له هو: الأرض الَّتي يضرب النَّاس فيها، ويتقلَّبون عليها، الَّتي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمياهها وأشجارها، كيف سطحها الله، وبسطها بسطًا، بتوطئة وتمهيد، وتسوية وتوطيد، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨]، وقد قال نوح لقومه من قديم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

QaradawiBooks.com

الأمر بالتذكير والموعظة، والناس مطالبون بالإيمان باختيارهم

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۞ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۞ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾

الأمر للنبيِّ ﷺ، المُنـزَّل عليه القرآن، إذا كان القـوم من حوله قد أهملوا النظر في عجائب المخلوقـات من حولهم، ومن فوقهم، من إبل وسـماء وجبال وأرض، فلا يهمك إعراضهم وإنكارهـم، والتفت إلى التذكير والموعظة، والإيقاظ والتوعية، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، إنَّما أنت واعظ وداعية، فذكِّر ـ يا محمَّد ـ النَّاس بما أرسلت به إليهم، فإنَّما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

إذا كان القوم ينسـون ربَّهم، وينسـون آخرتهم، وينسـون أنفسهم، فلا تكن مثلهم، وتولَّ التَّذكير لمن ينسـى، فما أنت في حقيقة الأمر إلَّا مُذكِّر، وكلُّ الرسـل مثلك كانـوا مذكِّرين، كما قال في سـورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

تقريرٌ له، وتحقيقٌ لمعنى الإنذار، أي: لست بمتسلِّط عليهم، تجبرهم على ما تريد، لقولـه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾

أي إلَّا من تولَّى عـن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسـانه،

QaradawiBooks.com

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، فالاستثناء يتصل من قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فذكِّر وعِظ وادعُ الجميع، إلَّا من انقطع طمعك في إيمانه، وتولَّى وأعرض عنك وكفر بدعوتك الَّتي تدعوه إليها، فاستحقَّ بذلك العذاب الأكبر، جزاء كفرانه وتمرُّده على الله وعلى رسله، وإنَّما كان عذاب الله وعذاب الآخرة هو الأكبر، لأنَّهم عذبوا في الدُّنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل وغير ذلك، وكله بالنسبة لعذاب الآخرة ونار جهنَّم شيء قليل.

وإذا كان التَّسلُّط هو التَّسلُّط على القلوب وما فيها، فلا يملك أحدٌ حقَّ التسلُّط على قلب أحد، بل كل واحد أحق بقلبه، وأمَّا التسلُّط بالجهاد، فهو تسلُّط النَّاس بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

الرجوع إلى الله وحده، وليس إلى أحد غيره، والحساب بعد ذلك عنده:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾

هو رجوعهم بعد الموت أحياء، أي: مرجعهم ومنقلبهم إلى الله سبحانه، لا لأحد غيره، وقد أنكروا البعث والحساب، ورد عليهم القرآن في سور شتى، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال الشاعر:

وكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤوبُ ... وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَؤُوبُ[1]

(١) من معلقة عَبِيد بن الأبرص. انظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي صـ ٣٨٢، تحقيق =

QaradawiBooks.com

وهم يؤوبون إلى الله، لا يؤوبون إلى أحد غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

ثم نحن وحدنا الَّذين نحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

روى الإمام أحمد، أنَّ أبا أُمَامة الباهِلِيَّ مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ألا كلُّكم يدخل الجنَّة، إلَّا من شرد على الله شِرَاد البعير على أهْلِه**»[1]. فالإنسان قد يشرد على الله، ولكن الله تعالى لا يجبره على شيء، ولا يكرهه على الإيمان. والله أعلم.

والجملة مبدوءة بـ﴿ثُمَّ﴾، للدلالة على التَّراخي في الرُّتبة لا في الزمان؛ لأنَّ إيابهم إليه تعالى، وحسابهم عليه تعالى أمران مستمران. ولكن ﴿ثُمَّ﴾ مفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدَّة، المنبئة عن غاية السخط، الموجب لشديد العقاب. والجملة اسمية مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾، وبتقديم الخبر، وكلها مؤكِّدات لخبر الله تعالى، وتقوية لما توعَّد به مخالفيه جلَّ شأنه.

= علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر، وانظر: ديوان عبيد صـ ٢٢، تحقيق أشرف أحمد عدرة، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

(١) رواه أحمد (٢٢٢٢٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكيَّة، وفيها أقسم الله بالفجر، وما ذكر بعده من الليالي العشر والشفع والوتر، والليل إذا يسر، ثمَّ ذكر الحضارات الماديَّة الهائلة، القديمة، الَّتي صنعها الإنسان، ووضع فيها بصمته وآثاره في الأرض الَّتي يعيش فيها، ثمَّ غربت شمس هذه الحضارات، وغاب أهلها، ونزل عليهم بأس الله الَّذي دكَّها دكًّا، ودمَّر مآثرها، وقطع دابر القوم الَّذين ظلموا، فلم تغْنِ عنهم المادَّة، ولا المال ولا القوة ولا الحضارة الماديَّة شيئًا، غفلوا عن ربهم، وكذَّبوا رسلهم، فأملى لهم الله ثمَّ أخذهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

ثم بيَّن القرآن طبيعة الإنسان، حينما يوسِّع الله عليه بالمال والولد، وحين يضيِّق عليه، وطبيعة المجتمع الجاهلي، الَّذي تضيع فيه الطبقات الضعيفة، من اليتامى والمساكين، وتشحُّ الأنفس في تلك المجتمعات الَّتي لا يتحاض النَّاس فيها على فريضة اجتماعيَّة مهمة، وهي طعام المسكين. ويدخل في ذلك: كل ما يلزمه لمعيشته.

ثم بيَّنت السورة ما ينتظر هذا المجتمع الجاهلي القاسي العتيد من عذاب الله في الآخرة، وما ينذرهم به ربهم في الحياة الدنيا،

QaradawiBooks.com

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۞ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾.

وهنا ينادي الله النفس المطمئنة، ليبشِّرها بآخرة طيبة راضية، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۞ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

خمسة أمور عظيمة أقسم الله بها

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾

﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ هكذا بدأ الله هذه السورة بواو القسم، والقسم بالفجر. والفجر هو باكورة اليوم. وهذا أوَّل قسم في القرآن بجزء من أجزاء الوقت، وقد بدأه بالفجر. والظاهر أنَّه يريد الوقت، ولم يكن يريد الصلاة؛ لأنَّ الصلوات لم تشرع إلَّا في السنة العاشرة من البعثة، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الوقت.

وقد أقسم الله في هذه السور المبكِّرة من القرآن بالفجر وغيره من أجزاء الوقت، كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]. وكما قال في سورة التكوير: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [الآية: ١٧، ١٨]، وأقسم بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وأقسم أيضًا بالضحى والليل إذا سجى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، وأقسم بالعصر ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

الفجر هو أوَّل أوقات اليوم:

والفجر هو أوَّل أوقات اليوم، حين ينشق الضوء، ويبدأ النَّاس صِلتهم بالحياة، وأولها الصلاة، وفيها الإمساك عن الطعام لمن أراد الصيام، وهو شبيه بما أقسم به في آيات أخرى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

QaradawiBooks.com

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

كما أقسم الله أيضًا بـ «ليال عشر»، هكذا نكرها وهو تنكير للتفخيم، فهي من الأوقات المحبوبة عند الله، وهي ليالي عشر ذي الحجة، الَّتي صحت الأحاديث النبويَّة في فضلها، وفي العمل الصالح فيها، ولا سيَّما إذا اتصلت بالحج وأعماله، حينئذ تزداد مكانة وجمالًا.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾

الشفع هو: الزوج. والوتر: الفرد. ولذا فسرت الكلمات تفسيرًا واسعًا. قال بعضهم: الشفع: الخلق، والوتر: الله. وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ وتر يحبُّ الوتر**»[1].

وقال أبو بكر الورَّاق: أوصاف المخلوقين المتضادَّة هي الشفع: العز والذل، والغنى والفقر، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والخرس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وغنى بلا فقر، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمى، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وراءها[2].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

أول ما أقسم به هو الفجر، وهنا أقسم بالليل إذا يسر، أي: يسري ظلامه في الكون، وهذا قسم خامس، بعد ما أقسم بالليالي العشر على

(١) رواه أبو داود في الصلاة (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٤)، وقال: حسن. كلاهما في الصلاة، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٢٢٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. عن على بن أبي طالب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤١/٢٠).

QaradawiBooks.com

الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى ﴿يَسۡرِ﴾ أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم.

ومعنى ﴿يَسۡرِ﴾ أي: يسير في الليل. ومنه: الإسراء. وأكثر المُفَسِّرين على أن معنى ﴿يَسۡرِ﴾: سار فذهب. وبعضهم قال: جاء وأقبل. والحقيقة: أنَّ الليل يسري ويمضي دائمًا، فيجيء ويقبل، ثمَّ يسير ويذهب، سُنَّة الله في خلقه.

والياء في الفعل المضارع العادي ثابتة دائمًا، ولكنها في فعل ﴿يَسۡرِ﴾ محذوفة عند الجمهور في الوقف وفي الوصل. وبعض القراء: أثبتوها في الوصل وحذفوها في الوقف[1].

ومعنى ﴿يَسۡرِ﴾، أي: يمضي في طريقه كما تمضي كل الليالي والأيام، كقوله في مواضع أخرى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]. والتقييد بالسريان لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾

قال أبو السعود: «فيه تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة شأن الأمور المُقْسم بها، وكونها أمورًا جليلة حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه على أنَّ الإقسام بها أمر معتدٌّ به، خليق بأنْ يُؤكَّد به الأخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، وذلك إشارة إمَّا إلى الأمور المقسم بها، والتذكير بتأويل ما ذكر كما مر تحقيقه، أو إلى الإقسام بها، وأيًّا ما كان فما فيه من معنى البعد في ذلك، للإيذان بعلو

(١) قال ابن الجزري: أثبتها وصلا المدنيان، وأبو عمرو، وفي الحالين يعقوب وابن كثير. بالواد أثبتها وصلًا ورش، وفي الحالين يعقوب وابن كثير بخلاف عن قنبل في الوقف. النشر في القراءات العشر (١١١/٢).

QaradawiBooks.com

رتبة المشار إليه، وبعد منزلته في الشرف والفضل، أي: هل فيما ذكر من الأشياء قسم، أيْ: مقسم به ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾، صاحب عقل، يراه حقيقا بأن يقسم به إجلالًا وتعظيمًا.

والمراد: تحقيق أنَّ الكل كذلك، وإنَّما أُوثرت هذه الطريقة هضما للخلق، وإيذانًا بظهور الأمر، أو هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسام لذي حجر، مقبول عنده يعتد به، ويفعل مثله، ويؤكد به المقسم عليه؟

والحِجْر: العقل؛ لأنَّه يحجر صاحبه، أي: يمنعُه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سمِّي عقلًا ونهية، لأنَّه يعقل وينهى، وحصاة أيضًا من الإحصاء وهو الضبط.

قال الفراء: يقال: إنَّه لذو حِجْر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، والمقسم عليه محذوف، وهو: ليعذَّبنَّ. كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾»[1].

قال القرطبي: «﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: لذي لبٍّ وعقل. قال الشاعر[2]:

وكيف يُرَجَّى أن تَتُوبَ وإنَّما ... يُرَجَّى من الفِتْيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرِ؟

وأصل الحِجْر: المنع. يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنَّه لذو حِجْر؛ ومنه سُمِّيَ الحَجَر، لامتناعه بصلابته: ومنه حَجَر الحاكم على فلان، أي: منعه وضبطه عن التصرَّف؛ ولذلك سُمِّيت الحُجْرة حجرةً، لامتناع ما فيها بها»[3].

---

(١) تفسير أبي السعود (١٥٣/٩، ١٥٤).

(٢) عزاه للحارث بن منبه الجنبي: ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء صـ ٧٥، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، نشر مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م، والسيوطي في الدر المنثور (٥٠٥/٨)، غير أنَّه قال: الحارث بن ثعلبة.

(٣) تفسير القرطبي (٤٣/٢٠).

QaradawiBooks.com

هلاك الحضارات الماديَّة الهائلة

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾

الخطاب للنبيِّ ﷺ أساسًا، المنزَّل عليه القرآن، ولكلِّ من يتأتَّى خطابه معه ومِنْ بعدِه، فالقرآنُ خطاب الله تعالى لكلِّ من يفهمه من النَّاس كافَّة، وهو يشير إلى عدد من الحضارات الهائلة القديمة، الَّتي كان لها ملكها ومجدها، وآثارها الطبيعيَّة والصناعيَّة، ولكنها عُنيت بالجانب المادي في الحضارة، ونسيت الجانب المعنوي والروحي فيها، فغرقت في متاع الحياة الدنيا، ونسيت ربَّها ورسله، وكذبتهم، وجرتْ وراء متعها وترفها، فكانت عاقبتهم أنْ أخذهم الله، وأفناهم، وسلَّط عليهم ما هو أقوى منهم ودمَّرهم، وكانوا هم الظالمين.

حضارة عاد قوم نبي الله هود عليه السلام:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾

ألم ينتهِ علمُك إلى ما صنعه ربُّك بهذه الحضارات العاتية المستكبرة في الأرض، كما فعل بعاد؟ وعاد وثمود من قبائل العرب العاربة أو البائدة، الَّتي يعرف العرب أخبارها بالتوارث، ويتناقلونها بينهم، ويحكونها بعضهم لبعض، يزيدون فيها غرائب وعجائب وحكايات، على عادات النَّاس العوام في البلاد المختلفة.

QaradawiBooks.com

ولكن القرآن جاءهم بالحقِّ الَّذي لا ريب فيه، والمنزَّه عن الأكاذيب والغلوات والخيالات، كما قال القرآن في بعض السور: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهو يقصُّ علينا نبأ عاد وما وصلوا إليه، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

وأحيانًا يُحدِّثنا عن بعض نِقمه عليهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

يَقُصُّ القرآن هذا على النبي ﷺ، وعلى قومه، ليسمعوا ويعوا وينتبهوا إلى ما عند الله من قوة، ومن جنود، لا يعلمهم إلَّا هو، ومن قوانين كونيَّة، يستطيع أن يسخرها إذا أراد لمن يشاء من عباده، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾

هذا الجيلُ الَّذي عرفه العرب من قديم، وعرفوا أنَّهم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم وعصيانهم لله ورسلِه، هم عاد الأولى، المعروفة بالكبرياء في الأرض، والعدوان على الخلق، وهم الَّذين أطلق عليهم «إرم»، وفيها يقول القرآن هنا: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، والعماد هنا: عماد

QaradawiBooks.com

الخيام، الَّتي كانوا ينصبونها، وكانوا يتفننون فيها، وفيما تحتويه. حتَّى إنَّ القرآن الكريم تحدث عن الحـور العين في إحدى الجنان، فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

أو ذات العماد الرفيعة، والقوة المنيعة، والمباني الشاهقة، ونحوها، وعبَّر بالعمـاد عن العلو والشـرف والقـوة، وكانت منازلهـم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت. وقد بلغت عاد مبلغًا من الشرف والقوة، لم يصل إليه جماعة في عهدها، ولذلك قال:

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾

وفي هذا دلالـة على الانفراد مـن دون الأمم الأخـرى بخصائص وممتلـكات لا يوجد لها نظائـر في البـلاد الأخرى، والانفـراد بهذه الخصائص، هو مدار القوة والتفاخر عند الأمم.

وإذا قال القرآن كلمة عن حضارة عاد العربيَّة، مثل هذه الكلمة: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، فهي شـهادة لا تعادلها شـهادة، ولا تدانيها شهادة، في مثل هذا الجانب المادي، والمشهود من الحضارة.

حضارة ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام:

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾

ومن الحضـارات العربيَّة البائـدة لخلوها من العنصـر الَّذي يبقي الحضارات: العنصر الروحي والإيماني والأخلاقـي، الَّذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وحاسب عليه خلقه: حضارة ثمود، قوم صالح نبي الله، جاؤوا بعد عاد قوم هود نبي الله. وقد بلغوا مـن القوة والمَنَعَة، أن

QaradawiBooks.com

قطعوا الصخر بالـوادي أو الأودية، واتَّخذوا من الجبـال بيوتًا فارهين، وزعم بعضهم: أنَّهم اتَّخذوا واديًا لمنافعهم يخزنون فيه الماء الفائض عن حاجاتهم، لينتفعوا به عند انقطاع الماء، أو قلته. ولا يفعل ذلك إلَّا الأمم الكبيرة والواعية.

فرعون ملك مصر صاحب الملك الشامخ القوي:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾

وأضاف القرآن إلى الحضارات العربيَّة الَّتي عرفوها، حضارات قريبة مجاورة لهم، سـرت مسـراهم في البغي على الخلق، والاستكبار عن الحق، واتِّخاذ القوة للتطاول على عباد الله، لذا ذكره الله مع هؤلاء الطغاة، فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، فقد علم العرب وسائر الأمم عن ملك مصر الَّذي لقبوه «فرعون» الَّذي بلغ من القوة ما بلغ، وقال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقـال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. وكان ملكه شامخًا قويًّا، كأنَّما وتد بأوتاد عتيدة في الأرض.

ويمكن أن تعتبـر الأهرام الَّتـي أصبحت تيجانًا معبـرة عن أصالة الحضارة الفرعونية، وقوتها ورسوخها في الأرض.

الطغيان والفساد من أعظم أسباب النقمة الربانية:

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وصف الله أصحاب هذه الحضارات الفاسدة والبائدة بوصفين أساسيين، جلبا عليهم نقمة الله سبحانه وعذابه، وهما:

QaradawiBooks.com

الطغيان في البلاد، والإكثار فيها من الفساد. وهما صفتان متلازمتان تؤثر كلتاهما في الأخرى.

الطغيان: هو تجاوز الإنسان حدَّه في الأرض، والخروج عن منزلة العبوديَّة لله تعالى، إلى مقام الربوبيَّة ادعاء وزورًا. ولهذا قال الله تعالى لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، فهذا هو الوصف الأوَّل لهذه الحضارات المغشوشة.

والوصف الثاني: إكثار الفساد. ومن قرأ تاريخ حضارات العالم، الَّتي هَوَت وخربت من داخلها أولًا، عرف أن كثرة الفساد في حياة الناس، كانت لازمًا من لوازمها، فإذا نزل الطغيان في البلاد، انتشر فيها داء الفساد، واستمر هذا الداء وتوغل حتَّى ينهك الأمَّة، ويعجزها أن تعمل شيئًا حقيقيًّا للإصلاح، فيذهب الله بها، ويجيء بآخرين خير منها.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾

يقال: صَبَّ عليهم، أي: أفرغ عليهم وألقى. يقال: صبَّ على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه. وسوط عذاب، أي: نصيب عذاب. ويقال: شدَّته؛ لأنَّ السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم. من قولهم: ساطه يسوطه سوطًا، إذا خلطه.

كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إنَّ عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به، فهو سوْط عذاب[1].

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥٠/٢٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾

المرصد والمرصاد: الطريق. وقيل: المرصاد الَّذي يترقَّب فيه الرصد. مفعال من رصده، كالميقات من وقته، وهذا مثل لإرصاده تعالى بالعصاة والطغاة، وأنَّهم لا يفوتونه. فهنا يرصد عمل كل إنسان حتَّى يجازيه بعمله، قالوا: أي: على طريق العباد لا يفوته أحد.

وتسميةُ عذابهم سوطًا، للإشارة إلى أنَّ ذلك بالنسبة لما أُعِدَّ لهم في الآخرة، بمنزلة السوط عند السيف. والتعبير من إنزاله بالصب، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾، للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره، فإنَّه عبارة عن إراقة شيء مائع، أو جار مجراه في السيلان، كالسيل والحبوب، وإفراغه بشدَّة وكثرة واستمرار.

وهذه الجملة تعليل لما قبلها، وإيذان بأن كفار قومه عليه السلام، سيصيبهم ما أصاب المذكورين من العذاب. كما ينبئ عنه التعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام.

نسخة مجانية
غير مرخص للبيع

طبيعة الإنسان حينما يُوسِّع الله عليه بالمال والولد وحين يضيق عليه

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۞ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾

هذا الَّذي قصصناه عليك شأن ربِّك الراصد لكلِّ شيء، المراقب لكلِّ أمر، وسيُتلى عليك الآن شأن الإنسان عقب ما تلوته عليك من شأن ربك.

إنَّ الابتلاء والاختبار الَّذي سلكه الله تعالى مع الإنسان، ليظهر أثر الابتلاء فيما يبديه الإنسان من شكر وكفر، وطاعة وتمرد، فيبين ربنا سبحانه موقف الإنسان في حالته من النعماء والبأساء.

فلذلك يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله عليه في الرزق، ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك إكرام من الله له، وليس كذلك، كما يدلُّ التاريخ، وتدلُّ وقائع الحياة في الناس، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه، وضيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك إهانة من الله له، فيشغله الحزن عن فضيلة الصبر،

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

كما ينسى من أكرمه الله بالمال والجاه، ومكَّنه من التنعم بما أكرمه به عن شكر المنعم.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يُحبُّ ومن لا يُحبُّ، ويضيِّق على من يُحبُّ ومن لا يُحبُّ، وإنَّما الأمر في ذلك على طاعة الله في كلٍّ من الحالين، إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك، وإن كان فقيرًا بأن يصبر.

﴿كَلَّا﴾، حرف زجر وردع، ليس الأمر كما يظن. فليس الغِنى فضيلة، وليس الفقر مهانة، وإنَّما الفقر والغنى ابتلاء وامتحان بتقدير الله وقضائه.

طبيعة المجتمع الجاهلي:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾

إخبار عمَّا كان يصنعه مجتمع الجاهليَّة المتجبر المتمرد، من إهانة اليتيم وإضاعته وإهدار حقِّه الشخصي والمالي، فأحيانًا يدعونه ويقسون عليه، كما في سورة «الماعون»: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الآية: ٢]، وأحيانًا يقهرونه ويذلُّونه، كما في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الآية: ٩]، وأحيانًا يأكلون ماله بالباطل، ولذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وهذا كله في القرآن المكي، أمَّا القرآن المدني، فقد فصَّل في حقوق اليتامى وصيانة أموالهم، وشدَّد في تحريمها عليهم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وكل ذلك يدخل في قول الله سبحانه لهم: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾

ومن سمات المجتمع الجاهلي وقسوته وجبروته: أن كلًّا منهم مشغول بنفسه فقط، بأملاكه الخاصَّة، بأمواله وثروته، بأطماعه وشهواته، ما حلَّ منها وما حرُم، فلا يحث بعضهم بعضًا على أداء الواجب المفروض عليهم جميعًا في إطعام المسكين، وأداء كلِّ ما تتطلبه ضروراته وحاجاته، فلا يجوز أن يطعمه ويسقيه ويتركه عُريانًا، أو يدعه في العراء بلا منزل، كلا. فإطعام المسكين كناية عن كفالة حقوقه الماديَّة كلها.

الحضُّ على إطعام المسكين فريضة إسلامية:

والحق أنَّ هذه فريضة إسلامية انفرد القرآن بتقريرها، كما دلَّت على ذلك آيات شتى في كتاب الله. منها هذه الآية في هذه السورة، ومنها قوله تعالى في سورة الحاقة، حين حدَّثنا الله تعالى عن أصحاب الشمال، الَّذين يؤتون كتابهم بشمائلهم، ويأخذ هذا كتابه بشماله، ويقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، ويقول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]. ثمَّ يبين جرائمه الكبرى الَّذي استحق عليها هذا العقاب، وهذا العذاب، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

كل هذا يبيِّن ويؤكِّد لنا ما قرَّره القرآن في أكثر من آية، وكلها في القرآن المكي: أنَّ الحض والتحريض على طعام المسكين والفقير وكل محتاج من ذكر وأنثى، من يتيم أو أرملة، أو ضائع أو ابن سبيل: فريضة إسلامية لا شك فيها. وإن تجاهلها الكثير من المسلمين، ولم يعن الفقهاء كثيرًا بتفصيلها، والتنبيه عليها، وأمر النَّاس بإقامتها.

QaradawiBooks.com

وجوب عمل الجمعيَّات الخيريَّة:

ولقد نبَّه الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده في تفسيره المعروف لـ «جزء عمَّ» على هـذه الفريضة الاجتماعيَّة، واتخذ منهـا دليلًا على وجوب عمل الجمعيَّات الخيريَّة، الَّتي تجمع المال من القادرين لإغاثة الفقراء والعاجزين عجزًا كليًّا أو جزئيًّا من المسـلمين، يقول الشيخ في تفسير سورة الماعون: «و﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢]: أي: يدفعه ويزجره زجرًا عنيفًا إذا جاء يطلب منه حاجة، احتقارًا له، وتكبرًا عليه، لفقده النصير وخُلوِّ ظهره من المجير.

واليتيم مظهر الضعف ومُمثِّل الحاجة، فالمسـتهين به مسـتهينٌ بكل ضعيف، محتقرٌ لكلِّ محتاج، فالمعنى: أنَّ المكذب بالدين هو الَّذي يغمط حق غيره تعـززًا بقوته، فكل ظالـم منتهك لحرمـات الحقوق، مكذب بالدين، متى كان ذلك ديدنًا. وسواء كان ظلمه لقليل من النَّاس أو كثير.

والحضُّ على طعام المسكين: الحثُّ عليه ودعوةُ النَّاس إليه، والَّذي لا يحضُّ على إطعام المساكين، لا يطعمهم في العادة، فقوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، كناية عن الَّذي لا يجودُ بشـيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت، الَّذي لا يستطيع له كسبًا.

وليس المسكين هو الَّذي يطلب منك أن تعطيه، وهو قادر على قوت يومه، بل هذا هـو الملحِف، الَّذي يجوز الإعـراض عنه، وتأديبه بمنعه ما يطلـب، وإنَّما جاء بالكناية ليفيدك أنَّه إذا عرضت حاجة المسـكين، ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من النَّاس أن يعطوه.

وفيه حَثٌّ للمصدِّقين بالدين على إغاثة الفقراء، ولو بجمع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله في سـورة الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجـر: ١٧، ١٨]، ونعمـت الطريقة هي

QaradawiBooks.com

لإعانة الفقراء، وسد شيء من حاجات المساكين، فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كِبْرًا وعتــوًّا، والَّذي يبخل بماله على الفقراء، ويبخل بســعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممَّن تحقق عجزهم عن كســب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بالكفاف من العيش، وسواء كان المحتقر للحقــوق، البخيل بالمال والســعي، مصليا أم غير مصل، فصلاته لا تنفعه، ولا تخرجه من صف المكذبين بالدين، لأنَّ المصدِّق بشيء لا تطاوعه نفسه بالخروج عن حد ما صدق به، فلو صدَّق بالدين لعرف أنَّ صلاته إنَّما هي عنوان الخشوع للقاهر، الَّذي لا يجوز لأحد أن يشاركه في عظمته، الَّذي خلق الخلق، وحدَّد حدود الحق، وفرض على الأقوياء الرحمة والعدل في الضعفاء، فمن لــم تذكره صلاته بهذا الَّذي فرض عليه، فهو كاذب في قوله، مُراءٍ في ظاهر عمله»[1].

المجتمعات الجاهليَّة فقدت الأحاسيس الإنسانيَّة:

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾

يســتمرُّ القرآن في بيان حقيقة المجتمعات الجاهليَّــة، الَّتي فقدت الأحاسيس الإنسانيَّة، الَّتي يتميز بها أولئك الَّذين يشعرون بآلام الفقراء وجوع بطونهم، وخلــو معداتهم، وارتعــاد فرائصهم في البــرد؛ لأنَّهم لا يجدون لباسًا يكســوهم، فيقول لهم القرآن معددًا رذائلهم الأخلاقية والاجتماعيَّة: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾.

التراث: الميراث الَّذي كانوا يأخذونه من حقِّ النســاء والأطفال، من اليتامى وغيرهم من أصحاب المال، الَّــذي أُمروا أن يحفظوه فأضاعوه، ولا يفرقون بين ما جمع من حلال أو حرام، ممَّا يتعلق بحق الغير.

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده صـ ١٦٦، ١٦٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأصل التراث: الــوراث، من ورثت، فأبدلوا الــواو تاء، والعرب تجعل الواو تاء لتخفيف النطــق، كما قالوا في: تجــاهِ وتخمة وتكأة وتؤدة، ونحو ذلك.

﴿لَّمًّا﴾ أي: شــديدًا. وقيل: ﴿لَّمًّا﴾ أي: جمعًا. وأصل اللم في كلام العرب: الجمع. يقال: لممت الشيء ألمه لمًّا: إذا جمعته، ومنه يقال: لمَّ الله شعثه، أي: جمع ما تفرق من أموره. قال النابغة:

ولَسْــتَ بمُسْــتَبْقٍ أخًــا لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أُيُّ الرجالِ المُهَذَّب[1]؟

ومن ذلك: أن يأكل نصيبه ونصيب غيره. قال ابن زيد: هو أنَّه إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله، ولا يفكر: أكل من خبيث أو طيب. قال: وكان أهل الشــرك لا يورثون النســاء ولا الصبيان، بل يأكلــون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تراثهم.

قال القرطبي: «يجوز أن يذم الوارث الَّذي ظفر بالمال سهلًا مهلًا، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيســرف في إنفاقه، ويأكله أكلًا واســعًا، جامعًا بين المشــتهيات من الأطعمة والأشــربة والفواكــه، كما يفعل الورَّاث البطالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيــرًا، حلاله وحرامــه. والجمُّ: الكثير. يقال: جَمَّ الشيْء يجم[2] جمومًا. وقال الشاعر:

إنْ تغفــر اللَّهُــمَّ تغفــر جمًّا وأيُّ عبدٍ لــك لا ألمَّا؟!»[3]

(١) ديوانه صـ ١٨، تحقيق كرم البستاني، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م.

(٢) جَمّ يَجِمُّ ويَجُمُّ، وَالضَّمُّ أَعلى. اللسان مادة (ج. م. م).

(٣) تفسير القرطبي (٥٣/٢٠، ٥٤).

QaradawiBooks.com

مصير المجتمع الجاهليِّ القاسي في الآخرة

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۞ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۞ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾

كلَّا: للردع، أي: ما هكذا ينبغـــي أن يكون الأمر. فهو ردٌّ لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فـــإن من فعل ذلك ندم يـــوم تدك الأرض، ولا ينفعه الندم. والدك: الكســـر والـــدق. أي زلزلت الأرض، وحركت تحريكًا بعد تحريك.

وقال الزجاج: أي زُلزلت فدَكَّ بعضُها بعضًا[1].

﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾: «أي: مرَّة بعد مرَّة، زلزلت فكســـر بعضها بعضا، فتكسر كل شيء على ظهرها. وقيل: دكت جبالها وأنشازها حتَّى استوت. وقيل: دكت أي استوت في الانفراش، فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سُمِّيَ «الدكان»، لاستوائه في الانفراش.

والدك: حطَّ المرتفع من الأرض بالبسط، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عبَّاس: تمدُّ الأرض مدَّ الأديم»[2].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، جاء ســـبحانه مجيئًا يليق بجلالـــه، لا نعرف كيف

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٢٣/٥).
(٢) تفسير القرطبي (٥٤/٢٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يجيء، ولا نشبِّهه بغيره، ولا نجعل له كفؤًا، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. هذا ما يقوله السلف، ومن اتبع منهجهم، ولا نخوض في شيء بعد ذلك، وهذا هو الأوْلى.

وأمَّا الخلف فيؤوِّلون ويُفَسِّرون، كل بما يبين له، فمنهم من قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أي: أمره وقضاؤه. وقيل: جاءهم الرب بالآيات العظيمة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي بظلل «وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئا له، تفخيمًا لشأن تلك الآيات.

ومنه قوله تعالى في الحديث: «**يا ابنَ آدم، مرضت فلم تعدني، واسْتسقيتك فلم تسقني، واستطعمتك فلم تطعمني**»[(١)].

وقيل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: أي زالت الشبه ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشك عند مجيء الشيء الَّذي كان يُشكُّ فيه.

وقال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنَّى له التحوُّل والانتقال؟ ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأنَّ في جريان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز». ذكر ذلك القرطبي في تفسيره[(٢)].

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ المراد به: جنس الملك، فيشمل جميع الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصْطفين استعدادًا لتلقي أوامر الملك القهار.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩)، عن أبي رافع.

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٥٥).

QaradawiBooks.com

بروز جهنَّم وتذكر الإنسان قبيح أعماله:

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾

إنَّه يوم عظيم، يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين، يوم يجيء الربُّ ﷻ، المجيء الَّذي تحدَّثنا عنه، وتجيء الملائكة ـ جنود الرحمن ـ صفوفًا صفوفًا، متلاصقين منتظمين مستجيبين، ويُجاء يومئذ بجهنَّم ـ دار العذاب المعدَّة للكافرين من قبل ـ فلم تنتظر حتى يصلوا هم إليها، بل حُرِّكت إليهم، وسبقت إليهم، وجيء بها نحوهم على ضخامتها وهوْلها. وحين يرى النَّاس هذه الحقيقة الكبيرة: مجيء جهنَّم، وما أدراك ما جهنم؟ ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي إنسان يرى هذا المشهد لا بدَّ أن يسقط ويتوب ويندم، وتتجمع له آلاف الذكريات، تلتف عليه، وتطوق عنقه، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، ومن أين يكون له التذكر، أو تنفعه العظة والعبرة؟!

روى الإمام أحمد بسنده، عن محمَّد بن أبي عميرة ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: لو أنَّ عبدًا خرَّ على وجهه من يوم وُلِد، إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله، لحقره ذلك اليوم، ولودَّ أنَّه رُدَّ إلى الدنيا، كيما يزداد من الأجر والثواب[1].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

يقول الإنسان في هذا اليوم متندِّمًا ومتحسِّرًا: يا ليتني قدمتُ من الأعمال النافعة والطاعات الواجبة والمستحبة لحياتي الخالدة هذه، فهي الحياة الَّتي لا يستحقُّ غيرها أن يُسمَّى حياة، كما قال تعالى:

(١) رواه أحمد (١٧٦٥٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

في يوم القيامة؛ لا يُعَذِّب كعذاب الله أحد، ولا يُوثِق كوثاق الله أحد.

والوثاق يطلق على الرباط الَّذي يوثق به، كما في قوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، ويطلق على الإيثاق بمعنى الربْط كما هنا، فالمراد: لا يربط أحد مثل ربط الله في القوة والإحكام مبالغة في الإهانة والتحقير لهؤلاء الطغاة.

فما أعدَّه من العذاب لمن كفر به، وكذَّب رسله، وتمرد عليه وعصاه، وآذى خلقه، ليس عند أحد من خلقه مثله، أو ما يقاربه، ولا تتصور العقول شدته، وأنى لهم ذلك. وكذلك الأدوات المساعدة على التعذيب من القيود والأغلال والوثاقات لا يوجد عند أحد مثلها ولا ما يدانيها.

وهذا مبنيٌّ على قراءتنا قراءة حفص بكسر الذال والثاء في الفعلين: ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾، وهناك قراءة بالفتح فيهما: (لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۞ وَلا يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)[1]، والضمير هنا يعود للإنسان الكافر بالله ورسله، أي: لا يُعَذَّب أحدٌ مثل العذاب الَّذي يحيقُ بهذا الإنسان الكافر البائس، ولا يُوثَقُ أحدٌ مثل وثاقه، جرَّاء عمله وتمرُّده في الحياة الدنيا.

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ فقرأ يعقوبُ والكسائي بفتح الذال والثاء، وقرأ الباقون بكسرهما. النشر في القراءات العشر (٢/٤٠٠).

QaradawiBooks.com

منادَاة النفس المطمئنة وبشارتها عند الاحتضار ويوم القيامة

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾

بهذه الآيات الكريمات ختم الله هذه السورة، ختامًا يردُّ النَّفْس إلى حقيقتها، ويعيدها إلى ذاتها وإلى دارها.

إنَّها النَّفْس المطمئنَّة، ومتى وصلت إلى هذه الدرجة العالية، الَّتي يسعى إليها المؤمنون والرسل الكرام، كما قال الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ووصف المؤمنين الذاكرين الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ما وصلت النفْسُ إلى هذه المرتبة، إلَّا بعد أن تحرَّرت من النفس الأمَّارة بالسوء، كما قالت امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وبعد أن وصلت إلى النفس اللوامة، الَّتي نوَّه الله بشأنها في سورة القيامة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وهي النفس الَّتي تكثر اللوم والعقاب والحساب لصاحبها على ترك الواجبات، وفعل المحظورات، بل ربَّما على ترك المستحبات وفعل المكروهات.

ثم ارتقت هذه النفس إلى أن انتهت إلى النفس المطمئنة، وإنَّما اطمأنَّت بالإيمان وبذكر الله تعالى، فوهب لها الطمأنينة والسكينة

QaradawiBooks.com

والأمان، كما ذكر القرآن: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فهنا يخاطب الله هذه النفس الساكنة الموقنة تمام اليقين، الَّتي ارتبطت به، وانخلعت من عباده، واطمأنت إلى جنابه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

ارجعي إلى ربك، أي: إلى صاحبك وجسده، ﴿رَاضِيَةً﴾ عنه سبحانه بما نلتِ من الثواب، ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ مقبولة مقربة مكرمة عنده تعالى بسبب ما عملتِ، كما قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

أو ارجعي إلى ربك، أي: إلى الله تعالى، أي: إلى ثواب ربك وكرامته. فهذا ما يقال للنفس الزكية الدائرة مع الحق.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾

أي: ادخلي في زمرة عبادي الصَّالحين الَّذين اصْطَفيتهم وشرَّفتهم بعبوديتهم لي، وانضمِّي إلى حزبهم، وادخلي جنَّتي ودار نعيمي الدائم معهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

وهذا يُقال للنفس عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضًا، كما أنَّ الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وعند قيامه من قبره.

QaradawiBooks.com

قال ابـــن كثير: «فكذلـــك هاهنا. وذكر ابـــن أبي حاتـــم حديثًا عن ســـعيد بن جبير، قال: قُرِئَتْ عنـــد النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾. فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ هذا لحسنٌ! فقال له النبيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّ المَلَك سيقول لك هذا عند الموت**». رواه ابن جرير[(١)]». قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن[(٢)].

قال الـــرازي: «قولـــه: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾، أي: انضمِّـــي إلى عبادي المقرَّبين. وهذه حالة شريفة؛ وذلك لأنَّ الأرواح الشريفة القدسيَّة تكون كالمرايـــا المصقولة، فإذا انضمَّ بعضها إلى البعـــض، حصلت فيما بينها حالة شـــبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة، من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض، فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في كلها. وبالجملة فيكون ذلك الانضمام ســـببًا لتكامل تلك الســـعادات، وتعاظم تلك الدرجات الروحانيَّة»[(٣)].

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣٩٦/٢٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٤٠١/٨).
(٣) تفسير الرازي (١٧٩/٣١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكِّيَّة بلا ريب، ومن زعم أنَّها مدنيَّة فهو واهم.

وقد بدأت بالقسم بهذا البلد، يعني: مكَّة المكرَّمة، البلد الحرام، وفيه البيت الحرام، أقسم الله بالبلد، ووالد وما ولد، لعلَّه بإبراهيم، وما ولد من إسماعيل وأبنائه.

وكان المُقْسَم عليه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، خلق الإنسان في حياة مكابدة ومشاقة، وبينهما منحة الله للإنسان من جوارح ونعم، يستطيع بها أن يحصل من أسباب الحق والخير ما يهيئ الله له بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، طريقي الخير والشر، ولكل طريق منهما أدوات وأعوان ومصير ومسير.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾، ويفسِّر هذه العقبة وطريق اقتحامها، حتَّى يكون ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا هو الفريق الناجي، ومقابله الفريق الخاسر الضائع، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۞ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾.

QaradawiBooks.com

الإنسان محاط بالمكابدة والمعاناة من كل صوْب

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

لست في حاجة إلى أن أقسم، فالأمر واضح، ولا يحتاج إلى قسم، وهذا البلد هو أعظم بلاد الله، البلد الحرام، الَّذي فيه المسجد الحرام، والبيت الحرام، مكَّة المكرمة. الَّتي ولد ونشا فيها خاتم النبيين محمَّد ﷺ، وبنى فيها إبراهيم وابنه إسماعيل المسجد الحرام.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

وأنت ساكن بهذا البلد. وهو بلد آمن بحكم تكوينه، ووجود البيت الحرام فيه، فكل شيء فيه آمن إلَّا الرسول الكريم، حرموا أن يقتلوا به صيدًا، وأن لا يعضدوا به شجرة، واستحلوا إيذاءك وإخراجك!

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾

وأقسم بالوالد وما ولد، والمراد بالوالد: إبراهيم خليل الرحمن. وما ولد: إسماعيل عليه السلام، وذريته من العرب المستعرِبة، الَّذين منهم محمَّد عليه الصلاة والسلام، ونكرهما ـ ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ ـ إيذانًا بالتفخيم والتعظيم.

وقيل: الوالد آدم، والولد ذريته، وهو أنسب لمضمون الجواب: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾.

وقيل: كل والد وولده من الموجودات الَّتي تتوالد؛ لأن بهذا التوالد بقاء النوع.

QaradawiBooks.com

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

جواب القسم السابق، وهو قسم أيضًا من الله تعالى بأنَّه خلق الإنسان في شدة وعناء، وتعب ومشقة. مكابدات مستمرة منذ الطفولة وما بعدها، إلى الموت. فإنَّه لا يزال يقاسي فنون الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه، إلى حين نزعها منه، وما وراءه. يقال: كبد الرجل كبدًا، إذا وجعت كبده. وأصله: كبده إذا أصاب كبده، ثمَّ اتسع فيه، حتَّى استعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة.

وهو تسلية لرسول الله ﷺ، بما كان يكابده من كفار قريش. «وقال الحسن: يكابد مصائب الدُّنيا وشدائد الآخرة.

وعنه أيضًا: يكابد الشكر على السرَّاء، ويكابد الصبر على الضرَّاء؛ لأنَّه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر.

وقال يمان: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم؛ وهو مع ذلك أضعف الخَلْق.

قال علماؤنا: أوَّل ما يكابد قطع سُرَّته، ثمَّ إذا قُمِطَ قِماطًا، وشُدَّ رباطًا، يكابد الضيق والتعب، ثمَّ يُكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثمَّ يكابد نبت أسنانه، وتحرُّك لسانه، ثمَّ يكابد الفطام، الَّذي هو أشد من اللطام، ثمَّ يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثمَّ يكابد المُعَلِّم وَصَوْلته، والمؤدِّب وسياسته، والأستاذ وَهَيْبته، ثمَّ يُكابد شُغل التزويج والتعجيل فيه، ثمَّ يُكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد، ثمَّ يُكابد شغل الدُّور وبناء القصور، ثمَّ الكِبَر والهَرَم، وضعف الرُّكْبة والقدم، في مصائب يكثر تَعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الضرس، ورَمَد العين، وغمِّ الدَّيْن، ووجع السنِّ، وألم الأذن. ويُكابد محنًا في المال

QaradawiBooks.com

والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلَّا يقاسي فيه شدَّة، ولا يكابد إلَّا مشقة، ثمَّ الموت بعد ذلك كلِّه، ثمَّ مساءلة المَلَك، وضغطة القبر وظُلْمته؛ ثمَّ البعث والعرض على الله، إلى أن يستقرَّ به القرار، إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النار، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أنَّ له خالقًا دَبَّرَه، وقضى عليه بهذه الأحوال، فَلْيَمْتَثِلْ أمره»[1].

كلَّ الأئمَّة والدعاة والهداة عظَّموا من مكابدة الإنسان لمشاقِّ الحياة، كما قال عليٌّ حين طلب منه أن يصف الدنيا: ماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء[2]؟

ودلَّل ابن الرُّومي على هوان الدُّنيا فقال:

لِمَا تُؤذِن الدُّنيا به من صُرُوفها ... يكونُ بكاءُ الطِّفل سَاعَةَ يُولَدُ
وإلَّا فما يُبكيه منها وإنَّها ... لأفسحُ ممَّا كان فيه وأرغدُ[3]

قدرة الله على الإنسان وما منحه من جوارح ونِعَم يستطيع بها أن يصل إلى أسباب الحقِّ والخير:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۞ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۞ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

يُبَيِّن القرآن الكريم حقارة الدنيا، الَّتي سحرت كثيرًا من العقول، فألهتها عن الآخرة، وأنْستها مقام ربِّها، وأغراها المال الَّذي أنفقته فيما لا يستيقن نفعه، ولهذا يقول سبحانه:

---

(١) تفسير القرطبي (٦٢/٢٠).

(٢) رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (١٢٠/٢)، نشر دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

(٣) انظر: الإعجاز والإيجاز صـ ٢٢٠، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

QaradawiBooks.com

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

أيظنُّ صاحب المال أنَّ ماله الَّذي لا يدري من أين اكتسبه، ولا أين أنفقه، ولا ماذا عليه من حق فيه؟ قد أعطاه قوَّة يستطيع أن يقهر بها كل من وقف أو يقف في طريقه. والاستفهام لطلب التصديق، معناه الاستنكار التوبيخي والتعنيف والتعجب والزجر، أي: كيف يظن هذا الظن وهو مخلوق مقهور لا يستطيع ان يدفع عن نفسه شدائد الحياة؟! إنَّما كان ذلك بضمير الغائب للإعراض عن المذكور، والإشعار أن قبائحه تقتضي ذكرها لغيره تشهيرًا وعظة.

وهنا نبَّهه القرآن من غفلته، وأرجعه إلى نقطة ضعفه، حين قال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وهو حسبان خاطئ بلا ريب، فما أكثر من يقدرون عليه، حين يشيخ، وحين يمرض، وحين يفتقر، وحين يصاب ويجرح، وحين يبتلى ويحزن، وحين تتكاثر عليه الأوصاب، وتتزاحم عليه الأوجاع، ولا يملك طبيب أو ممرض أن يزيل عنه الألم، أو سببه، أو يخفف عنه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾

ويقول مجاهرًا على سبيل الفخر والتعنُّت: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ «لبدًا»: جمع لبْدة بوزن غرف وغرْفة، وأصله: الصوف المتلبد الملتصق بعضه فوق بعض. يريد كثرة ما أنفقه من أموال، فيما يدعوه أهل الجاهليَّة مكارم، ويسمونه معالي ومفاخر. ولن يغني عنه أو يخفف عنه قوله: أهلكت مالًا كثيرًا، بعضه فوق بعض، زاعمًا أنَّه أنفق بعضه في خير الناس، أو على الفقراء والمساكين، أو اليتامى وأبناء السبيل، وأنَّه لم يكن يريد به إلَّا الخير، يقول هذا، وكأن أعماله

QaradawiBooks.com

كلها غطيت بغطاء لا يكشف، أو مقفلة بأقفال لا يملك أحد فتحها، وكأن الله مالك الإنسان والبرية، لم يعرف ماذا كان يريد، ولا ما يخبئه في صـــدره. وإنَّه أمـــام الله مكشـــوف تمامًا، لا يخفى عليـــه خافية، ولا يغيب من أمره ولا من عمله سر ولا علانية، ولهذا يعقب الله عليه بقوله تبارك وتعالى:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

لقد رآه الخلق، ورآه الملائكة، وكتب الكاتبون، وسجَّل المُحصون، ورآه قبل هؤلاء جميعًا ربُّ العالمين، الَّـــذي قال له إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

هنا يُخاطِب الله الإنســـان بصيغة الاســـتفهام المنفي، الَّذي يفيد التقرير، فكأنَّه يقول: لقد خلقنا لهذا الإنسان الأدوات اللازمة لحياته، فجعلنا فيما يملكه ويتصرف فيه: عينين يبصـــر بهما كل ما يهمه أن يراه ويعرفه، ويهتدي به إلى ما وراءه، وكذلك جعلنا له لسانًا يترجم عن ضميره، وما يحتـــاج إليه في حياته الخاصَّـــة والعامة، وفي دينه ودنياه، وشفتين يكتمل بهما النطق، ويزينان وجْهه، ويُخبئان أسنانه، ويساعدانه على الأكل والشـــرب، والنفخ والتبسم والضحك، وغير ذلك.

وهذا النُّطق دليلٌ علـــى العقل، ولهذا قالوا: الإنســـان حيوانٌ ناطق. يعنون: أنَّه مفكر. فالنطق والكلام المرتب من أدلَّة التفكير.

QaradawiBooks.com

دلالة الإنسان إلى طريقي الخير والشر:

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

أي: بيَّنَّا له طريقَي الخير والشَّر، وجعلناهما واضحين كوضوح النجدين، وأصل النجْد: الطريق البارز الواضح الَّذي فيه ارتفاع، والنجدان هما: طريق الخير وطريق الشر. والهداية نوعان: هداية بيان ودلالة، وهداية توفيق والتزام. وهداية البيان والدلالة قد أعطاها الله تعالى للإنسان، كما قال عن ثمود الهالكة: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]. بل الهداية العامَّة معطاة من الله لكل المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

والله ﷻ أعطى الإنسانَ الهداية إلى طريق الخير والهدى والنور، وإلى طريق الشر والضلالة والظلمة، فليس مضطرًّا أن يسلك أي الطريقين إلَّا بإرادته واختياره الحر، إن شاء آمن، وإن شاء كفر، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا ما يذكره القرآن ويتبنَّاه، ويبيِّنه أبدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

العقبة وطريق اقتحامها

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۞ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾

هذا الإنسان الَّذي آتاه الله مفاتيح الإدراك، وهيَّأ له الأدوات، ووضع أمامه «عقبة» أي عقبة، لا بدَّ أن يجتازها، إذا أراد أن يصل إلى الله، وإلى جنَّته ومثوبتـــه، ليحيا مع الَّذين أنعمَ الله عليهم مـــن النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا.

ولماذا لا يقتحم الإنســـان هذه العقبة الَّتي تقف فـــي طريق نجاحه وفوزه، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾: «والاقتحام: الرمي بالنفس في شيءٍ من غير رَوِيَّة.

قال الفرَّاء والزجَّاج[1]: وذكر «لا» مرَّة واحدة، والعرب لا تكاد تُفْرِد «لا» مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضـــع، حتَّى يعيدوها في كلام آخر، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقـــرة: ٦٢]. وإنَّمـــا أفردها لدلالة آخر الـــكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، قائمًا مقام التكرير؛ كأنَّه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٣٢٩/٥)، تحقيق عبد الجليل عبده شـــلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾، قال سفيان بن عُيَيْنة: كل ما في القرآن: وما أدراك؟ فإنَّه أُخْبر به. وكل شيء قال فيه: وما يُدْريك. فإنَّه لم يخبر به. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣].

وقال جماعةٌ من المُفَسِّرين: الاستفهام الَّذي معناه الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة؟ أو: هلا اقتحم العقبة؟ يقول: هلا أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغْبان، ليجاوز به العقبة، فيكون خيرًا له من إنفاقه في عداوة محمَّد ﷺ، ومقاومة دعوته ودينه؟

وقال بعضهم: اقتحام العقبة ها هنا ضرب مثل، أي: هلا تحمل عظام الأمور في إنفاقه ماله في طاعة ربه، والإيمان به. وهذا يليق بقول من حمل ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، على الدعاء. أي: فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا»[1].

وجاء عن عددٍ من مُفَسِّري السلف: أنَّ العقبة في الآخرة، وممَّا كان معناها: النَّار، أو جزءًا من النَّار، أو من الدار الآخرة. أو نحو ذلك.

والرأي المختار: هو أنَّ العقبة في الدنيا.

«روي عن سيِّدنا أبي الدرداء رضي الله عنه، أنَّه قال: إنَّ وراءنا عقبة، أنجى النَّاسِ منها: أخفُّهم حملًا.

وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة: يجاهد الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

(١) تفسير القرطبي (٦٦/٢٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأنشد بعضهم:

إِنِّـي بُلِيـتُ بأربـعٍ يَرْمِينَنـي بالنَّبْلِ قـد نصبوا عليَّ شِـراكا
إبليسُ والدُّنيا ونفْسـي والورى من أيـن أرجـو بينهنَّ فِـكَاكا
يـا ربِّ سـاعدني بعفـوٍ إنَّني أصبحتُ لا أرجو لهُنَّ سواكا»[1]

والعقبة: المركب الصعب من الجبال. كما قـال في القاموس[2]. واسـتخدمها أهل الدِّين وغيرهم، كل فيما يريده مـن مراكبه الصعبة الَّتي يحدِّدها.

قالوا: فـي قولـه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾، حـذف، أي: ومـا أدراك ما اقتحام العقبة؟ وهذا تعظيم لالتـزام أمر الدين. والخطاب للنبيِّ ﷺ، ليعلِّمه اقتحام العقبة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

فسَّـر ربُّنا ﷻ العقبة، الَّتي يجب على النَّـاس اقتحامها، وهي أمور كلها تتعلق بالخلاص من أسْـر المال للإنسـان، وإنفاقه حيث يحب الله سـبحانه. وهو لا يحب إنفاق المـال إلَّا في الجهات الَّتـي فيها حرية الإنسان وخيره وقضاء حاجاته.

أول هذه الإنفاقات: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والمراد: رقبة الإنسان الواقع في الرق، أو في الأسر، والمطلوب تخليصه وفكُّ رقبته المغلولة، بكونه رقيقًا، أي: عبدًا أو أمَةً لسيده، إن كان واحدًا، أو لعدد من السادة إن كانوا شركاء فيه.

---

(١) تفسير القرطبي (٦٧/٢٠).

(٢) القاموس المحيط (١١٦/١)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والإعانة في فكِّ رقبة الإنسان من الرقِّ والعبوديَّة من أعظم ما يقرِّب الإنسان إلى ربه؛ ولذا يعتبر «الإعتاق» من أعلى الخيرات، وأفضل القُربات إلى الله في نظر الإسلام.

ويقرب من ذلك إذا كان أسيرًا، يطلب إخراجه من أسْره، وتسليمه مُحرَّرًا إلى قومه.

بدأ القرآن بفك الرقبة؛ لأنَّه تحريرٌ للإنسان وذريته من جرثومة العبودية، الَّتي تجعله مملوكًا لآخر أو آخرين، كما تملك البهيمة، ثمَّ بدأ في لون آخر من التحرر، ولكنَّه ليس الآخِر، حين ينقذ بالإطعام ـ إعطاء الطعام أو شرائه ـ لمن لا يجده، في أيام الجوع والمسْغبة، أي: انتشار المجاعة.

والإطْعام في أيام الجوع والمَسْغبة، له فضلٌ عظيمٌ عند الله وعند الناس، ولهذا ذكره القرآن: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، يدلُّ على قلَّة الطعام وعزَّته في ذلك اليوم، ولا يقصد باليوم هنا: أربع وعشرون ساعة، بل مدة السغب والجوع. والإطعام محمود، ولكنَّه مع السغب أفضل وأحمد، وتَرْكُه مع السغب وشِدَّته أذمُّ وأنكى.

وأنشد أبو عُبَيْدَة:

فَلَوْ كُنْتَ جارًا يا ابنَ قَيْسِ بن عاصمٍ لما بتَّ شبعانًا وجارُك ساغبًا

ثم إنَّ الإطعام أصاب ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، فالذين أنفق عليهم كانوا أحق بالإطعام والإنفاق: فهو يطْعم يتيمًا له قرابة منه، يجب عليه أن يواسيه ويكرمه ويعطيه، وتوجب له حقًّا آخر وهو الصلة. وكذلك المسكين ذو المتْربة، فمسكنته لها حقها، وكونها مسكنة شديدة جعلت صاحبها (يده والتراب)، كما يقول الناس. ليس بينه وبين التراب حائل.

QaradawiBooks.com

وإطعام اليتيـــم ذي المقربة ـ وهي القرابة ـ هنـــا يعلمك أنَّ الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابـــة، لما لصلة الأرحام من فضل، فهي صدقة وصلة، كما في الحديث[1]. كما أنَّ الصدقة على اليتيم الَّذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الَّذي يجد من يكفله.

والمســـكين ذو المتربة، يعني: الَّذي لا شيء له، حتَّى كأنَّه قد لصق بالتراب مـــن الفقر، ليس له مـــأوى إلَّا التـــراب. قال ابـــن عبَّاس: هو المطروح على الطريق، الَّذي لا بيت له.

وليس معقولًا أن يُوجِب الله الإطعام لإنسان ذي مقْربة، أو مسكينٍ ذي متربة، ثمَّ يتركه عريانًا لا يكسوه ما يستحق، أو يحتاج إليه من اللباس، أو يدعه في العراء، لا يهيئ له ما يسكنه من الحجرات والمباني اللازمة بإيوائه وستره، وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل: ٨٠].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾

ثم إنَّه مع إطعامه وإنفاقه واهتمامـــه بالضعفاء وأهل العوز والحاجة من المسلمين: مشـــدود إلى أصل الإيمان، مرتبط بالجماعة الإسلامية، والأمَّة الإسلامية، فإن انفصاله عن الأمَّة، يجعل نفقاته ـ وإن كثرت ـ غير مقبولة عند الله، كما قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) إشارة إلى الحديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، والصدقة على ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة**». رواه أحمد (١٦٢٣٣)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. والترمذي (٦٥٨)، والنســـائي (٢٥٨٢)، وابـــن ماجه (١٨٤٤)، ثلاثتهم فـــي الزكاة، وصحَّحه الألبانـــي في صحيح الجامع (٣٨٥٨)، عن سلمان بن عامر الضَّبي.

QaradawiBooks.com

وقالت عائشة: يا رسولَ الله، إن ابن جدعان كان في الجاهليَّة، يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئًا؟ قال: «**لا، إنَّه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين**»(١).

والحديثُ يدلُّ على أن هذه الصدقات والأعمال الطيِّبة، لا تؤمِّن له دخول الجنَّة، لعدم وجود الإيمان، ولا يدخلها إلَّا مؤمن، ولكنها تُخفِّف من عذابه في النَّار، فليسوا متساوين فيها، والظالمون والفسَّاق أشدُّ عذابًا من الآخرين من ذوي الرحمة، وأهل القلوب الطيِّبة.

لهذا نفع هؤلاء أنَّهم يأوون إلى أمَّة مؤمنة آمنت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، فنجت به من عذاب النَّار، واستحقت به دخول الجنة. لهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، انضمامهم إلى هذه الأمة المرحومة أدخلهم في الرحمة، ومكَّن لهم في الجنَّة، بما آمنوا بالله ورسالاته، ولقائه وحسابه، وجنته وناره، وبما أكد هذا الإيمان: أنَّهم أوصوا بعضهم بعضًا بأمرين مهمين في غاية الأهمية، وهما: الصبر والمرحمة. تواصى بعضهم مع بعض بالصبر، ظاهرًا وباطنًا، علنًا وسرًّا. الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على قضائه، والصبر على دعوته ومشاقها.

وتواصوا مرَّة أخرى بالمَرْحمة، أي: أنْ يرحَم بعضهم بعضًا، ويشفق بعضهم على بعض، فلا ينسى القويُّ الضعيف، ولا يهمل الغنيُّ الفقير، ولا يترك النَّاس العناية بالضعفاء، مثل: النساء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل والرقيق، وخصوصًا إذا كانوا من الأهل

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤)، وأحمد (٢٤٦٢١).

QaradawiBooks.com

والقرابة، فيكون حقُّهم حقَّين. بل تتعـدَّى الرحمة عندهم إلى جميع المخلوقات حتى الحيوان والنبات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾

أولئك الموصوفون بهـذه الصفات والأعمال، أهـل اليمين، الَّذين يأخذون كتابهم يوم القيامة بأيْمانهم، وهم من الناجين ومن أهل الجنَّة، وهم أيضًا ميامين على أنفسـهم، فإذا أخذتهم من جهـة اليمين، أو من ناحية اليمن كانوا على خير.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۞ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾

الذين كذبوا بآيات الله المبثوثة في كتابـه وقرآنه العظيم، أو أنكروا الآيات الَّتي بينها في كونه الكبير، وهو مصحفٌ منثور، والآخر مصحفٌ مسـطور. الَّذين كفروا بآيـات الله جميعًا، هم أصحاب المشْـأمة. أي: يأخذون كتبهم بشمائلهم، شأن الكفَّار جميعًا، فالمشأمة هنا: أي: الشمال. أو لأنَّهم مشائيم على أنفسهم، من الشآمة والشؤم.

وبجمع هذه الأقوال يمكن أن يُقـال: إنَّ أصحاب الميمنة أصحاب الجنَّة، وأصحاب المشـأمة أصحاب النَّار، قال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۞ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۞ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۞ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ [الواقعة: ٤١، ٤٢]، وما كان مثله.

وقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: فوقهم وتحيط بهم من كل صوب نار مغلقة. كما قال الشاعر:

تَحِـنُّ إلـى جِبَـالِ مكَّـةَ ناقتي ... ومن دونها أبوابُ صنعاءَ مُؤصدة[1]

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٢٠).

QaradawiBooks.com

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكِّيَّة باتِّفاق. وبعضهم كما في المصاحف اليوم يقولون سورة «الشمس»، وفي صحيح البخاري: سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[1].

وموضوع السورة: القسم من الله تعالى ببعض الظواهر الكونيَّة من الشمس والقمر والليل والنهار وغيرها، على أمر مهم وكبير: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وذلك بطاعة الله ورسوله، وأكد ذلك بأنَّ الَّذين خالفوا الله ورسله قد أنزل الله بهم عذابه وأهلكهم، ولم يبق لهم من باقية، كما حدث لثمود مع نبي الله صالح عليه السلام، ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۡبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾.

(١) صحيح البخاري (١٦٩/٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القسم ببعض الظواهر الكونيَّة على أمر مهمٍّ كبير

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۞ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

القسم بالشمس والقمر:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾

بدأ الله تعالى السورة بواو القسم ليحلف لخلقه بـ «الشمس»، الَّتي خلقها بارتفاعها وضيائها وحرارتها وتأثيرها على الحياة والأحياء، ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: أي ضوئها الَّذي يظهر في أوائل النهار، وشباب النهار.

ثم يُثنِّي القسم بـ «القمر»، الكوكب المعروف في السماء، الَّذي يستمد ضوءه من الشمس؛ لذا قال القرآن في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥]، إنَّما جعل الشمس ضياء؛ لأن حرارتها من نفسها، ومن أشعتها ذاتها، بخلاف القمر، فإن نوره من الشمس.

وتلو القمر للشمس يعني: أنَّه يتبعها دائمًا في كل وقت؛ لأنَّه يستضيء منها، فهو يتلوها لذلك.

القَسَم بالنهار والليل:

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾

النهار: هو الزمن الَّذي يبدأ من طلوع الشمس. بخلاف اليوم: فهو يبدأ من طلوع الفجر. ولا خلاف أن نهايتهما مغيب الشمس.

QaradawiBooks.com

والضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ يعود على الشمس، كالذي قبله والَّذي بعده. فالنهار هو الَّذي يجلي الشمس ويظهرها بقوة ووضوح.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: هو الزمن يبدأ بعد انتهاء النهار ومغيب الشمس، ولذا قال: ﴿إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي: يَغْشى الشَّمس ويُغطِّيها بظلمته، وَفْق سنن الله تعالى في كونه. والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى.

القسم بالسماء والأرض:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾

كلُّها داخلٌ في القسم الَّذي بدأت به السورة، وهي تبدأ بكلِّ اثنين بينهما علاقة، كالشمس والقمر، والنهار والليل، وهنا: السماء والأرض.

أقسم الله هنا بالسماء: هذا المخلوق الَّذي جعله الله سقفا مرفوعا لنا يُظلُّنا، ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾: «ما» هنا مصدريَّة، أي: والسماء وبنيانها، ولا ضرورة لأن نجعلها موصولة بمعنى «مَنْ»، ليكون المعنى: والسماء وبانيها وهو الله رب العالمين؛ فلو أراد الله أن يقسم بذاته لأقسم به واضحًا فصيحًا بيِّنًا بلا مواراة.

ثم أقسم ﷻ بالأرض في مقابل السماء، وكلاهما من مخلوقات الله تعالى الدالة عليه، وعلى علمه وقدرته وإحكامه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨].

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: وما بسطها وجعلها صالحة للإقامة عليها، قال ابن كثير: «هذا أشهر الأقوال، وعليه أكثر المُفَسِّرين، وهو المعروف عند أهل اللُّغة، قال الجوهري[1]: طحوته مثل: دحوته، أي: بسطته»[2]. وقد قال تعالى على لسان نوح: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

القسم بالنفس الإنسانيَّة وتسويتها وقابليتها للفجور والتقوى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾

هذا هو القسم السابع ممَّا أقسم الله تعالى به في هذه السورة، فترك القسم بالكونيَّات والطبيعيَّات، ليدخل على أنفسنا الَّتي بين جنوبنا، وهي عالم وحدها، لا يقل عن هذه العوالم الكبيرة، كما قال الشاعر قديمًا:

دَوَاؤُكَ فِيكَ وما تَشْعُرُ ... وداؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ
وتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ ... وفِيكَ انْطَوى العَالَمُ الْأَكْبَرُ[3]

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

---

(١) الصحاح (٢٤١١/٦)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٢) تفسير ابن كثير (٤١١/٨).

(٣) من شعر ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في الديوان المنسوب إليه صـ ٧١، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، نشر دار ابن زيدون ومكتبة الكليات الأزهرية.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: «ما» مصدريَّة، أي: وتسويتها. والتَّسوية من كمال الخلق، كما أنَّ الهداية من كمال التقدير، ولذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. وتسوية النفس إكمالها، وإتمام خلقها، حتَّى تؤدي ما خلقت له، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فمعنى ﴿سَوَّىٰهَا﴾: خلقها سوية مستقيمة، على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الحديث الصحيح: «**كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه**»[(١)].

وفي صحيح مسلم من رواية عِيَاض بن حمار المجاشعي، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**وإنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دِينِهم**»[(٢)].

ثم بيَّن ﷻ أثر هذه التَّسوية في الآية التالية فقال: ﴿**فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا**﴾، أي: غرس في أنفسهم القابلية للفجور والتقوى، أي: بيَّن ذلك لها، وهداها إلى ما قدر لها، قال ابن عبَّاس وغيره: أي بيَّن لها الخير والشرَّ[(٣)].

بم يكون الفلاح؟ وبم تكون التدسية؟

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

هاتان الجملتان هما الأمر المقسم عليه، وهو أمر جِدُّ كبير، وجِدُّ مهم.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في الجنَّة (٢٨٦٥).
(٣) رواه الطبري في التفسير (٤٤٠/٢٤).

QaradawiBooks.com

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾

الفلاح الَّذي هو نَيْل الإنسان ما يجب، وسلامته ممَّا يكره، مربوط بتزكية النفس.

والتزكية كلمة تعني أمرين في لغة العرب: الطهارة والنماء. ومعنى هذا: أنَّ الَّذي يجتهد في تزكية نفسه بتطهيرها من الكفر والنفاق ورذائل السوء، ومنها: الغش والظلم والإيذاء، خصوصًا للمستضعفين من أهل الحق، وبتنميتها بالإيمان والإخلاص ومكارم الأخلاق، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والمرْحمة، ينال الفلاح في الدنيا، وينال الفلاح في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال سَحَرة فرعون بعد إيمانهم في جزاء من آمن وعمل صالحًا: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

وقد كان من أساسيات مهمَّة محمَّد ﷺ، في أمَّته: أن يُعلِّمهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

هذه هي التكملة المهمَّة لعلاج النفس الإنسانيَّة: أنَّ مَنْ زكَّاها أفلح وفاز، ومَنْ دسَّاها خاب وأخفق ولم يفلح، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

ومعنى «التدسية»: أن يُدَسِّس نفسه ويخفيها، كأنَّما يضعها في الوحل. والمراد: أخفى مزايا إنسانيته ودفنها تحت أقذار الكفر والظلم والجهل والفسوق والعصيان.

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «﴿دَسَّىٰهَا﴾، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إيَّاها عن الهدى، حتَّى ركب المعاصي، وترك طاعة الله»[١].

وروى الإمامان أحمد ومسلم، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والهَرَم، والجُبْن والبُخْل وعذاب القبر، اللَّهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها، اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نَفْسٍ لا تشبع، ومن علمٍ لا ينفع، ومن دعوة لا يُستجاب لها**». قال زيد: كان رسول الله يُعَلِّمناهنَّ، ونحن نعلِّمكموهنَّ[٢].

غير مرخصة للطباعة

(١) تفسير ابن كثير (٤١٢/٨).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، وأحمد (١٩٣٠٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

نموذج من الأمم السابقة الَّتي أفسدت نفوسها فخسرت

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾

ثمود قبيلة قديمة من العرب البائدة، كقبيلة عاد، ضربها الله مثلا للأمم والقبائل والبلاد، الَّتي يهلكها الطغيان إذا انتشر فيها، والَّتي تدسي نفسها فتصيبها الخيبة والخسارة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فهذه تدسيةٌ جماعيةٌ؛ لذا قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، أي: كذبت ثمود بنبيِّها، أو الأنبياء جميعًا، كما قالت سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]. لأنَّ من كذَّب رسولًا واحدًا، فكأنما كذَّب كل المرسلين من أمثاله، وهؤلاء كذبوا بصالح، وهم في الحقيقة مكذبون لمن هو مثله، وسبب هذا التكذيب إنَّما هو «الطَّغوى» أي: الطغيان، بتجاوز الإنسان حدَّه، وبغيه على غيره.

وقد جاءت قصَّة ثمود في سورٍ عدَّة من القرآن، بتفصيل وإجمال، وفي هذا الجزء الأخير من القرآن ذكرت في بعض السور مثل البروج والفجر.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾

إذ اندفع هذا الرجل الشقيُّ، بل الأشقى في قبيلة ثمود إلى عَقْر الناقة بنشاط وحرص، وقد سمَّاه المُفَسِّرون، ولا دليل على تسميته، ولا حاجة لمعرفة اسمه، وهو أحد التسعة الرهط المفسدين.

QaradawiBooks.com

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

رسول الله هنا هو صالح عليه السلام نبيُّ القوم، كما قال القرآن في أكثر من سورة ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]. وقد دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، واستعمار الأرض، واستغفار الله والتوبة إليه.

وقد طلبوا منه آية من ربِّه، فأخبره أن آيته هذه الناقة، فعليهم أن يَدَعوها تأكل في أرض الله، ولا يمسوها بسوء، فيأخذهم عذاب أليم، وأنبأهم أنَّ الماء قسمة بينهم، لهم يوم، وللناقة يوم.

وقال من قال من المُفَسِّرين: إنَّ الناقة خلقت من الصخر خلقًا غير عاديٍّ، ولم يبيِّن لنا القرآن هذا الأمر، وإن كان أمرها وحاجتها إلى الماء أمرًا غير عادي.

قال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾، فنصب بفعل مضمر، تقديره: احفظوا، أو ذروا، أو احذروا، على معنى احذروا الإخلال بحقِّ ذلك، والمراد: التحذير من أن يسقوا إبلهم من الماء في يوم شرب الناقة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾

نسب إلى القوم كلِّهم التكذيب والعقْر، مع قوله في أوَّل القصَّة: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾، وقال في سورة القمر: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، فنسب العقر أي: النحر إليه وحده، ولكنهم هم الَّذين نادوه، وهم الَّذين شجَّعوه، ورضوا بعمله، فكانوا شركاءه في الفعل والإثم، فلا عجب أن ينسب إليهم جميعًا العقر، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾: فقد ذبحوها جميعًا، وباؤوا بِوِزْرها.

QaradawiBooks.com

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾

أي: فأرسل عليهم ربهم صيحةَ غضبٍ وعذاب، والمراد بهذه الدَّمْدَمة: صوت الصَّاعقة والرَّجْفة الَّتي أهلكوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]. أو يقال: دمْدم عليهم، أي: أطبق عليهم الأرض، يقال: دمْدم عليه. إذا أطبق عليه. فالمراد: أهلكهم إهلاكًا كليًّا لم يبْق لهم أثرًا على ظهرها.

ومعنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فسوَّى القبيلة بالأرض فصاروا لا وجود لهم على ظهرها، ولم ينْج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]، فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، فلم يبق منهم ديار ولا نافخ نار.

لهذا ختم الله السورة بقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، أي: نزلت الصيحة المزلزلة أو الصاعقة المدمِّرة، فدكَّتهم دكًّا، ولم يبقِ فيهم حيًّا، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وهو إذ فعل ذلك، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: لا يخاف سبحانه ـ في عزَّته وجبروته ـ عاقبة ما فعل، كما يخاف الَّذين يُقدمون على أعمالهم الانتقاميَّة الشديدة، وليس هناك من يأخذ بالثأر أو من يفكر فيه، وهم لم يبق منهم باقية، ولو كان منهم أحد موجودًا، فهل يكون له شأن أمام رب الأرض والسماوات؟!

قد يرتكب بعض الجبابرة من الأفعال ما يُرعب البشر من تقتيل وتذبيح وإحراق، ولكنَّه يظلُّ خائفًا مرتعدًا من عاقبة فعلته، فقد يقوى العدو الضعيف، وقد يكثر القليل، وكم تتغيَّر الأيام، والعمل لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

السُّـــورة مكِّيَّة كلُّها، وإن زعم بعضهم أنَّها مدنيَّة، أو فيها مدني، وهو وهم.

اختلاف أعمال الناس

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾

أقسمَ الله جلَّ شأنه في هذه السورة، كما أقسم في السور الَّتي قبلها: الفجر والبلد والشمس، وفي السورة الَّتي بعدها وهي الضحى، وكل هذه الأقسام بـ «الواو».

القسم بالليل والنهار:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾

أقسمَ سبحانه هنا بالليل إذا يغشـــى ظلامه، ويُغطِّي الكون بظلمته، ويدخل في حالة السكون والهدوء، الَّذي يتمنَّاه النَّاس من طول ما عانوا من الحركة والضوضاء، ولهذا كان فضل الله على النَّاس أن يتعاقب عليهم الليل والنهار، والظلمة والنور، والسكون والحركة.

QaradawiBooks.com

ومن هنا أقســمَ بعد هذا الليل إذا يغشــى بقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، فبعد غشــيان الظلام علــى الخلق، يطلــع عليهم النهــار، الَّذي يتجلى بضيائه، ويظهر بظهور شمســه، وحركة أهله، كمــا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

هكذا تتوالَى ظواهر الكون، لتُوفِّر للناس ما يحتاجون إليه، وما يهيِّئه الله لهم، في وجودهم وفي حياتهم الفرديَّة والاجتماعيَّة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

وهذا القســم هنا شــبيهٌ بالقســم في قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤].

القسم بخلق الذكر والأنثى:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾

«ما» في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ مصدريَّــة، معناها: وخلق الذكر والأنثى، وهو كناية عن تعظيم الخالق القادر العظيم القدرة، الَّذي قدر على خلق الذكر والأنثى من بني آدم، من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۞ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤]. والمراد: تعظيم القادر، أو تعظيم القدرة الباهرة الَّتي خلقت الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمْنى.

QaradawiBooks.com

والإقْسام بخلق الذكر والأنثى هنا يتناول الإقْسام بذوي الأرواح، الَّذين هم أشرف من سائر المخلوقات ممَّن دونهم، وهم يشملون عوالم الإنسان والحيوان والطيور والحيوانات المائية والزواحف والحشرات وغيرها، وهي أمم أمثالنا، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

السَّعي: هو العمل والكسب. و«شَتَّى» أي: متفرق ومتباعد ومختلف.

وأمَّا جواب ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، أو المُقْسَم عليه، فهو هذه الآية الكريمة: «إنَّ أعمال عباده لشتَّى، أي: مختلفة في الجزاء، و«شَتَّى»: جمع شَتِيت، مثل مرضى ومريض، وإنَّما قيل للمُخْتَلِف: «شتَّى»؛ لتباعد ما بين بعضه وبعض. والشتات هو التباعد والافتراق. فكأنَّه قيل: إن عملكم لمتباعد بعضه عن بعض؛ لأن بعضه ضلال وبعضه هدى، وبعضه حق وبعضه باطل، وبعضه يوجب الجنان، وبعضه يوجب النيران، فشتَّان ما بينهما.

ويَقْرَبُ من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]»[(١)].

(١) تفسير الرازي (١٨٢/٣١).

QaradawiBooks.com

ما يترتَّب على اختلاف الأعمال من آثار

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۞ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

ثم بيَّن تبارك وتعالى مدى تشتت الأعمال، وافتراق المساعي، وهو افتراق هائل، هوْل ما بين السعادة والشقاوة، وما بين الجنَّة والنار، ما بين الله والطاغوت:

خصال ثلاث تكون بها النجاة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾

فالفريقُ الأوَّل هو فريق السعداء المُوفَّقون، الَّذين جمعوا بين خصال ثلاث، بها تكون النَّجاة، وعليها يكون الخلاص، وهي: «الإعطاء، والاتِّقاء، والتصديق بالحسنى».

الإعطاء: إشارة إلى ما يجب بذله وإنفاقه من المال، ومن القوة الَّتي يملكها الإنسان، ومن الحقوق، فذو المال يعطي من ماله ما يعين الضعيف، وذو القوة يعطي من قوته ما يساعد ذا الحاجة، وذو الجاه يعطي من جاهه ما يقوي من شأن المستضعفين والمغموطين، ويدخل فيه ما يعطى من حقوق المال أو من حقوق النفس، ويشمل إعطاء الواجب والنفل، ويدخل فيه ما في آخر السورة: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

الاتقاء: مصدر من «اتَّقى»، فهو كـ«التقوى»، فهي واقية من فعل الشَّرِّ، والاقتراب من الباطل، والقسوة على الفقراء والمساكين، والغارمين

QaradawiBooks.com

وأبناء السبيل، ومن اتصف بذلك كان من المتَّقين، وهل من شرط التقوى ألا يذنب؟ بل يكفي أن يكون كما وصف الله المتَّقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

التصديق بالحُسنى: يتعلَّق بالاعتقاد والإيمان: من الاعتقاد بوحدانيَّة الله، وأن لا إلٰه إلَّا هو، وأن محمدًا رسول الله، وأن شريعته هي أعظم الشرائع وأعدلها، وأن خير المال ما أنفق في سبيل الله، وهذا مؤسَّس على قاعدة عقديَّة سليمة من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧]. فمن آمن بذلك كُتبت له الحُسنى الَّتي آمن بها.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾

من سار في طريق السُّعداء، بالإعطاء والاتِّقاء والتَّصديق بالحسنى؛ فإن الله تعالى وعده أن ييسره لليسرى.

ومعنى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أنَّه سيظهر تيسيرنا بما يتدرج فيه من أعمال الخير، وحتم تيسيره، قد كان في علم الله أزلًا.

و«اليُسْرى»: الحالة المَرْضِيَّة في الدُّنيا والآخرة، فُعْلَى من الأيْسر، مقابل الأعْسر، فهو في طريق علامته اليسر لا العسر، والقرآن يحب دائمًا اليسر، ويكره العسر، والنبي ﷺ يقول: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٧٣٤)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

العامل من أهـــل الإعطاء والاتِّقاء والتَّصديق بالحُســـنى، وعده الله ـ ووعده لا يخلف ـ أنَّه يُيسِّـــره لليســـرى، أي: للطريقة اليسرى، وللعاقبة اليسرى، وليس هناك لغة أفصح ولا أهدى ولا أكرم من لغة القرآن، ومن الواجب الالتزام بها، وعدم تعديلها باللغـــات الَّتي اخترعها العلماء من عند أنفسهم، وهي تحتوي مضامين فيها تعقيدات وخلافات كثيرة.

خصال ثلاث تكون بها الخسارة:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾

هذا هو الصنف المقابل للصنف الأوَّل ـ قسم السعداء ـ فهذا هو صنف الأشقياء الضائعين، ويعتمد على أمور أساسيَّة ملازمة: **البخل** بدل الإعطاء، و**الاستغناء** بدل الاتقاء، و**التَّكذيب بالحُسْنى** بدل التَّصديق بالحُسْنى، فقد وعده الله بالتيسير للعُسْرى: الطريقة العُسْرى، والعاقبة العُسْرى.

و«العُسْرى»: الحالة السيِّئة المسخوطة عند الله في الدُّنيا والآخرة.

أول فضائل فريق الســـعداء: هـــو الإعطاء والبـــذل والإنفاق من كل ما لديه من خير.

وأول رذائل فريق الأشقياء: هو البخل والضن والإمساك بكل ما عنده من مال أو قوَّة أو جاه، أو علمٍ أو خيرٍ ـ إن عرف الخير طريقه ـ فالبخل هو باب الشر للفرد والمجتمع.

وثاني فضائل الفريق الأول: هو الاتقاء لكل ما يســـخط الله ويكرهه. ولذا كان ثاني **رذائل الفريق المقابل:** الاســـتغناء، وهـــو ما ذكره الله في ســـورة العلق، بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. والاستغناء هنا عن الناس، وعن الله، أي: يظن أن ماله جعله يستغني عمَّن

QaradawiBooks.com

هو مثله، بل يستغني عن ربه. فحين يكون الأولون يعولون على تقوى الله، واجتناب كل مناهيه، يشعر هؤلاء أنَّهم في غنى عن الله، وعن فضله، وكأن ليس عندهم أدنى نعمة من الله تردعهم عن تفكيرهم في الشر.

وثالث فضائل فريق السعادة: التَّصديق بالحُسْنى الَّتي تفوق كل حُسن. **وأمَّا هؤلاء** ليس عندهم إلَّا التَّكذيب بالحُسنى، فهم يعيشون حياتهم الأولى ـ إن سمَّينا مثل ذلك عيشا ـ لحظة بلحظة، لا يرجون الآخرة، ولا يحسبون حسابها، ولا يتوقَّعونها، وكيف وهم يكذبون بها؟

و«الحُسْنَى»: فُعْلَى من الأحسن، فهي الفعل الأحسن من غيرها: في الكم، وفي الكيف، وفي الشكل، وفي المضمون، وفي الظاهر والباطن. وكما قال القفَّال: «هي بالجملة لفظةٌ تَسَعُ كُلَّ خَصلة حسنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]. يعني النصر أو الشهادة. وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]. فسمَّى مضاعفة الأجر: «حُسْنى»، وقال: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]»[(١)]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

واعتبر بعض المُفَسِّرين أنَّ الحسنى: هي الخلف الَّذي يخلف الله به على المتصدِّقين والباذلين، كما صحَّ ذلك في حديث الملكين، إذ يقول أحدهما: «**اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللَّهمَّ أعط ممسكًا تلفًا**»[(٢)]. فهذا الإخلاف جزء من الحسنى.

---

(١) تفسير الرازي (١٨٣/٣١).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

هذا الشَّقيُّ المُيَسَّر للعُســرى، والَّذي غلبت عليه الشقاوة، هو جدير بما هُيِّئ له، وما أُعِدَّ له، فالجزاء من جنس العمل، وليس هناك أمل في تخفيف ما هيئ له من جزاء أو عذاب لائق به.

وربَّما ظنَّ بعض النَّاس أنَّ ما لديه من غنى ومال كثير ســينفعه في هــذا الوقت العصيب، ولكــن هيهات، ذهب وقت المــال، وجاء وقت العمل، ولهذا قال القرآن بصريح العبارة: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾. إذا وقعت الواقعة، وتردى هذا إلى الهاوية، فما عاد مال ينفعه، أو يدفع عنه، أو يفيء عليه.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

على الله سبحانه هداية البيان والدلالة

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

أخبر تعالى أنَّ عليه ـ بمقْتضى عدله وحكمته ـ هداية النَّاس جميعا، أي: تعريفهم بالسبل كلِّها، ومنحهم الإدراك الكافي لمعرفتها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، فهداية البيان والدلالة من الله تعالى، وليست هداية التوفيق إلى الإيمان، ولو تم ذلك لم يوجد كافر.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: إنَّ الله تعالى هو الَّذي يملك الدارين، دار الدُّنيا ودار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، مالكٌ وحده، هو الملك الَّذي يحكم كل الخلائق في هذه الدار، وفي الدارين جميعًا.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

المُنْذَرون بدخول النَّار ومقاساة حرِّها

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾

الإنذار: ضدُّ التَّبشير، والتَّبشـير يكون بالخير والمحبوب، والإنذار يكون بالشر والمرهوب، والله سبحانه ينذر هنا عباده الكافرين به، الَّذين لم يرضوا بقرآنه، ولا برسوله محمَّد ﷺ.

﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أصلهـا: تَتَلظَّى، أي: تتوهَّج وتتأجَّـج وتوقد وتلتهب، وتحيط به من كل جوانبه، ويقاسي أهوالَها أبدًا، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

وعن سماك بن حرب قال: سـمعتُ النعمان بن بشير يقول: سمعتُ رسـول الله ﷺ يخطب، يقول: «**أنذرتكم النار**». حتى لـو أنَّ رجلا كان بالسـوق لسـمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[1].

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

لا يَصْلى هذه النَّار المُتلظِّية خالدًا فيها إلَّا الإنسان الَّذي يُعدُّ أشقى الناس، قال ابن عطيَّـة: «لا يصلاها صَلْيَ خُلُودٍ إلَّا الأشـقى. ومن هنا ضلَّت المرجئة؛ لأنَّها أخذت معنى «الصَّلْي» مطلقًـا، في قليله وكثيره. والأشقى هنا: الكافر، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾»[2].

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٩٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والحاكم في الجمعة (٢٨٧/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير ابن عطية (٤٩٢/٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

المجنَّبون النَّار والمُبْعدون عنها

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾

إذا كان الأشقى سيصلى النَّار الكبرى صَلْيَ الكفَّار الجاحدين، فهناك في الجانب الآخر، على الحافة الأخرى: من سيجنب هذه النَّار ويبْعد عنها، ولا يمر عليها مجرد مرور، وذلك هو الشخص الأتقى، الأكثر تقى لربه ومولاه، وأول ما يدلُّ على هذا التقى، وهذا النقاء، الَّذي ينبئ عن كمال الإيمان، وحقيقة اليقين: موقفه من المال، الَّذي أضل النَّاس من عدة جهات: بكسبه من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، أمَّا شخصية ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، فهو ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، يؤتيه بيسر وسهولة لمن يستحقُّونه، وهم معروفون، والمهم أنَّ عطاءه ليس لشيء يهواه من أمور الدنيا، ولكن يريد تزكية نفسه ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ قاصدًا تطهير نفسه من دنس الشُّحِّ والمعاصي.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

يعمل ذلك بماله الَّذي يعتبره النَّاس شقيق الرُّوح، وليس يبغي به ما يبغي النَّاس من وراء هذه الأعمال، فهو لا يعطي ليُثاب من بعض من يعطيهم في المستقبل، وليس لأي أحد عنده إعطاء سابق يردُّه إليه، وفضل يجازيه عليه، لكن يفعل ما يفعل ابتغاء رضا الله، وطلب وجْه ربه الأعلى، فلوجهه وحده توجه الأعمال، ولا يجوز لمن أخلصه الله لدينه، أو أخلص دينه لله أن يبتغي بأي عمل من الأعمال الآخرة وجهًا من وجوه الدنيا.

QaradawiBooks.com

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

وهذا ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ الَّذي اصْطَفاه الله من عباده، وانتقاه ليقوم بهذا العمل الَّـذي لا مجال فيه لرياء ولا عجـب ولا نفاق، ولا أدنـى اتباع لأهواء الناس، سـوف يمنحه الله سـبحانه خاصَّـة «الرضا» الَّذي تسـكن إليه الأنفس، وتستريح إليه القلوب، ووصف به خلاصة عباده، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المُفَسِّرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديـق رضي الله عنه، حتَّى إن بعضهم حكى الإجماع من المُفَسِّـرين على ذلك، ولا شـك أنَّه داخل فيها، وأوْلى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفـظ العموم، وهو قولـه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، ولكنَّـه مقدَّم الأمَّة، وسـابقهم فـي جميع هذه الأوصاف وسـائر الأوصاف الحميدة، فإنَّه كان صدِّيقًا تقيًّا كريمًا جوادًا، باذلًا لأمواله في طاعة مولاه ونُصْرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربِّه الكريم!!

ولم يكن لأحد من النَّاس عنده منَّة يحتاج إلى أن يُكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سـيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أمَّا والله لولا يد لك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك[1]. وكان الصِّدِّيق قد أغلظ له في المقالة.

(١) رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان.

QaradawiBooks.com

فإن كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وفي الصحيحين، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير**». فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، ما على من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحدٌ؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»[1]»[2].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٨٩٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير ابن كثير (٤٢٢/٨).

QaradawiBooks.com

سورة الضُّحى

بسم الله الرحمن الرحيم

السُّورة مكيَّة، بل هي من أوائل ما أنزل من القرآن، وإن كنا قرأنا في المصاحف، الَّتي حفظنا عليها القرآن في صبانا، أن سورة الضحى هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب السور في المصحف، وهذا بخلاف ترتيب النزول. والَّذي يبدو جيدًا لمن يتأمَّل في مسيرة الوقائع النبويَّة: أنَّ السورة من أوائل ما نزل من القرآن، وأنَّ الله أراد أن يبتليه بعد أن ذاق حلاوة نزول القرآن، وعرف حامله إليه جبريل عليه السلام، ولا بدَّ أن يكون قد نزل عليه مرات ببعض الآيات، ثمَّ شاء الله تعالى ـ لحكمة أرادها ـ أن يبطئ عنه مدة من الزمن.

وأن يشتدَّ هذا الإبطاء على رسول الله ﷺ، ويُؤرِّقه هذا الشوق، أو القلق على الوحي الحبيب إليه، الملهوف عليه، وأن يحسَّ المشركون بهذا الأمر، فيزيدوا في إثارة خوفه وقلقه، بما أشاعوه من قولهم: إن رب محمَّد قد ودَّعه أو قلاه، ولم يعد يأتيه ما كان يأتيه من قبل.

وازداد قلق النبي الكريم على فتور الوحي عنه، حتى قيل ما قيل من تفكير غير مقبول من مثل محمَّد ﷺ ـ ولكن كانت هذه لحظات ـ ثمَّ

QaradawiBooks.com

يعود الوعي العميق والحب الوثيق والفهم الدقيق، ويكتئب الرسول الكريم مؤقتًا، وينتظر الفرج من الله تعالى.

حتى جاء الفرج، وأشرقت الأرض بنور ربِّها، وعاد الوحي مرَّة أخرى، فنزلت آياته مُبشِّرة لمحمد ﷺ، ومرجِّية له في مستقبل مديد، ودعوة منتصرة، تزهق الباطل، وتقوم على الحق، وتستمر عليه، حتى تتمَّ نعمة الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

كما يربط القرآن أبدًا بين الطبيعة والكون وما فيها من آيات الله الدالَّة عليه، وعلى سننه وأحكامه، وبين وحي الله وهدايته لخلقه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

آيات مبشرة لمحمد ﷺ ومرجية له في مستقبل مديد، ودعوة منتصرة

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾

أقسم الله الواحد القهَّار بالضحى، وهو ضوء الشمس الساطع في أوائل النهار، وشبابه، كما أقسم بالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: إذا سكن واستراح النَّاس فيه من عناء النهار وأشغاله ومتاعبه، فأوَوْا إلى الظلمة، واطْمأنت الجنوب في المضاجع.

وهنا نجد القرآن قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾. على حين قال في السورة السابقة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ وذلك لأنَّ السَّجْو من لوازم الليل أو الظلمة، فناسبه أن يأتي بالفعل الماضي، كما قال في النهار: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]، بخلاف الغشيان في الليل، فقال فيه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]؛ لأن هذا يعرض لليل في أوقات قليلة، يغشى فيها الضياء بخلاف الضياء الَّذي يغلب أجزاء الزمن.

فالوحيُ هنا يُثبِّته ويُطمئنه إلى أنَّه سائرٌ في الطريق الصحيح، كالشمس الَّتي تنتقل من ضحى مشْرق، إلى ليلٍ ساجٍ، أحوج ما يكون النَّاس إلى سجْوه والاستراحة فيه، ليبدؤوا عملهم غدًا، ويستمرُّوا في العمل، حتَّى يكمل الدين، وتتم به النعمة، ويستقيم الأمر. وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: إنَّ ربَّك الَّذي اختصَّك من دون العالمين بوحيه، وأرسلك إلى النَّاس كافَّة، لم يودِّعك، ولم يتركك يومًا من الأيام، ولا ساعة واحدة من الساعات، ولا كرهك في أي وقت أو أبغضك. فالقلا هو: البغض.

QaradawiBooks.com

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

يُبشِّره أنَّ كَرَّة الوحي التالية، بما ينزِل الله فيها من آيات بيِّنات، ومن سور مفصَّلات، سيدلك على أنَّ الغد أفضل من اليوم، وأنَّ المفصَّل سيريحك وينعشك أكثر من المجمل، وما يأتي من بيان الأصول، وتأصيل العقائد، وتأسيس القيم، وتوضيح الشرائع، وتبيين المعاملات، ستجد فيه من الخير ما تزداد به ثقة، واطمئنانًا على مستقبل دعوتك.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾

ثم زاد الأمر إيضاحًا وتأكيدًا، بهذا الوعد الإلٰهي الَّذي لا يكذب: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، سوف: حرف تنفيس، تتحدث عن الغد أو المستقبل، وقد تعود العرب أن يتحدثوا عن المستقبل القريب بالسين، وعن المستقبل البعيد بـ «سوف».

وليس المقصود هنا، أن ما يعطى للرسول شيء بعيد غير قريب، وإنَّما يذكره بأسلوب علمي لا يستطيع أحد أن يكذبه، ونحن في أوائل العهد المكي، لا يزال أمامنا عدة سنوات حتَّى ينتهي، ثمَّ يبدأ العهد المدني، ومنه تبدأ آيات الله تَتْرى، ويجيء نصر الله، ويظهر أمره وهم كارهون.

ثم إنَّ ما يُعطَى لمحمَّد رسول الله ﷺ من خيرات وفضائل ومقوِّمات حتى يرضى، بعضها ممَّا يكون في الآخرة، من الشفاعة العُظمى، والموقف المشهود، واللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة لعصاة المؤمنين، وأنَّه أوَّل من يفتح له باب الجنَّة، إلى آخره. والمهم هنا أنَّ الله سيعطيه ممَّا عنده من فضل وخير، فيرضى.

QaradawiBooks.com

نعمه سبحانه على عبده محمَّد ﷺ

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

بيَّن الله تعالى نعمه على مُحمَّد ﷺ، من قديم، وذكَّره بها هنا، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، الاستفهام الداخل على النفي هنا للتقرير، أي: إنَّا وجدنا وعلمنا أنَّك يتيم فقدت أباك قبل أن تولد، وفقدت أمك في السادسة من عمرك. عرفنا ذلك فلم ندعك ولم نتركك وحدك، عن طريق جدك سيد مكَّة، الَّذي كان مهتمًّا بك غاية الاهتمام، ثمَّ عن طريق عمك، الَّذي ضمك إلى سائر أبنائه، وآواك بقربه، وآثرك به، صغيرًا وكبيرًا، قبل البعثة وبعد البعثة.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾

وضلال نبينا محمَّد ﷺ هنا ليس هو الضلال الديني، وليس هو الشرك، ولا ما استباحه قومه من الربا والخمر والزنا والبغي والمنكر، بل المراد بالضلال هنا: حيْرة الفكر فيما ينبغي عمله في إنقاذ النَّاس ممَّا هم فيه، كيف يضع طريقًا لإنجاء الناس، وكيف يقود النَّاس إلى ما فيه خيرهم في دينهم ودنياهم.

والمعنى: قد علم الله ما تفكِّر فيه، فيما وصلت إليه حال الأمَّة، وحال النَّاس من حولك. فهو ﷺ لم يعبد إلَّا الله، ولم يسجد يومًا لصنم، ولم يذهب إلى واحد من دعاة الأصنام، ولكنَّه كان يهمُّه ما فيه قومه من عبادة غير الله، ومن انحرافات الجاهليَّة وخرافاتها، ومن تبِعات العصبيَّة القاتلة،

QaradawiBooks.com

ومن طغيان المال على أصحابه، حتَّى أكلوا الربا، وقبلوا الغرر الفاحش، وتعاملوا بالظلم البين، وأصبح الضعيف والفقير ومن لا ظهر له ضائعًا في المجتمع، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

﴿فَهَدَىٰ﴾: اختــارك الله دون العالم لتقوم على إنجاء البشــريَّة، من ظلمة الجاهليَّة، وتهديها إلى الصِّراط المســتقيم، فأنزل عليك الوحي، وختم بك النبــوَّة، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

وممَّا وجدك الله عليه، وعلمه من حالك ـ وهو لا تخفى عليه خافية ـ ما كنت عليه من الفقر وقلة المال، فلم ترث عن أبيك مالًا، وكنت تعمل بجهدك وقوتك، فكنتَ ﴿عَآئِلًا﴾، أي: فقيرًا، فأغناك الله، بما هيَّأ لك من المضاربة في مال خديجة، ثمَّ أصبحت خديجة ومالها كله بين يديك، ثمَّ رزقناك مــن الصفات، وهيأنــا لك من أســباب الخيــر ما تعلمه، وقد قال ﷺ: «**ليس الغِنَى عــن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنــى غِنَى النَّفْس**»[(١)]. وقال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»[(٢)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٥٤)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

مقابلة النِّعم الإلٰهيَّة والمِنن الربَّانيَّة بالشكر القلبي والعملي والقولي

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

بعد أن بيَّن الله تعالى لرسوله وصفيِّه محمَّدٍ في الآيات السابقة، نِعمه الَّتي أسبغها عليه، وأحاطه بها، وقد كان في أشد الحاجة إليه، فآواه، وضمَّه وحضنه من اليتم، وحماه من الضلال والحيرة فيما يجب عمله لإنقاذ المجتمع وهداية البشر، وأخرجه من ضياع العيْلة وضراوة الفقر، فأغناه من فضله، بما أوتيه من مال هيأه له، وتوافر وطاب لمثله، كان لا بدَّ أن يبين ماذا يجب عليه بعد توفير هذه النِّعم الإلٰهيَّة، وهذه المنن الربَّانيَّة، أمام أمثال هذه الحالات الثلاث: اليتم المنجبر، والحيرة المهتدية، والعيلة المواجهة بالنعمة. فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

فأوَّل ما يطلب منك نحو اليتيم، هو أن تكرمه ولا تهينه، وألَّا تقهره ولا تدعه، وألَّا تذله ولا تشعره بأي هوان، فهو إنسانٌ كريم على الله، كريمٌ على الناس، كريمٌ على نفسه، وقد قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢]، وذمَّ الله المجتمع الجاهلي بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، فالمجتمع الجاهلي بحق، هو الَّذي يقهر فيه اليتيم ويهان، قال قتادة: كنْ لليتيم كالأب الرحيم[1].

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠٠/٢٠).

QaradawiBooks.com

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

والسائلُ هنا هو الَّذي يظهر في مجتمع الحَيْرة والضلال، والبحث عن الحقيقة، يسأل من يجد من أهل العلم، ليعلم الجواب عن سؤاله، ويعرف الحق فيحتضنه، ويعرف الباطل فيجتنبه، فالسؤال هنا سؤال المتعلمين عن العلم، وليس سؤال المحتاجين عن المال، وإن كان كل منهما له حقُّه وله مجاله الَّذي يظهر فيه.

قال ابن كثير: «كما كنتَ ضالًّا فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. وقال ابن إسحاق: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فحَّاشًا، ولا فظًّا على الضعفاء من عباد الله[1]. وقال قتادة: يعني رد المسكين برحمة ولين»[2].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

وهنا قد تفضَّل الله عليك، وأعطاك من فضله، وقد كنت عائلًا فأغناك، وضعيفًا فقوَّاك، ومنقطعًا فوصلك، حاظيًا بنعمة ربك عليك، فالمطلوب أن تشكر ما أنعم الله به عليك، وما امتن به من هداية وصحة ومال وقوة وطيبات، أفاضها عليك ربك الكريم، وأن تحدث بها خلقه، بمقتضى تمام نعمته.

قال ابن كثير: «وكما كنتَ عائلًا فقيرًا فأغناك الله، فحَدِّث بنعمة الله

(١) سيرة ابن هشام (٢٤٣/١)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(٢) تفسير ابن كثير (٤٢٧/٨).

QaradawiBooks.com

عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «**واجعلنا شـاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا**»[١].

وذكر ابن جرير، عن أبـي نضرة قال: كان المسـلمون يرون أنَّ من شكر النعم أن يُحدِّث بها[٢].

وعن أنس: إنَّ المهاجرين قالوا: يا رسولَ الله، ذهب الأنصار بالأجر كلِّه. قال: «**لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم**»[٣].

وروى أبو داود، عـن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «**لا يشـكر الله من لا يشكر الناس**»[٤].

وروى أبو داود أيضًا، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجـد فليثنِ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**»[٥].

وقال مجاهد: في تفسـير الآية: يعني النبوَّة الَّتي أعطاك ربُّك. وفي رواية عنه: القرآن[٦].

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (٩٦٩)، والحاكم في الطهارة (٢٦٥/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٤٩١/٢٤).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٢)، والترمذي في الزهد (٢٤٨٧)، وقال: حسن صحيح غريب. وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٢٦).

(٤) رواه أحمد (١٠٣٧٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤)، وقال: هذا حديث صحيح. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤١٦).

(٥) رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٣)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٣٤)، وقال: حسـن غريب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٥٦).

(٦) رواه الخلال في السُّنة (٢١٠).

QaradawiBooks.com

وقال محمَّد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوَّة، فحدِّث بها واذكرها، وادع إليها»[١].

وكل هذا داخل في مضمون قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وكل واحد من الأمَّة مأمور بما أُمر به رسوله الكريم، وبهذا تفيض جنبات الأمَّة، وتمتلئ حياضها من التَّحديث بنعم الرب الكريم وشكرها، أتمَّها الله عليها وعلينا أجمعين.

غير مرخصة للطباعة

(١) تفسير ابن كثير (٤٢٨/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكِّيَّة كلها، وإن ورد عن بعضهم أنَّها مدنيَّة، ويردُّه ما اعتبره البعض من أنَّها تكملة لسورة الضحى، ممَّا يدلُّ على أنَّهما نزلتا في أمر واحد، وفي زمان متقارب.

شرح صدره ﷺ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

همزة الاستفهام إذا دخلت على الحرف «لم» ـ وهو حرف نفي وجزم وقلب ـ حوَّلت الجملة الاستفهامية إلى جملة تقريرية، فإذا قلت لامرئ ما: ألم أقل لك كذا؟ فمعناها: لقد قلت لك كذا.

والخطاب هنا للرسول ﷺ، يقول له ربُّه مبشِّرًا ومرجِّيًا بلغة التقرير: لقد شرحنا لك صدرَك، وفتحنا لك قلبك، الَّذي بين جنْبَيْك، أي: نوَّرناه، وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وكما شرح الله صدره ﷺ، كذلك جعل الله ﷻ شرعه فسيحًا واسعًا سَمْحًا سهلًا، لا حرج فيه ولا إصْر ولا ضِيق. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد استخدم القرآن مع كلمة «الشَّرح» كلمة «الصدر»، ولم يستخدم القلب، ولا الفؤاد، ولا النفس، والعرب كانوا ينظرون إلى من عظم صدره أنَّه قريب إلى اكتمال القوَّة، وكثيرًا ما يفتخر أحدهم بعِظم صدره، وكذا كنوا بشرح الصدر عن المسرَّة، وانبساط النفس إلى القول أو الفعل.

وقد سأل موسى عليه السلام ـ وهو من الرُّسُل أولي العزم ـ ربَّه حين أمره أن يذهب إلى فرعون بالرسالة، أن يؤتيه أربعة أشياء أو أمور يستعين بها على مهمَّته، فكان أولها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥].

ولكنَّ محمَّدًا أعطاه ربُّه شرحَ الصدر، دون أن يسأله من ربه، لما علم سبحانه أنَّه يضيق صدره، وتقتم نفسه، لما رأى من كثافة الظلمات الَّتي تغطِّي على فطرة قومه، فلا يعرفون حقًّا من باطل، وعلى ضمائرهم، فلا يعرفون خيرًا من شر، ولا رحمة من قسوة، وأصبحوا في جاهليتهم: ﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فشرح الله صدره بإنزال القرآن، والهداية إلى الإسلام، ودخول النور الإلٰهي إلى تلك القلوب المظلمة، والهداية إلى الحق، ويهيئ لها أسباب الحركة والخير.

وضْعُ وزْره ﷺ:

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

وضعنا: حَطَطْنا وأزلْنا. والوزْر: الحِمْل الثقيل. أثقل ظهرك: أهمَّك وأتعب نفسك. والمراد به: اهتمامه الشديد بهداية قومه، ودفع إيذائهم عنه.

أوَّل ما صنع الله لرسوله: أنَّه شرح له صدره ووسعه، وأزال عنه كل ضيق.

QaradawiBooks.com

وثاني ما صنع له: أن وضع عنه حمله الثقيل، الَّذي كان يحمله على ظهره، بثقله ومتاعبه.

الله جـلَّ جلاله برحمته وتيسـيره وضع عنك هذا الحمْـل؛ تخفيفًا وتوسعةً عليك، وإنهاضًا لك، وتقويةً لعزمك، لتقوم بما أنت مكلف به، في تبليغ الدعوة، وإتمام الرسالة.

نشْر ذكره ﷺ في الآفاق:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

وإتمامًا لنعمته تعالـى عليك، بعد أن جمع لك بيـن إعطاء الخير، المتمثِّل في شرح الصدر، ورفع الشَّـرِّ عنك، المتمثِّل في وضْع الوزر، زادك فضلًا وتكريمًا برفع الذكر. ومعنى رفع الذكر: نشره في كل الآفاق في الأرض وفي السـماء، فيذكر محمَّد ﷺ، كلما ذكر اسـم الله تبارك وتعالى، في الشهادة: أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي الصلاة، وفي ختام الصلوات، وفي سائر الأذكار والدعوات.

قال حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ:

وضمَّ الإلٰهُ اسـمَ النبيِّ إلى اسْمِه إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ: أَشْهَدُ
وشَـقَّ لـه مِـنِ اسـمِه ليُجِلَّـهُ فذو العَرْشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ[1]

فرفع ذكره في الأوَّلين والآخرين وقَدْرَه، وأخذ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به.

(١) البيتان لحسان بن ثابت، في ديوانه صـ ٥٤، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

اليُسر هو القاعدة والعُسر استثناء:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

مع هذه النِّعم والمواهب الَّتي آتــاك الله إيَّاها من عنده كرمًا وفضلًا، وبرغم ما كنت تشكوه من الضيق والعسر والعنت الَّذي يبدو من حولك، فإنَّ الله تعالى موسِّع عليك كل ضيق، وميسِّر عليك كل أمر، ومُغْنيك من كل فقر، ومفرِّج عنك كلَّ كرب، فهذا شأن الله معك، ومع النَّاس جميعًا: أنَّ العســر لا يســتمر أبدًا، وأنَّ الحزن لا يطول مددًا، فــإنَّ الأصل هو السَّعَة، وإنَّ القاعدة هي اليُسْــر، فالعُسْر طارئ، واليُسْــر دائم، والعُسْر قليل، واليُسْر كثير، والعُسْر فَرْع، واليُسْر قاعدة؛ ولهذا ثبتت هذه القاعدة في عقول المسلمين وضمائرهم: أنَّ العُسْر يلاصق اليُسْر دائمًا، ولا يتركه ينفرد بالساحة أو ييئس المؤمن.

ويعبِّر القرآن عن ذلك بكلمة ﴿مَعَ﴾، المصاحبة للفعل، فهو لا يتأخر عنه، بل يواكبه ويزاحمه حتَّى يطرده.

والتَّنكير في قوله: ﴿يُسْرًا﴾، معناه التعظيم والتفخيم، كأنَّه قيل: إن مع العسر يسرًا عظيمًا، وأي يسر.

دعوة الإسلام إلى التيسير، وكراهية التعسير:

ولما كان وقوع اليُسر بعد العُسر بزمان قليل، كان مقطوعًا به، فجعل كالمقارن له، وهذا يتَّفق مع الأصل الكلِّي العام في الإسلام، وهو الدعوة إلى التيســير، وكراهية التَّعســير، وهو ما نوَّه به القرآن، وأكَّدته السُّنَّة، فقال تعالــى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النســاء: ٢٨]. وقال ﷺ:

QaradawiBooks.com

«**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّـــروا ولا تنفِّروا**»[١]، «**إنَّما بُعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معســـرين**»[٢]. لهذا كان من القواعد الفقهيَّة الأساســيَّة: «المشقَّة تجلبُ التيسير». وما يتبعها ويلحق بها من قواعد وفروع ومهمَّات.

وصيتان كريمتان:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

﴿فَرَغْتَ﴾: انتهــت أعمالك من واجبات لنفســك وأهلــك والناس والدعوة، ﴿فَٱنصَبْ﴾: فاتعب، من النصَب ـ بفتح النون والصاد ـ كما قال تعالى في سورة الحجر عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، وعن وجوه أهل النَّار في سورة الغاشية: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

بعد هذه المواهب الكريمة، والهبات العميمة، لمحمَّد رسول الله من ربِّه، تأتي في هاتين الآيتيــن الوصيَّتان الكريمتان مــن الله الربِّ العلي الكريم إلى رسوله المكرَّم توصيه بأمرين: ماذا يفعل عند الفراغ؟ وبماذا يتَّجه إلى ربه؟

وهنا يقول القرآن للرســول محمَّــدٍ ﷺ، ولكل مــن فهم الخطاب العربي: فإذا فرغت من عمل اليوم، فانْصَب فــي تدبير عمل الغد، وإذا فرغْت من عمل الصباح، فانْصب في عمل المســاء، أو فرغت من عمل النهار، فانْصب في عمل الليل، وإذا فرغت من عمل الدنيا، فانْصب في عمل الديــن، وإذا فرغت من واجبك نحو النــاس، فانْصب في واجبك نحو الله، وإذا فرغْــت من واجبك في أداء الفرائــض، فانْصَب في توفية

(١) سبق تخريجه صـ٤١٨.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٤٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النوافل وقيام الليل، وإذا فرغْت من أداء الواجبات المحددة، فانْصَب في أداء الواجبات غير المحددة، وما أكثرها! وإذا فرغْت من الجهاد والغزو، فانصب في طلب العلم، وإذا فرغْت من صلاة الفجر، فانصب في الذكر والدعاء إلى الله.

ومعنى هذا: أنَّ المؤمن لا يكون فارغًا تمام الفراغ بحال؛ لأن فراغه ملحوق بما يشـــمله من تعدُّد الواجبات، وكثرة الحقوق، وقصر العمر، وقلَّة الأعوان.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: إنِّي أكـــره أن أرى أحدكم فارغًا، لا في عمل الدنيا، ولا في عمل الآخرة[1].

قال علي بن أبي طلحـــة: إذا كنت صحيحًا فانْصَـــب. يعني: اجعل فراغك نصبًا فـــي العبادة. ويدلُّ عليـــه ما روي أنَّ شـــريحًا القاضي مرَّ برجلين يتصارعان، فقال: الفارغ ما أمر بهـــذا، إنَّما قال الله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾.

قال الرازي: «وبالجملة فالمعنـــى: أن يواصل بين العبادات وبعض، وألا يُخلي وقتًا من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى»[2].

ففي هذا يكون النصب، ويحلو التعب، وتلذ المعاناة: كما قال صلاح الدين الصَّفَدي:

الجَدُّ في الجِدِّ والحرمانُ في الكسلِ فانصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأَمَلِ[3]

(١) تفسير الزمخشري (٤/٧٧٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٢/٢٠٩).

(٣) مطلع لاميته التي يعارض بها لامية الطغرائي، انظر: نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشـــجن للشرواني صـ ١٤٨، نشر مطبعة التقدم العلمية، مصر، ط١، ١٣٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

وقال آخر:

بَصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبْرى فلم أرَها تُنالُ إلَّا على جَسْـرٍ من التَّعَبِ[1]

وقال ثالث:

بِقَـدرِ الجِـدِّ تُكْتسـبُ المعالي ومَنْ طَلَـبَ العُلَا سَـهِرَ اللَّيَالِي
ومَـنْ طَلَـبَ العُلَا من غَيْـرِ كَدٍّ أضاعَ العُمْرَ فـي طَلَبِ الْمُحَالِ[2]

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

وإذا كان هـذا هو المطلوب من الإنسـان عند الفـراغ، وهو التعبُّد والإعداد لما بعده، فعليـه بعد ذلك أن تكون رغبتـه، واتِّجاهه إلى الله وحده، لا إلى الناس، ولا إلى المطالـب الماديَّة، ولا إلى المتاع الأدنى الَّذي ينحدر إليه أكثر الناس، بل يلجأ إلى ربه الَّذي ربَّاه وعلَّمه وأرشده إلى كل خير، فليجعل رغبته خالصة إليه، لا يسأل إلَّا فضله متوكلًا عليه، ولا يرغب في سـائر ما يلتمسـه إلَّا له، ولا نصره على الأعداء إلَّا منه، وكفى به هاديًا، وكفى به نصيرًا.

(١) هو أبو تمام في بائيته الشهيرة:

السيف أصدق أنباء من الكتب

انظر: شرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٤٩/١)، فهرسة راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

(٢) ذكره من غير نسبة المناوي في فيض القدير (٥٠٥/٤)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

QaradawiBooks.com

سورة التِّين

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السُّورة مكِّيَّة على القول الصحيح.

وفي السُّورة قسمٌ بمهابط الشرائع الإلٰهيَّة المباركة، ومنازل الوحي بالكلام الإلٰهي النازل على رسله صلوات الله عليهم؛ مهبط نزول الوحي على عيسى، وإنزال الإنجيل عليه، وهو البقعة المباركة من فلسطين، ومهبط نزول التوراة على موسى بطور سيناء، ومهبط نزول القرآن على محمَّد ﷺ في بلد الله الحرام، على خلق الإنسان في أحسن تقويم، واكتمال واعتدال، وتعهُّده بما يسعده ويصلح شأنه في أمر التشريع، ليحفظ عليه حسن تقويمه وكماله الإنساني، وهناك قسم كبير من بني الإنسان أعرض عن تلك الشرائع وردَّها، فردَّه أسفل سافلين؛ لأنَّه هو الَّذي سفل نفسه ونزل بها إلى مستوى البهيمية. ولكنَّ قسمًا آخر من بني الإنسان آمنوا بما أنزل الله تعالى، وعملوا الصالحات الَّتي تشمل جميع الأعمال الإيمانية، فلهم أجر دائم غير مقطوع من نعيم الآخرة.

ويُخاطب الله هذا الإنسان المُكذِّب بدين الله وبالحساب والجزاء: أي شيْء يجعلك منكرًا لدين الله الَّذي جاء به أنبياء الله ورسله، ومكذِّبًا بالحساب والجزاء بعد هذا البيان والبرهان، وقد خلقك الله في أحسن

QaradawiBooks.com

تقويم، وتعهَّدك بالشـريعة الَّتي فيها صلاحك وسـعادتك، ولم يتركك سُدى، فكيف تنكر الحساب والجزاء، وهو سـبحانه قادر على إعادتك بعد موتك. وذلـك بمقتضى حكمته في مجازاة المحسـن بإحسـانه، والمسيء بسيئاته، والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

قسم الله ببعض مخلوقاته:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

أقسـم الله في هذه السـورة ببعض مخلوقاته، على أمر يتعلَّق بخلق الإنسـان وفطرته، كما أقسـم في سـورة مرت قبل ذلك على أمر شبيه بذلك، هي سـورة البلد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۞ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ ـ ٤]. أقسم الله في سورة «البلد» بهذه المخلوقات: أنَّه خلق الإنسـان في مكابدة للمتاعب والمشقَّات، وأقسم هنا في سورة التين: بأنَّه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

حرَّم الله تعالى علينا أن نقسم إلَّا به، كما قال رسوله الكريم: «**من حلف بغير الله فقد أشـرك**»[(١)]. وأقسم هو بما شـاء من خلقه، في سور كثيرة في القرآن، تحدث عنها ابن القيِّم في كتابه «أقسـام القرآن»[(٢)]. ومما أقسم به هاهنا: الأمور الأربعة: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

ومن المُفَسِّـرين القدامى من فسَّـر الآيات على أنَّ المقسَم به أربعة أشـياء، وقدر التين والزيتـون بالصنفين المكيليـن، أو الموزونين من

(١) رواه أحمد (٥٥٩٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وقال: حديث حسـن. والحاكم (٢٩٧/٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٢)، عن ابن عمر.

(٢) التبيان في أقسام القرآن صـ ٤٣، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

المأكولات، الَّتي يتحلَّى بهـا، أو يؤْتدم بها، وما فيهما من فوائد عظيمة أفاض بها رجال التغذية.

ولكن من علمائنا وأئمتنا الموهوبين من نظر إلى هذا القَسَـم نظرة أخرى، فيها كثير من التَّعمُّق والتوفيق، فلم يجعل التين والزيتون قسمين، بل اعتبرهما قسمًا بشيء واحد، وهو الأرض الَّتي تنبِتهما، أرض فلسطين وما حولها، الَّتي تنبت التين والزيتون المباركيْن، وهي الأرض الَّتي نشأ فيها عيسى ابن مريم، أحد الرسل الكبار من أولي العزم، الَّذين أخذ الله عليهم الميثاق.

قال الإمام ابن كثير هنا: «هذه مَحَالُّ ثلاثـة، بعث الله في كلِّ واحد منها نبيًّا مرسـلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار: فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس الَّتي بعث الله فيها عيسى ابن مريم.

والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الَّذي كلم الله عليه موسى بن عمران.

والثالث: مكَّة، وهو البلد الأمين الَّذي من دخله كان آمنًا، وهو الَّذي أرسل فيه محمدًا ﷺ.

قالوا: وفي آخـر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثـة: جاء الله من طور سيناء ـ يعني الَّذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني: جبل بيت المقدس الَّذي بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران[1] ـ يعني: جبال مكَّة الَّتي أرسـل الله فيها محمدًا. فذكرهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسـب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثمَّ الأشرف منه، ثمَّ بالأشرف منهما.

(١) سفر التثنية (٣٣/٢).

QaradawiBooks.com

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾

وقولـه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، هذا هو المُقْسَـم عليه، وهو أنَّه تعالى خلق الإنسان في أحسـن صورة، وشكل منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها»[1].

وهـو ما أكَّده القرآن في أكثر من سـورة، كما في سـورة التغابن: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الآية: ٣]، وقـال تعالـى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

الجمع بين الحُسن المادي والحُسن الروحي المعنوي:

وهنا سـؤال مهم يجب أن نسـأله هنا، وهو: هل المهم في الفطرة والخلقة الإنسـانيَّة، الَّتي خلق الله عليها الإنسـان: الجانـب المادي أم ما يشمل الجانب المادي والروحي معا، بحيث تتضمَّن اللفظ والمعنى، والظاهر والباطن، والصورة والحقيقة؟

أعتقد أنَّ الإسـلام يهتمُّ بالجانبين معًا، ويحـرص على المعنى قبل اللفظ، وعلى الـروح قبل المادَّة، وعلى الموضوع قبل الشـكل، وعلى الحقيقة قبل الصورة، وعلى الباطن قبل الظاهر.

وفي هذا يُعوِّل القرآن على تقوى القلوب، لا على الظواهر أو الجوارح، قـال تعالـى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(١) تفسير ابن كثير (٤٣٥/٨).

QaradawiBooks.com

ويقول الرسول الكريم في الدلالة على أهمية القلب في صيانة الإنسان، في الحديث الصحيح المُتَّفَق عليه: «**ألا إنَّ في الجسدِ مُضْغة إذا صَلَحت صَلَح الجَسَدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**»[(١)].

ويقول الرسول الكريم ﷺ، فيما رواه مسلم في صحيحه: «**إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسامكم ولا إلى صُوَركم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم**»[(٢)].

ومن هنا نقول: إنَّ الإسلام يهتم بالحسن الظاهر في أمور الحياة، الَّذي يجمل الحياة، ويصوغها صياغة حسنة الظاهر، مقبولة الشكل، ولكنَّه لا يكتفي بذلك، بل يضم إلى ذلك ـ ولا بد ـ الحسن المعنوي، والجمال الأدبي، والحياة الروحيَّة العليا، كما كان ﷺ في نفسه مثلًا أعلى في ذلك، وكما حرص على أن يكون جملة أصحابه وعِلْيَة أصحابِه ممَّن ضربهم الله مثلًا للذين آمنوا، في الجمع بين الحسن المادي والحسن الروحي المعنوي.

وتحت هذا الضوء يُفهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. الخلق للإنسان في أحسن تقويم، وتركيبه أعظم تركيب، وتعديله أقوم تعديل، يشمل الجانب المادي والجانب المعنوي، كما أشرنا.

فما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؟

إنَّ الردَّ إلى أرذل العمر ليس هو التنكيس إلى أسفل سافلين، ثمَّ هذا لا ينال إلَّا القليلين جدًّا من الناس. إنَّما الَّذي يليق بهذه العملية الإلٰهية: هو ردُّ النَّاس إلى غرائزهم، وإلى طبائعهم البشريَّة وحدها، تتحكَّم فيهم

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وتسـوقهم إلى مهاويها الرذيلة، إذا اتَّبع الإنسـان أهواءه وغرائزه الدُّنيا وحدهـا، ولم يركز على الإيمـان بالله ولا بالدار الآخـرة، ولا بالعدالة وحسـن الجزاء، بل يكون كما قال الله تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحـزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديـات: ٦]، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهـف: ٥٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

فإذا تُرك الإنسان لهذه الطبائع والغرائز: من الجهل، والبخل، والظلم، والكفر، والكنود، والعجل، والجدل، تقوده وتسـيره وحدها، بلا تدخل من إيمان يهدي، ومن عقل يصوِّب، ومجتمع يعدل، كان الإنسـان أشبه بذئب مفترس أو بهيمة عمياء، كما قال الشاعر:

أبنـيَّ إنَّ مـن الرجـالِ بَهِيمَـةً ... في صورةِ الرجلِ السميع المُبْصِرِ
فطِـنٌ لـكلِّ مصيبـةٍ فـي مَالِه ... وإذا أصيـبَ بدِينِه لمْ يَشْـعُرِ[1]

فإذا تُرك الإنسان وحده بدون إيمان يسنده ويحميه، سلطت عليه هذه الطبائع والغرائز، وحدها تكتنفه وتحتويه، فلن يكون مصيره إلَّا التردي إلى الجحيم، والسـقوط إلى أرذل الأرذليـن: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ

(١) نسبه بهاء الدين البغدادي إلى أبي الأسود الدؤلي، كما في التذكرة الحمدونية (٧٢/٥)، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ونسب للمرار بْن حمويه بْن منصور الهمذاني في التدوين في أخبار قزويـن (٨٣/٤)، تحقيق عزيز الله العطاردي، نشـر دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، ونسـب لابن بطة العكبري في تاريخ بغداد (٩٠/١٨)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ونسب لغيرهم.

QaradawiBooks.com

عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

غير مرخصة للطباعة

ما الَّذي ينجي الإنسان من هول السقوط والضياع؟

إنَّما الَّذي ينجي الإنسان من هول هذا السقوط والضياع، هو ما استثناه القرآن في السورة الكريمة، حين قال:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

هنا أبرز القرآن دور الإيمان الحق وحده مصدرًا للإنقاذ، وسبيلًا للنجاة، حين يكون الإيمان صادقًا لا مجرد كلمة تقال، أو دعوى تدعى، فهم الَّذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وعملُ الصَّالحات هنا عامٌّ يشمل كلَّ الأعمال الإيمانيَّة: الماديَّة والمعنويَّة، الماليَّة والعاطفيَّة، العباديَّة وغير العباديَّة، وهي تشمل التَّواصي بالحق، والتَّواصي بالصبر، والتَّواصي بالمَرْحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فهؤلاء المؤمنون الصَّالحون المُصلحون لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع بحال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وهنا يبرز القرآن مهمَّة الإيمان الحقيقي في حياة الإنسان، فهو ليس دورًا دخيلًا ولا دورًا ثانويًّا، بل دور أصيل، كما في قوله تعالى، في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

QaradawiBooks.com

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾

الخطاب هنا للإنسان، فهل بعد هذه الدلائل والبيِّنات يجد ابن آدم العاقل مجالا يكذب فيه بالدين؟ والمراد بالدين: ما يحتوي الإيمان بالله رب العباد، ويحتوي ضرورة الجزاء والحساب ثوابًا وعقابًا، لما عمله النَّاس في حياتهم الدُّنيا من خير أو شر.

فالفطرة الإنسانيَّة تقتضي التَّصديق بهذا القانون المغروس في فطرة البشر، أن لهذا الكون ربًّا، وأن لهذا الرب عدلًا، وأنَّ العدل لا يسوي بين الخير والشر، ولا بين المؤمن التقي والفاجر الشقي، وأنَّ التفريق بينهما هو ما تقتضيه الحكمة، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

لا يوجد أيُّ شيء يكذب بالدين، بل كل الحقائق العقليَّة والفعليَّة، والداخليَّة والخارجيَّة كلها تؤيِّد الدين، وتصدِّق بقواعد الدين، أي: يا ابنَ آدم، ما الَّذي يكذبك بعد بالدين؟ أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البدأة، وعرفت أن من قدر على البدأة، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟

أي: أمَّا هو أحكم الحاكمين، الَّذي لا يجور، ولا يظلم أحدًا؟ ومن عدله: أن يقيم القيامة، فينصف المظلوم ممَّن ظلمه في الدنيا.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر ابن كثير هنا حديث أبي هُرَيْـرة مرفوعًا: «**فإذا قرأ أحدكم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾. فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[(١)].

وأخرج الجماعة عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ، يقرأ في سـفر في إحدى الركعتين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه[(٢)].

(١) رواه أحمد (٧٣٩١)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (٨٨٧)، والترمذي في التفسـير (٣٣٤٧)، وقال: هذا حديث إنَّما يروى بهذا الإسـناد عن هـذا الأعرابي، عن أبي هريرة ولا يسمى. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٥٦)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٦٩)، ومسلم في الصلاة (٤٦٤)، عن البراء بن عازب.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق مكيَّة، والآياتُ الخمس الأولى منها: أوَّل ما نزل من القرآن، هذا ما جاءت به الأحاديث الصحاح، وأثبتته السيرة المحمدية، وهو ما عليه معظم العلماء والمُفَسِّرين.

وقال بعضُهم: الفاتحة أوَّل ما نزل. وكأنَّهم نظروا إلى أنَّها أوَّل ما كُتب في المصحف الشريف، وأول ما يقرأه المسلم منه، ولكن من المعلوم المقرر أنَّ الكتابة في المصحف شيء، وتاريخ النزول شيء آخر نعلمه تمامًا، فآخر آية نزلت من القرآن ليست هي «سورة الناس»، بل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وفي حديث عائشة أمِّ المؤمنين الصحيح: أوَّل ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبْح، ثمَّ حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنَّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى جاءه الحق وهو في غار حِراء؛ فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ.

QaradawiBooks.com

قال: «**فأخذني فغطَّني حتَّى بلغ مني الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأْ. قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثالثة، ثمَّ أرسلني فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾»[1].

أمره ﷺ بأن يقرأ قراءة لها هدف ومعنى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

كان محمَّد بن عبد الله المُطَّلبي الهاشمي العربي هو من خُوطب بهذه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، طلب منه القراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، طالبه بها الملك جبريل؛ وهو أمِّي كامل الأميَّة، كما ذكر ذلك القرآن نفسه في مقام آخر: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فردَّ عليه محمَّد كما هو معروف ومنقول في السير: «**ما أنا بقارئ!**». ثلاث مرات، وبعد الثالثة، قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾. فهو يأمره بأن يقرأ قراءةً لها هدف ولها معنى، فهو لا يقرأ كما يقرأ سائر الناس، ولكنَّه يقرأ كلامَ الله تعالى المنزَّل عليه، ويقرأه مستعينًا به سبحانه، ومسميًا به، لا يقرأه باسم أمير ولا مخلوق، كائنًا ما كان، ولكن باسم الله سبحانه، مستحضرًا في نفسه أنَّ «الله» هو «ربه»، أي: مالكه، وسيده، ومربيه، ومرقيه في مدارج الكمال، وشامله بحفظه ورعايته دائمًا.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

QaradawiBooks.com

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فإذا كانت القراءة هي مفتاح العلم، فإنَّ القراءة باسم ربنا هي مفتاح الإيمان. فكثيرٌ من النَّاس يقرؤون ويصلون، ولكن الَّذين يقرؤون باسم الله تعالى يهدون ويصلحون.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ربك الَّذي تقرأ باسمه، وتستعين به، هو الَّذي خلق، هو الخالق وحده، لا أحد غيره، ولا أحد معه، هو الَّذي خلقك، وخلق الَّذي قبلك، والَّذي بعدك، وهو الَّذي خلق السماوات والأرض، وما بينهما، وما شاء ربنا من شيء بعد. ومعنى خلقها: أنَّه أوجدها من عدم، وكوَّنها ونظَّم أمرها على أحسن ترتيب، وأحسن تقويم، بحيث يقول من رآها: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

إفراد الإنسان بالذكر من المخلوقات البشريَّة لشرفه ولأنه المقصود بنزول القرآن:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

وأول ما يبدو من خلق الله جل شأنه، هو خلقه لهذا الإنسان، والمراد بالإنسان هنا: الجنس البشري كله، الَّذي خلقه الله في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وأعطاه العقل ليفكر، وعلمه البيان ليتكلم، وجعله في الأرض خليفة، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وألقى عليه أمانة التكليف.

هذا الإنسان المُسْتَخْلَف، خلقه الله أوَّل ما خلقه من الدم الجامد، الحاصل من منِي الرجل الَّذي علق ببويضة المرأة، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧]. وهذه العلقة ستتطور إلى مضغة، ثمَّ تكون عظامًا، إلخ.

QaradawiBooks.com

تكرار الأمر بالقراءة:

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾

كرَّر عليه الأمر بالقراءة تبيانًا وتأكيدًا، وليضيف إليه معنًى جديدًا، يشدُّ أزْره، ويسند ظهره، وهو أنَّ ربَّك الَّذي تستعين به وتقرأ باسمه هو ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، أي: من صفاته الأولى «الكرم»، بل الأكرميَّة، فإنَّه هو الَّذي يمنح صفة الكرم لمن يشاء من عباده، ويبقى هو أكرم من غيره، بل هو الأكرم على الإطلاق، بل هو أكرم الأكرمين. ومن إكرامه: أنَّه يعطي بغير حساب، ويعطي الجزاء الكثير على العمل القليل، ويعطي من لا يستحق العطاء فضلًا منه، ويغفر الذنب العظيم، ويهب الخير والرحمة لعباده، ويهديهم سواء السبيل، وينزل عليهم الكتب، ويبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

دلائل الأكرميَّة الَّتي وصف الله بها نفسه:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾

ومن دلائل الأكرميَّة الَّتي وصف الله بها نفسه: أنَّه يعلِّم عباده ما يحتاجون إليه، بواسطة الفطرة والمعقول أولًا، ثمَّ بواسطة الأنبياء المرسلة، والكتب المنزلة.

ومن أهم المسائل الَّتي علم بها عباده: «القلم»، هذه الأداة الَّتي تُعين على الكتابة، الَّتي يدون بها العلم، وينقل بها العلم من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة.

ولولا هذا «القلم» ما وجدنا تراث الأمم ـ على سَعَته واختلاف أبوابه منذ عرف الإنسان الكتابة ـ بين أيدينا اليوم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

و«القلم» في عصرنا أصبح يمثِّل عالمًا يشمل كل ما يطبع، فلم يعد مقصورًا على القلم الفردي، الَّذي يمسكه الإنسان بيده، بل أصبح يمثل قلم الفرد والمجتمع والدولة والمؤسَّسات الكبرى، من مطابع، وما تفرع عنها، وما أضيف إليها من أدوات بشـريَّة، يمثلها الإنترنت ونحوها من وسائل الاتصال الشفاهي والكتابي، ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ومن عناية القرآن بـ«القلم»، جاء القسـم مـن الله تعالى به في سورة سمِّيت باسمه، من أوائل ما نزل من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

ومن نتائج وصفه تعالى بالأكرميَّة، والتعليم بالقلم: أنَّه علَّم الإنسان ما لم يعلم، فالإنسـان مخلـوق قابل للتعلم، يكتسـب العلـم وينميه باسـتمرار، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ويقول الشاعر:

تَعَلَّمْ فليـس المرءُ يولـدُ عالِمًا وليس أخو عِلْمٍ كمن هو جَاهِلُ[1]

فالمرءُ الَّـذي يولد من غير علم يكتسـب العلم ممَّـن حوله، ومن الأرض الَّتي يعيش فوقها، ومن السـماء الَّتي يجلس تحتها، ويكتسـب العلم الديني من الأنبياء، الَّذين بعثهم الله لهداية البشر، ومن ورثتهم من العلماء، ومن مصادر علمهم الَّذي ورثوه للبشـر، ويكتسب علوم الدُّنيا

(١) ذكره الجاحظ ولم ينسبه في البيان والتبيين (١٨٦/١)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

من أهلها الَّذين يتقنونها، ومن وسائلها المعلومة، ومآلاتها المعروفة، من الملاحظة، والتجربة، والتأمل.

ومن هنا رأينا في عصرنا تتكاثر المعرفة على الدوام، وتزداد الإنسانيَّة كل يوم من المعارف والمعلومات ما تزداد، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

هذه الآيات الخمس الأولى هي أوَّل ما نزل من القرآن، أمَّا بقية آيات السورة فقد نزلت بعد ذلك، بعد الإعلان عن الدعوة، والاصطدام بالمجتمع القرشي الجاهلي، كما تجليه آيات السورة.

الطغيان شر ما يصيب الإنسان:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجْر، فهي تُوحي بانتقال من جوٍّ إلى جوٍّ، من جوِّ التعليم الإيجابي إلى جوٍّ آخر، يحتاج إلى لغة أخرى، تبدأ بهذا الحرف لتبيِّن صفة الإنسان وجنسه، الَّذي يدع الحياة المتوازنة ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾، ليتكبَّر ويتمرَّد ويتجاوز الحد، وقد أكد ذلك بوجود اللام في خبر ﴿إِنَّ﴾، وهذا الطغيان هو شر ما يصيب الإنسان، ويخرجه عن حقيقة الإنسانيَّة، كما قال تعالى لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]. فأرسله إلى فرعون لهذا السبب، وهو ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: تكبر وتجبر وجاوز الحد.

وقال الله تعالى في وصف الآخرة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۞ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٩]، فبين عاقبة أهل الجحيم، الَّذين حرموا السعادة، وكتبت عليهم الشقاوة، عنوان من طغى، وعلامة طغيانه، أنَّه: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي حياة الأمم ذكر القــرآن أنَّ الطغيان الَّذي يتبعه الفاســدون هو سبب هلاكهم، قال تعالى بعد أن ذكر عادًا وثمود وفرعون: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٤].

ما سبب طغيان الإنسان؟

سببه أنَّه رأى نفسه مستغنيًا عن غيره، وهذا عمًى في الحقيقة؛ فالمرء لا يستطيع الاستغناء عن غيره، كما قال الشاعر:

النَّاسُ للنَّاسِ من بَــدْوٍ وحاضِرَةٍ بَعْضٌ لبَعْضٍ وإِنْ لم يَشْعُروا خَدَمُ[1]

كلُّ إنســان لا يســتطيع أن يعيش وحده، بل لا بــدَّ أن يحتاج إلى آخرين، كما يحتاج إليه آخرون؛ ولهذا ذمَّ الله سبحانه الاستغناء، كما في قولــه تعالى في ســورة الليــل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

الغنى في ذاته ليس شــرًّا، فقد آتى الله بعض خلقــه المال والملك وكثيرًا من النعم، «**ونِعْمَ المالُ الصالحُ للعبدِ الصالح**»[2]، ولكن المذموم حقًّا هو الاستغناء واعتقاد نفســه غنيًّا عن كل ما ســواه؛ لأن لديه مالًا وثروة، فهذه الرؤية هي الَّتي غشته، وطمست على بصيرته.

فليس الغنى هو مصدر الطغيان، بل رؤية الشخص نفسه مستغنيًا عن غيره، هو المصدر.

---

(١) القائل أبو العلاء المعري في اللزوميات (٢/٢٧٧)، تحقيق عبد العزيز الخانجي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٢) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شــرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في مشكلة الفقر (١٩).

QaradawiBooks.com

أُوتي سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ولكنَّه كان يخالط المساكين، ويقول: مسكين خالط مساكين.

ونقل الفخر الرَّازي عن الجرجاني أنَّه قال: ﴿كَلَّآ﴾، هنا بمعنى «حقًّا»؛ لأنَّه ليس قبله ولا بعده شيء تكون «كلا» ردًّا له، قال: وهذا كما قالوه في: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، فإنَّهم زعموا أنَّه بمعنى «إي والقمر»[(١)].

رجوع الأمور كلها لله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

هذا الكلام واقعٌ على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديدًا له، وتحذيرًا من عاقبة الطغيان.

والرُّجْعَى، والمرجع، والرجوع كلها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعًا، ومرجعًا، ورجعى. ومعنى هذا: أنَّه سبحانه ترجع كل أموره إليه، فهو الَّذي يثيبه على ما يفعل من طاعة، ويعاقبه على طغيانه وتمرده: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، كما أنَّه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان بعد الاكتمال، كما قال الشاعر:

إذا تَمَّ شيءٌ بدا نَقْصُه ... تَوَقَّعْ زَوَالًا إذا قيل: تَمَّ[(٢)]

فهو يشيب بعد الشباب، ويضعف بعد القوة، ويفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العزَّة، وهذا هو شأن الدنيا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

---

(١) تفسير الرازي (٢١٩/٣٢، ٢٢٠).

(٢) القائل هو أبو بكر الخوارزمي، كما في تاريخ الطبري (٤٥٠/١١)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ويتيمة الدهر (٢٥٩/٤)، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

تعجيبُ الرسول من نموذج من نماذج الطغيان

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾

الآيات خطابٌ للرسول الكريم. وكلمة: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ في القرآن تعني: «نَبِّئني» أو «أخبرني»، واسم الموصول وصلته هنا تعني أبا جهل الكافر القرشي الطاغية، الَّتي كانت قريش تكنيه أبا الحكم، ولكن تصرُّفه مع رسول الله ﷺ، ومع المسلمين يدلُّ على غاية الجهل والحماقة. قال الشاعر:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ به إلَّا الحماقة أعيتْ من يُداويها[1]

فهو ينهى رسول الله ﷺ، أن يصلي عند الكعبة، وهنا يذكره الله مجردًا عن اسمه وصفته، وما يملك من مال وغنى، وما عنده من خدم وأتباع، فليس لهذا كله قيمة، إنَّما الَّذي يؤخذ عليه هنا: أنَّه ينهى عبدًا إذا صلَّى.

ينهى عبدًا لله تعالى يؤدِّي إليه أمره، ويسبِّح بحمده، ولا يبالي بمن صدَّه عنه من خلقه. إنَّه يصلِّي لربه، لا يؤذي أحدًا من الناس، ولا يأخذ من ماله، ولا يضيق عليه في شيء من حياته، فكيف يجترئ هذا الجهول أن ينهاه؟! وهل ينهى أحد عن مثل هذا الخير؟!

(١) ذكره بلا نسبة: ابن عبد ربِّه في العقد الفريد (٢٢٦/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

QaradawiBooks.com

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾

الخطاب في ظاهره موجَّه إلى النبي ﷺ، يُعجِّبه ممَّا يجري من حوله، فهو يعجب من الكافر الشقي الَّذي ينهى عبدًا من عباد الله إذا صلى، هل هو على هدى عندما منع عبدًا من طاعة ربه؟ أو هو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه؟ لم يكن هذا ولا ذاك.

ويُعجِّبه كذلك أن تصير حال هذا الشقي على الهدى، فيهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ويأمر النَّاس بتقوى الله وطاعته، واتباع نبيه، مكان نهيه عن الصلاة، كيف يكون حاله؟ وكيف ترتفع درجاته؟ وكيف ينقلب ميزانه؟

والتقوى معروفة، وهي تقوى الله ﷻ، باتقاء ما يسخطه ويبعده عن مرضاته.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾

أخبرني عن حال هذا الرجل إن كذَّب ما جاء به النَّبيون، وأُرسل به المرسلون، من عقائد وعبادات وأخلاق، وأعرض عن التقوى والعمل الصالح، أفلا يخشى أن تنزل به مصيبة، أو تقرعه قارعة تحل بداره، ممَّا لا طاقة له باحتماله.

وجواب الشرط في الآيتين محذوف، كما هو بيِّن في التفسير، وهو من الإيجاز المحمود في القرآن، وقد دلَّ على المحذوف قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾

أجهِل هذا الكافر المُتجبِّر الطاغية أنَّ الله يرى ويطَّلع على كل شيء،

QaradawiBooks.com

فلا يفوت جزاؤه عند الله جل شأنه؟ فإن كان مستقيمًا على الهدى، آمرًا بالتقوى، فنعمت عاقبتــه، وإن كذَّب وتولَّى، فيا ويله ثــمَّ يا ويله، فلن يُفلت من عقوبة الله الَّتي يستحقها.

وعبر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ لأنَّ العرب تزيــد الباء في المفعول لتقوية ربط الفعــل به بقــوة، ومثل ذلك قولــه تعالــى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريــم: ٢٥]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ [الحج: ١٥]، ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِ﴾ [الحج: ٢٥].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تهديد ووعيد

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾

﴿كَلَّا﴾، هنا للـردع والزَّجْر، وهو توجيه جديد للطاغية المستكبر، ووعيد له لئلا يستمر في غروره وطغيانه وجهله، فهو ﷻ يقسم هنا: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، كأنَّه يقول: لئن لم ينتهِ هذا المستكبر عن هذا الطغيان، ولئن لم يكف عن نهي المصلي عن صلاته، لنأخـذن بناصيته، والأخذ بالناصية مَثَلٌ في القهر والإذلال والتَّعذيب والنكال.

و﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ تنطق في حال الوصل: «لنسفعنْ» بنون التوكيد، أمَّا عند الوقوف عليها فإنَّها تنطق ألفًا كما هي، وهو ما نصَّ عليه النحاة في نون التوكيد الخفيفة[1] و«السفع»: القبض على الشيء وجذْبه بشدَّة. و«الناصية»: شعر مُقَدَّم الرأس، وتطلق أيضًا على الجبهة.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

وصفها بعد إعادتها بوصفين مذمومين قبيحين: الكذب والخطيئة، ونسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية مع أنَّ الموصوف بهما هو صاحبهما، لأنَّ الناصية هي مظهر الغرور والتَّعزُّز والكبرياء عند القوم، كما هو معروف. ولإخواننا من رجال الإعجاز العلمي كلام جيِّد هاهنا.

---

(١) قال ابن مالك في ألفيته:

وَأَبْدِلَنْهَا بَعْدَ فَتْحٍ أَلِفَا ... وَقْفًا كَمَا تَقُولُ فِي قِفَنْ: قِفَا

QaradawiBooks.com

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾

هذا الكافر المستكبر بما عنده من نادٍ وأتباع كثيرين، يأتمرون بأمره، كما روي أنَّه قال للنبيِّ ﷺ: أتهددني، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا[1]؟!

والنادي: المجلس الَّذي يجتمع فيه القـوم، ويطلق أيضًا على القوم أنفسهم.

هنا يقول الله له: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾، هذا النادي الَّذي يعتزُّ به وبكثرته وبقوَّته، فليدعه، وليحضـر كل رجاله وأتباعهم، وليحشـروا معهم من يشـاؤون، فنحن: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾، الزبانية لغة: الشُّـرَط وأعوان الولاة. قيل: إنَّه جمعٌ لا واحـد له من لفظه، وقال آخرون: لـه واحد، قيل: هو «زِبْنِيّ»، كـ«إنسي»، أو «زِبْنِيَة» كـ«عِفْرِيَة»، أو واحده «زابن»، مأخوذ من الزَّبْن ـ بفتح فسكون ـ وهو الدفع بشـدَّة. ويطلقه العرب على كلِّ قويٍّ شديد البطش، والمراد بهم هنا الملائكة المشـار إليهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ...﴾ [التحريم: ٦].

على كل حال، عندما يدعو ناديَه، ويدعو الله سبحانه الزبانية، سيعلم من الغالب ومن المغلوب، ولا شك أنَّه ﷻ الغالب القادر.

ثبات الرسـول الكريـم في مخالفـة المكذب الطاغي والاسـتمرار في القرب من الله:

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾

أعاد ﴿ كَلَّا ﴾، مرَّة أخرى، زيادة في الزجْـر، وتأكيدًا وتبيينًا لموقف

(١) رواه أحمد (٣٠٤٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي (٣٣٤٩)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي في الكبرى (١١٦٢٠)، كلاهما في التفسير، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

الرسول الكريم في الوقوف مع الحق، والثبات على الخير، فلا ينبغي أن يصغي لدعوة الطَّاغي إلى النَّهي عن الصلاة، وليستمر في سجوده لربِّه والاقتراب منه، وأقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد[1].

ومن المعروف أنَّ هذه السورة نزلت قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ولكن ثبت أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه كانت لهم صلاة قبل أن تفرض الصلاة، فهذه الَّتي جاءت هذه السورة وأمثالها فيها.

والأصل أنَّ السورة بحسب ألفاظها عامَّة، تخاطب المكلَّفين في كل وقت وزمن، كما ترى، والخطاب فيها موجَّه إلى كل من يخاطب، وإن كان النبي الكريم هو المخاطَب الأول.

(١) إشارة إلى حديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**». رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾

هذه السُّورة مكيَّة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾

الجملة الاسميَّة أوكد من الجملة الفعليَّة، ثمَّ هي مؤكَّدة بالحرف «إنَّ»، وجاءت بصيغة الجمع للدلالة على تعظيم المنزل، والضمير فيها «الهاء» راجع إلى القرآن الكريم، رغم أنَّه لم يسبق ذكره، ولكنَّه حاضر في مشاعر الأمة المنزَّل عليها القرآن، والمستمعين إليه، فهو المذكور دائمًا وإن غاب.

وقد أنزله سبحانه في ليلةٍ ليست كسائر الليالي، بل هي ليلة القدر، والقدر: الشرف والذكر، فهي ليلةٌ ذات ذِكر وشرف، وقدْر ومقام، وقد ذكرها الله تعالى بمثل ذلك في سورة الدخان حين قال: ﴿حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٥].

أجمع المُفسِّرون على أنَّ المراد: إنَّا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، لكنَّه

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تعالى تـــرك التَّصريح بذكر القـــرآن، واكتفى بضميـــر الغائب؛ لأن هذا التركيب يدلُّ على عِظم القرآن من ثلاثة أوجه:

أولها: أنَّه أسند إنزاله إليه سبحانه، وجعله مختصًّا به دون غيره.

ثانيها: أنَّـــه جاء بضميره، دون اســـمه الظاهر، شـــهادة لـــه بالنباهة والاستغناء عن التصريح.

وثالثها: لتعظيم الوقت الَّذي أُنزل فيه.

وهنا قد يسأل ســـائل: ما معنى إنزال القرآن في ليلة القدر، مع أنا قد علمنا أنَّه أنزل منجمًا؟

ردَّ بعضُ العلماء على ذلك بأنَّ المراد بالإنزال «الابتداء»، ومعلوم أنَّ الابتداء كان في شهر رمضان، ولهذا جاء عن بعضهم تقدير ليلة القدر في السابع عشر من رمضان.

الثاني: ما روي عن ابن عبَّاس أنَّه قال: أنزِل إلى السماء الدُّنيا جملة ليلة القدر، ثمَّ نزل إلى الأرض نجومًا[١].

معنى القدر ولم سمِّيت تلك الليلة بليلة القدر؟

و«القَدْر» مصدر قَـــدَرَ يَقْدِرُ ويَقْدُر، و«القَدْر والقَـــدَر» واحد، إلَّا أنَّه بالتسكين مصدر، وبالفتح اسم.

قال الواحدي: القَدْر في اللُّغة بمعنى التَّقدير، وهو جَعْلُ الشيء على مساواة غيره، من غير زيادة ولا نقصان[٢].

(١) رواه النســـائي في الكبرى في التفســـير (١١٣٠٨)، والحاكم في التفســـير (٢٢٢/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) التفسير البسيط (١٩٠/٢٤).

QaradawiBooks.com

وإنَّما سُمِّيت بذلك لما قاله الزهري: من أنَّها ليلة العظمة والشرف. بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وهذا يحتمل وجهين:

أن يرجع ذلك إلى الفاعل، أي: من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف.

وثانيها: إلى الفعل قدر زائد، وشرف زائد.

وعن أبي بكر الورَّاق: سمِّيت ليلة القدر؛ لأنَّه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان ملك ذي قدر، إلى أمَّة لها قدر[1].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾

يخاطب الله تعالى رسوله بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، أي: وما أعلمك حقيقة ليلة القدر وعظمتها عند الله؟ تفخيم لأمر هذه الليلة، ومقدارها وقيمتها عند الله، فكلمة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، لا تأتي إلَّا في الأشياء العظيمة: المرجوَّة، أو المخوفة. وهي هنا مَرْجوَّة؛ لما يعظم فيها من الأجور والطاعات، وهناك أشياء مخوفة، مثل: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣].

فضائل هذه الليلة العظيمة:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

هنا يفصِّل الله سبحانه، بعض ما أخفاه من فضائل هذه الليلة العظيمة، الَّتي أنزل فيها القرآن؛ وهي أنَّ العبادة والطاعة وفعل الخير فيها أفضل من العبادة والطاعة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

(١) تفسير الرازي (٢٢٩/٣٢).

QaradawiBooks.com

فإذا كانت بعض الأمم تطول أعمارها أكثر من هذه الأمة، فإن ليلة واحدة أعطيت لهم يستطيعون أن يحصلوا فيها أكثر من كل ما حصلته الأمم في أيامها العادية المتطاولة.

وإذا كان الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى يقول:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ[1]

فاعتبر الثمانين سنة عمرًا مديدًا، فإنَّ ليلة القدر وحدها تمنح الإنسان عمرًا خلاصته ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، ليس فيها ليالي الصبا، الَّتي لا تكليف فيها.

الاختلاف في تعيين هذه الليلة:

ولكن المسلمين اختلفوا في تحديد هذه الليلة إلى أقوال، وصل بها الحافظ ابن حجر إلى تسعة وثلاثين (٣٩) قولًا، ولكن جمهور المسلمين على أنَّها في العشر الأواخر من رمضان، وفي ليالي الأوتار منه، على ما صحَّت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ[2]. وإذا كان الشهر يختلف بدءًا وختامًا ما بين بلدة وأخرى، فليس لدينا يقين بأيِّ ليلة تكون، والاحتياط إحياؤها كلها.

---

(١) في معلقته، انظر ديوانه صـ ١١٠، شرح علي حسن فاعور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

(٢) منها: «**إنِّي أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها ـ أو نسيتها ـ فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر...**». متَّفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٦)، ومسلم في الصيام (١١٦٧)، عن أبي سعيد الخدري.

وحديث: «**تحروا ليلة القدر في الوتر، من العشر الأواخر من رمضان**». متَّفق عليه: رواه البخاري في فضلة ليلة القدر (٢٠١٧)، ومسلم في الصيام (١١٦٩)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**التمسوها في العشر الأواخر**». وكان الرسول الأكرم يُحيي العشر الأواخر كلَّها من رمضان، ويوقظ نساءَه ليحيينها معه، ويقول: «**من قام ليلة القَدْر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»(١)، «**التمسوها في العشر الأواخر، فإنْ ضَعُف أحدُكم أو عَجَز، فلا يُغْلَبَنَّ على السبع البواقي**»(٢)، «**التمسوها في العشر الأواخر، في تاسعةٍ تبقى، أو سابعةٍ تبقى، أو خامسةٍ تبقى**»(٣).

والسِّرُّ في عدم تعيين ليلة القَدْر من شهر رمضان، ليكون الشهر كلُّه لا سيمَّا العشر الأخيرة منه ظرفًا لطلبها، ليذكر المؤمنون ويشكروا نعمة الله عليهم في إنزال القرآن.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾

من فضائل هذه الليلة الرمضانيَّة المباركة: أنَّها تَتَنزَّل فيها الملائكة الأطهار، وتهبط افواجًا من السماء إلى الأرض، لتهنئ العباد، وتشاركهم فرحتهم الموسمية.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، ذلكم الملك الكبير من الملائكة الأبرار في تلك الليلة، لعلَّه جبريل الَّذي قال الله فيه في سورة الشُّعراء، حين حدثنا عن نزول القرآن: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]. ونزولهم من السماء إلى الأرض مرتب، كما قال

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الصيام (١١٦٥)، وأحمد (٥٤٨٥)، عن ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في فضلة ليلة القدر (٢٠٢١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، فكل خطوة من الخطوات، وكل مرحلة من المراحل، وكل شكل من الأشكال، مأذون به من الله ﷻ.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: تتنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر مقدر فيه مصلحة للخلائق، وخير لبني الإنسان.

وإنَّما عبَّر بالمضارع ﴿تَنَزَّلُ﴾ لحكاية الحال واستحضارها في الذهن لعظمتها. و«مِنْ» في قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ سببية، يعني أن تنزُّل الملائكة سببه تلك الأمور. وقد تكون «من» للتعليل، أي: لأجل الأمور المذكورة.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾

هذه الليلة ليلةُ سلام من كلِّ شر، ومن كلِّ آفة، ومن كل خوف، من أولها حتَّى وقت طلوع الفجر؛ لدعاء الملائكة وتحياتهم. فطاعة الله في هذه الليلة سبب للسلامة والنجاة من كل مخوف في الدُّنيا والآخرة، ويستمر نزول الملائكة على العباد فوجًا بعد فوج إلى طلوع فجرها.

يقال: طَلَع الفجر يطلُع طلوعًا ومطلعًا، ووزن مطلع: مفْعَل، اسم زمان من مصدر طلع. و﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: طلوع الفجر، وهو انكشاف ظلمة الليل عن نور الصبح.

فما أكرمها من ليلة، وما أعظم حظَّ من وفِّق إليها، فقام ليلها كلَّه، حتَّى غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة البيِّنة

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مدنيَّة على القول الصحيح.

مُحمَّد رسول الله: البينة الواضحة والحجة الظاهرة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾

تَحدَّثت السورة عن صنفين ممَّن حكم عليهم بالكفر، وهم الَّذين كفروا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، والآخرون هم المشركون من عَبَدة الأوثان والنيران من العرب.

قالت الآية عن هؤلاء وهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: إنَّهم ليسوا بمنفكين أو منتهين عن ذلك حتَّى يتبين لهم الحق: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، والبينة هنا هي رسول الله ﷺ، فهو البيِّنة الواضحة، والحجَّة الظاهرة.

كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

وكفر هؤلاء من أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى كان واضحًا مكشوفًا، فاليهود أدخلوا الشرك على التَّنزيه الإيماني الأصيل، والنَّصارى

QaradawiBooks.com

أدخلوا التثليث على التوحيد الأصيل، وأدخل كلٌّ منهما البنوَّة لله زُورًا على الحقيقة العليا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

والقرآن يبيِّن للجميع أن هؤلاء وهؤلاء لن ينفكُّوا عمَّا قالوه، ولن يخرجوا منه، حتَّى تأتيَهم البيِّنة بما في القرآن الَّذي يجيئهم به محمَّد، ويقرؤه عليهم، ويتحدَّاهم به، ويعجزون عن مواجهة التَّحدي.

فالبَيِّنة المذكورة في الآية فُسِّرَتْ في الآية التالية لها بأنَّها: «رسول الله»، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، فرسول الله الَّذي يتلو صحفًا مطهَّرة هو محمَّد ﷺ، وإنَّما يتلو هذه الصحف بتلاوة القرآن الكريم، فيمكن أن يُقال بسبب ذلك: أنَّ البيِّنة هي: «القرآن»، باعتبار أنَّ الرسول يتلوه ويبيِّنه.

ولكن الأوْلى بالسياق أن نأخذ بظاهر ما جاء به، وهو قد جاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهذا في غاية البيان والوضوح.

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾

وصف الرسول الآتي من الله تعالى بأنَّه يتلو ويرتل بالوحي عن ظهر قلب صحفًا مطهرة، وهي الصحف الَّتي يتلقَّاها، من القرآن، فيحفظها ولا ينساها، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وهي صُحفٌ مُطهَّرة، منزَّهة خالية عن كل باطل فلا يُذكر فيها باطل بوجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٤].

QaradawiBooks.com

وفي هذا الوصف ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ تعريضٌ بما عند أهل الكتاب من الخلط في كتبهم الَّتي بأيديهم، وباحتياجهم الشديد إلى هذا الدين، كالمشركين.

ومعنى أنَّها مُطهَّرة أيضًا: أنَّها مطهَّرة عن الذكـــر القبيح، فإن القرآن يذكر بأحسن الذكر، ويثنى عليه بأحسن الثناء.

ومن معاني الطَّهارة الَّتي يتميَّز بهـــا القرآن، قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩].

وفي هذه الآية إعجاز من القرآن بإخبار عن أمر غيبيّ، وهو كتابة هذا القرآن فـــي الصحـــف، إذ أنَّه لـــم ينزل صحفًـــا، بل وحيًـــا على قلب رسول الله، وسيبقى محفوظًا مطهَّرًا من التلاعب والتغيير.

﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾

ثمَّ وصف هذه الصُّحف المطهَّرة بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ أي: ذات قيمة لما فيها من الحق، أو مستقيمة ناطقة بالحق والصواب. وهي ما في القرآن من الأحكام والبيانات والهدايات، وكذلك ما اشـــتمل عليه ممَّا صحَّ من كتـــب الأوَّليـــن، كصُحف إبراهيـــم وكتاب موســـى، وكتاب عيسى عليهم السلام، فإنَّها موجودة في ضمنه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تفرُّق أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾

ومن عجب أمر هؤلاء الكفَرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن لحق بهم: أنَّ تفرقهم وتشـرذمهم إنَّما وقع وتحقَّـق بعد أن أتتْهم البيِّنة، وقامت عليهم الحجَّة، وطاردتهم الأدلَّة هنا وهناك.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

وما أُمر هؤلاء الَّذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم إلَّا ليعبدوا الله مخلصين لـه العبادة والطاعـة، ﴿حُنَفَآءَ﴾: مائلين عن جميـع العقائد الزائفة، أي أنَّ الله تعالى أمرهم بالعبادة الخالصة لله، لا العبادة الَّتي فيها شـرك مع الله، ولا العبادة الَّتي فيها رياء للنـاس؛ لأنَّ المطلوب عمل خالص لوجـه الله، لا يراد بـه أحد سـواه، مائلين عن منهج الشـرك والانحراف عن سنن الإخلاص.

وهذا كقوله تعالى في سـورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: متحنفين عن الشـرك إلى التوحيد، لأنَّ الحنف هو الميل، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة مستوية لا يشـــوبها أي لون من الشرك صغر أو كبر، وهي أشرف عبادات البدن.

﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يؤدوا زكاة أموالهم لوجْـــه الله تعالى، وهي العبادة الماليَّة الَّتي تحسن إلى الفقراء والمحتاجين.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، وذلك الَّذي ذكِر من المأمور به هو دين الرسالة القيمة، الَّتي أنزل الله بها كتبه، وبعث بها رسله، وقامت عليها بينته.

وسواء فســـرنا ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ بالملَّة، أم الأمَّة، فالمعنى: ذلك دين الملَّة القائمة العادلة، أو دين الأمة المستقيمة المعتدلة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جزاء الفريقين: الكافرين والمؤمنين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

يُخبر تعالى عن مآل الفجَّار من أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة؛ أنَّهم يوم القيامة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدَّركات ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة الَّتي برأها الله وذرأها.

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ـ الَّذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصَّالحات بأبدانهم ـ بأنَّهم ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أفضل البشريَّة وأكثرهم خيريَّة؛ لأنَّهم حقَّقوا معنى الإنسانيَّة الَّتي شرَّفهم الله بها، بسبب إيمانهم الصحيح الصادق، وأعمالهم الصالحة المرضية، ولأنهم دعوا غيرهم بحسْن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الحق والخير. فمن يكون أفضل منهم؟

وقد استدلَّ بهذه الآية أبو هُرَيْرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ثم قال تعالى مُبيِّنًا ثوابهم ومكافأتهم على ما قدَّموا من الإيمان والعمل الصَّالح: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة دائمة ﴿تَجْرِي﴾ أي: تسيل وتتدفَّق بسرعة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من

QaradawiBooks.com

تحت قصورها وأشـجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء والخمر والعسـل واللبن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ علـى امتـداد الزمـن، أي: بلا انفصـال ولا انقضاء ولا فراغ.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قَبِـلَ أعمالهم وأكرمهـم بفضله ورحمته، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فرحوا واطمأنوا وسـعدوا فيما منحهم من الفضل العميم. ومقام رضاه عنهم أعلى ممَّا أوتوه من النَّعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، أي: هذا الجزاء العظيم والرضا الكبير حاصلٌ لمن خشي الله واتقاه حق تقْواه، وعبده كأنَّه يراه، وعلم أنَّه إن لم يره فإنَّه يراه.

حتى لا يظن أنَّ هذا الثواب العظيم يناله بمجرد الإيمان الوراثي دون خشيةٍ من الله توجب تعظيم الله وشـدَّة حبه، فهذا الجزاء لا يناله إلَّا من ملأت خشية الله قلبه، فلا يصلي إلَّا خاشعًا، ولا ينفق إلَّا لوجه الله، وإذا وقع في معصية سارع إلى التوبة منها.

روى الإمـام أحمد، عن أبـي هُرَيْرة قال: قال رسـول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير البريَّة؟**». قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: «**رجل آخِذ بعِنَان فرسه في سـبيل الله، كلما كانت هَيْعَة اسـتوى عليه. ألا أخبركم بخير البريَّة؟**». قالوا: بلى، يا رسـولَ الله. قال: «**رجل فـي ثُلَّة من غنمه، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشرِّ البريَّة؟**» قالوا: بلى. قال: «**الذي يسأل بالله ولا يُعطي به**»[1].

(١) رواه أحمد (٩١٤٢)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح.

QaradawiBooks.com

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

السورة مكِّيَّة على القول الصحيح، وتسمى سورة الزلزلة.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾

هذه السورة من السور الَّتي تبدأ بكلمة «إذا»، كما رأينا ذلك في سورة التَّكوير والانفطار والانشقاق، وقبل ذلك في سورة الواقعة والمنافقون، وكما سيأتي بعد ذلك في سورة النصر.

ومن المعلوم في علم النحو أنَّ «إنْ» تستعمل في المحتمل والمشكوك في وقوعه، أمَّا «إذا» فلا تُسْتَعمل إلَّا فيما يَتَحقَّق وقوعه. ولذلك استعملها هنا ولم يستعمل «إن».

كان النَّاس يسألون الرسول ﷺ: متى الساعة؟ كما قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولكن لا مانع أن ينبئهم بعض علاماتها الَّتي تسبق وقوعها، وتُمهِّد لها، فكأنَّه تعالى قال: لا سبيل إلى تعيين وقتها، ولكن أعيِّنه بحسب علاماته وأماراته.

والزِّلزال، بكسر الزاي: المصدر، وبالفتح: الاسم. مثل الوِسْواس ـ بكسر الواو ـ: المصدر. وبالفتح: الاسم، فهو اسم للشيطان، الَّذي يوسوس اليك.

ومعنى ﴿زُلْزِلَتِ﴾: حُرِّكت حركة شديدة، يعبَّر عنها أحيانًا باسم «الرَّجِّ»، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤]، وقد قال تعالى في وصف هذه الزلزلة، في أوَّل سورة الحجِّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وما المراد من هذه الزلزلة؟

«قال مجاهد: المراد من هذه الزلزلة: النفخة الأولى، كقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] أي: تُزلزل في النفخة الأولى، ثمَّ تزلزل ثانيًا فتُخرج موتاها، وهي الأثقال.

وقال آخرون: هذه الزلزلة هي الثانية، بدليل أنَّه تعالى جعل من لوازمها: أنَّها تخرج الأرض أثقالها، وذلك إنَّما يكون في الزلزلة الثانية.

ومعنى ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أي: القدر اللائق بها في الحكمة، كقول: أكرم التقي إكرامه وأهان الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة.

QaradawiBooks.com

وكذلك يمكن أن يراد ﴿زِلْزَالَهَا﴾ كله، وجميع ما هو ممكن منه. والمعنى: أنَّه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل»[1].

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

أثقالها: جمع ثِقْل ـ بكسر فسكون ـ وهو ما تنوءُ الأرض به. مثل: متاع البيت وغيره. قال تعالى في الأنعام: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [النحل: ٧]، جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالًا لها. قالوا: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، ولهذا سمِّي الجنُّ والإنس بالثَّقلين؛ لأنَّ الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها، ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها.

وقيل: المرادُ من هذه الزلزلة: الزلزلة الأولى يقول: أخرجت الأرض أثقالها، يعني: الكنوز. فيمتلئ ظهر الأرض ذهبًا، ولا أحد يلتفت إليه، وهو الَّذي كانوا يتقاتلون من أجل شيءٍ منه.

ومن قال: المرادُ من هذه الزلزلة الثانية، وهي بعد القيامة. قال: تخرج الأثقال، يعني الموتى من بطنها أحياء، كالأم تلده حيًّا. وكما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وهناك معنى آخر لإخراج الأثقال: أي: أنَّ الأرض تكشف أسرارها ومُخبَّآتها، فيومئذ لا يعرف أحد كيف يواري سوءاته، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

(١) تفسير الرازي (٢٥٤/٣٢).

QaradawiBooks.com

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

وهنا يقول الإنسان لِمَا دهاه من المفاجأة: ما لهذه الأرض، تزلزل هذه الزلزلة الشديدة، وتتحرك هذه الحركة الهائلة، وتلفظ ما في بطنها!! وذلك إمَّا عند النفخة الأولى، حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن، أو عند النفخة الثانية، حين تلفظ ما فيها من الأموات.

وهذا شأنُ الإنسان عامَّة، فهو كما وصفه القرآن الكريم كنود ظلوم جهول، من شأنه الغفلة والجهالة، يقول: ما لها! وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب، لما يرى من العجائب الَّتي لم تسمع بها الآذان، ولا نطق بها لسان. ولهذا قال الحسن: إنَّه للكافر والفاجر معًا[1].

وإنَّما قال الإنسان: ما لها؟ على غير المواجهة؛ لأنَّه يعاتب بهذا الكلام نفسه، كأنَّه يقول: يا نفس، ما للأرض تفعل ذلك؟ أنت السبب، يا نفس، فلولا معاصيك ومظالمك، ما صارت الأرض كذلك!

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤، ٥].

وروى مسلم في صحيحه، عن أبي هُرَيْرة مرفوعا: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي. ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي. ثمَّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا**»[2].

(١) انظر: تفسير الرازي (٣٢/٢٥٥).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الَّذي لا محيد لها عنه، ثمَّ ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر النَّاس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهَّار»[1].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾

في هذا اليوم تُحَدِّثُ الأرضُ الخلقَ بأخبارها، وتخبرهم بما عندها، وما تضمره من أسرارها، فيومئذ يتبيَّن لكل أحد جزاء عمله، فكأن الأرض حدثته بذلك، كقولك: الدار تحدثنا بأنَّها كانت مسكونة. والمقصود: كأن الأرض تشكو من الطغاة والعصاة عليها، وتشكر من أطاع الله وأدى حقَّه على ظهرها. فتقول: إنَّ فلانًا أقام الصلاة وأدَّى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وفلانًا فرط في ذلك وسرق وزنى وجار وطغى، حتَّى يود الكافر أن يُساق إلى النَّار.

وقد ورد أنَّ سيِّدنا عليًّا رضي الله عنه: إذا فرَّغ بيت المال بأدائه الحقوق، صلَّى فيه ركعتين ويقول: لتشهدنَّ أنِّي ملأتُك بحقٍّ، وفرَّغتك بحقٍّ[2].

وقد يقال: إنَّ لفظ التَّحديث يفيد الاستئناس، وهناك لا استئناس، فما وجه هذا اللفظ؟

والجواب: أنَّ الأرض كأنَّها تبثُّ شكواها، إلى أولياء الله وملائكته والمؤمنين به سبحانه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٠/٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٥٥/٣٢).

QaradawiBooks.com

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾

تُحَدِّثُهم الأرض بأنَّ ربَّك الَّذي يُرَبِّيك ويُرَقِّيك، وهو الله تبارك وتعالى، أوحى إليها بما أوحى، والوحي والإيحاء هو الإعلام بخفاء. وأنشدوا للعجاج:

أوحى لها القرار فاستقرَّت[1]

وإنَّما أوحى لها بما أوحى، لتشتفي الأرض من العصاة والطغاة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾

الصدور ضد الورود. فالوارد: الجائي. والصادر: المنصرف. وأشتاتًا: متفرِّقين.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، أي: ليريَهم الله أعمالَهم، أي: ليشاهدوها كما عملوها، فتكون حُجَّة بالغة عليهم، ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وما قاله بعض المُفَسِّرين أنَّهم يرون جزاء الأعمال، أو صحائف الأعمال، أو الجنَّة والنار، وإنَّما أوقع اسم العمل على الجزاء، لأنَّه جزاء وفاق، فكأنَّه نفس العمل، بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة.

وهذا كله إخراج للكلام عن حقيقته، وعن ظاهره، وبدون داعٍ إلى ذلك، فالأوْلى إبقاء الكلام على الحقيقة لا على المجاز، إذ لا دليل على مشروعيَّة تحويل الكلام من الحقيقة إلى المجاز. وسنعود إلى هذا الموضوع في سورة القارعة.

---

(١) ديوان العجاج برواية الأصمعي وشرحه صـ ٢٦١، تحقيق د. عِزة حسن، نشر دار الشرق العربي، بيروت، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

مثقال ذرَّة من خير: أدنى ما يقاس من الخير، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فإن كان مثقال الذرة، أو مثقال حبة الخردل، سيأتي بها الله، ويحاسب عليها، ولا يضيع عنده شيء. وقال ابن عبَّاس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثمَّ رفعتها، فكل واحد ممَّا لزق بها من التراب مثقال ذرة، فليس من عبد عمل خيرًا أو شرًّا، أو قليلًا أو كثيرًا، إلَّا أراه الله إيَّاه[1].

شرط قبول العمل: أن يكون مُؤسَّسًا على الإيمان:

وشرط قبول العمل عند الله: أن يكون مؤسَّسًا على الإيمان: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

يجب أن يتحقَّق شرط الإيمان: الإيمان بالله خالق هذا الكون، أمَّا إذا لم يكن معترفًا به فكيف يقبله منه أو كيف يكافئه؟ كيف تطلب من ملِكٍ أن يكافئك وأنت غير معترف بملكه. فالذي يكفر بالله لا ينتظر منه أن يكافئه.

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٥٦/٣٢).

QaradawiBooks.com

نتيجة أعمال الخير من الكافر:

هل معنى هذا أنَّه يضيع عمله الخير تمامًا؟ لا يكافأ عليه إطلاقًا؟!

أمَّا في الآخرة فلا أثر لعمله هذا في دخول الجنة.

سألت السيِّدة عائشة رسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، ابن جدْعان كان في الجاهليَّة يصِل الرحِم، ويُطْعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعُه؛ إنَّه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يـومَ الدِّين**»[1]. لم يذكر ربَّه في يوم من الأيام، عمله غير مؤسَّس على الإيمان. لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

يقول بعض الناس: الَّذي اخترع الكهرباء هل سيدخل النار! أو الَّذي اخترع الإنترنت هل سيدخل النار؟

والجواب: هل عملها لله ﷻ أم لأمر دنيوي؟!

الإنترنت أصله ـ كما قرأت ـ عند وزارة الدفاع الأمريكية، فاكتشفت هذه الوسيلة من الاتصالات، وكان خاصًّا بالجيش الأمريكي، ووزارة الدفاع، ثمَّ بدأت تعمِّمه على النَّاس شيئًا فشيئًا، لتحقيق أغراض استخباراتيَّة، ولم تكن تريد من وراء ذلك خدمة البشريَّة.

لا بد لقبول العمل الصالح: أن يكون القصد هو وجْه الله ﷻ. وليس معنى هذا أنَّه لا يكافأ على عمل الخير إطلاقًا.

مكافأة الكفَّار على عمل الخير:

يكافئ الله تعالى الكافر على عمل الخير في صورتين:

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤)، وأحمد (٢٤٦٢١).

QaradawiBooks.com

في الدُّنيا ربَّما وسَّع له في الرزق، وأعطاه مجْدًا وجاهًا وأولادًا، وبارك له في صحته. فهذه من المكافآت الدنيويَّة مقابل أعماله الخيِّرة.

وفي الآخرة لا يساويه بالظَّلَمَة المُعذَّبين.

هناك كَفَرةٌ فقط، وهناك كَفَرة وظلمة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ [النساء: ١٦٨]، هناك كافر فقط، وهناك كافر ظالم، ليس مجرَّد كافر، فعل البلايا والمصائب بالبشر، وقتل العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين من الناس، فعلوا بشعوبهم ما فعلوا، هؤلاء لا يكونون مثل غيرهم من الكفار.

الله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، ويقول الله سبحانه عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، فهناك عذابٌ شديد، وهناك أشد العذاب.

الكافر الَّذي فعل أفعالًا في ميزان الخير تنفع النَّاس يكافئه الله بأنَّه يخفِّف عنه من العذاب يوم القيامة، هذا من فضل الله تبارك وتعالى، ويسير مع القانون الَّذي يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهذا الخير الَّذي فعله الكافر رأى نتيجته في الدنيا، ورأى نتيجته بوجهٍ ما في الآخرة.

ما جاء في السورة من الحديث:

روى الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسولَ الله. قال له: «**اقرأ ثلاثًا من ذات الر**».

QaradawiBooks.com

فقال له الرجل: كَبِرَ سـنِّي، واشتدَّ قلبي، وغَلُظ لسـاني. قال: «**فاقرأْ من ذات حم**». فقال مثل مقالته الأولى. فقال: «**اقرأْ ثلاثًا من المسـبِّحات**»، فقال مثل مقالتـه. فقال الرجل: ولكن أقرئني ـ يا رسـولَ الله ـ سـورةً جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. حتَّى إذا فرغ منها، قال الرجل: والَّـذي بعثـك بالحقِّ، لا أزيـد عليهـا أبدًا. ثـمَّ أدبر الرجـل، فقال رسـول الله ﷺ: «**أفلح الرُّوَيْجِل! أفلح الرُّوَيْجِل!**». ثمَّ قـال: «**عَلَيَّ به**». فجاءه، فقال له: «**أُمِرْتُ بيوم الأضحى، جعله الله عيدًا لهذه الأُمَّة**». فقال له الرجل: أرأيتَ إن لـم أجد إلَّا مَنِيحَة ابنـي، فأُضَحِّي بها؟ قال: «**لا، ولكنَّك تأخذُ من شعرك، وتُقَلِّم أظفارَك، وتقصُّ شاربَك، وتحلق عانتك، فذاك تمام أُضْحِيَّتك عند الله** ﷻ»[1].

(١) رواه أحمد (٦٥٧٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (١٣٩٩)، الحاكم في التفسير (٥٣٢/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، وقال الذهبي: بل صحيح. والمنيحة: هي الناقة أو الشـاة ذات الدر تعار للبنها ثم ترد إلى أهلها. غريب الحديث للخطابي (٨٩/١)، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، نشر دار الفكر، دمشق١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكِّيَّة على القول الصحيح.

القسم بالخيل وأوصافها على جُحود الإنسان وشدَّة حبِّه للمال

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾

هذه السورة المكيَّة، تتضمَّن قسمًا ومُقْسَمًا به، ومُقْسَمًا عليه، وتعقيبًا على هذا القسم.

وقد اعتاد القرآن الكريم، أن يقسم لنا بهذه الأشياء، الَّتي يعبِّر عنها بجمع الألف والتاء، أو ما يسمُّونه جمع المؤنث السالم، وقد تكرَّر كثيرًا في هذا القرآن، وفي أوائل السور خاصَّة، مثل سورة: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾، وسورة: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، وسورة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، وسورة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، ثمَّ سورة: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾، وكلها سور مكِّيَّة عند المحقِّقين.

وهذا القسم، يشير إلى معنى «القوَّة» الَّتي يهتمُّ بها القرآن، كما يظهر في مقصد هذه السورة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾

العاديات: جمع عادية، من العَدْو، وهو الجَرْي والوثْب، الَّتي تقوم به الخيل الغازية؛ الَّتي تنزل على الأعداء كالصاعقة، تضبح ضبْحًا.

والضَّبْح: أصوات أنفاس الخيل إذا عدتْ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمْحمة، ولكنَّه صوت نفس. وأريد به هنا اسم الفاعل الواقع حال من العاديات، أي: والعاديات حال كونها ضابحات، أي: مرتفعات أصوات أنفاسها.

والواو في أوَّل السورة للقسم، فهو سبحانه يقسم بالخيل العاديات، وهو ﷻ، له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، كما بيَّنَّا ذلك في النازعات وغيرها.

قال الفخر الرازي: «واعلمْ أنَّ ألفاظ هذه الآيات تنادي أنَّ المراد هو الخيل، وذلك لأنَّ الضَّبْح لا يكون إلَّا للفرس... وأيضًا فالقَدْح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخُفِّ الإبل.

وقد أقسم الله بالخيل؛ لأنَّ لها في العَدْو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدوابِّ، فإنَّها تصلح للطلَب والهرب، والكرِّ والفرِّ، فإذا ظننت أنَّ النفع في الطلب عدوتَ إلى الخَصْم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننتَ أنَّ المصلحة في الهرب قَدَرْتَ على أشدِّ العدْو، ولا شكَّ أنَّ السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدُّنيا والدِّين»[1] اهـ.

(١) تفسير الرازي (٢٥٩/٣٢).

QaradawiBooks.com

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾

الموريات: جمع مورية من الإيـراء. وهو إخراج النَّـار من الحجر بالزناد. كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾.

يقسـم الله تعالى بالخيل الَّتي يركبهـا الغزاة، تُوري فـي حوافرها بالحجر من شـدة العدْو، فتضرب به حجرًا آخر، فتوري النَّار وتقدحها قدحًا. والقدح: الصدم والضرب.

هكذا يُصورها القرآن، وبعضها يعدو وراء بعض، نسمع الضبْح من حناجرها، ونرى القدح من حوافرها.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾

المغيرات: جمع مُغيرة، من الإغارة، وهي سرعة السَّيْر في اندفاعٍ إلى العدو المرتقب. يبدؤون من الليل، ليصلوا إليه في الصباح، فيسـتطيعوا أن ينالوا منه ما ينالون، فإن الصباح له أعين يسـتبين بها ما لا يسـتبان بالليل، والناس عادة يكونون في هذا الوقت في غفلة وعدم اسـتعداد، والشاعر يقول:

نحن الذون صبحوا الصباحا يـوم النخيـل غـارة ملحاحًـا

والعطف هنا فـي هذه الآيـات بالفاء، وهـي الَّتي تفيـد الترتيب والتعقيب، لا الترتيب والتراخي، كما تفيده «ثُمَّ»، ولذا قال: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾

﴿فَأَثَرْنَ﴾: هيَّجن، ﴿نَقْعًا﴾: غبارًا شديدًا بسبب شدة حركتهن.

QaradawiBooks.com

قال الفخر الرازي: «النَّقْع: فيه قولان: أحدهما: أنَّه الغبار، قيل: إنَّه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع، فالغبار يسمى نقعًا لارتفاعه. وقيل: هو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار غاص فيه كما يغوص الرجل في الماء.

والثاني: النَّقْع: الصياح[1]، من قوله ﷺ: «**ما لم يكن نَقْع**[2] **ولا لَقْلَقة**»[3]. أي فهيَّجْنَ في المُغَارِ عليهم صياح النوائح، وارتفعت أصواتهن. ويقال: ثار الغبار والدُّخَان: أي ارتفع. وثار القَطَا عن مِفْحَصه[4]، وأثرن الغبار أي هيَّجنه. والمعنى: أنَّ الخيل أثرن الغبار؛ لشدة العدْو في الموضع الَّذي أغرن فيه.

والضمير في قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، يعودُ إلى العَدْو، المفهوم من قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، أي: فأثرن بالعَدْو نقعًا. أو يعود إلى المكان الَّذي انتهى إليه، والموضع الَّذي تقع فيه الإغارة، لأن في قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، دليلًا على أنَّ الإغارة لا بدَّ لها من موضع، وإذا علم المعنى جاز أن يكنَّى عمَّا لم يجرِ ذكره بالتصريح، كقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، أو يعود إلى ذلك الزمان الَّذي وقعت فيه الإغارة، أي: فأثَرْن في ذلك الوقت نقْعًا.

وعطف فعل ﴿فَأَثَرْنَ﴾، على الفعل الَّذي وضع اسم الفاعل موضعه. والتَّقدير: واللائي عدون فأوْرَين، وأغَرْن فأثَرْن.

---

(١) مكتوبة بالباء، وأظنها (الصياح) بالياء، بدليل الاستدلال.

(٢) أي: رفع الصوت بالبكاء.

(٣) أي: شدة الصوت.

(٤) القطا طائر قدر الحمامة ومفحصه عُشَّه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾

هذه الخيل العاديات الَّتي تضْبح ضبْحًا، وتُوري قدْحًا، وتُغير صبْحًا، وتثير نقعًا، ينتهي بها هذا الصَّخب، فتوسط جمعا بهذا النقع الَّذي تثيره.

وهذه الصفات والحركات كلها في وصف الفرس الغازية في سبيل الله، وهو متفق مع ما صح عن رسول الله ﷺ: «**الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ**»[1]، وقالوا: ظهرها حرز، وبطنها كنز.

وهذا كله في المقسم به من الله تعالى، أمَّا المقسم عليه، فتذكره الآيات التالية.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾

أول ما أقسم الله عليه هو الكنود الطبيعي للإنسان. والمراد: أغلب أنواع الإنسان، وإلا فمن عصمه الله لا يكون هكذا.

والكنود: منع الحقِّ والخير، والكَنود: الَّذي يمنع ما عليه. والأرض الكَنود: هي الَّتي لا تُنبت شيئًا.

والمفسرون قالوا: الكنود هو الكفور. وفي بعض ما ورد: أنَّه الَّذي يمنع رفده، ويأكل وحده، ويضرب عبده[2].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٣)، عن عروة بن أبي الجعد.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٥٨٧/٢٤)، من قول أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

وقال الحسن: اللوَّام لربِّه، يَعُدُّ المحنَ والمصائب، وينسى النِّعم والراحات، وهو كقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦][1].

ومعنى هذا أنَّ طبع الإنسان يحمله على ذلك، إلَّا من عصمه الإيمان بالله وباليوم الآخر، فرقق من طبعه، وخفف من حرصه، وخالطت قلبه بشاشة الإيمان.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾

أي: الإنسان يشهد على ذلك بنفسه، وأنَّه كنود جحود، فهو أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحده، ولا داعي لإرجاع الضمير هنا إلى الله تعالى؛ لأن جملة الكلام كله من الإنسان وخصاله.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾

وإنَّ هذا الإنسان لحبِّ الخير ـ أي: المال الكثير ـ لشديد فيبخل به. بل شدَّة حبِّه للمال تحمله على معارضة الرُّسل ومقاومة الإصلاح حفظًا لمركزه الزائف وماله المكنوز.

والقرآن كثيرًا ما يسمِّي المال خيرًا، خصوصًا إذا أُنفق في وجهه؛ لأنَّ النَّاس يعدون المال فيما بينهم خيرًا، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]، ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، أي: ما أنفقتم من مال.

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٦١/٣٢).

QaradawiBooks.com

توعُّد الحريصين على المال الناسين مآلهم يوم القيامة

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۞ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾

هذا هو الجزء الأخير من السورة، وهو تعليق على ما مر منها، وهو القسم والمقسم به. وفيه عدد خصال الإنسان وطبائعه الغالبة.

ذكر أنَّه تعالى ليس بغائب عمَّا يجري في هذا الكون، ولا ببعيد عمَّا يدور في خلد الإنسان وفكره وطبيعته.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾

ومعنى بُعثر: بُعث وأُثير وأُخرج ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾

«أي: مُيِّزَ ما في الصدور، قالوا: الحاصل من كلِّ شيء، ما بقي وثبت، وذهب ما سواه. والتَّحصيل: تمييز ما يحصل. والاسم: الحصيلة. قال لَبِيدٌ:

وكُلُّ امرئٍ يومًا سيُعْلَمُ سَعْيُه إذا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلَهِ المَحَاصِلُ[1]

ومعنى ﴿وَحُصِّلَ﴾: جُمِع من الصحف». قال الفخر الرَّازي في معنى حُصِّل: «أي: أُظْهِرَتْ مُحصَّلًا مجموعًا.

وثانيها: أنَّه لا بدَّ من التمييز بين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحظور، فإن لكل واحد حكمًا على حدة، فتمييز البعض

(١) انظر: ديوانه صـ ١٣٢.

QaradawiBooks.com

عن البعض، وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللائق به، هو التحصيل. ومنه قيل: للمنخل المحصِّل.

وثالثها: أنَّ كثيرًا ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أمَّا في يوم القيامة فإنَّه تتكشف الأسرار، وتنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]».

ثم قال الفخر الرازي: «واعلمْ أنَّ حظَّ الوعظ منه أن يقال: إنَّك تستعد فيما لا فائدة لك فيه، فتبني المقبرة، وتشتري التابوت، وتفصل الكفن، وتغزل العجوز الكفن. فيقال: هذا كله للديدان، فأين حظُّ الرحمن؟

بل المرأة إذا كانت حاملا، فإنَّها تعد للطفل ثيابًا، فإذا قلت لها: لا طفل لكِ، فما هذا الاستعداد؟ فتقول: أليس يبعثر ما في بطني؟

فيقول الربُّ لك: ألا يبعثر ما في بطن الأرض، فأين الاستعداد؟»[1].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾

أفلا يعلم الإنسانُ الكنودُ لربِّه، المُحبُّ لماله، الشحيحُ به، عندما تُكْشَفُ الأستار، وتظهر الأسرار يوم القيامة: أنَّ الله الَّذي خلقهم ورزقهم وربَّاهم خبيرٌ بهم وبأحوالهم وبواطنهم، لا يخفى عليه شيء؟! ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وإنَّما قال ﴿بِهِمْ﴾، بصيغة الجمع؛ لأنَّ الإنسان المذكور في السورة، في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣]؛ دلالة على أنَّه للجمع، وإلا لما صح ذلك.

(١) تفسير الفخر الرازي (٢٦٣/٣٢).

QaradawiBooks.com

وقال صاحب «الظلال» رحمه الله تعالى: «يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزًا وركضًا ووثْبًا، في خِفة وسرعة وانطلاق، حتَّى ينتهي إلى آخر فقرة فيها، فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف!

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المُغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة، تأخذه على غِرَّة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار!

يليه مشهد في النفس، من الكنود، والجحود، والأثرة، والشح الشديد!

ثم يُعقبه مشهد لبعثرة القبور، وتحصيل ما في الصدور!

وفي الختام ينتهي النقع المُثار، وينتهي الكنود والشح، وتنتهي البعثرة والجمع.. إلى نهايتها جميعًا.. إلى الله، فتستقر هناك: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودَمْدمة وفَرْقعة، تناسب الجوَّ الصَّاخب المُعفَّر، الَّذي تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصَّل ما فيها بشدَّة وقوة، كما تناسب جوَّ الجحود والكنود، والأَثَرة والشح الشديد.. فلمَّا أراد لهذا كله إطارًا مناسبًا، اختاره من الجو الصَّاخب المُعفَّر كذلك، تثيره الخيل العادية في جرْيِها، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة فجأة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار.. فكان الإطار من الصورة، والصورة من الإطار»[1].

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (٦/٣٩٥٧).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة، سورة مكيَّة.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

نفس البداية الَّتي بدأ الله بها سورة الحاقَّة، فقد قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، بهذه الكلمات يطبِق الله الإلٰه العظيم، على الَّذين أشركوا به، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾

القارعة: اسم فاعل من مادَّة «قرع»، كما إذا قرع الباب ونحوه، فهو صوتٌ شديد هائل، وقد سمَّى الله بهذا الاسم ـ الَّذي يقرع الأسماع، ويقرع معها القلوب ـ يوم القيامة. فهو القارعة، كما هو الحاقَّة، كما هو الصاخة، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، كما هو الطامة، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٦].

QaradawiBooks.com

قالوا: إنَّ الأجرام السماويَّة، والأجرام السفليَّة، يصْطكان اصطكاكًا شديدًا عند تخريب العالم، فبسبب تلك القرعة، سُمِّيَ يوم القيامة بـ «القارعة».

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾

الخطابُ لرسول الله محمَّد، الَّذي أنزل عليه القرآن، ولكل من يخاطبه التنزيل، أي: ما الَّذي أعلمك وعرفك بقدر هذا اليوم، وبقيمته وبعمله وكنهه، فهو خطاب لكل من يتأتَّى خطابه.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ معناه: لا علم لك بكُنْه هذه القارعة وهولها، لأنَّها في الشدَّة بحيث لا يبلغها فهم أحد، ولا وهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك، كأنَّه تعالى قال: قوارع الدُّنيا في تلك القارعة، كأنَّها ليست قوارع، ونار الدُّنيا في جنب نار الآخرة كأنَّها ليست بنار، لهذا قال في آخر السورة: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾؛ تنبيهًا على أن نار الدُّنيا في جنْب تلك، ليست بحامية. وصار آخر السورة مطابقًا لأولها من هذا الوجه.

قال الرازي: «نظير هذه الآية قوله: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، ثمَّ قال المحقِّقون: قوله: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أشد من قوله: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾؛ لأنَّ النازل آخِرًا لا بدَّ وأن يكون أبلغ؛ لأنَّ المقصود منه زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل إلَّا إذا كانت أقوى. وأمَّا بالنظر إلى المعنى، فالحاقَّة أشد لكونه راجعًا إلى معنى العدل، والقارعة أشدُّ لما أنَّها تهجم على القلوب بالأمر الهائل»[1].

وعلى هذا تكون كلٌّ من الحاقَّة والقارعة، أشد في ناحية من النَّواحي، وكل هذا وبال على أهل الشِّرك والكفر.

(١) تفسير الرازي (٢٦٦/٣٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من أهوال البعث:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۞ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾

الظرف ـ كلمة يوم ـ نصب بمضمر دلت عليه القارِعة. أي: هذه القارعة تقرع يوم يكون النَّاس كذا.

ثم إنَّه تعالى وصف هذا اليوم بأمرين: وصف يتعلق بالناس، ووصف يتعلق بالجبال. فالناس أصبحوا فيه كالفراش المبثوث. والفراش هو الحشرة الطائرة الصغيرة الَّذي تتهافت على النَّار، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره.

ثم إنَّه تعالى شبَّه الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى: بالجراد المنتشر(١).

أمَّا وجه التَّشبيه بالفَرَاش؛ فلأنَّ الفراشَ إذا ثار لم يتَّجه لوجهةٍ واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل هذا على أنَّهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد إلى جهات مختلفة غير معلومة. والمبثوث: المفرق. يقال: بثه إذا فرقه.

وأمَّا التَّشبيه بالجراد، فهو في الكثرة. قال الفراء: كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا(٢). وبالجملة فالله ﷻ شبه النَّاس في وقت البعث

(١) في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

(٢) معاني القرآن للفراء (٢٨٦/٣).

QaradawiBooks.com

بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنَّهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض، كالجراد والفراش. ويتأكَّد ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المُطفِّفين: ٦]، وقوله في قصَّة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾

لم يقل: والجبال كالعهن المنفوش، بل أعاد كلمة التكوين: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾؛ لأنَّ التكرار في هذا المقام أبلغ في التحذير.

كما أنَّ القارعة هي الَّتي تقرع النَّاس بالأهوال والأفزاع، وذلك في السماوات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، ثمَّ هي تقرع أعداء الله بالعذاب والخِزْي والنكال.

في هذا اليوم العظيم الَّذي ينتظره النَّاس للحساب، يتغير الناس، وتتغير أركان العالم من حولهم، وأهم ما فيها الجبال، كما أرشد إلى ذلك القرآن حين قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

أرشد القرآن إلى أنَّ الجبال مختلفة الألوان، متقلِّبة الحركة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، ثمَّ إنَّه سبحانه يفرق بين أجزائها، ويزيل التأليف والتركيب عنها، ويصير ذلك مشابها للصوف الملوَّن بالألوان المختلفة، إذا جعِل منفوشًا. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

QaradawiBooks.com

تغيُّر أحوال الجبال:

وقد وصفَ القرآنُ تغيُّر الأحوال على الجبـــال من عدَّة أوجه، منها: أنَّها تصير قِطعًا، كما في قولـــه تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة: ٥]، قال ابن عبَّاس وغيره: فتت تفتيتًـــا[1]. وقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤].

ثم تصير كثيبًا مهيلًا، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل: ١٤].

ثمَّ تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذر، تدخل من كوة الباب، لا تمسها الأيدي.

ثم في الرابع تصير ســـرابًا، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠].

وقرن بين النَّاس والجبال، تنبيهًا علـــى تأثير تلك القارعة في الجبال، حتَّى صارت كالعهن المنفوش؛ فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها؟!

انقسام النَّاس إلى قسمين أساسيين: أهل السعادة، وأهل الشقاوة:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾

وهنا في يوم القارعة والحاقة والقيامة، ينقســـم النَّاس إلى قســـمين أساسيين: أهل السعادة، وأهل الشقاوة.

وفي أحيان ينقسم أهل السعادة إلى قسمين: الســـابقين والمقرَّبين، وأهل اليمين، ولكنَّه هنا اكتفى بالتقســـيم الأساســـي، حسب ما تقضي

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٨٣/٢٢).

QaradawiBooks.com

الموازين، وما تحكم الدواوين. فينقسم النَّاس في القيامة إلى قسمين أصليين: أهل السعادة وأهل الشقاوة.

أهل السعادة يأخذون كتابَهم بأيْمَانهم، ويقولون: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وأهلُ الشَّقاوة يأخذون كتابَهم بشمائلهم، ومن وراء ظهرهم، ويقول أحدهم: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦].

كما أنَّ أهلَ السعادة تحكم لهم موازينهم، كما تحكم على أهل الشَّقاوة موازينهم. وهذه الموازين موازين عادلة، لا تميلُ مع أحد، ولا تميلُ على أحد، ولا تجور ولا تنقص، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

حقيقة الميزان الَّذي تُوزن به الأعمال:

عرف النَّاس في عصرنا موازين شتَّى لكلِّ الأشياء، وليس من الضروري أن يكون الميزان هو ذا الكِفتين، فقد عرفنا موازين القبَّان، وليس بِكِفَّتين، وعرفنا موازين تزن القمح والغلال ونحوها، وليس بِكفَّتين، وعرفنا موازين المياه، وموازين الحرارة، وموازين الضغط الجوي، إلخ

وميزان الله سبحانه الَّذي يزن به أعمال النَّاس يوم القيامة، هو واحد من هذه الموازين، أو هو غيرها كلها، ولكنَّه ميزان أو مقياس أو مقدار لا يشك أحد في عدالته، وصواب تقويمه. وفيه يقيس الله ويزن الحسنات والسيئات، والطاعات والمعاصي، والصغائر والكبائر، والإيمان والكفر،

QaradawiBooks.com

والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة، ويعرف مقاديرها وقِيمها، والاختلاف بينها، وأحيانًا يكون دقيقًا جدًّا، وقليلًا جدًّا، وكثيرًا جدًّا.

قال المُفَسِّرون: في الموازين قولان: أحدهما: «أنَّه جمع موزون، وهو العمل الَّذي له وزن وخطر عنـد الله. وهذا قول الفراء قال: ونظيره يقال: عندي درهم بميزان درهمك، إلخ. والثانـي: أنَّه جمع ميزان، أي معيار الوزن وأداته.

قال المُتكلِّمون: إنَّ نفْس الحسـنات والسـيِّئات لا يصـحُّ وزنهما، خصوصًا وقـد تَقَضَّيَا، بل المراد أنَّ الصحف المكتوب فيها الحسـنات والسـيِّئات توزن، أو يجعـل النور علامـة الحسـنات والظلمة علامة السيئات، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة، فيظهر بذلك الثقل والخفة.

وتكون الفائـدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسـنات في الجمع العظيم، فيزداد سـرورًا، وظهـور حال صاحب السـيِّئات، فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق»[1].

الردُّ على المتكلمين المُؤولين للميزان ورؤية الأعمال:

وقول المُتَكَلِّمين عن الميزان يـوم القيامة ووزن الأعمال مبنيٌّ على مقولات الفلسفة القديمة، وهي أنَّ العَرَض لا يبقى زمانين، وهو لم يَعُدْ مُسَلَّمًا اليوم، على أنَّه يقال اليوم: إن أقوال الإنسان وأعماله باقية، وهي يمكن أن تؤخذ وتُصَفَّى وحدها، وتُقَدَّم للإنسـان يراها، هي بنفسـها، وليس شيئًا نائبًا عنها، وهذا يوافق ظاهر ما في القرآن الكريم، حين يُبَيِّن

(١) تفسير الرازي (٢٦٨/٣٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

للإنسان أنَّه يجد أعماله ذاتها، ويراها ويشهدها، لا أنَّه يجد ثمرتها أو جزاءها، أو ثواب الله عليها، أو عقاب الله عليها.

ومن هنا نجد قول الله تعالى في سورة الزلزلة الَّتي مرَّت بنا قبل سورة واحدة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨]، فنقول: ﴿يَرَهُۥ﴾، أي: مثقال الذرة من الخير أو من الشر الَّذي عمله، على الظاهر المظنون، دون تأويل.

وفي بعض الأحيان نجد المجرمين وأمثالهم، مُقِرِّين بالحقِّ الَّذي يظن من ظنَّ أنَّه فَنِيَ وانتهى من يوم عمِل في الدنيا، ولكنَّ القرآن يقول لنا: إنَّه باقٍ، وإنَّ الإنسان يجده ويراه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكثير من هذه الآيات واضحة لا تحتاج إلى تأويل، ولا إلى إخراجها عن ظاهرها الَّذي جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

جزاء أهل السعادة:

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، فثِقَل الموازين دليل على أن كِفة الحسنات والخيرات والطاعات اليمنى، هي الَّتي كانت أثقل بما فيها من أحمال. فلا غرو أن تكون الحياة سعيدة، والعيشة راضية.

QaradawiBooks.com

ومعنى ﴿عِيشَةٍ﴾: العيش: الحياة، يقال: عاش فلان عيشا ومعاشا ومعيشة، أي: حيًّا وصار حيًّا، ومنه قوله ﷺ: «**اللهمَّ لا عيش إلَّا عيش الآخرة**»[1] أي: لا حياة دائمة إلَّا حياة الآخرة، فالعيشة: الحياة يوم القيامة بالروح والجسد ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية، يحبها صاحبها ويسعد فيها، لا يمل منها ولا يسأمها، وقد وصفها بوصف الفاعل كأنَّها تعي وتعقل ما هي فيه، فهي ليست مجرد مرضية، بل راضية.

جزاء أهل الشقاء:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

إذا عرفنا جزاء أهل السعادة، وهم المقصودون بالخلق أساسًا، فلا بدَّ لنا أن نعرف من يقابلهم، ويملأ الجهة الأخرى، وهي الأكثر عددًا، والأوفر من الدُّنيا حظا، وقد ذكر لنا القرآن مصيرهم السيئ والأسود، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: من كِفته الشمال هي الَّتي تمتلئ ـ عادة ـ بالكفر، وعقائد السوء، والمبتدعات والسيِّئات، والضلالات والمعاصي، وكان الأصل أن تمتلئ بعكس هذه، فلم ترجح خيراته وحسناته القليلة، ولهذا كانت النهاية الأليمة، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: قلَّت حسناته، فرجَحَت السيئات على الحسنات، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدُّنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلَّا الحق أن يكون ثقيلًا. وإنَّما خفَّت موازين منْ خفَّت موازينه

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٥)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٥)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفَّته عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفًا. وقال مقاتل: إنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الحقَّ ثقيلٌ والباطل خفيف[1].

والموازينُ جمع موزون، أو جمع ميزان ـ كما بيَّنا قبل ذلك ـ وخفَّة الموازين؛ لخفَّة ما فيها من الحسنات والخيرات وقلَّته، فهي نتيجة ما عمله الإنسان في حياته من ائتمار بما أمر، وانتهاء عمَّا نهي، وما ضاعف الله له من حسنات، وما أضاف إلى عمله من مثوبات، وما زاد عليه المؤمنون من خيرات، وكلها لا تغني عنه شيئًا، إذا لم يقِ صاحبها نفسه.

هذا الَّذي خفَّت موازينه، قال القرآن عنه: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي: مرجعُه الَّذي يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمِّه، وهذا تهديدٌ شديدٌ وأنَّه لن يجد مكان راحة حتَّى ما كان يظن أنَّه راحة فهو نار حامية، والكلام هنا من قبيل التهكُّم كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وهناك عدَّة أوجه في معنى ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾: «أحدها: أنَّ الهاوية من أسماء النَّار، وكأنَّها النَّار العميقة يهوى أهل النَّار فيها مهوى بعيدًا. والمعنى: فمأواه النَّار. وقيل للمأوى: «أُمٌّ» على سبيل التشبيه بالأمِّ، الَّتي لا يقع الفزع من الولد إلَّا إليها.

وثانيها: فأمُّ رأسه هاوية في النَّار. ذكره الأخفش والكلبي وقتادة، قال: لأنَّهم يهوون في النَّار على رؤوسهم.

(١) تفسير الرازي (٢٦٨/٣٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة علمية
QaradawiBooks.com

وثالثها: أنَّهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا: هوت أمه؛ لأنَّه إذا هوى أي سقط وهلك، فقد هوت أمه حزنًا وثكلا، فكأنَّه قيل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فقد هلك»[1].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾

ما أعلمك ما الهاوية؟ استفهام يراد به التَّعجب والتَّهويل. أي: لا تعرف أنت ـ يا محمَّد ـ حقيقة هذه الهاوية، أعاذك الله منها.

و﴿مَا هِيَهْ﴾ أصلها: «ما هي» والعرب تزيد هاء ساكنة على آخر الكلمة، ويُسمُّونها: هاء السَّكْت، كما في قوله تعالى في سورة الحاقَّة: ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

تلك الهاوية هي نار شديدة الحرارة، والمعنى: أنَّ سائر النيران بالنسبة إليها كأنَّها ليست حامية، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوَّة سخونتها. أعاذنا الله والمؤمنين شرها، ووقانا عذاب النَّار.

(١) تفسير الرازي (٢٦٨/٣٢).

QaradawiBooks.com

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكيَّة، وموضوعها يدلُّ عليها.

التحذير من اللهو عن الإيمان وطاعة الله:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۞ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾

اللهو ـ كما قال الراغب ـ ما يشغل الإنسان عمَّا يعنيه ويهمُّه، يقال: لهوتُ بكذا، ولَهيْت عن كذا: اشتغلتُ عنه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، ويقال: ألهاه كذا: أي شغله عمَّا هو أهم إليه[1]. قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٧٤٨، تحقيق صفوان عدنان الداودي، نشر دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، أي: ساهية مشتغلة بما لا يعنيها.

فمعنى ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: أي شغلكم عمَّا يعنيكم ويهمُّكم، وعما هو أهم اليكم.

وقد حذَّر القرآن من إلهاء الأموال والأولاد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، ووصف عمَّار مساجده، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]، وليس ذلك نهيًا عن التجارة وكراهية لها، بل هو نهيٌ عن التهافت عليها، والاشتغال عن الصَّلوات والعبادات بها. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

التكاثر في الأموال والأولاد ومتاع الحياة الدنيا:

وفي الآية الكريمة يُخاطب القرآن المشركين من قريش وأمثالهم، الَّذين نزل القرآن يخاطبهم ويحركهم، فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، والتكاثر: تفاعل مشتق من الكثرة، فهم من كثرة ما أُوتوا من المال والنعمة والولد، أصبحوا يكاثر بعضهم بعضًا بالأموال والأولاد والرجال، كما هو شأن أهل الدنيا، كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فهذا التَّكاثر في الأموال والأولاد، ومتاع الحياة الدنيا، هو الَّذي ألهى هؤلاء الَّذين خاطبهم النصُّ القرآني، وشغلهم عن مصيرهم الَّذي ينتهون إليه، وعن أصل حياتهم ووجودهم، وماذا أعدوا له.

QaradawiBooks.com

المُكث في القبور قليل سيعقبه سريعًا حساب ثقيل:

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾

حتى مِتُّم ودُفنتم في القبور، وقال: ﴿زُرْتُمُ﴾ مع أنَّ المخاطبين لا زالوا أحياء جريًا على عادة القرآن في نسبة عمل الآباء لأبنائهم الَّذين ساروا على طريقهم، فكأنَّه يقول: شغلتكم الدُّنيا كما شغلت آباءكم الَّذين ماتوا. ومن ذلك خطابه لبني إسرائيل الَّذين كانوا في عهده ﷺ بما حصل من آبائهم في عهد موسى.

وهكذا ألهاهم وشغلهم وفتنهم عن طاعة الله، هذا التكاثر الدنيوي، الَّذي ينسى الإنسان فيه نفسه، وينسى ربه، وينسى إخوانه، وينسى مصيره، حتَّى يأتيه الموت فجأة، فينقله إلى رحلة جديدة، حينما يموت ويقبر، فحياته في قبره ـ وإن طالت ـ ما هي إلَّا زيارة توشك أن تنقضي.

روى ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران، قال: كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فلبث هنيهة، ثمَّ قال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلَّا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله. وقال أبو محمد: يعني: أن يرجع إلى منزله ـ إلى جنَّة أو نار ـ وهكذا فهموا أنَّ زائر المقابر سيرحل من مكانه ذاك إلى غيره[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، **يقول ابنُ آدمَ: مالي مالي. وهل لك من مالك إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِستَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ؟**»[2].

(١) تفسير ابن كثير (٤٧٤/٨).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، وأحمد (١٦٣٠٥).

QaradawiBooks.com

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

وعيدٌ من الله بعد وعيد. تكرار الآية بلفظها: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، أو بزيادة حرف العطف عليها: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، وتكرار حرف ﴿ ثُمَّ ﴾، وكرر الفعل المضارع مقترنًا بـ «سوف»، وهو يفيد المستقبل البعيد، وتكرار الجملة الفعلية: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، بوضع الفعل المتعدِّي موضع الفعل اللازم، لتهويل ما يمكن أن يعلم، والتخويف منه، وهذا التَّكرار هو ما يسمِّيه النحويون: التوكيد اللفظي، ولا يستعمل القرآن هذا التَّوكيد إلَّا في أحيان قليلة، يريد بها أن يلين القلوب القاسية، وأن ينبِّه العقول الغافلة، وأن يوقِظ الضمائر النائمة، لما يمكن أن يعلموه ممَّا أخفاه الله عنهم، وهو يعلمه: فيا ترى ماذا سيكون حينما ينكشف الغطاء، ويرتفع الخفاء، وهو أمر يزعج المشركين، ويخيف المؤمنين.

وذكر الإمام الرَّازي في الجملة المُكرَّرة: «أنَّ الكلام يتَّصل بما قبله وبما بعده، أمَّا الأوَّل: فعلى وجه الردِّ والتكذيب، أي ليس الأمر كما يتوهَّمه هؤلاء، من أنَّ السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأموال والأولاد.

وأمَّا اتِّصاله بما بعده، فعلى معنى القسم: أي حقًّا سوف تعلمون، ولكن حين يصير الفاسق تائبًا، والكافر مسلمًا، والحريص زاهدًا. ومنه قول الحسن: لا يَغُرَّنَّك كثرة من ترى حولك، فإنَّك تموت وحدك، وتحاسب وحدك! وتقريره: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠]، ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وهذا يمنعك عن التكاثر»[1].

(١) تفسير الرازي (٢٧١/٣٢).

QaradawiBooks.com

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾

اليقين: الإدراك الَّذي لا شك فيه. وهو أرفع مراتب العلم. أي: لو تعلمون علمًا يقينًا الحقائق الثابتة عند خروج الروح من الجسد، ثمَّ في القبر. فجواب «لو» محذوف للتهويل والتهديد، تقديره: لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائل، ولدفعكم إلى السعي فيما به السعادة الخالدة.

وحذف الجواب من حُسن الكلام، يقول الرجل للرجل: لو فعلت هذا! أي: لكان كذا. كما قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، والجواب محذوف، ومثله كثير في القرآن.

وقال الأخفش: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾، ما ألهاكم التكاثر.

وقال بعضهم: لو علمتم لأيِّ أمرٍ خلقناكم، لاشتغلتم به. وقال غيره: إنَّما حذف الجواب، ليذهب الوهم كلَّ مذهب، فيكون التهويل أعظم. وكأنَّه قال: لو علمتم علم اليقين، لفعلتم ما لا يُوصفُ ولا يُكْتَنَهُ، ولكنَّكم ضُلَّال وجهلة[1].

و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾، هو العلم الَّذي وصل إلى مرتبة الجزم، بحيث لا يعتريه تردُّد ولا تحيُّر، وهو المرتبة الأولى، ويرتقي بعدها إلى مرتبة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، ثمَّ مرتبة أعلى وهي: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

(١) تفسير الرازي (٢٧٢/٣٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

توكيد للوعيد وتشديد للتهديد

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۞ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾

﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾: اللام ـ لقسم محذوف، دلَّت عليه اللام، والنون للتوكيد، و﴿ٱلْجَحِيمَ ﴾: اسم من أسماء جهنم. أعاذنا الله من نارها وشرها، وتُسَمَّى «الجحيم»، وتُسَمَّى «السعير»، وتُسَمَّى «لَظَّى»، وتُسَمَّى «الهاوية».

ولكنَّ القرآن يبرز هذا القسم للنَّاس، أنَّهم لا محالة سيرون في الآخرة إلى الجحيم، الَّتي أعدَّها للفجار من خلقه، كما أعد النعيم للأبرار من عباده، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۞ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٦].

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾

تكرار لرؤية الجحيم، مؤكدة لها، وخصوصًا أن رؤيتها أقوى من الرؤية الَّتي قبلها، ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، لن يكون هناك أدنى شك ولا تردد في رؤية الجحيم. فأما المؤمنون فيوقنون بما أخبرهم به ربهم، ويزدادون إيمانا ويقينا بما أكده لهم القرآن. وأمَّا الكافرون فيرؤْنها رؤية من يلامسها ويلابسها ويتذوقها، وكل منهما عين اليقين.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الإخباري؛ لأنَّ السؤال في موقف الحساب قبل رؤية جهنم. و﴿ٱلنَّعِيمِ ﴾: ما التذ به في الدُّنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك.

QaradawiBooks.com

وهل الخطاب للمؤمنين أم للكافرين؟

الراجح أنَّ هذه الآية خطاب للجميع، للمؤمنين والكافرين، كلهم سيسألون عمَّا أعطاهم الله من النعيم، وما منهم إلَّا منحه الله من نعيمه، ما يستحق أن يسأل عنه، ويستوجب أن يشكر عليه، كما قال ﷺ، أي لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما قابلتم به من نعمة من شكره وعبادته.

ذكر ابن كثير ما قاله ابن جرير، قال: «حدَّثني الحسينُ بن علي الصُّدَائي، حدَّثنا الوليدُ بن القاسم، عن يزيدَ بن كَيْسان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبيُّ ﷺ، فقال: «**ما أجلسكما هاهنا؟**». قالا: والَّذي بعثك بالحقِّ، ما أخرجنا من بيوتنا إلَّا الجوع. قال: «**والَّذي بعثني بالحقِّ، ما أخرجني غيره**». فانطلقوا حتَّى أَتَوْا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبيُّ ﷺ: «**أين فلان؟**». فقالت: ذهب يستعذبُ لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قِربته فقال: مرحبًا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلَّق قِربته بكَرَبِ نخلة وانطلق فجاءهم بعِذْق، فقال النبيُّ ﷺ: «**ألا كنتَ اجتنيتَ؟**». فقال: أحببتُ أن تكونوا الَّذين تختارون على أعينكم. ثمَّ أخذ الشفرة، فقال النبيُّ ﷺ: «**إيَّاك والحَلُوبَ؟**». فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبيُّ ﷺ: «**لتسألُنَّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، فلم ترجعوا حتَّى أصبتم هذا، فهذا من النَّعِيم**»[1].

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦٠٥/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كَيْسان به[١]، ورواه أبو يعلى وابن ماجه، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر الصِّدِّيق به[٢]، وقد رواه أهل السُّنَن الأربعة، من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصَّة[٣]»[٤].

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه في الذبائح (٣١٨١)، وأبو يعلى (٧٨).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٦٩)، والنسائي في الكبرى في الوليمة (٦٥٨٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٧٥/٨).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

هذه السُّورة مكِّيَّة بالإجماع، دلَّ على ذلك موضوعها وأسلوبها، وهي من قصار المفصل في ثلاث آيات، تكتب في المصحف في سطرين، وتستغرق تلاوتها نحو دقيقة واحدة، ولكنها تضمنت من المعاني الجليلة المؤثرة ما جعل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لو عمل النَّاس بما في هذه السورة وحدها لكفتهم[1].

وذلك لأنَّها تضمَّنت من أصول المعاني الكبيرة، ما يحتاج إليه الفرد، ويحتاج إليه المجتمع، وتحتاج إليه الأمة، وتحتاج إليه الإنسانيَّة كلها. إذا تدبر الإنسان بعمق ما تضمنته من توجيهات ربانية قيمة.

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٣/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القسم في القرآن:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾

هذه السورة بدأت بالقسم ببعض مخلوقات الله تعالى، كإحدى السور الكثيرة الَّتي بدأت بمثل هذا القسم، فقد عرفنا أن هناك سورًا بدأت بالقسم بجمع المؤنث السالم، المختوم بالألف والتاء، وهي خمسة، ذكرت اثنتان منها في جزء «عـمَّ»، وهي: **النازعات، والعاديات**، وبقيت ثلاث سور أخرى، هي: **الصافَّات، والذاريات، والمرسلات.**

وهناك سورٌ تبدأ بالقسم ببعض الحروف المقطعة، مثل: ﴿يسٓ ۞ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، ﴿حمٓ ۞ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ في بداية الزخرف والدخان، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، ﴿ن وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

وهناك سور تبدأ بالقسم أولًا، مثل قوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱلطُّورِ ۞ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۞ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۞ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۞ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۞ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ [الطور: ١ ـ ٨]، ومثل قوله تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۞ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۞ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ [البروج: ١ ـ ٣]، وبعدها سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۞ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣]، ثمَّ سورة الشمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۞ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٧]، ثمَّ سورة الليل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٤]، ثمَّ سورة الضحى:

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣]، ثمَّ سورة التين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۞ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ [التين: ١ ـ ٤].

ثم تأتي في ختام هذه السور كلها: سورة «العصر»: الَّتي نُفَسِّرها الآن.

القَسَم المنفيُّ في القرآن:

ومن القَسَم المُعتبر في القرآن الكريم: القسم المنفي، كما في سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وكذلك سورة البلد، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۞ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۞ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ ـ ٤]، هذا ما جاء في أوائل السور.

وما جاء في وسط السور، مثل قوله في سورة الواقعة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، وقوله في سورة الحاقة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠]، وقوله في سورة التكوير: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۞ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٩]، وقوله في سورة الانشقاق: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۞ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٩].

وهذه المواقع كلُّها دلت على أنَّ قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: ليس الأمر في حاجة إلى القسم، فالأمر أظهر وأوضح في ثبوته من أن يحتاج إلى قسم. فهو نفي للقسم في الظاهر، يراد به الثبوت في الواقع. كما

QaradawiBooks.com

نرى ذلك في حقيقة الأمـر، كما في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، فهو ينفي الإقسام ثمَّ يعظم من هذا القسم وينوه به، كما يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠]، يتحدث عن القرآن العظيم. فهو قسم ثابت مثبت له شأن خطير.

وممَّا ذكر من القسم في وسط السور قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۞ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولقد اهتـمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الأقسـام فـي كتاب الله، وأولاها عنايـة، وخصص لها كتابه الَّذي سـمَّاه «التبيان في أقسـام القرآن»، ويبـدو لمن قرأ أوله أنَّه جزء من كتـاب كبير؛ لأنَّه لم يبدأه بمقدمة تتحدث عنه، وعن مضمونه وخصائصه وفوائده، كما هي عادته في كل الكتب.

المراد بـ «العصر»:

في هذه السـورة الموجزة القصيرة: مقسـم به، ومقسـم عليه. فأما المقسم به، فهو العصر. وأمَّا المقسم عليه، فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

فما العصر الَّذي جاء القسم به في السورة؟

قيل: هو الوقت الَّـذي يليه المغرب من النهـار، وهو ما بين الظهر والمغرب. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته.

QaradawiBooks.com

وقال بعضهم: المراد صلاة العصر، الَّتي فسرها بعضهم بالصلاة الوسطى، المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وأكثر المُفَسِّرين على أنَّ المراد بالعصر المقسم به في هذه السورة هو: الدهر. وهو الَّذي يستغرق أعمال الإنسان كلها، خيرًا كانت أو شرًّا، ويسجل ما له منها وما عليه.

وأحسب أنَّ هذا هو الراجح، كما رجَّحه ابن القيِّم وابنُ كثير وغيرهما[1].

وفي هذا القسم تنبيه على قرب انتهاء الدنيا، لأن وقت العصر يؤْذن بأفول النهار، وزمان هذه الأمة بالنسبة لأزمان الأمم السابقة كمقدار العصر من النهار. والعصر هو الدهر، والدهر هو الزمن، الَّذي تتقلب فيه الأيام، ويتعاقب فيه الليل والنهار، والزمان بتقلب ساعاته عبرة لمن أراد أن يعتبر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وعصر الإنسان عمره، والعمر ظرف ووعاء يملؤه الإنسان بما شاء من خير أو شر، لذا فإنَّ الزمانَ لا يُلام ولا يُعاب ولا يُشتم:

نَعيبُ زَمَانَنا والعيبُ فينا ... وما لزمانِنا عيبٌ سِوَانا[2]

عناية القرآن بالوقت:

وقد رأينا القرآن الكريم يهتم بالزمان أو بالوقت بالنسبة للإنسان،

(١) التبيان لابن القيم صـ ٨٤، وتفسير ابن كثير (٤٨٠/٨).

(٢) من شعر الإمام الشافعي، كما ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢٨٤/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

QaradawiBooks.com

وأهميته في حياته وتأثيره في دينه ودنياه، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهناك مظاهر عدة لعناية القرآن بالزمن أو بالوقت، فنرى القرآن يقسم بالفجر في سورة الفجر: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ [الآيات: ١، ٢].

ويقسم بالصبح في سورة المُدَّثر: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [الآية: ٣٤]، وفي سورة التكوير: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [الآية: ١٨].

ويقسم بالضُّحى، في سورة الضُّحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الآيات: ١، ٢].

ويقسم بالليل في سورة الضُّحى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الآية: ٢]، وفي سورة الليل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الآية: ١]، وفي سورة الشمس: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الآية: ٤]، وفي سورة المدثر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [الآية: ٣٣]، وفي سورة التكوير: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [الآية: ١٧]، وفي سورة الفجر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الآية: ٤]، وفي سورة الانشقاق: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الآية: ١٧].

ويقسم بالليالي العشر في سورة الفجر: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ [الآية: ٢].

ليدلَّ على فضل بعض الأوقات مثل ليلة القدر، أو الليالي، مثل الليالي العشر في ذي الحجَّة، أو الأواخر من رمضان. أو بعض الأيام كيوم الجمعة، أو يوم التاسع من ذي الحجة (يوم عرفة)، أو يوم عيد الأضحى (يوم الحج الأكبر)، وغيرها.

وكل هذا يفيدنا عناية القرآن الكريم بالوقت أو بالزمان الَّذي تقوم فيه أعمال الإنسان، أيًّا كان نوعها، ومهما كان قدرها.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

فلا عجب أن يهتم بالدهر، الَّذي يشمل الزمان كله، بما فيه من ليل ونهار، وصبح ومساء، وصيف وشتاء، وظلمة ونور، وبرد وحر، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم، منظم لمصالح العالم، على أكمل ترتيب ونظام.

المقْسَم عليه في السورة: خسارة الإنسان وهلاكه:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾

المقْسَم به في السورة هو العصر أي الوقت والزمان، والمقسم عليه هو خسارة الإنسان وهلاكه وضياعه، مؤكدًا ذلك بالجملة الاسمية الَّتي تدلُّ على الدوام والثبات، وبنون التوكيد، وبتحلية الإنسان باللام الاستغراقية المفيدة للعموم، وبدخول اللام على الخبر.

والخُسْر: ضد الربح، ومثله الكسب والظفر والفوز. ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾، معناه: أنَّه لم يربح في تجارته، ولم يكسب في صفقته، ولم يظفر بمراده، ولم يفز في حياته، كما وصف الله جماعة المنافقين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

والخُسْر خسْران: خسْر دنيوي، كأن تكسد تجارة الإنسان، أو يضيع ماله، كله أو بعضه، أو يفقد عزيزًا عليه، أو يغيب عنه حبيبٌ إليه، أو يبتلى بمصيبة من المصائب، كل هذه تُعَدُّ من خُسْر الدنيا، الَّذي يحزن عليه الإنسان، وينغص عليه نهاره، ويكدر عليه ليله.

وخُسْر أخروي، وهو شرُّ الخُسْريْن، أن يخسرَ آخرته، وتبورَ تجارته مع ربِّه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

ويشبه ما قلناه هنا الآن ما قاله بعضهم من تقسيم الخسر إلى مادي ومعنوي، فالخسر الأوَّل هو المادي، والخسر الثاني هو المعنوي، وهو الخسر الحقيقي: أن يخسر الإنسان نفسه، ولا يجدها، أو يجدها ولا يعرف ماذا تطلب منه، وماذا يجب عليه نحوها.

وهذا شأنُ الإنسان إذا تُرك وحده، بلا هادٍ يهديه، ولا مرشد يأخذ بيده.

فالإنسانُ إذا تُرك لطبائعه وحدها تسيره وَفْق رغائبها ودوافعها ومشتهياتها، ستنزل به في بحر لُجِّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض.

من أوصاف الإنسان في القرآن:

الإنسان وحده وصفه ربُّه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨]، وبقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وبقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وبقوله عز شأنه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وبقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وبقوله سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

فالإنسان الكنود الشديد الحب للمال، الظلوم، الكفَّار، العجول، القتور، كثير الجدل، الجهول، الهلوع، إذا ترك وحده في بيْداء الحياة بغير كتاب منزَّل من ربِّه يهديه للتي هي أقوم، ولا رسول من عنده يرشده إلى ما فيه خيره ونجاته الأبديَّة، ويصرفه عن طريق الشر إلى الخير، إذا لم يوجد ذلك المعين من الله، فيوشك أن يغرق في بحور الحياة المائجة المضطربة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

شروط النجاة من الخسران:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾

أكدت السورة القصيرة العظيمة: أنَّ الإنسان ـ كل إنسان، فـ«أل» هي للاستغراق ـ في ضياع وهلاك، إلَّا من اعتصم بما ذكرته الآية من الشروط الأربعة، الَّتي وصفها الله لمن يتمسك بها، ويرتبط بحبالها، ويلتزم بطريقها.

الشرط الأول: الإيمان:

استثنت السورة ممَّن هم في خسْر وهلاك وضياع، من استوفوا شروطا أربعة، أولها ما عبرت عنه بقولها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

والعجيب أن تتحدَّث السورة عن الإنسان بصيغة المفرد: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ثمَّ يستثني الناجين بصيغة الجمع، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتدلنا من أوَّل الأمر: أنَّ النَّجاة ليست فرديَّة، إنَّما النجاة مع الجماعة. الفرد غارق في اللجَّة، لا يستطيع النجاة بمفرده، إنَّما يفوز بالنجاة إذا تشبَّث بالجماعة.

فالمرء هالك وحده، سالم إذا تقوى بغيره، وهو قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ضعيفٌ بمفرده، قوي بجماعته، فمن هم الَّذين آمنوا؟

QaradawiBooks.com

مفهوم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في القرآن:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مفهوم قرآنيٌّ جديد، جاء به هـذا الكتاب المبين، ليعرفه النَّاس ويفهمـوه ويحفظوه ويعملوا به. لم يقل لنـا القرآن بماذا آمنوا؛ لأنَّـه أراد هذا الفعـل ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ ليكون حقيقـة واقعة، تفهمها العقول، وتنشـرح بها الصدور، وتطمئن إليها القلـوب، وتتفاعل معها الجوارح.

ومعروف عند هؤلاء ما يؤمنون به، إنَّهم يؤمنون بالله تعالى وملائكته وكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقـرة: ١٧٧]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فالشرط الأوَّل للنجاة من الخسر والهلاك والضياع: أن يتحقق الإيمان الَّذي أشارت الآية، أن يتمثل في جماعة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

من صفات المؤمنين في القرآن:

ومـن أراد أن يعرف حقيقـة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأوصافهـم الإيمانيَّة والأخلاقيَّـة والفعليَّة والعاطفيَّة والسـلوكيَّة، فليقرأ القـرآن، فهو الَّذي يعطيهم وصفهم الحقيقي بالتفصيل.

وحسبنا هنا: أن نقرأ بعض هذه الصفات في شأن المؤمنين:

ففي سـورة الأنفال يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

QaradawiBooks.com

وفي سورة المؤمنين يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

وفي سُورة الحجرات يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وكثير من آيات القرآن تتحدث عن الإيمان، فتصوره في عقائد سليمة، وعبادات خالصة، وأخلاق قويمة، وسلوكيات مستقيمة، وليس مجرد شعارات أو كلمات.

خيرات الدُّنيا والآخرة مترتِّبة على الإيمان:

والقرآن يُرتِّب خيرات الدُّنيا والآخرة كلها على الإيمان، ويركزها في الَّذين آمنوا، أو المؤمنين.

فولاية الله إنَّما هي للذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ودفاع الله تعالى إنَّما يكون عن الَّذين آمنوا دون غيرهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

QaradawiBooks.com

والعزة إنَّما يُمكِّنهـا الله للمؤمنين لا لغيرهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والنُّصـرة إنَّما هي حقُّ المؤمنيـن: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والإنْجاء إنَّما هو للمؤمنيـن: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

والمَعيَّة من الله للمؤمنين، معية الرعاية والتأييد: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ودخول الجنَّة إنَّما هـو للمؤمنين: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

والنَّجاة من النَّار إنَّما هـي للمؤمنين: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، والتقوى تعبر عن الإيمان الصادق.

وكلُّ خير وفلاح في الدُّنيا والآخرة، إنَّمـا جعله للمؤمنين في كتابه الكريم، فهم الَّذين يستأهلون العناية والرعاية من الله ﷻ، فهو ينظر إليهم بعينه، ويكلؤهم بعونه، ويحرسهم بجنده، ويعزهم بعزته، ويهيئ لهم كل أسباب الخير، ممَّا يحقق لهم الأمن والإيمان، والسلامة والإسلام.

ما الإيمان؟

ولكـن ما حَدُّ الإيمان الَّذي تحدثت عنه السـورة، باعتبـاره عنوانًا للنجاة من الخسر، وتحدث عنه القرآن كله في سوره وآياته؟

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

تحدَّث عنه علماء الإسلام في تخصُّصاتهم المتعدِّدة، واختلفوا في حقيقته: أي شيء هي!

أهو **المعرفة** التي تكشف الشيء، وتعرِّفه على ما هو به، وما هو عليه، ويتجلَّى مفهومه للعارف ولا يكون غامضًا عليه؟

هكذا ظنَّ بعضهم، ولكن القرآن الكريم بيَّن لنا أن كثيرًا من النَّاس يعرفون الحق معرفة جيدة، ولكنهم لا ينقادون له، ولا ينزلون على حكمه. كالذين قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى في فرعون وقومه عن آيات موسى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد اختلف فلاسفة اليونان من قديم حول ما يشبه هذه القضيَّة، فكان «سقراط» يرى: أنَّ الفضيلة هي المعرفة. وخالفه «أرسطو»، في أنَّ المعرفة وحدها لا تكفي لتحصيل الفضيلة، ما لم تنضم إليها الإرادة.

وذهب بعضُ العلماء من المسلمين، إلى أنَّ الإيمان هو: **التصديق**، فلا بدَّ أن يصدق الإنسان بالله تعالى ربًّا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن إمامًا. وقالوا: إن كلمة الإيمان معناها في اللُّغة، هو: التصديق. كما في قول إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا.

وزاد بعضهم مع المعنى اللغوي التصديق: **الإقرار باللسان**، فإنَّه لا بدَّ أن يشهد أن: لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله. وبدون هذا لا يتم الإيمان.

QaradawiBooks.com

وذهب عددٌ منهم إلى أنَّ الإيمان: **إقرار باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.**

وقال بعضهم: بل هذا هو الإيمان الكامل، وليس مطلق الإيمان.

والذي يعنينا الحديث عنه، هو: **الإيمان الكامل**، الَّذي ذكره القرآن، وأكدته السُّنَّة النبويَّة، وعمل به المسلمون الصادقون، وتداولته الكتب والمآثر. وهو المعني بالإيمان الَّذي يطلقه الله تعالى في القرآن، كما في قوله في هذه السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالمطلق ينصرف عادة إلى الكامل. وهو الَّذي علق عليه كل الخيرات والدرجات العلى في الأولى والآخرة، ولا يمكن أن تعلق هذه الخيرات والدرجات على إيمان ناقص، لا يؤثر في الواقع، ولا يغير في حياة صاحبه، ولا حياة النَّاس من حوله.

الشَّرط الثاني: عمل الصَّالحات:

والشَّرط الثاني للخلاص من الخُسْر والهلاك والضَّياع الَّذي ربطته السورة الكريمة بجنس الإنسان بعد الإيمان: أثر الإيمان في الإنسان، فالإيمان ليس شيئًا تافهًا، أو شيئًا فارغًا، أو أداة عاطلة، بل هو شيء مؤثر قوي التأثير. وأول تأثيره: أنَّه يهدي صاحبه إلى عمل الصالحات.

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، مُصْطلح قرآني شائع في القرآن حوالي ستين مرَّة، من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد تأتي مفردة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]، ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جمع صالح أو صالحة، وهو ضد الفاسد والفاسدة.

QaradawiBooks.com

والصَّلاح: ضدُّ الفساد. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، أي: المفسد يضاد الله في عمله، فإنَّه يفسد، والله تعالى يريد في جميع أفعاله الصلاح. فهو إذن لا يصلح فعله.

وفي القرآن يستعمل أيضًا مقابل الصلاح: السوء، كقوله: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢].

والصَّالحات من عمل المؤمن: ما تصلح به حياته ماديًّا وروحيًّا، ونفسيًّا وخلقيًّا، وعقليًّا وجسديًّا، وما يصلح به فردًا، وما تصلح به الأسرة، وما يصلح به المجتمع، وما تصلح به الأمة، وما تصلح به الإنسانيَّة. كل هذا يدخل في عمل الصالحات. فهي تشمل الفرائض، وتشمل النوافل، وهي تشمل عمل الدنيا، وتشمل عمل الآخرة.

فالصَّالحات قد تكون عبادات يتقرب بها إلى الله، وقد تكون أعمالًا خيرة يتقرب بها إلى الله، من بر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، ومودة الأيتام، والإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل، وعمارة الأرض، وإشاعة نصرة الحق، وإشاعة الخير.

وقد تكون عملًا دنيويًّا بحتًا، يمتهنه المسلم، كالعمل في الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، أو البناء، أو العلم والتكنولوجيا، أو في المعارف الكبيرة، كالعمل في العلوم، وفي الذرة، وفي غيرها. ممَّا تحتاج إليه الأمم في رقيها وتقدمها. فهذا كله من عمل «الصالحات». وهو ممَّا يتقرب إلى الله سبحانه به، ويعطى عليه المسلم درجات عظيمة من المثوبة عنده سبحانه، على قدر إتقانه وتفانيه وإخلاصه لله.

QaradawiBooks.com

ولا يوجد مؤمن يدعو إلى الله تعالى، وإلى الإيمان به، ولا يدعو إلى عمل الصَّالحات، فالإيمان لا يعتبر ما لم يؤد إلى العمل، ولا يعتد به عند الله ما لم يكن من عمل الصالحات، كما نجد ذلك جليًّا في القرآن.

ولذلك رأينا مؤمن آل فرعون الَّذي كان يكتم إيمانه، حين كشف عن نفسه، وأفصح عن إيمانه، يدعو إلى العمل الصالح، قال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۞ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٠].

الشرط الثالث: التَّواصي بالحق:

من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، فقد أصبح صالحًا في نفسه، ولكن بقي عليه شيء حتى يكتمل إيمانه حقًّا، ويُؤدِّي دوره المطلوب منه، ذلك أنَّ الإنسان في نظر المسلم لا يكون إنسانا حقًّا يستحقُّ الإنسانيَّة إلَّا بأمرين أساسيين: أن يصلح نفسه، ويعمل على إصلاح غيره. ولا يكون كل همِّه: نفسي نفسي!

ذلك أنَّ النَّاس كلهم إخوة له، جمعته بهم العبودية لربٍّ واحدٍ، خلقهم ورزقهم وكرمهم، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، والبنوة لأبيهم آدم، الَّذي خلقهم الله تعالى من ذريته. ولهذا قال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

QaradawiBooks.com

والمعروف: أنَّ النفس الواحدة هي: آدم أبو البشر، وزوجها هي: حواء. والأليق في معنى الأرحام في الآية، أن تكون الأرحام والقرابة العامَّة بين البشر.

فالبشر إخوةٌ بعضهم لبعض، وهذه هي الأخوة العالميَّة العامَّة، التي تُوجب على البشر كلهم: أن ينصح بعضهم لبعض، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان، وأن يقفوا جميعًا في وجه الشر الَّذي يتهددهم كلهم.

لهذا لم تكتفِ هذه السورة الوجيزة من المسلم أن يعمل صالحًا في نفسه، ويدَع غيره، فهذا لا يكفيه لكي ينجو من الخُسران المُبين، في الدُّنيا والآخرة، بل لا بدَّ من فريضة أخرى، يكمل بها دينَه، ويُعزِّز بها شخصيَّته، ويكون له بها أثر في غيره من الناس.

هذه الفريضة يُعبَّر عنها أحيانًا بـ «**الدعوة إلى الله وإلى الخير**»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فكل من اتبع رسول الله، عليه أن يدعو مثله إلى الله تعالى.

وقد يُعبَّر عنها بـ «**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»، وهي الَّتي قدمها القرآن على الإيمان في بيان خصيصة هذه الأمة، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالإيمان بالله تعالى هو أساس أمَّة الإسلام، ولكن قدَّم الله عليه في الآية: الأمر والنهي، لأهميتهما البالغة في تكوين الأمَّة، وأداء رسالتها.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي حديث أبي سعيد الصحيح: «**من رأى منكم منكرًا فلْيُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)].

وقد يعبِّر عن فريضة التَّواصي بالحقِّ بـ«**النصيحة**»، كما في حديث تميم الداري الصحيح: «**الدِّينُ النصيحة**». قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين، وعامَّتِهم**»[(٢)].

وقد عبَّرت عنه هذه السورة بـ«التَّواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر».

والتواصي: تفاعل من هذه المـادَّة: وصى وأوصى، وصية. والوصية هي: التقدم إلى الغير بما يعمل به، مقترنًا بوعظ.

وتَواصَى القـوم: أوصى بعضهـم إلى بعض. فكل إنسـان عليه أن يوصي غيره بما يعتقد أنَّه الحق، ويرى أنَّـه الخير والصلاح، وأن يقبل الوصية من غيره أيضًا: فليس هناك أحـد أصغر من أن يوصِي، ولا أحد أكبر من أن يوصى.

ومن مزايا الإسـلام: أنَّه ربط بين النَّـاس بعضهم وبعض، وجعلهم أوصياء بعضهم على بعض، فليس من حق أحدهم أن يقول لمن يوصِيه وينصح له: أنا حر، وليس لك شـأن بي. فإن هذه النزعـة الفردية قاتلة لمعنى المجتمع المسلم، والأمة المسلمة، بل كل مسلم يقول لأخيه: أنا منك وأنت مني، أنت تنصحني وأنا أنصحك، أنت تعظني وأنا أعظك.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد (١١١٥٠).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، عن تميم الداري.

QaradawiBooks.com

يقول ذلك المسلم لمن هو مثله، ولمن هو أدنى منه، ولمن هو أكبر منه، للأمراء والسلاطين، ومن هو أكبر منهم، كالخلفاء.

وأقربُ النَّاس إلى الإنسان هم أولى بوصيَّته من غيرهم، مثل أولاده، كما وصى إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

حقُّ الله سبحانه وحقُّ العباد:

وفي هذه السورة فرض الله التَّواصي بالحقِّ بين الَّذين آمنوا، فكل مؤمن عليه أن يوصي إخوانَه المؤمنين أولًا بالحق: وهو ما على كل امرئ لغيره: ما عليه لله ﷻ من حق، وما عليه للناس من حقوق. وما له على الله من حق، وما له على النَّاس من حق.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلَّا أخرة الرحل، فقال: «**يا معاذ بن جبل**». قلت: لبَّيْك رسول الله وسعدَيْك.

ثم سار ساعة، ثمَّ قال: «**يا معاذ**». قلت: لبيْك رسول الله وسعديْك.

ثم سار ساعة، ثمَّ قال: «**يا معاذ**». قلت: لبيْك رسول الله وسعديْك. قال: «**هل تدري ما حَقُّ الله على عباده؟**». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا**».

ثم سار ساعة، ثمَّ قال: «**يا معاذ بن جبل**». قلت: لبَّيْك رسولَ الله وسَعْدَيْك. فقال: «**هل تدري ما حَقُّ العباد على الله إذا فعلوه؟**». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقُّ العِبَادِ على الله ألَّا يُعَذِّبهم**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٥٩٦٧)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، عن معاذ بن جبل.

QaradawiBooks.com

كتم معاذ بن جبل هذا الحديث في نفسه، ولم يشعه في الناس، خشية أن يتكل النَّاس عليه، معتمدين على أنَّ الله لن يعذبهم بمجرد تركهم الشرك، واعتمادهم التوحيد، ولكنَّه بشر به قبل أن يموت، حتَّى لا يضيع علم أخبر به النبي ﷺ.

ولا بدَّ للمؤمن أن يعلم أنَّ الإيمان وحده لا يكفيه في النجاة حتَّى يضم إليه عمل الصالحات، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

أعظم ما تدلُّ عليه كلمة «الحقِّ»: الله تبارك وتعالى:

وأعظم ما تدلُّ عليه كلمة «الحقِّ»: إنَّه الله جل شأنه، كما قال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

فهو الخالق لهذا الكون كلِّه، أرضه وسمائه، وبحاره وجباله، وجنِّه وإنسه وملائكته، وناطقه وصامته، وعاقله وغير عاقله. وهو خالق الإنسان وواهب الحياة، ومودع الروح في ذوي الروح، والعقول في أولي العقول، ورب هذا الوجود كله، الَّذي وضع فيه من الأدلَّة ما يشير إليه، وما يدلُّ عليه، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ومن جهل هذه الحقيقة في هذه الدُّنيا ستتجلى له يوم، وتنكشف كأجلى ما يكون: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥].

QaradawiBooks.com

ولهذا قال ﷺ: «**أصدقُ كلمةٍ قالَها شاعرٌ كلمةُ لَبِيد:**

أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ بَاطِلُ»[1]

وهذا من أعظم ما يجب أن يتواصى به المؤمنون، لينجوا من مباءة الخسران والهلاك، أن يجتمعوا على هذه الحقيقة الكبرى، الَّتي تنتظمهم جميعًا، وتجمعهم ولا تفرقهم، وتحييهم ولا تميتهم، وهي الإيمان بالله تبارك وتعالى ربًّا واحدًا لا شريك له، هو الَّذي أحياهم، وهو الَّذي رزقهم، وهو الَّذي دبر أمرهم، وهو الَّذي أنزل إليهم كتبه، وهو الَّذي بعث إليهم رسله، وهو الَّذي أقام عليهم حججه، وهو الَّذي هداهم إلى صراطه المستقيم، ووهب لهم فِطَرًا يستندون إليها، وعقولًا يفكرون بها، ولم يخلقهم عبثًا، ولم يتركهم سدًى، فعلى البشر العقلاء أن يدركوا خطورة الموقف الكبير الَّذي يحيونه، وهو أنَّهم مربوبون مخلوقون مكلفون من قِبل ربهم وبارئهم ورازقهم ومدبر أمرهم: أن يؤمنوا به، ويتآخوا فيما بينهم على طاعته، ويستعدوا للقائه، ويتواصوا بذلك كله فيما بينهم.

وقد ذكر علماء الإسلام كثيرًا من الأمور الَّتي يرونها من الحق، أو قل: يراها الإسلام من الحق، الَّذي جاء به محمَّد ﷺ، وطالب النَّاس أن يؤمنوا به، ويعملوا به، ويعملوا له.

من ذلك ما جاء في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قيام الليل، قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهمَّ لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك**

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللَّهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلَّا أنت» أو: «**لا إله غيرك**». قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: «**ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله**»(١).

الحقوق التي بين الناس:

وهناك حقوق كثيرة بين النَّاس بعضهم وبعض، يجب أن يؤديها الَّذي وجبت عليه للتي هي له، ولو لم يطالبه بها، فكيف إذا طالبه بها وهي من حقه؟

هناك حق الأولاد على أبيهم وأمهم، وحق الآباء والأمهات على أولادهم، بنين وبنات، وهو ما يسمى بر الوالديْن، ولو كانا مشركيْن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

وهناك حقوق ذوي القربى وأولي الأرحام، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وهناك حقوق الجيران وأهل الحي الواحد بعضهم مع بعض، من الجار ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩).

QaradawiBooks.com

وحقوق الأزواج بعضهم على بعض، ممَّا فسر به بعضهم قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، في آية الحقوق العشرة في سورة النساء[١].

حقوق غير الآدميِّين وتجريم أعمال الإبادة:

وهناك حقوق للناس كافَّة، ولو كانوا أبناء سبيل أو غير مسلمين، بل هناك حقوق لغير الآدميين من الدواجن والأنعام والحيوانات البرية والبحرية، والأسماك والوحوش، والطير والحشرات، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لولا أنَّ الكلابَ أُمَّة من الأمم لأمرتُ بقَتْلِها**»[٢]، يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

فهناك أمة الأنعام، وأمة الكلاب، وأمة القطط، وأمة الفئران، وأمة الأسود، وأمة العناكب، وأمة النحل، وأمة النمل، وغيرها من الأمم الَّتي لا تحصى. وكل أمة خلقها الله، وهيَّأ لها خصوصيتها، ومن حقِّها أن تعيش، فلا ينبغي أن يعمل الإنسان على إبادة أمَّة كاملة من الأرض.

وإذا كان الإسلام يجرِّم أعمال الإبادة في أمم كالكلاب أو النمل أو الصراصير، فماذا نقول في الَّذين يبيدون أممًا من البشر، كما هي نظرة الصهاينة في تلمودهم ـ وفيما حرفوه من توراتهم ـ إلى غيرهم من البشر، ومن الأمم الَّذين يعتبرونهم أخس من البهائم، وأذل من الكلاب.

---

(١) يعنون بها آية: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾ [النساء: ٣٦].

(٢) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٢٢)، عن عبد الله بن مغفل.

QaradawiBooks.com

وما بالكم فيما فعله الغربيون في أهل أمريكا الأصليين، الَّذين أبادوا منهم الملايين، بوسائل لا تليق بالآدميين، وما بالكم بمن قتلوا الاستراليين الأصليين، ولم يبقوا منهم أحدا؟!

الوصيَّة بالحق تشمل الشريعة كلها:

فالوصيَّة بالحق تشمل الشريعة كلها، أصولها وفروعها، ماضيها وحاضرها، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وكما وصى بهذا الحق إبراهيم ويعقوب أبناءهم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة؛ كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوۡصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا ۝ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣١، ٣٢].

وكذلك الوصيَّة بالحق في الحالة الاجتماعيَّة ماثِلة في الوصيَّة بالوالدين والأولاد لترابط الأسرة؛ ففي الوالدين قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِى وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَىَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِى مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِى ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، وفي الأبناء قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١].

وفي الحقوق العامَّة أوامر ونواهٍ، عبادات ومعاملات، جاءت آيات الوصايا العشر الَّتي قال عنها ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من أراد أن ينظر إلى

QaradawiBooks.com

وصية رسول الله ﷺ الَّتي عليها خاتمه، فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٣][(١)]، وتلك الوصايا العشر في سورة الأنعام جامِعةٌ لأبواب الخير، موصِدةٌ لأبواب الشر.

التَّواصي بالمَرْحمة:

ومن التَّواصي بالحق: التَّواصي بالمَرْحَمة الَّتي ذكرها الله سبحانه في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] أي: يتراحمون فيما بينهم بأن يرحم قويُّهم ضعيفَهم، وغنيُّهم فقيرَهم؛ لتكون الأمَّة الإسلامية كالجسد الواحد يشدُّ بعضهم بعضًا، يجمعهم الحب والتعاطف؛ يقول ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسد؛ إذا اشتكى منه عُضْو، تداعى له سائرُ الجسد بالحُمَّى والسَّهَر**»[(٢)]؛ وفي رواية لمسلم: «**المؤمنون كرَجُلٍ واحدٍ**»، وفي

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٧٠)، وقال: حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٩٣).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) (٦٦)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

رواية له أيضًا: «**المسلمون كرجلٍ واحد؛ إذا اشتكى عينه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسُه، اشتكى كلُّه**»(١).

الشرط الرابع: التَّواصي بالصبر:

الشرط الرابع للنجاة من الخسر والضياع في هذه السورة، بعد التَّواصي بالحق، هو التَّواصي بالصبر.

فعلى أهل الإيمان الَّذين يرجون أن ينجوا من الخسران: أن يتواصَوا بأمرين أساسيين هنا: أولهما: أن يتواصوا بالحقِّ، فلا يجهلوه، ولا يغفلوه إذا عرفوه، بل يُوصي به بعضهم بعضًا. ولا يكتفوا بهذا، بل عليهم تواصٍ آخر ضروري ولا بدَّ منه، لكي يقبلهم الله ويرضى عنهم، وهو ما سمته السورة: أن يتواصَوا بالصبر.

ذلك أنَّ الحقَّ ثقيل، لا يقدر على تكاليفه إلَّا كل ذي عزم من أهل الصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى على لسان يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. فهذه الآية ابتدأت باللام المُوطِّئة للقسم، وأكَّدت بنون التوكيد، وقالت: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ وغيرها من أنواع الابتلاء، حتى لا تهوِّل على النَّاس الأمر، ولكن ذكرت أنَّه ابتلاء بنوع قليل من الخوف والجوع ونقص من الأموال والثمرات، وأنَّه يحتاج إلى الصبر.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) (٦٧).

QaradawiBooks.com

وفي آيــة أخرى، قال تعالــى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ولهذا قالوا: الصبر مُر، لا يتجرعه إلَّا حر، فلا بدَّ أن تُربَّى الأمَّة على الصبر، لتقوم بما أُمِرت به، وتنتهي عمَّا نُهيت عنه، وترابط على أمر الله.

الصبر من أعظم الأوامر الإلٰهيَّة:

ولهذا كان الصبر من أعظم الأوامر الإلٰهيَّــة، التي أُمر بها المؤمنون في القرآن المكي، والقرآن المدني، وممَّا أُمر به النبي ﷺ خاصَّة.

فالرســل والأنبياء جميعًا قد أُمِروا بالصبر، وأمروا به، قال شــعيبٌ لقومه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقال القرآن على لسان الرُّسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وفي القــرآن المدني يقول الله تعالــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقــرة: ١٥٣]، وقــال تعالــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال سبحانه في سورة الأنفال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد أخذ على المؤمنين في هذه السورة ـ سـورة العصر ـ أن يؤكِّدوا إيمانهم بالتَّواصي بالحق، يصونونه جميعًا، ويحفظونه ويدافعـون عنه، حتَّى لا يضيع ولا يهـون، وعزَّز ذلك بأنَّ عليهم أن يتواصوا ويتعاهـدوا فيما بينهم بمراعاة الحقـوق الَّتي بين بعضهم وبعض، ويرعـوا جانبَ الحـقِّ، وهـو الله ﷻ، فلا بدَّ لكي يسـتمرُّوا في أداء هذا الحق والعناية به، وعـدم الغفلة عنه، أو إهداره ونسـيانه: أن يتواصَوا بالصبر عليه؛ فإنَّ الصبر على الحقِّ أمر في غاية الأهمية، إذا لم يكن محفوظًا ومرعيًّا ومعتنًى به، هان على الناس، وإذا طال هوانه عليهم ضيَّعوه شيئًا فشـيئًا، حتَّى يتسرَّب منهم، فلا يكادون يحصلون عليه.

كلام ابن القيِّم عن هذه السورة:

وللإمام ابن القيِّم في هذه السورة كلام جميل وعميق، يجب علينا أن نسجله عنه هاهنا، ليسـتفيد منه قارئنا، فابن القيِّم من أعظم الَّذين فهموا القرآن بأحكامـه وحِكمه ومعانيه وأسـراره، وعلَّمـوه للأمَّة، وأبلغوه للناس.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في الحديث عن إنسان سـورة العصر: «فأقسم بالعصر الَّذي هو زمـان أفعال الإنسـان ومَحَلُّهـا على عاقبة تلـك الأفعال وجزائها، ونبَّه بالمبـدأ وهو خلق الزمان، والفاعليـن وأفعالهم على المعاد، وأنَّ قدرته كما لم تقصر عن المبدأ، لم تقصر عن المعاد، وأنَّ حكمته الَّتي اقْتَضت خلق الزمان وخلـق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسـمين خيرًا وشرًّا، تأبى أن يسـوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين،

QaradawiBooks.com

بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلَّا من رحمه الله، فهداه ووفَّقه للإيمان والعمل الصَّالح في نفسه، وأمر غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمَّل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فإنَّه ضيق الاستثناء وخصَّصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]. ولم يقل: «وَتَوَاصَوْا»، فإنَّ التَّواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرَّد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خُسْر. ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضًا على الأعيان، وقد تكون فرضًا على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتَّواصي بالحق يدخل فيه الحق الَّذي يجب، والحق الَّذي يستحب.

والصبر يدخلُ فيه الصبر الَّذي يجب، والصبر الَّذي يُستحب.

فهؤلاء إذا تواصَوا بالحقِّ، وتواصَوا بالصبر، حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الَّذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم، ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء. وهو سبحانه إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها، قد يطلق عليه أنَّه في خسر، وأنَّه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد

QaradawiBooks.com

فرطنا في قراريط كثيرة[1]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسـر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولمَّا قال في سـورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فقسـم النَّاس إلى هذين القسـمين فقط. ولما كان الإنسـان له قوَّتان: قوَّة العلم، وقوَّة العمل. وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، اسـتثنى سـبحانه من كمل قوته العلميَّة بالإيمان، وقوَّتـه العمليَّة بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به، من الإنسان الَّذي هو في خسر. فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسـه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

فتضمَّنت الآية جميعَ مراتب الكمال الإنسـاني، مـن العلم النافع، والعمل الصَّالح، والإحسـان إلى نفسـه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقَبوله لمن يأمره بذلك، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، إرشـاد إلى منصب الإمامة في قوَّة الدين. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوعٌ على المقدور، كالمصائب، ونوعٌ على المشروع.

وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النَّواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأمَّا النوع الأوَّل من الصبر، فمشـترك بين المؤمـن والكافر، والبر والفاجـر، لا يثاب عليه لمجـرده، إن لم يقترن به إيمـان واختيار. قال

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٣٢٣، ١٣٢٤)، ومسلم (٩٤٥)، كلاهما في الجنائز.

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ، في حق ابنته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**»[(١)]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوَّة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فأمره أن يصبر ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنَّهم لعدم يقينهم عدم صبرهم. خفوا واستخفوا قومهم. ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره خفَّ واستخف، فالموقن الصابر رزين؛ لأنَّه ذو لبٍّ وعقل. ومن لا يقين له ولا صبر عنده، خفيف طائش تلعب به الأهواء والشَّهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان»[(٢)].

اتِّفاق الصحابة على قراءة السورة عند الافتراق:

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ، وتلامذته الَّذين تلقوا عنه العلم والعمل، تعوَّدوا إذا اجتمع بعضهم مع بعض ألا يفترقوا حتَّى يذكِّر بعضهم بعضًا بما نبَّههم الله على التَّواصي به في سورة العصر.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، عن أسامة بن زيد.

(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم صـ ٨٤ ـ ٨٨.

QaradawiBooks.com

روى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي مدينة الدارمي، قال: كان الرجلان من أصحاب النبيِّ ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتَّى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]، ثمَّ يُسَلِّم أحدهما على الآخر(١).

ولم يكن القصد من قراءتها التَّبرُّك، كما يتوهَّم بعض الناس، وإنَّما التَّذكير بما تضمَّنته السورة من التَّعهُّد بالشروط الأربعة، من الإيمان والعمل والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصبر.

ذكر السيوطي في «الدرِّ المنثور»، ما أخرجه الفِرْيَابي وعبدُ بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن محمَّد بن كعب القرظي: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ قال: قَسَمٌ أقسم به ربُّنا وتبارك وتعالى، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ قال: النَّاس كلهم، ثمَّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثمَّ لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ثمَّ لم يدعهم وذاك حتَّى قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، ثمَّ لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ يشترط عليهم(٢).

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥١٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٦٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٩٨): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة، وهو ثقة. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٤٨).

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٦٢٢/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الهُمَزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۞ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۞ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۞ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۞ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۞ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾

سورة الهُمَزة مكيَّة.

نزلت في ذمِّ أحد كفَّار قريش، ووصفته بهذه الأوصاف السيئة المذمومة عند الله وعند الناس، وبيَّنت سائرَ خصاله الأخرى، الَّتي تثبت حقيقة شخصيته، وما يستحقه من جزاء وعقاب شديد، يدَّخره الله له يوم القيامة، ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۞ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾.

وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل غيره. وقال مجاهد: هي عامَّة[1].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

الويْل: الهلاك والعذاب، أعدَّه الله لكل هُمزة لُمزة. والهُمَزة واللُّمَزة: صيغة مبالغة على وزن «فُعَلة» من الهمز واللمز، وكلٌّ منهما إساءة إلى النَّاس بالازدراء والتحقير. الهمز بالقول، ويُسَمَّى «الهَمَّاز» أيضًا، كما في

(١) معالم التنزيل للبغوي (٥٣٠/٨).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، والمـراد: النَّيْل من أعراض الناس، والغض منهم، والطعن فيهم.

واللمز: بالفعل. وعن ابن عبَّاس: هُمَزة لُمَزة: طعَّان مغْتاب[1]. وبعضهم قال: الهمزة يهمـزه في وجهه. واللُّمزة من خلفه. وقيـل: الهمزة واللُّمزة: بلسانه وعينه. وقال بعضهم: الهمزة باليدين والعين، واللُّمزة باللسان.

وكلُّها متقاربة ومتداخِلة، المهم أن هذا الشخص لا يأتي النَّاس منه إلَّا شرٌّ، من قوله وفعله، من لسانه وعينه ويده، من وجهه ومن خلفه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]. وبناء «فُعَلة» يدلُّ على أنَّ ذلك عادة منه قد جرى بها، ونحوها: اللُّعَبَة والضُّحَكَة.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾

هذا الشخص الهُمَزة اللُّمَزة الطَّعَّان العيَّاب، المُؤذي للنَّاس، ليس هذا عيبه الوحيد، بـل له عيوبٌ أخـرى، تتعلق بالمـال، ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾، أي: جمعـه بعضه على بعض، وأحصى عـدده، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]. أي: أنَّه دائمًا مشغول بالمال وتعديده، وجمعه هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام وهمد كأنَّه جيفة.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾

ومن غفلته وبلادته: أنَّ شـدَّة حبه للمال جعلته يظـنُّ أنَّ هذا المال وجمعه، وكسـبه يخلده في هذه الدار. فهو يظُنّ أنَّ ما جَمَعَ قد حَفِظ له حياتَه التـي هو فيها فهو لا يفارقُهـا إلى حياةٍ أخـرى يُعاقَبُ فيها على ما كسب من الأعمال السيئة.

(١) رواه الطبري في التفسير (٦١٨/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾، أي: ليس الأمر كما زعم، ولا كما حسب. فالمال لا ينفع صاحبُه في الآخرة، ولا يشفع له، وكما قال سيِّدنا إبراهيم في دعائه لربه: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]. ومن هنا قال: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ أي: لينبذن هذا الَّذي جمع المال وعدَّده في الحُطَمَة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾

وهل تدري ما الحُطَمَة، وما معناها ومفهومها إذا ذكرت؟ وهذا الاستفهام يُراد به تفخيم أمرها، وإكبار شأنها، وبيان أنَّها ممَّا لا تدركها العقول، ولا تحيط بها الأفهام، ولا يعرفها إلا خالقها فمن ذا الذي يعلمك بشأنها إلا خالقها؟

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾

﴿ٱلۡحُطَمَةُ ﴾، نار الله الموقَدة، فهي اسم من أسماء جهنَّم، نار الآخرة، وهو على وزن «فُعَلَة» من الحَطْم، وهو الكسر، فهي تحطم وتكسر كل من يلقى فيها. إنَّها ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ﴾، منسوبة إلى الله، ومعناها: أنَّها ليست كنار الدنيا، بل جاءت الأحاديث تقول: «**نارُكم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنَّم**»[1]. فهي نار الله، ليست نار عبد من عباده، ومن أوصافها اللازمة لها: أنَّها ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، المشتعلة المتوهَّجة، لا تنطفئ ولا تضعف هي دائمًا موقدة.

(١) سبق تخريجه صـ٣٤٥.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾

هذه النَّـــار ليســـت كالنيـــران، الَّتي لا تـــأكل إلَّا ظاهر الأجســـاد، ولا تتغلغل في الداخل إلى الأفئدة والقلوب، بل أوَّل ما تهتم به وتطَّلع عليه هي الأفئـــدة، أي: القلوب المكنونة في صـــدور الناس. يقال: طلع الجبل، واطَّلع عليه إذا علاه.

فهي نار جهنم المُسْـــتعرة الملتهبة، الّتي تطّلع على الأفئدة التي كان ينبعثُ منها الهمز واللمز، وتكمنُ فيها السُّخريةُ والكبرياء والغرور، فهي تصل إليها وتؤثِّر في موضع الشعور ومركز الإحساس، فتحرقُها وتحرقُ صاحِبَها، أو تطلع على ما فيها وتميِّز بين أنواعها. فهي تطَّلع على الأفئدة وتقهرها وتعلوها، لأنَّها تدخل في الجوف، أو هي تعرف أسرار القلوب، وتميِّز بين الطائع والعاصي.

قال الإمام الفخر الرازي: «في تفســـير الآية وجهان: الأول: أنَّ النَّار تدخل في أجوافهم حتَّى تصـــل إلى صدورهم، وتطَّلـــع على أفئدتهم، ولا شـــيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشـــد تألُّمًا منه بأدنى أذىً يماســـه، فكيف إذا أطلقت نار جهنَّم فاستولت عليه. ثمَّ إنَّ الفؤاد ـ مع استيلاء النَّار عليه ـ لا يحترق، إذ لو احترق لمات، وهذا هو المراد من قولـــه تعالـــى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طـــه: ٧٤]. ومعنى «الاطِّلاع»: أنَّ النَّار تنزل من اللحم إلى الفؤاد.

والثاني: أنَّ ســـبب تخصيص الأفئدة بذلك، هـــو أنَّها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة، والنيَّات الفاسدة»[1].

(١) تفسير الرازي (٢٨٦/٣٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾

مؤْصَدة: مغلقة مطبقة، وهذه زيادة في العقاب والإيلام؛ لأن من يعيش في مكان مغلق، يزداد ألما وكمدا، ويشعر بالحرارة والاختناق، فكيف إذا كان في النار؟

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾

عمد من حديد، ممدودة عليهم. قال ابن عبَّاس: أدخلهم في عمد، فمدَّت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل، فسدت بها الأبواب[١]. وقال قتادة: كنا نحدث أنَّهم يعذبون بعمد في النَّار. واختاره ابن جرير[٢]. وقال أبو صالح: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾: يعني القيود الثقال[٣]. أي: في قيود ثقيلة لا يفلتون منها.

خذْ ما شئت من هذه التفاسير، فليس هناك إلَّا العذاب الغليظ، من أي وجه طلبته، ومن أيِّ جهة أثبتَّه، فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

اللهمَّ قِنَا عذاب النَّار.

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٢٥/٢٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تفسير ابن كثير (٦٧٥/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

السورة الكريمة مكِّيَّة بالإجماع.

وهي تتضمَّن التَّذكير بحادث كبير، وقع عند مولد محمَّد بن عبد الله، العربي القرشي الهاشمي المطلبي، الَّذي بعثه الله ـ بعد ذلك بأربعين سنة ـ برسالة عظيمة للعرب خاصة، وللناس كافة. فكانت هذه الحادثة الَّتي هزت العرب عامَّة، وخصت قريشا حماة الكعبة بالحماية: إرهاصًا لنبوة محمَّد، الَّذي كانت البشائر تبشر به، وكان العرب يؤرخون حوادثهم بعام الفيل، يقال: هذا وقع بعد عام الفيل بخمس سنوات، أو بعشر سنين، وهكذا.

قال العلامة الخازن في تفسيره: «وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد صلّى الله عليه وسلّم ومعجزة ظاهرة له، وذلك أنَّ الله تعالى إنَّما فعل ذلك لنصر من ارتضاه، وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم الدّاعي إلى توحيده، وإهلاك من سخط عليه، وليس ذلك لنصرة قريش، فإنهم كانوا

QaradawiBooks.com

كفارًا لا كتاب لهم، والحبشة لهم كتاب فلا يخفى على عاقل، أنَّ المراد بذلك نصر محمد صلّى الله عليه وسلّم، فكأنه تعالى قال: أنا الذي فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل تعظيمًا لك، وتشريفًا لقدومك، وإذ قد نصرتك قبل قدومك فكيف أتركك قبل ظهورك»[1].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾

الخطاب في هذه الآية وما بعدها، لمن أنــزل عليه القرآن وخوطب به، وهو محمَّــد ﷺ، الَّذي خوطب بكثير من الســور الَّتي فاتت والَّتي ستأتي، مثل سورة الماعون، وســورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، وسورة الإخلاص، وسورتي المعوذتين. وهي هنا خطاب كذلك لكل من يتأتَّى خطابه من أمته.

لِم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أنَّ هذه الواقعة، وقعت قبل البعثة النبويَّة بزمن طويل؟ والجــواب: إنَّ المراد مــن الرؤية في قولــه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: العلم والتذكير، وهو إشــارة إلى أنَّ الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًّا مساويًا في الوضوح والجلاء للرؤية.

ولِم كان الاســتفهام عن الكيفيَّة: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾؟ لأنَّ الأشياء لها ذوات، ولها كيفيات، باعتبارها يدلُّ على مداومتها، وهذه الكيفيَّة هي الَّتي يســميها المتكلمون وجــه الدليل، واســتحقاق المدح إنَّما يحصل برؤية هذه الكيفيَّات لا برؤية الذوات. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، ولا شك

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٤/٤٧٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

أنَّ هذه الواقعة كانت دالَّـة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالَّة على شـرف محمَّد ﷺ فيمـا بعد، لأن مذهبنا ـ كمـا قال الإمام الرَّازي ـ أنَّه يجوز تقديم المعجزات على زمان بعثة الرسـل، تأسيسًا لنبوتهم وإرهاصًا لها[1].

وإنَّما قال: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ ليكون ذلك في معرض التَّعجب، فهو تعجب من الله ربه، الَّذي يرشده ويربيه ويرقيه في مدارج الكمال، واختار هذا الاسـم ﴿رَبُّكَ﴾ بدلًا مـن لفظ الجلالـة (الله)؛ ليكـون أدل على الحضور والشهود.

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، اختـار لهم اسـم «الأصحاب»، ولـم يقل: ملاك الفيل، أو أربابه، قال الرازي: «لأنَّ الصاحـب يكون من الجنس، فكأنَّه يدلُّ على أنَّ أولئـك الأقوام كانوا من جنس الفيل، فـي البهيمية وعدم العقل والفهم. بل القـرآن قال عن أمثالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[2].

والفيل هـو أضخم حيوان عرفه النَّاس مـن ذوات الأربع. ومعروفة للجميع قوته وقدراته.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

الاسـتفهام للتقرير. يعني أنَّه جعل كيدهم الَّذي كادوه، ومكرهم الَّذي دبروه في تضليل، أي: في إبطال وتضييـع، فلم يفلح ولم يغْن عنهم شيئًا.

(١) تفسير الرازي (٢٨٩/٣٢).
(٢) المصدر السابق (٢٩٠/٣٢).

QaradawiBooks.com

كما هو شأنُ الكافرين والظالمين، الَّذين يقفون في وجه دعوة التَّوحيد ضد الشرك، وفي وجه العدل ضد الظلم، وفي وجه الحقِّ ضد الباطل، يحبط الله مكرهم، ويدرأ شرَّهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۞ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

وقد كان من كيْد هؤلاء تدبير الجيش المقاتل بجنوده وضباطه وأسلحته وأدواته، ومن أعظمها الفيل؛ الَّذي لم يكن العرب يعرفونه، ولعله كان على رأسه فيل معين، أو هو ومعه أفيال أخرى. فلم تغن عنهم شيئًا، فإنَّ الفيل الأكبر الَّذي يركبه القائد، كلما وجَّهوه إلى الكعبة نكص وتمرَّد، وكلَّما وجَّهوه إلى جهة أخرى سار وركض.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾

أرسل الله على هذا الجيش الَّذي يقوده أبرهة الحبشي، مدجَّجًا بالفيل وما معه من ألوان الأسلحة، وأدوات التدمير طيرًا أبابيل، والأبابيل: الفرق والجماعات يتبع بعضها بعضًا، كثيرة شتى متتابعة مجتمعة. وقال بعضهم: مختلفة، تأتي من هاهنا ومن هاهنا، أتتهم من كل مكان.

والأبابيل قال الجمهور: لا واحد له من لفظه. وقال آخرون: جمع إبيل، أو إبالة، وممَّا ورد في ذلك من أمثال: «ضِغْثٌ على إِبَّالة».

كانت هذه الجماعات الكثيرة من الطير صفوف منتظمة في جيش مجهز، كامل العدد والعدة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾

﴿سِجِّيلٍ ﴾، شـــديد صُلب، أي: طين متحجر، وأصل الكلمة فارسية دخلت العربيَّة، وهي في أصلها كلمتان «ســـنك وكل» والكاف هنا جيم قاهرية، والسنك يعني: الحجر، والكِل يعني: الطين. ويقول: الحجارة من هذين الجنسين.

وكل طير منها يضرب ويرمـــي بالحجارة الَّتي يحملها، بعض هؤلاء الجنود، الَّذيـــن جاؤوا من بلادهم البعيدة، لهـــدم الكعبة البيت الحرام، فيصيبه الحجر فيقتله، فهي جند الله، المحمل بعذاب الله، ولن ينجو منه أحد من الظالمين.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

فحوَّل الله هؤلاء الجنود، المهيَّئين للقتال، المعدين للنزال، إلى مادَّة أشـــبه بورق الزرع الَّذي يقضم، شـــبَّهوه بالتبن الَّذي تأكله الدواب، أو القصيل الَّذي يجز للدواب، وجاء عن ابن عبَّاس: العصف: القشرة الَّتي على الحبة، كالغلاف على الحِنْطة[1].

ما أغنى عنهم الفيل، ولا أغنى عنهم السلاح الثقيل، ولا أغنى عنهم الجيش الخطير، ولا أغنى عنهم العدد الكثير؛ ولا الجمُّ الغفير، لأنَّه لم تكن هناك جيوش دولـــة تحاربهم، وتقاومهم، إنَّما كانـــوا يحاربون الله وحده، فأعد لهم جندًا من جنده، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وما كان لجند الله أن يُهزم، بل لا بدَّ لـــه أن ينتصر، وحق له أن ينتصر، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٨٨/٨).

QaradawiBooks.com

كان أبرز رجل في مكَّة عبد المطلب بن هاشم جد محمَّد بن عبد الله، وقد أخذ أبرهة عددًا كبيرًا من إبله، فأقبل عليه يطلب أن يرد إليه إبله، فعجب الرجل أن يسأله عن الإبل، ولا يسأله عن البيت، فقال له: أمَّا الإبل فأنا ربها، وأمَّا البيت فله رب يحميه.

ورجع من عنده يدعو على هذا المتجبِّر الظالم، ومن الأبيات الَّتي كان يدعو بها، كما رووها:

يا ربِّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ـنعُ رَحْلَه فامْنَعْ رِحَالَكْ
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليومَ آلَكْ
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحَالُهم أبدًا مِحَالَكْ[1]

وهكذا حفظ اللهُ البيتَ الحرام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

(١) السيرة النبويَّة لابن إسحاق صـ ٦٢، تحقيق سهيل زكار، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾

السورة مكيَّة.

وهي سورة مستقلة، بحكم تسميتها، وبحكم موضوعها، وبحكم صياغتها وأسلوبها.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾

اللام في الآية الكريمة للتعليل، والإيلافِ: مصدرُ آلفه إيلافا. وأَلِفَ الشيءَ إلفا وإلافًا لزمه واعتاد عليه. وقريش: القبيلة التي ينتسب إليها الرسول الكريم ﷺ. أي: من أجل إيلاف قريش لرحلة الشتاء والصيف، أي: من أجل جعلهم يألفون هاتين الرحلتين الكبيرتين العالميتين، إحداهما في الشتاء إلى اليمن، والأخرى في الصيف إلى الشام.

وكانت هاتان الرحلتان في غاية الأهمية لسكان هذه المنطقة الحجازية، وقضاء كثير من حاجاتهم الَّتي تهمهم، ويحتاجون إليها من الخارج، ولكل واحدة من هاتين الرحلتين مصالح وأهداف تحققها،

QaradawiBooks.com

لا تحققها الرحلة الأخرى، لاختلاف طبائع البلاد ومنتجاتها وصناعاتها، وما اعتاده أهلها في مختلف الشؤون ممَّا يؤكل وما يلبس وما يصنع، وما يصدر إلى الآخرين، وما يستورد منهم.

وقد ألقى الله في قلوب قريش حبَّ هاتين الرحلتين، والاعتياد عليهما، وتآلف سائر النَّاس من حولهما معهم عليها.

وكان هذا ممَّا هيَّأ الله لقريش ومن حولها، ومن كان على مثل حالها من العرب، فقريش أبناء وذرية فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، هم قبيلة رسول الله ﷺ، وجماعته، الَّذين حاربه منهم من حاربه، كعمه أبي لهب، وآمن به من آمن، وناصره من ناصره عصبية له، وحفاظًا عليه.

وهاتان الآيتان هما جزء من الآيتين الكريمتين، اللتين بهما تكتمل السورة الكريمة، فالسورة بآياتها الأربع جملة واحدة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾

من أجل إيلاف قريش رحلتهم، فهم مطالبون مأمورون من الله تبارك وتعالى، رب هذا البيت العتيق، البيت الحرام بمكة المكرمة، الَّتي هيَّأهم الله ليعيشوا فيها، ويقيموا بها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

هم مطالبون أن يعبدوا رب هذا البلد، ويوحدوه ويفردوه بالعبادة والطاعة، ولا يشركون به ولا معه إلٰها آخر. كما فعل الكثير من العرب، ممَّن أفسدوا هذه العبادة، فلم تعد لله وحده، ولم يعد ربهم الَّذي خلقهم

QaradawiBooks.com

وســواهم ورزقهم، هو الَّذي تعنو له وحده الوجوه، وتسجد له الجباه، وتركع له الظهور.

ثم يبيِّن الله تعالى لهم جدارته بأن يعبدوه، وحده لا شريك له، فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾، هــذا الإلٰــه العظيم رب البيت، هو الَّذي تميــز بأمرين أو بنعمتين عظيمتين، ليس لأحد ســواه فضل فيهما.

النعمة الأولى: نعمة إطعامهم من جوع، فقد خُلق الإنســان بطبيعته محتاجًا إلى الطعام، لا يستغني عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨].

لهذا هيَّأ الله للناس الأطعمة المختلفة من البر والبحر، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، بل هيَّأ «أمَّ الإنسان» لتطعمه من ثديها، قبل أن تظهر له أسنان تستطيع أن تقطع، ومن هنا كان على كل قادر أن يطلب الطعام الملائم له ليأكله، ومن لم يجد فعلى منْ عنده طعام أن يؤتيه، و«**ليس مِنَّا من بات شبعان، وجارُه إلى جنبه جائع**»[1].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾

ذكر الله النعمة الثانية بعد ذكر النِّعمة الأولى، وهي الإطعام من جوع.

والنعمة الثانية: الأمن من الخوف، فدلنا هذا الجزء من الآية على أنَّ نعمة الأمن من الخوف، نعمة كبيرة. من هيَّأها الله له، كان أهلًا أن يشكر الله تعالى، وأن يسأله المزيد منها، والحفاظ عليها.

(١) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وابن حجر في القول المسدد (٢١/١)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

وبهاتين النعمتين: الإطعام من جوع، والأمن من خوف، تتكامل على الإنسان نعم الله، الَّتي لا بدَّ للإنسان منها. الأولى: نعمة الكفاية من العيش. والثانية: نعمة الأمن من الخوف.

ويجب على المجتمع المسلم أن يسعى بكل قوة، مع الآخرين من جيرانه وأعوانه وخلطائه، أن يوفر هاتين النعمتين بالقدر المناسب لكل مسلم: الطعام أو الكفاية، والأمن.

ولهذا اعتبر الرسول ﷺ الأمن من العناصر الأساسيَّة لكل فرد في حياته، كما قال: «**من أصبح آمنًا في سِرْبه، معافًى في بدنه، عنده قوتُ يومه، فكأنَّما حِيزت له الدُّنيا بحذافيرها**»[1].

واعتبر القرآن شرَّ المجتمعات من ابتلي بالمصيبتين معًا: الجوع والخوف، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ولهذا كانت نعمة الله على قريش أن أنعم عليهم، بالرَّخاء من العيش، وبالأمن من الخوف، بفضل سدانتهم ورعايتهم للبيت الحرام، الَّذي جعلهم الله خدمًا له، وقوامًا بأمره وأمر حجاجه ومعتمريه، بإطعامهم وسقايتهم، وخدمتهم طوال حجهم وعمرتهم، فوفر الله ـ بوساطة ما يقومون به للبيت ـ الأمن في سفرهم وسياحتهم في طول البلاد

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨)، عبيد الله بن محصن الأنصاري.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

وعرضها، والأمن في بلدهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

نسخة مجانية
غير مخصصة للبيع

غير مرخصة للطباعة

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾

هذه سورة مكيَّة، من قصار المفصَّل، عرفت باسم سورة «الماعون».

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾

الخطاب لرسوله ﷺ، الَّذي يتنزل عليه القرآن، ويخاطب به، قبل أن يخاطِب غيره، وهو في الوقت ذاته، خطاب لكل عاقل يتأتَّى خطابه، فهو خطاب لكل مسلم.

وهو ـ وإن كان في صورة الاستفهام ـ فإنَّ الغرض بمثله المبالغة في التعجب، كقولك: أرأيت فلانًا ماذا ارتكب؟ ولماذا عرض نفسه؟

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: أرأيت يا محمَّد، أو أرأيت أيُّها العاقل، هذا الَّذي يكذِّب بالدين، بعد ظهور دلائله، ووضوح بيناته.

QaradawiBooks.com

والدين يراد منه عدة معانٍ، فالدين هو ما بعث به رسـله، وأنزل به كتبه إلى الخلق، ليعبدوه، ويطيعوه، ويتبعوا منهجه، فيجب التصديق به، ولا يجوز تكذيبه.

والدين أيضًا هو المعاد والجزاء والثواب والعقاب.

ومن المؤسف حقًّا: أن نجد في النَّاس في كل عصر من يكذِّب بهذا الدين، ومـن يصدُّ النَّاس عنـه، ومن يقف في وجه من أرسـل به، من الكفرة والمكذبين، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، هل عرفت هذا الجاهـل الأبله، الَّذي يكذب بالديـن والجزاء والآخرة؟ إن كنت لم تعرفه، فها أنا أدلك عليه، وأهديك إليه.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

هو رجل قاسـي القلـب، حجـري العواطف، لا يليـن ولا يرحم، ولا تهمُّه البطون الجائعـة، ولا الأعين الدامعـة، ولا القلوب الواجفة، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، فهو يقهر اليتيم، ويدعه ويدفعه بعنف وجفوة، دلالة على انتزاع الرحمة من قلبه، ولا يهتم بأمر المسـلمين، وهو الَّذي لا يفكر في غيره، فلم يعد ينشغل بأمـر النَّاس من حولـه، وخصوصًا الَّذين أسـكتهم الفقـر وأضعفهم، فلا يحض غيره من القادرين على إطعام المسـاكين، أن يقوموا بواجبهم ويكفلوهم، ويضمنوا لهم المعيشة المعقولة، الكافية لأمثالهم، وقد أكَّد القرآن الوصيَّـة باليتيم، فقال تعالى في سـورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وهذا كله من الحفاظ على شخصيَّته ونفسـيَّته، كما أمر أيضًا بالحفاظ على ماله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤]،

QaradawiBooks.com

وشـــددت في ذلك الأحاديث النبويَّة، حتَّى قال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا**» وأشار بالسبابة والوســطى، وفرج بينهما شيئًا[1]. وصحت في هذا المعنى أحاديث أخرى.

هذا الإنســان الَّذي فقد هذا العنصر القوي فــي حياته، وهو عنصر الدين، فقد منه خصلتين مهمتيــن: التعامل برحمة ولطــف مع اليتيم، الضعيف الَّــذي فقد أباه، ففقد كل ما يســند ظهره، ويشــد أزْره، وفقد النخوة والعاطفة الحية والقلب الرحيم، الَّذي جعله لا يهتم بالمسكين، ولا يحض على إطعامه.

والإسلام يرى من الفرائض الدينيَّة الأساسيَّة على النَّاس جميعًا: أن يحضَّ بعضهم بعضًا على إطعام المسكين، ولا يجوز أن يضيع المساكين والفقراء في قلب مجتمع مسلم.

وهذه فريضة دينيَّة كالــزكاة، أهملها المجتمع، وقد ذكرها القرآن في ســورة الماعون، وفي ســورة الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]، وفي سورة الحاقة حيث يحدثنا القرآن عن أهل الشمال، الَّذين يأخذ أحدهم كتابه بشماله، ويقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٣٤].

الحضُّ على طعام المســاكين والفقراء فريضة دينية، لها هذه المنزلة في ديــن الله، وهذا الحضُّ يوجــب على جماعة المســلمين، أن يقيموا

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٥)، عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

جمعيات خيرية إسـلامية، تقوم بهـذا الأمر، وتتفرغ لـه، وتجمع من القادرين من المسلمين، ما يسـد رمق المحتاجين، ويغنيهم، ولا يدَعهم يموتون جوعًا بين الناس.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾

ذكر ابن كثير «عن ابن عبَّاس وغيره، يعني المنافقين، الَّذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِّلۡمُصَلِّينَ﴾، أي: الَّذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثمَّ هم عنها ساهون، إمَّا عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عبَّاس، وإمَّا عن نقلها في الوقت المقدر لها شرعًا، فتخرجها عن وقتها بالكلية، كما قال مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: والحمـد لله الَّذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، ولم يقل: في صلاتهم ساهون.

وإما عن وقتها الأول، فيؤخرونهـا إلى آخره دائمًا أو غالبًا. وإمَّا عن أدائها بأركانها وشـروطها على الوجه المأمور به. وإمَّا عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشـمل هذا كله، ولكل من اتصف بشـيء من ذلك، قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي.

كما ثبت فـي الصحيحين[1]، أن رسـول الله ﷺ قـال: «**تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرْقب الشمس،**

(١) كذا في تفسير ابن كثير، ولم أقف عليه في صحيح البخاري، وعده الحميدي في الجمع بين الصحيحين من أفراد مسلم، وعزاه ابن الأثير في جامع الأصول، والمزي في تحفة الأشراف (١١٢٢)، إلى مسلم وحده.

QaradawiBooks.com

حتَّى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلَّا قليلًا»[١]. فهذا أخر صلاة العصر الَّتي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثمَّ قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضًا؛ ولهذا قال: «**لا يذكر الله فيها إلَّا قليلًا**»»[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾

الذين يؤدُّون فرائض الله، الَّتي أمروا بها رياء وسمعة للنَّاس، لا لابتغاء وجه الله سبحانه، والله تعالى لا يقبل من الأعمال، إلَّا ما كان خالصًا لوجهه.

وفي الحديث أنَّ الله تعالى يقول: «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكَه**»[٣].

﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾

هذا الصنف من خلق الله، من الَّذين لا قلوب لهم، تخفق بحبِّ الله، أو برحمة الضعفاء من النَّاس، أو التعاطف معهم، ومحاولة تسهيل أعمالهم، بمعاونتهم فيما يحتاجون إليه من متاع البيت، وحاجات المجتمعات الصغيرة بعضها مع بعض، كما نقل عن الصحابة وتلاميذهم رضي الله عنهم، من مثل القدر، والمنخل، والإبرة، وكل الأدوات الَّتي يعتاد الجيران استعارتها، بعضهم من بعض، وبعدها يردونها إلى أهلها.

---

(١) رواه مسلم في المساجد (٦٢٢)، عن أنس.

(٢) تفسير ابن كثير (٤٩٣/٨).

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة، وفي معناه عدة أحاديث.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

هذه أقصر سورة في القرآن الكريم، وهي مكيَّة.

وفيها امتنانٌ من الله ﷻ على رسوله الكريم، بما أعطاه من نِعم شتَّى في الدُّنيا والآخرة، وهو يذكر له هذه النِّعم، ليذكره بها، ويذكِّر أمَّته معه، حتَّى لا ينسوها، ويقوم الرسول وأمته بواجب شكرها، فمن حقِّ كل نعمة تُسدى أن تشكر، وأن يشكر مُسديها، ويفرح بها من أعطيها، ويسأل الله له أن يديمها عليه.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

بهذه الجملة الاسميَّة المؤكَّدة بـ «إنَّ»، المعبَّر فيها بضمير الجماعة الحاضر ﴿إِنَّآ﴾ دلالة على عظمة المتكلم، فهذا كله يوحي بعظمة المعطِي والمُعطَى له، وهو محمَّد رسول الله ﷺ المخاطب، والمعطى هو ما سماه القرآن بـ ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾.

نسخة مجانية

و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، صيغة مبالغة من الكثرة، ومعناه: الشيء البالغ من الكثرة حد الإفراط. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم رجع ابنك؟ قالت: رجع بكوثر. وقال الكميت الشاعر:

وأنت كثيرٌ يا ابنَ مَرْوان طيِّبٌ وكان أبوكَ ابنَ العقائل كَوْثَرَا[1]

نهر الكوثر في الجنة:

ومن الكوثر الَّذي أعطاه الله لرسوله محمَّد ﷺ، في الآخرة، ما رواه الإمام أحمد قال: «حدَّثنا محمَّد بن فُضَيْل، عن المختار بن فُلْفل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسولُ الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسِّمًا، إمَّا قال لهم وإمَّا قالوا له: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّه أُنْزِلت عليَّ آنفًا سورة**». فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ حتَّى ختمها، قال: «**هل تدرون ما الكوثر؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هو نهر أعطانيه ربِّي ﷻ في الجنَّة، عليه خيرٌ كثير، ترِد عليه أُمَّتي يوم القيامة، آنيتُه عدد الكواكب، يُخْتَلَج العبدُ منهم، فأقول: يا ربِّ، إنَّه من أُمَّتي! فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**». هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق عن محمَّد بن فضيل، عن المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك[2].

---

(١) من شعر الكُمَيت. انظر: تهذيب اللغة (١٠/١٠٣)، تحقيق محمد عوض مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، وديوانه صـ ١٧٧، شرح د. محمد نبيل طريفي، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

(٢) رواه أحمد (١١٩٩٦)، وقال مُخَرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة: أنَّه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأنَّ آنيته عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمَّد بن فضيل، وعلي بن مسْهِر، كلاهما عن المختار بن فلْفل، عن أنس. ولفظ مسلم قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثمَّ رفع رأسه مبتسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسولَ الله؟ قال: «**أنزلت عليّ آنفًا سورة**». فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثمَّ قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي** ﷻ، **عليه خير كثير، وهو حوض ترِد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنَّه من أمتي. فيقول: إنَّك لا تدري ما أحدث بَعْدَك**»[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا مُحَمَّد بن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيْد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**دخلتُ الجنَّة، فإذا أنا بنهر، حَافَتاه خيامُ اللؤلؤ، فضربتُ بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مِسْكٌ أَذْفَر. قلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثر الَّذي أعطاكه اللهُ** ﷻ»[(٢)].

ورواه البخاري في صحيحه ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما عُرِجَ بالنبيِّ ﷺ إلى السماء قال: «**أَتَيْتُ على نَهَرٍ حَافَتاه قبابُ اللؤلؤ المجوَّف، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر**»[(٣)]. وهو لفظ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٠٠)، وأبو داود في السُّنة (٤٧٤٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٠٤).

(٢) رواه أحمد (١٢٠٠٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٦٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٢).

QaradawiBooks.com

وقال البخاري: حدَّثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيْدة، عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر﴾. قالت: نَهَرٌ أعطيه نبيُّكم ﷺ، شاطئاه عليه درٌّ مُجَوَّف، آنيته كعدد النجوم. ثمَّ قال البخاري: رواه زكريا وأبو الأحوص ومُطَرِّف، عن أبي إسحاق[١]. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مُطَرِّف، به[٢].

ثم قال البخاري: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أخبرنا أبو بِشْر، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس أنَّه قال في الكوثر: هو الخير الَّذي أعطاه الله إياه. قال أبو بِشْر: قلت لسعيد بن جُبَير: فإنَّ ناسًا يَزْعمون أنَّه نهر في الجنَّة؟ قال سعيد: النهر الَّذي في الجنَّة من الخير الَّذي أعطاه الله إيَّاه[٣].

ورواه أيضًا من حديث هُشَيْم، عن أبي بِشْر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: الكوثر: الخير الكَثِير[٤]. وقال الثوري: عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: الكوثر: الخير الكثير[٥].

وهذا التفسير يعُمُّ النهر وغيره؛ لأنَّ الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عبَّاس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دِثار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتَّى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدُّنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوَّة والقرآن،

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٦٥).
(٢) رواه أحمد (٢٦٤٠٣)، والنسائي في الكبرى في الصلاة (١١٦٤١).
(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٩٦٦).
(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٧٨).
(٥) تفسير الطبري (٦٨٢/٢٤).

QaradawiBooks.com

وثواب الآخرة[١]. وقد صح عن ابن عبَّاس أنَّه فسره بالنهر أيضًا، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: الكوثر: نهر في الجنَّة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل[٢].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُحَارِب بن دِثَار، عن ابن عمر أنَّه قال: الكوثر نهر في الجنَّة، حَافَتاه ذهبٌ وفضَّة، يجري على الدرِّ والياقوت، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل[٣].

وكذا رواه الترمذي، عن ابن حُمَيْد، عن جَرِير، عن عطاء بن السائب، به مثله موقوفًا[٤]. وقد روي مرفوعًا فقال الإمام أحمد: حدَّثنا عَلِيُّ بن حَفْص، حدَّثنا وَرْقَاءُ قال: وقال عطاء بن السائب: عن مُحَارِب بن دِثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثرُ نَهَرٌ في الجنَّة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل**»[٥].

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جَرِير من طريق محمَّد بن فُضَيْل، عن عطاء بن السائب، به مرفوعًا. وقال الترمذي: حسن صحيح[٦].

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٨٤/٢٤).

(٢) المصدر السابق (٦٧٩/٢٤).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) لم أقف عليه في سنن الترمذي من هذا الطريق ولا ذكره المزي في تحفة الأشراف. رواه الطبري في التفسير (٦٧٩/٢٤).

(٥) رواه أحمد (٥٣٥٥)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي.

(٦) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٤)، والطبري في التفسير (٦٨٨/٢٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٩٨).

QaradawiBooks.com

وقال ابن جَرِير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابـــن عُلَيَّة، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي مُحَارِب بن دِثَار: ما قال سعيد بن جُبَيْر في الكوثر؟ قلتُ: حدَّثنا عن ابن عبَّاس أنَّه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنَّه للخير الكثير. ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. قال رســـول الله ﷺ: «**الكوثر نهر في الجنَّة، حافَتاه من ذهبٍ، يجري على الدرِّ والياقوت**»[(١)].

وقال ابـــن جرير: حدَّثني ابـــن البَرْقي، حدَّثنا ابن أبـــي مريم، حدَّثنا محمَّد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني حَرَام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أنَّ رســـول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطَّلب يومًا فلم يجده، فســـأل امرأته عنه ـ وكانت من بني النجَّار ـ فقالت: خرج يا نبيَّ الله آنفًا عامدًا نَحْوَك، فأظنُّه أخطأك في بعض أزقَّة بني النجَّار، أَوَلـا تدخل يا رســـولَ الله؟ فدخـــل، فقدَّمت إليه حَيْسًـــا، فأكل منـــه، فقالت: يا رســـولَ الله، هنيئًا لك ومريئًا، لقد جئـــتَ وأنا أريد أن آتِيَـــك فَأُهْنِيك وأَمْرِيك؛ أخبرنـــي أبو عُمَارة أنَّك أُعطيتَ نهرًا فـــي الجنَّة يدعى الكوثر. فقال: «**أجل، وعَرْضه ـ يعني أرضه ـ ياقوتٌ ومرجان، وزبرجدٌ ولؤلؤ**»[(٢)]. حَرَام بن عثمان ضعيف. ولكنَّ هذا سياقٌ حسن، وقد صحَّ أصل هذا، بل قد تواتر من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمَّة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض. وهكذا رُوِيَ عن أنـــس، وأبي العالية، ومجاهد، وغير واحدٍ من السلف: أنَّ الكوثر: نهر في الجنَّة. وقال عطاء: هو حوض في الجنَّة[(٣)]»[(٤)].

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٨٩/٢٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق (٦٨٥/٢٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٩٨/٨ ـ ٥٠٢).

QaradawiBooks.com

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾

أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الَّذي تقدَّمت صفته ـ فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحْرك، واعبده وحده لا شريك له، وانْحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثمَّ ينحر نُسُكه، ويقول: «**من صلَّى صلاتنا، ونَسَك نُسُكنا، فقد أصاب النُّسُك. ومن نَسَكَ قبل الصلاة فلا نُسُكَ له**». فقام أبو بُرْدَة بن نِيَارٍ فقال: يا رسولَ الله، إنِّي نَسَكْتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفتُ أنَّ اليومَ يومٌ يُشتهى فيه اللحم. قال: «**شاتُك شاةُ لحم**». أي: لا تصلح ضحيَّة. قال: فإن عندي عَنَاقًا هي أحبُّ إليَّ من شاتين، أفتَجْزي عني؟ قال: «**تَجْزيك، ولا تَجْزِي أحدًا بعدك**»[1].

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾

إنَّ مبغضك ـ يا محمَّد ـ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع، والنُّور المبين، هو الأبتر، الأقل الأذل المنقطع ذكْره. وقد عرفنا كيف باد هؤلاء وذهبت آثارهم، ولم يبق من يذكرهم إلَّا بالسوء.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٥٥)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦١)، عن البراء بن عازب.

QaradawiBooks.com

وقد كثر من مشركي قريش أنَّهم إذا رأوا أبناء محمَّد ﷺ، الذكور يموتون واحدًا بعد الآخر، قالوا: إنَّه أبتر قد انقطع ذِكره. وحاشا وكلا؛ بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرًّا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد. كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1].

كما أبقى أمته إلى يوم التناد، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، كما أبقى فيها طائفة الخير، المستمرة إلى يوم الدين، لا يضرهم من خالفهم، حتَّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

(١) تفسير ابن كثير (٥٠٥/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۞ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

هذه السورة المكيَّة، وهي إحدى السورتين من قصار المفصَّل الَّتي تدعو إلى التوحيد، وتقرر التوحيد باعتباره القضيَّة الدينية العقدية الأساسيَّة الأولى، الَّتي بعث بها الأنبياء، ونزلت بها الكتب السماوية، وقررها وأمر بها وعظم أمرها محمَّد ﷺ، كما قررها وأكدها القرآن العظيم، فهي الَّتي خلق لها الخلق، وقام لها الأمر، ووقعت لها الواقعة، ورجفت الراجفة، وقامت سوق الجنَّة والنار.

كان المشركون يُبدئون ويُعيدون، ويلفون ويدورون حول رسول الله محمَّد ﷺ، يريدون أن يتفاوضوا معه حول آلهتهم الَّتي يعبدون من هبل واللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، وحول إلٰهه الواحد، الَّذي بدا منذ دعا إلى دينه الجديد أنَّه لا يرى إلٰهًا غيره، يدعى إلى عبادته ودعائه والاستجابة لأمره، فكانوا يحاولون عن طريق المباحثات والمحادثات

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وجس النبض بالأسئلة والطلبات، عن إمكانية التنازل بينهم وبين محمَّد صاحب الدين الجديد، والرسالة الجديدة، من ممارسة تجربة جديدة بين الفريقين: محمَّد ودعوته التوحيدية الحديثة، وطريق الشرك والوثنية القديمة: أن يجرب كل فريق منهما ما عند صاحبه، ليمتحنه ويختبره عن كثب، بل عن واقع مجرب، فيتنازل محمَّد عن عبادة إلٰهه الواحد فترة من الزمن، قد تكون سنة، أو شهرًا، أو أقل أو أكثر، عن طريق الممارسة الفعلية بالتعامل مع هذا الإلٰه أو الآلهة الجديدة، وهل تستجيب هذه الآلهة للدعوات؟ أو تتفاعل مع الآهات؟ وهل تنتصر للمظلومين؟ وتنتقم من الظالمين؟ وهل وهل؟ أم أنَّها كما يقول محمد: أحجار وأوثان، لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ويجرب هؤلاء المشركون التعامل مع إلٰه محمَّد الواحد، الَّذي لا يقبل معه شريكًا ولا ولدًا، ولا معينًا ولا وزيرًا، بل هو ربُّ الناس، ملك الناس، إلٰه الناس، هو الخالق وهو الرازق، وهو المدبر، وهو المحيي المميت، وهو الَّذي إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

كانت هذه الأفكار والمساءلات قد امتلأت بها رؤوس المشركين، وأصبحوا وأمسوا يزعجون بها رسول الله ﷺ، ومن معه، فكانت هذه السورة هي الناطقة والفاصلة في هذه القضيَّة، فقد أغلقت هذا الباب أمام المفاصلات إغلاقًا نهائيًّا، ولم تترك أي مكان لمتردد، أو محاول للموارية أو السؤال، بل الجواب الَّذي لا يحتمل وجهًا آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

QaradawiBooks.com

هكذا أمر الرسول الكريم أن يُواجِه النَّاس بالإجابة الصريحة الحاسمة بالنفي: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، بعد مناداتهم بهذا الاسم الكريه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، مع أنَّ القرآن لا يحب أن ينادي المسلم زميله الكافر بهذا اللقب، ولكن نداء الجماعة كلها في هذا الوقت بهذا اللقب أمر مطلوب وضروري، ولا حجْر فيه ولا تردد، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فهم لا شك قد كفروا بالله الواحد، وكفروا بمحمد الرسول، وكفروا بما جاء به من بينات.

أنا لا أعبد ما تعبدون من آلهتكم المفتراة من دون الله، لا أعبد هبل، ولا أعبد مناة، ولا اللات، ولا العزى ولا غيرها.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾

وأنتم أيضًا لستم عابدين ما أعبد، وهو الله وحده، الَّذي تشركون به غيره من المخلوقات في الأرض أو في السماء، وهو الإلٰه الواحد، الَّذي لا يستحق العبادة غيره، ولا يدعى سواه، وبهذا انقطعت كل علاقة بيني وبينكم، من جانبي ومن جانبكم.

ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ وهنا يقرِّر هذه الحقيقة بهذه الصيغة، وهي: ولا أنا عابد في الحال، ولا في المستقبل ما عبدتم في الماضي.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾

كرر ما ذكره من قبل، تأكيدًا للأمر، وتثبيتًا للموقف، وتقريرًا لهذه الحقيقة الَّتي جاء بها هذا الدين، بل جاءت بها الأديان كلها، وهي أن يعبد الله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا شبيه له.

QaradawiBooks.com

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

كل ما أقوله لكم هذه الكلمة، وهي الحقيقة الناصعة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، لكم دينكم الَّذي تؤمنون به، وتحاسبون عليه، وتؤاخذون، وهو دين الشرك، ولي ديني الَّذي أؤمن به، وأدعو إليه، وأحاسب عليه، وأعامل على أساسه وهو الإسلام، فكل منا له دينه، وليس مسؤولًا عن دين غيره، كما أنَّ الآخرين ومنهم المسلمون مسؤولون عن دينهم لا عن دين غيرهم.

هذا ما جاء به الإسلام واعتنقه المسلمون، فهذه السورة في أوَّلها شديدة ترفض عبادة غير الإلٰه الواحد، وفي نهايتها تقرُّ هذه الحقيقة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

ولكن المشركين أقرُّوا بنصف الحقيقة الَّتي قالها النبي محمد: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، ولم يقروا بالنصف الآخر: ﴿وَلِيَ دِينِ ﴾، فقالوا: لنا ديننا وليس لك دين.

وفي آية أخرى قال القرآن: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]، ولكن المشركين الجُفاة قالوا: لنا عملنا، وليس لك عملك، ونحن بريئون ممَّا تعمل، وأنت لست بريئًا ممَّا نعمل. هذا هو منطق الشرك العنيد المستكبر في الأرض بغير الحق، ولذلك كانت عاقبته أن يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

وجاء في فضل هذه السورة ما رواه مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف[1].

(١) رواه مسلم في الحج (١٢١٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر[١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعًا وعشرين مرَّة ـ أو بضع عشرة مرَّة ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ أربعًا وعشرين مرَّة يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٣].

وروى أيضًا عن ابن عمر قال: رمقت النبي ﷺ شهرا، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤]. وكذا روى الترمذي، وابن ماجه من حديث أبي أحمد الزبيري، وأخرجه النَّسائي من وجه آخر، عن أبي إسحاق، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن[٥].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن فروة بن نوفل، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال له: «**هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟**» قال: أراها زينب؟ قال: ثمَّ جاء فسأله النبي عنها، قال: «**ما فعلت الجارية؟**» قال: تركتها عند

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٢٦).

(٢) رواه أحمد (٤٧٦٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) رواه أحمد (٥٦٩١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) رواه أحمد (٥٧٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) رواه الترمذي في الصلاة (٤١٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٩٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٤٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٨).

QaradawiBooks.com

أمها. قال: «**فمجيء ما جاء بك؟**» قال: جئت لتعلمني شيئًا أقوله عند منامي. قال: «**اقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ثمَّ نم على خاتمتها، فإنَّها براءة من الشرك**». تفرد به أحمد[١].

وروى أحمد نحوه، عن فروة بن نوفل، عن الحارث بن جَبَلة[٢]، وذكر ابن كثير رواية الطبراني في الكبير عن جَبَلة بن حَارِثَة، وهو أخو زيد بن حارثة[٣]، كما روى بسنده عن خباب في قراءة السورة عند النوم، وأنَّها براءة من الشرك[٤].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «هذه السورة سورة البراءة من العمل الَّذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنَّهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ، إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، يعني: من الأصنام والأنداد، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، وهو الله وحده لا شريك له، فـ ﴿ما﴾ ها هنا بمعنى «من».

ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنَّما أعبد الله على

(١) رواه أحمد (٤٨٨/٣٩) رقم (٤٩)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن على اختلاف في إسناده على أبي إسحاق. وهذا الحديث ممَّا استدركته طبعة مؤسسة الرسالة على الطبعة الميمنية.

(٢) رواه أحمد (٤٤٠/٣٩) رقم (٥)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن على اختلاف في إسناده على أبي إسحاق. وهذا الحديث ممَّا استدركته طبعة مؤسسة الرسالة على الطبعة الميمنية.

(٣) رواه الطبراني (٢٨٧/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٠٣٣): رجاله وثقوا.

(٤) رواه الطبراني (٨١/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٠٣١): فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الوجه الَّذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشـرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم، كما قال: إِنْ ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بدَّ له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ، وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله»، أي: لا معبود إلَّا الله، ولا طريق إليه إلَّا بما جاء به الرسول ﷺ.

والمشـركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بهـا الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال البخاري: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: الإسلام، ولم يقل «ديني»؛ لأنَّ الآيات بالنون، فحذف الياء، كما قال: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠][1]، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربيَّة: أن ذلك من باب التوكيد، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧][2]، وحكاه بعضهم، ـ كابـن الجوزي، وغيره ـ عن ابن قتيبة. فالله أعلم.

(١) صحيح البخاري (١٧٨/٦).
(٢) تفسير الطبري (٧٠٤/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وذكر ابن كثير قولًا نصره أبو العبَّاس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أنَّ المراد بقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾: نفي الفعل؛ لأنَّها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأنَّ النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنَّه نفى الفعل، وكونه قابلًا لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضًا، وهو قول حسن أيضًا، والله أعلم.

وقد استدلَّ الإمام أبو عبد الله الشافعي، وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، على أنَّ الكفر ملَّة واحدة، فورث النصارى من اليهود، وبالعكس ـ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ـ لأنَّ الأديان ـ ما عدا الإسلام ـ كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتوارث أهل مِلَّتَيْن شتَّى**»[(١)][(٢)].

(١) رواه أحمد (٦٨٤٤)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١)، كلاهما في الفرائض، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٠٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٠٧/٨، ٥٠٨)، بتصرف.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾

هذه السورة مدنيَّة، حتَّى قالوا: إنَّها آخر ما نزل من السور المدنيَّة[1]. وتبدأ بكلمة ﴿إِذَا﴾، وهي ظرف زمان يعتبر شرطًا له جواب، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

ومن هنا نجد القرآن العظيم يوجِّه الإنسان في كل حالاته ـ سواء كانت سارَّة أم محزنة ـ أن يرجع إلى ربه بالذكر والحمد والاستغفار، فيجد في حالة الضيق والعسرة والشدَّة، ما يكون من تفريج الكربة، وتوسعة الضيق، ووجود اليقين، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٠٢٤)، من قول ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وهنا في الحالة المقابلة للعُسر والشدَّة، وهي حالة مجيء نصر الله والفتح، ونصر الله يعني: الانتصار المتكرر على المشركين، وعلى اليهود، وعلى غيرهم، كما نصر الله رسوله ﷺ بعد الإخراج من مكَّة، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكذلك الانتصار في غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

والانتصار في الخندق يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۞ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۞ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧].

والانتصار في خيبر، والانتصار في صلح الحديبية، الَّتي سمَّاها القرآن الكريم ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

وبعد ذلك تفتح مكَّة المكرمة، بلد الإسلام الأول، وهو الفتح الأعظم، الَّذي يستحق أن يقال فيه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

أي: عندما يغيِّر الله الأحوال، وتعود الحياة من عُسْر إلى يُسْر، ومن ضيق إلى فرج، ومن هزيمة وكرب إلى فتح ونصر، أو كما قال سبحانه:

QaradawiBooks.com

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، نصر الله: ما حقَّقه لعباده المؤمنين في غزوات متتابعة من نصر إلى نصر، لا يجوز أن ينسب إلَّا لله وحده، ولذا قال: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾. والفتح: يعني فتح مكَّة، إذ لا فتح بعده، ولا فتح مثله، وهو ما قاله ابن عبَّاس[1].

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

وكان من ثمرات نصر الله تعالى لنبيِّه، وفتحه لدينه ولأمته، أن رأيتَ النَّاس يدخلون في دين الله أفواجًا، أي: يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، وأقوامًا أقوامًا، كما رأيناهم بعد فتح مكَّة، فهذه هي النعمة الكبرى، الَّتي أنعم الله بها على رسوله، وعلى إخوانه من المؤمنين الَّذين أيَّدهم الله بنصره، وآواهم، ورزقهم من الطيبات، لعلهم يشكرون.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾

هنا يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمَّدًا، الَّذي أنزل عليه القرآن، إذا جاء نصر الله والفتح، ورأى النَّاس يدخلون في الإسلام العظيم دين الله، أفواجًا وجماعات، ممَّا يدلُّ على انتشار دعوة الإسلام، وامتداد قوَّة الإسلام، وصمود أمة الإسلام، أن يكون موقفه من هذه النعم العظيمة، في الإمداد والتأييد، هو موقف الذكر والتسبيح، بحمد الله والاستغفار لله، فالله سبحانه هو الملجأ وهو الملاذ، وهو الَّذي يأنس إليه العباد، ويلوذون به، ويذكرونه ويدعونه، ويسبحونه، ويحمدونه، ويستغفرونه.

فهو ملجؤهم وملاذهم عند الشَّدائد والكربات، كما قرأنا قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٧٢٩).

QaradawiBooks.com

ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، وهو ملجؤهم وملاذهم عند النصر والفتح والخروج من الأزمات، فهنا يطلب الله سبحانه من رسوله ومصطفاه محمَّد، عندما يرى هذه الآيات الباهرات، من انتصار الإسلام، على أعدائه الكثيرين، ودخول النَّاس فيه جماعات متتالية، أن يتميز بموقفين كريمين يليقان به، وبالمرحلة الَّتي يختارها، وكلا الموقفين هو من ذكر الله تعالى، ولكن ذكر الله أنواع.

فأول أنواع الذكر: هو التَّسبيح بحمد الله، وهو تنزيه الله تعالى، عن كل ما لا يليق بجلاله، وجماله وكماله، ممَّا قد يلامس النفس البشريَّة، في أوقات الضعف، وتأخر النصر لحكمة إلٰهية، فقد تطوف بالبال خطرات، وقد يبدر بادرات، في أوقات متناثرات، إذا تذكرها الإنسان بعد ذلك، شعر بقصوره وتقصيره، ودخل ذلك في تسبيحه بحمد الله ﷻ.

والنوع الثاني من الذكر: كما يبيِّنه القرآن، هو الاستغفار، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾، فهو يسأل المغفرة من ربه، الَّذي يعفو عن عباده، الَّذين قد يسيئون في بعض اللحظات، أو يستبطئون النصر، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فهو استغفار من كل خواطر السوء، الَّتي قد تنزل بالإنسان أو تطوف به في أيام الشدائد، والساعات الحوالك، فهو يشعر بها ويضيق بها، ويستغفر الله منها.

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾

سـبِّح بحمد ربك، نزِّهْه عمَّا لا يليق به، واحمده على ما أوْلاك من نعمه، واستغفره لما تشـعر به من تقصير أو ذنب، أو ما يخيل اليك أنَّه ذنب، فاطلب مـن الله أن يغفره لك، ويطهرك مـن أي أثر منه، كما في قنوت ابن مسـعود، في صلاة الوتر بعد العشـاء: «**اللهمَّ إنَّا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب إليك، ونُثْني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللَّهمَّ إيَّاك نعبد، ولك نصلِّي ونسجد، وإليك نسعى ونَحْفِد**[1]**، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إنَّ عذابَك الجِدَّ بالكُفَّار مُلْحِق**»[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، لماذا تطلب منه أن يغفر لك؟ إنَّه كان توابًا، كان سبحانه موصوفًا أبدًا بـ «التوَّاب»، والتوَّاب: هو كثير التوبة على عباده، يمحو ذنوبهم عنهم، ويغفرها لهم، ويُكَفِّرها عنهم، ولا يبقي لها أثرًا في حياتهم، إلَّا ما تثمره لهم المغفرة المقرونة بالرحمة، إنَّه هو الغفور الرحيم.

قال ابن عبَّاس لعمر رضي الله عنهما، حين سأله عن هذه السورة، سورة النصر؟ فقال: نعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه. فقال عمر: ما أفهم منها إلَّا ما فهمت[3].

كأن الله تعالى ذكر في هذه السورة، كمال الدين، وتمام النعمة، ونصر الله وفتحه، ودخول النَّاس في دين الإسلام أفواجًا وجماعات، فهذا يبشِّر

(١) نحفد مضارع حفد أي نسرع ونخدم.

(٢) هذا هو القنوت المأثور عن ابن مسعود رضي الله عنه، ويلتزم الأحناف قراءته بعد القيام من ركوع الركعة الثالثة في الوتر. كما يفعل مسلمو الهند، وباكستان وبنجلاديش. وقد رواه ابن أبي شيبة في الصلاة (٦٩٦٥).

(٣) رواه البخاري في المناقب (٣٦٢٧).

QaradawiBooks.com

المؤمنين، ويذكِّرهم بأنَّ الله تعالى أتم عليهم نعمته، وليس بعد التمام إلَّا النقص، كما قال الشاعر:

إِذَا تَـمَّ شَـيءٌ بَـدا نقصُـه تَوَقَّـعْ زَوَالًا إِذَا قِيـلَ: تَمْ[1]

وكذلك بكى سيِّدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حين نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهكذا نجد سيِّدنا يوسف بن يعقوب، يقول، بعد أن أتم الله عليه النعمة، وجمعه بأبويه وإخوته، في مصر آمنين: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠، ١٠١].

وداود بعد أن آتاه الله الملك، وجعله في الأرض خليفة، ومكَّن له ما مكَّن، قال له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وسليمان حينما آتاه الله الملك الَّذي لم ينْبغِ لأحد غيره، استغفر ربَّه، وطلب إليه أن يغفر له ويرحمه، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩].

(١) يتيمة الدهر (٤/٢٥٩).

QaradawiBooks.com

ودخل في قصته مع ملكة سبأ بلقيس الشهيرة، حين طلب إلى الملأ عنده أن يأتوه بعرشها، قبل أن يأتوه مسلمين، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك عاش رسول الله ﷺ داعيًا إلى ربِّه، مهاجرًا مجاهدًا، لا يخاف في الله لومة لائم، مضحيًا بكل غالٍ في سبيل الله، حتَّى جاء نصر الله والفتح، ورأى النَّاس يدخلون في دين الله ـ وهو دينه الَّذي دعا إليه ـ أفواجًا وجماعات، وأكمل الله له الدين، وأتم عليه النعمة، ورضي له الإسلام دينًا، فآثر ما عند الله، ولقي ربه راضيًا مرضيًّا، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك.

هذه السورة بكل ما تحتويه من معان: جملة واحدة، جملة شرطيَّة، أداة شرطها ﴿إِذَا﴾، الَّتي تفيد تحقُّق الوقوع، وليست مثل «إنْ» الَّتي تفيد التشكيك في الوقوع، وهنا نجد ﴿إِذَا﴾ بشرطها ـ وهو مجيء نصر الله والفتح، ورؤية النَّاس يدخلون في دين الله أفواجا ـ وجوابها، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، وتكملته: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فهي ملحق للجملة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

حينما أنزل الله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أراد النبي ﷺ، أن يوسّع نطاق الدعوة فيمن يلقاه من الناس، ومن يقترب من خلصائه، فعزم أن يخرج إلى الصَّفا علنًا، وينادي بطون قريش، ويبلغهم دعوة الله الَّتي بعث بها إليهم.

وهذا موقف عظيم له ما بعده، فلا بدَّ أن يهيئ له نفسه، ولا بدَّ أن يتحمل ما يمكن أن تعقبه هذه المواجهة، فنحن في مجتمع غلب فيه التقليد، وانتقد فيه كل من يأتي بجديد، وبخاصة ما يتعلق بعقيدة التوحيد.

وقد ذكر القرآن في قصص الرسل والأنبياء ماذا لقوا من عداء أقوامهم، وماذا قاسوا من عدوانهم وإيذائهم حينما جاهروهم بالحق الَّذي أنزله الله عليهم، وبعثهم به لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وهو ما لقيه خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، من قومه عامَّة، ومن عمِّه أبي لهب خاصَّة، حتَّى جمعهم وحشدهم من بيوتهم ليبلغهم دعوته، ويسمعهم

كلمته، ويقيـــم عليهم حجته: «**أيها الناس، أرأيتـــم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقـــي؟**». قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. فهنا قال لهم بصريح العبارة: «**فإني رسول الله اليكم خاصة، وإلى النَّاس كافة**».

وهنا سكت القوم، ولم يســتطع أحد منهم أن يقول شيئًا، إلَّا رجلًا واحًدا، هو الَّذي وقف في وجه محمَّد ﷺ، ورد على دعوى محمَّد، وهو عمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم المعروف باسم «أبي لهب»، هو الَّذي رد على ابن أخيه، وقال له: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟!

الرد الوحيد الصارخ الناطق بالباطل يقابـــل الحق، وبالخرافة تقابل العقل، فلا عجب أن يغضب الله جل شـــأنه في ســـماواته العلا من أجل رســـوله وحبيبه ومبعوثه إلى جميع خلقه محمَّـــد عليه الصلاة والسلام، وينزل عليه هذه السورة تدافع عنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

لقد دافع الخالق البارئ المصور سبحانه عن رسوله وحبيبه محمَّد، بعد أن قال أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا[1]؟!

لقـــد كان أبو لهب يعيش في قلـــب الجاهليَّة، وغفـــلات الجاهليَّة، وانحرافـــات الجاهليَّة، ولا يجد فيهـــا ما يتطلب الثـــورة عليها، وتغيير أفكارها وأخلاقها، ونظامها كله، فهو في وادٍ ومحمد عليه الصلاة والسلام في وادٍ آخر.

لذا استخدم القرآن من أسلوب الشدَّة في الطرح والذم، جزاء أسلوبه الهجومي على خاتم رســـل الله، ليثبت القرآن للناس قوَّة الدعوة، وقوَّة حاملها ومبلغها، وعدم تأثره بعدوان العادين عليـــه، وخصوصًا أنَّ هذه

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أوَّل مرَّة يدافع القرآن فيها عن حامل الدعوة، وصاحب الرسالة، وهو دفاع مباشر من الربِّ الأعلى في مواجهة رجل أشبه بالإقطاعي أو الرأسمالي الغاشم، الَّذي نصب نفسه ليقاوم الدعوة ردًّا عليها، ويدفعها عن الناس، ويدفع النَّاس عنها بكل قوة.

لهذا بدأت السورة بهذا الذمِّ الإلٰهيِّ المباشر لمن تطاول على رسول الله. وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. فالعرب يقولون: تبت يدا فلان من الناس. بمعنى: هلكت يداه وخسرتا ولعنتا، ولكن الله هنا يقول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أي: وتب كله، فليس عنده شيء لا يستحق التَّباب والدمار والهلاك والخسارة، بل كله تابٌّ هالك، زائلٌ ممْحو؛ لأنَّه قائم على باطل، والباطل ممْحو زائل مَمْحوق بحسب وعد الله وسنَّة الله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ثم قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، بيَّن الله تعالى بهذه الآية أنَّ تباب أبي لهب وهلاكه أمر واقع لا محالة، قد قدَّره الله عليه، فهو واقع بلا ريب، وفي هذه الحالة لن يغني عنه ماله الَّذي ورثه، ولا ماله الَّذي كسبه، أي: ما جاء عن طريق النَّسب والحسب، ولا ما جاء عن طريق التجارة والشطارة والمكاسب القريبة في الأسواق، فكله ذاهب. وقد جاءت الآية بالصيغة «الماضية»، للدلالة على تحقق الوقوع، وأنَّه لا ريب فيه، فكأنما وقع بالفعل.

فمعنى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، أي: لم ينفعه ماله الَّذي جاءه من الميراث، وماله الَّذي كسبه بالجهد. أو ما أغنى عنه ماله الموروث ولا ما كسبه من الأرباح.

QaradawiBooks.com

ثم قال ﷻ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، أوعد أبا لهب بهذا الوعيد الشديد، الَّذي ترتعد منه الفرائص، ويرجف منه الفؤاد، ومفاده: أنَّه سيصلى يوم يقوم النَّاس لرب العالمين نارًا ذات لهب، أي شديدة الحرارة، إنَّها نار الآخرة، الَّتي ثبت في الأحاديث الصحاح أنَّ نار الدُّنيا جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة[1]. وقد قال الشاعر[2]:

جِسْمِي على الشمسِ ليس يَقْوَى ولا على أهونِ الحَرارَةْ
فكيف يَقْوى على جَحِيمٍ وقودُها النَّاسُ والحِجَارةْ؟

وقد وصف الله هذه النَّار المعدة بأنَّها نار ذات لهب! ليست نارًا منطفئة، ولا نارًا توشك أن تنطفئ، بل هي نار حية حامية، ذات لهب، لا زال لهبها مشتعلًا متوهجا فعالًا، فإذا كان من النيران ما لا لهب له، فهذه النَّار ذات لهب، وكفى به.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، لم يكن أبو لهب وحده هو الَّذي يقف في وجه الدعوة المحمديَّة، دعوة التوحيد والتحرير، بل كانت أسرته كلها مجنَّدة لذلك، ومن ذلك امرأة أبي لهب: أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، وعمَّة معاوية، وقد وصفها القرآن بوصف يضفي عليها صفة مخزية مسيئة، تصوِّرها كأنَّها حمَّالة الحطب، وهي تسعى أبدًا لإيقاد نيران الفتنة في الناس، وإشعال الشر بينهم.

ثم قال ﷻ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، لزيادة التبشيع في التصوير أبرزها القرآن في هذه الصورة المزرية.

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٤٥.

(٢) ذكره بلفظ مقارب من غير نسبة: الشارعي في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (٤٣٨/١)، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.

QaradawiBooks.com

﴿فِي جِيدِهَا﴾: أي في عنقها، ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: أي من ليف خشن، تلفه على رقبتها، فيؤثر فيها، ويترك آثاره عليها، وهذه أشنع صورة تظهر عليها امرأة تكلف نفسها المشقة الفادحة للإفساد بين الناس، وتأجيج نار العداوة والبغضاء بينهم وبين الدعوة الجديدة.

ولقد أظهر القرآن أبا لهب وامرأته بهذه الصورة الكريهة المقيتة، دفاعًا عن رسوله الكريم، ووقوفًا ضد ما علم الله أنَّه سيقوم به في الصد عن الدعوة، وتنفير النَّاس منها، حتَّى إنَّه كان يمشي وراء رسول الله الَّذي يقول للناس: «**أدعوكم أن تعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا**». فيقول أبو لهب: أيُّها النَّاس لا تسمعوا له، فهو رجل يهذي[1]!

فكان رسول الله الهادي إلى سواء الصراط، وأبو لهب الداعي الدائم للصد عن سبيل الله.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

ولهذا حقَّت على أبى لهب وزوجته هذه النهاية الأليمة، جزاءً بما كسبًا، ووفاقًا لما عملًا.

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٦٠٢١)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. عن ربيعة بن عباد الديلي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

هذه سورة عُرفت باسم سورة الإخلاص، سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، الَّتي تكتب في المصاحف عادة في سطر واحد، أو على الأقل في أكثر المصاحف، وذكر الإمام الرَّازي أنَّها تسمى: سورة التفريد، وسورة التجرِيد، وسورة التوحيد، وأسماء كثيرة أخرى[1].

وهي السورة الثانية الَّتي جاءت لإقرار عقيدة التوحيد في قصار المفصَّل، بعد السورة الأولى الَّتي جاءت كذلك، وهي سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قبلها بسورتين، ولهذا يقرن بينهما في القراءة، كما فعل ذلك النبي ﷺ في حجته، فقد جمع بينهما بعد طوافه بالكعبة في صلاة الركعتين الخفيفتين بعد الطواف[2]، ويسن قراءتهما في سنة

(١) تفسير الرازي (٣٢/٣٥٧).
(٢) سبق تخريجه صـ٥٨٢.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الفجر والمغرب[١]، وإنَّما جمع بينهما لقصرهما، ولتفردهما بموضوع واحد، هو توحيد الله ﷻ.

وقد بيَّنت هذه السورة العظيمة أنَّها آخر سورة في القرآن تحتوي على لفظ الجلالة مرتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

كما بينت هذه السورة الكريمة: أنَّها اشتملت على وصف الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى، لم يذكرا إلَّا في هذه السورة وحدها، وهما: اسم «الأحد»، واسم «الصمد».

ومعنى «الأحديَّة» في وصف الله تعالى، كما عبَّر عنها العلَّامة ابن كثير في تفسيره: «هو الواحد الأحد الَّذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل. ولا يطلق هذا الاسم على أحد في الإثبات إلَّا على الله ﷻ، لأنَّه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

ومعنى «الصمديَّة» في صفته تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، كما روي عن ابن عبَّاس ترجمان القرآن، يعني: الَّذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم[٢].

وعنه: هو السيد الَّذي كمل في سؤدده، والشريف الَّذي كمل في شرفه، والعظيم الَّذي كمل في عظمته، والحليم الَّذي كمل في حلمه، والعليم الَّذي كمل في علمه، والحكيم الَّذي كمل في حكمته، وهو

(١) عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد. رواه أحمد (٤٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في الصلاة (٤١٧)، وحسنه، والنسائي في الافتتاح (٩٩٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٤٩).

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٩٢)، بنحوه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الَّذي قد كمل في أنواع الشرف والسـؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلَّا له، ليس له كفء، ولا يشـبهه شـيء، سـبحان الله الواحد القهَّار[١].

وقال أبو وائل: الصمد السـيد الَّذي قد انتهى سـؤدده[٢]. وعن ابن مسعود مثله[٣].

وقال الحسن وقتادة: الصَّمد هو الباقي بعد خلقه[٤].

وقال الحسن: هو الحي القيوم الَّذي لا زوال له[٥].

وقال عكرمة: هو الحي القيوم الَّذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم[٦].

وقال الربيع بن أنس: هو الَّذي لم يلد ولم يولد، كأنَّه جعل ما بعده تفسيرًا له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وقال السدي: الَّذي لا جوف له.

وقال الشَّعْبي: هو الَّذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب[٧].

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب «السُّنَّة» له، بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسـير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ، وهو الَّذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الَّذي قد انتهى

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٨).
(٢) رواه البخاري تعليقًا (١٨٠/٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٧١)، وصحح إسناده الألباني.
(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٦٦٦)، وحسن إسناده الألباني.
(٤) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٦٧٩)، وصحح إسناده الألباني.
(٥) رواه أبو الشيخ في العظمة (٩٣).
(٦) رواه الطبري في التفسير (٧٣٤/٢٤).
(٧) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٦٨٢)، وصحَّحه إسناده الألباني.

غير مرخصة للطباعة
نسخة عليه
QaradawiBooks.com

سؤْدده، وهو الصمد الَّذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك أيضًا[١].

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، يعني: لا صاحبة له.

وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وفي صحيح البخاري: «**لا أحدَ أصبرُ على أذى سمعه من الله، إنَّهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويُعافيهم**»[٢].

---

(١) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (١٥٩/١)، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي، نشر مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شـعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشـتمني ولم يكنْ له ذلك، فأمَّـا تكذيبُه إيَّاي فقوله: لن يُعِيدَني كما بدأني، وليس أوَّل الخلقِ بأهونَ عليَّ من إعادته. وأمَّا شَتْمُه إيَّاي فقوله: اتَّخذ اللهُ ولدًا. وأنا الأحدُ الصمدُ الَّذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كُفوًا أحد**»[(١)»[(٢)].

وقد ثبت في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ أرشد إلى أنَّ من قرأ هذه السورة فقد قرأ ثلث القرآن[(٣)].

وقال كثير من علماء القرآن كابن عطيَّة ومن وافقه: إنَّ القرآن يشتمل على ثلاثة أمور:

١ ـ توحيد وعقائد.

٢ ـ توجيهات وأحكام.

٣ ـ وقصص ومواعظ.

فهذه السورة على وجازتها قد تضمَّنت الجزء الأول.

وقولـه تعالـى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ينفي عنه هـذا النقص من جهتيه، فهو لم يلد كما زعم النَّصارى الَّذين يقولون: المسيح ابن الله. أو اليهود الَّذين يقـول طائفة منهم: عزيرٌ ابن الله. والعـرب الَّذين يقولون:

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٧٤)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢٧/٨ ـ ٥٢٩).

(٣) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟**». فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحد الصمد ثلث القرآن**».

QaradawiBooks.com

الملائكة بنـــات الله. وطوائف من الهنود ممَّن نســـبوا إلى الله آلهة وأبناء آلهة، زعموا أنَّهم أولاد الله.

وقد ردَّ الله فـــي كتابه ببراهين قطعيَّة على هـــذه المعتقدات الباطلة، وأثبـــت أنَّها خرافات، لا تســـتند إلى دليـــل ثابت منقـــول عن الله رب العالمين، ولا على دليل عقلي، يقوم على نتائج تفكير عقلي سليم.

فقال تعالى في نفي الولد: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۞ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۞ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبيـاء: ٢٦ ـ ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وكذلك قولـــه تعالى: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾، ردٌّ على مـــن كان يتصور أن لله نسبًا، وأن يكون له والد ينسب إليه، فكانوا يقولون للنبيِّ ﷺ: انسُب لنا ربَّك[1]! فيُبَيِّن القـــرآن الكريم لهم أنَّ الله هـــو «الأوَّل»، الَّذي ليس قبله شيء، وهو مصدر كل الموجودات في الأرض والسماوات، وفي الدُّنيا وفي الآخرة، وكل مولود فهو مخلوق يحدث بعد أن لم يكن، والله تعالى هو الأوَّل الَّذي لا افتتاح لوجوده القديم، الَّذي كان ســـبب كل موجود، والَّذي كان ولم يكن معه شيء غيره، فلا يمكن أن يكون مولودًا تعالى الله عن ذلك.

(١) رواه أحمد (٢١٢١٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. عن أبي بن كعب.

QaradawiBooks.com

وقوله تعالـــى: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾، تتميمٌ لأوصاف الله جلَّ شأنه، وهذه تثبت له ســبحانه: أنَّه لا كفء له، ولا ند له، ولا شبيه له، على غرار ما جاء في ســورة الشــورى من قولــه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فهو تبارك وتعالى ثابت في ذاته، كامل في ذاته، وكامل في صفاته، وكامل في أفعاله، ولذا نفى عنه سبحانه «الوَلَدِيَّة» و«الوالديَّة»، فهو ليس ولدًا ولا والدًا: ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾، كمــا نفى عنه المكافأة لأحد من خلقه، فهو ليس كفؤًا لأحد، كما أنَّهم ليسوا أكفاء له، كما أنَّه ليس جزءًا منهم، وهم أيضًا ليســوا جزءًا ولا أجزاء منه، فكل ما عداه يحتاج إليه، ولا يســتغني عنه في أي حــال من الأحــوال، ولا في أيــة لحظة من اللحظات، ولا في أي مكان في العالم، فهم عبيده وهو ربهم، وهم فقراء إليه وهو مغنيهم، كما قــال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

أولى المعوذتين:

هذه أولى المعوِّذتين، اللتين بدأتا بهذه الصيغة ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، والعوذ هو: اللياذ والاحتماء باللجوء والتحصين. إلى ما يليق بهذه المعاني.

وللمسلم أن يلوذ بالأسباب الماديَّة والمعنويَّة الَّتي شرعها الله له، في قضاء حاجاته، وتحقيق غاياته الدينيَّة والدنيويَّة.

ولكن فيما يعجز عنه البشر، أو يؤودهم ويثقلهم، يلوذون بأقوى منهم، وهو الله ﷻ، فهو أولى من يؤمن من لاذ بجنابه، ووقف على بابه، واحتمى بحماه، واستعان بقوته، وقد علمنا في سورة الفاتحة: أن نعبده ونستعين به، بل نفرده بالعبادة والاستعانة. وهذا الإفراد هو حقيقة التوحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد علم النبي ﷺ ابن عمه عبد الله بن عبَّاس، وهو غلام هذا

نسخة مجانية

المبدأ، حين قال له ضمن حديث: «**إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله**»(١).

ولكن ممَّا يؤسف له: أن من النَّاس من يدع باب الله المفتوح لكل مخلوق، ويلوذ بأبواب البشر العاجزين مثله، ليسألهم، ويستعين بهم، ويستغيث بهم، ويلوذ بجوارهم، معتقدًا أنَّهم يغنونه عن الله، أو أنَّهم واسطة إلى الله، أو شفعاء عند الله، والله تبارك وتعالى ليس على بابه حاجب ولا بواب، ومسْتغْنٍ عن الوسائط والسماسرة، الَّذين أفسدوا الأديان قبل الإسلام، واحتكروا الوساطة بين الله وعباده، فلجأ النَّاس إلى هؤلاء الكهنة، وأمثالهم من العرافين والمنجمين، والسحرة، الَّذين منحوا لمن يحبون ـ أو يشترون ـ صكوك الغفران، وعاقبوا آخرين بقرارات الحرمان.

ومن هنا علَّم القرآن أمَّته: أن يستعيذوا بالله وحده من شرور الدنيا، أو من شرور الخلق على تنوُّعها وكثرتها، فهو القادر على أن يعيذَهُم منها، فهو الَّذي بيده مقاليد كلِّ شيء، وله الخلق والأمر.

العياذ برب الفلق ومعناه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾

بدأت السورة بقوله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وقد قلنا غير مرة: إنَّ كلمة ﴿قُلْ﴾ ـ وهي فعل أمر من القول ـ والَّتي تكررت في

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

QaradawiBooks.com

القرآن (٣٣٢) مرَّة، تدلُّ على أن هذا الرسول ﷺ مُلقَّن مُعلَّم، يُلقَّى هذا القرآن من سلطة أعلى منه، تأمره وتنهاه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٥].

والآية خطاب للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وللأمة كلها من بعده.

ومعنى ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: ألوذ وأحتمي بهذا الرب الَّذي وصف نفسه في كتابه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥، ٩٦]. ومعنى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، أي: واهب الحياة للكائنات الحية، ومعنى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، أنَّه واهب النور لهذا العالم، الَّذي أصله الظلمة. ولولا الحياة والنور ما قام هذا الكون بمن فيه وما فيه، ماديًّا ولا معنويًّا، ونحن نقرأ قول الله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد نقل بعض المُفَسِّرين: أن ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، هو كل ما يفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والحب والنوى عمَّا يخرج منهما[1].

ولا تنافي بين هذا القول وما قبله، بل يثري معنى الفلق ومضمونه.

وقد أورد الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عن عدد من مفسِّري السلف:

(١) تفسير أبي السعود (٩/٢١٤).

QaradawiBooks.com

أنَّ معنى «الفلق»: الصُّبْـح، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، قال: وهذا هو الصحيح[١]. وهو اختيار البخاري في صحيحه[٢].

وإنَّما خصَّ الاستعاذة بـ «ربِّ الفلق»، مع أنَّه تعالى ربُّ كل شيء، لأنَّ المستعاذ منه شرور تقوم على الظلمات والهلاك، فهو يستعيذ برب النور من شر الظلمات، وبرب الحياة من أعداء الحياة.

يقول المفسِّرون: وفي تعليق العياذ (الاستعاذة) باسم الربِّ المضاف إلى الفلق، المنبئ عن النور عقب الظلمة، والسَّعَة بعد الضيق، والفتق بعد الرتق: عِدةٌ كريمة بإعاذة العائذ ممَّا يعوذ منه، وإنجائه منه، وتقْوية لرجائه بتذكر بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجد والاعتناء بقرْع باب الالتجاء إليه تعالى[٣].

الاستعاذة من شرور الخلق:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

هذا أوَّل ما يستعاذ بالله أو بربِّ الفلق منه، وكلمة شر تطلق ويراد بها أحد أمرين: إمَّا بمعنى «أَشَرَّ» تقول: شرُّ ما خلق الله إبليس. أي: أشرُّهم وأسوأهم، ونقول: شرُّ الإنسان يعود عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

والمقصود هنا: المعنى الثاني، وهو شرورُ الخلائق، بدليل المعطوفات عليها، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٥/٨).
(٢) صحيح البخاري (١٨١/٦).
(٣) تفسير أبي السعود (٢١٤/٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والشَّرُّ هو الضرر والأذى والألم والفساد ونحوه، من كل ما يشكو منه النَّاس من الآفات والأمراض والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وغيرها، ومنها: الموت الَّذي ينزع الإنسان من أهله وذويه وأحبابه.

وهو يشمل الشرور المعنويَّة من الكفر والفسوق والعصيان، والرذائل والانحرافات الأخلاقيَّة والفكريَّة التي تصيب الأفراد والمجتمعات والأمم ويكون لها آثارها العميقة في حاضرها ومستقبلها.

والخير مقابل هذا الشر وعكسه، وهو يشمل كل النعم الماديَّة والمعنويَّة، الَّتي يسبغها الله على خلقه، ظاهرة وباطنة.

وشر ما خلق، أو الشرور المستَعاذ منها في الخلق كثيرة، بكثرة الخلائق في هذا الكون، بما فيه من أجناس وأنواع وفصائل من المخلوقات، بما فيها الإنسان، وما فيها الحيوان، من دواب، ووحوش، وطيور، وحشرات، وزواحف، ومن مخلوقات صغيرة، كالجراثيم، والفيروسات، ومن أحياء مائية تسكن البحار والأنهار والبحيرات، ومن نباتات من فصائل بالألوف، ومن جمادات في الأرض، كالجبال، والصخور، والصحاري، والمحيطات، والغلاف الجوي، والفضاء الواسع، الَّذي يسمَّى في الكتب السماوية: السماوات، وما فوقها، وما بينها، وما تحتها، وما ينشأ عن الأكوان من أحداث هائلة، من أعاصير، وفيضانات، وزلازل، وبراكين، يُسَمِّيها النَّاس أحيانًا: «غضب الطبيعة»، والطبيعة لا ترضى ولا تغضب، ولكن رب الطبيعة، ورب الكون كله، يجريه على سنن محكمة ثابتة، بعضها نعلمه وبعضها لا نعلمه.

وبعض هذه الشرور يُبتلى بها الإنسان من حيث لا يحتسب، ولا إرادة له فيها، ولا دخل له بها، لحكمةٍ يعلمها الله، ويجهلها الإنسان،

QaradawiBooks.com

ولكن المؤمنين من أولي الألباب يقفـون أمامها قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وبعض هذه الشرور كثيرًا ما يكون ممَّا قدَّمته يد الإنسان، مباشرة أو غير مباشرة، مثل ما نرى من اختلال التوازن البيئي، أو التوازن الكوني، مثل ثقب الأوزون، وتغيير المناخ، وغيرها.

وفي هذا يقـول القـرآن: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

سؤال مهم: هل يخلق الله الشر؟ ولماذا؟

هنا يعنُّ لبعض النَّاس سـؤال مهم، عن الشـرور في هذا العالم: هل يخلق الله الشر؟ وهل يليق بالرحمن الرحيم، البر الكريم، أن يخلق الشر؟ ولماذا لم يكفنا الشر ويرحمنا منه، وهو الغني الَّذي بيده كل شيء؟

ولا مفر من الجـواب المطلوب هنـا، وهـو أنَّ الله تعالى لا يخلق «الشرَّ»، أعني الشرَّ المطلق المقصود لذاته، بل هو مصدر الخير والنِّعَم كلِّها، كما قـال تعالـى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

وقـد قـال تعالـى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال النبي ﷺ في مناجاة ربه: «**الخيرُ بيَدَيْكَ، والشرُّ ليس إليك**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٧٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكلُّ ما نراه من شرٍّ في هذا الكون إنَّما هو شرٌّ جزئي، نسبي خاصٌّ، في مقابل الخير الكلِّي المطلق العامِّ، وهو من لوازم هذا الخير.

انظر إلى خلق الإنسان، فلا ريب أنَّ خلق الإنسان في ذاته؛ خير، وإعطاءَه العقل والإرادة والقدرات الَّتي تؤهِّله للخلافة في الأرض؛ خير، وتمييزه بالتكليف وحَمْل الأمانة الَّتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها؛ خير، وهدايته النَّجديْن، وإلهام نفسه التقوى والفجور؛ خير، وإرسال الرسل له، وإنزال الكتب، وقطع المعاذير بالنسبة له؛ خير، وتحميله المسؤولية عن أعماله الظاهرة والباطنة؛ خير، فإذا ترتَّب على هذا الخير أنَّه قد يكفر بربِّه، أو يكذب رسله، أو يسيء في عمله، ليستحق عقوبة ربه الَّذي لا يخاف أحد عنده ظلمًا ولا هضمًا، وإنَّما يجزي كل نفس بما كسبت، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهذا شرٌّ جاء للإنسان، نتيجة لسوء عمله، وعدم استفادته من الخير الَّذي هيَّأه الله له، وأنعم به عليه.

ونجد أنَّ الله تعالى أنزل لعباده الأمطار، وأجرى لهم الأنهار، وقد يسبِّب نزول الأمطار، وفيضان الأنهار، مصائب جزئيَّة لبعض الناس، عندما يزيد الفيضان في بعض السنوات، ولكن في مقابل هذه الفئة المتضررة، يستمتع الملايين بهذه الحياة، ويعتبرونها نعمة عظيمة من الله، وفي هذا يقول الناس: مصائب قوم عند قوم فوائد.

وقد يفعل النَّاس هذا بأنفسهم عامدين، موازنين بين مصالح وأخرى، كما أقامت مصر «السدَّ العالي» لتخزين المياه خلفه، حتَّى لا يضيع هدرًا في البحر الَّذي هو المصب، وقد غرقت قرى كاملة وراء السد وخسرها أهلها، وعوَّضتهم الدولة، بالهجرة إلى أماكن أخرى بديلة عن قراهم.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وقد كنت مرَّة في زيارة لمدينة عمان في الأردن، لإلقاء محاضرة في الجامعة، وحاصرني الثلج الَّذي نزل بقوَّة، وعطَّل ألوف السـيَّارات في الطـرق، ووقعنا في أزمة وقـد دخل علينـا الليل، ونخشـى أن يفرغ «البنزين» من السيَّارة، فتتعطَّل التدفئة فنهلك من البرد، وبعد نحو ثماني سـاعات أو أكثر، جاء الفرج، وتدخَّلت قوات الجيش والدفاع المدني والشرطة وغيرها، لإزاحة الثلج، وفتح الطرق للسيارات، وقلنا: الحمد لله على النَّجاة.

ولكنِّي فـي الصباح وجدت النَّـاس يُهنِّئ بعضهـم بعضًا على هذا الثلج، الَّذي يطهِّر الأرض وينقيها من الحشرات الضارَّة بالزروع، ويزيد مخزون المياه في الأرض... ورأيت الأولاد يلعبون بالثلج، ويكوِّنون منه أشكالًا يتقاذفون بها في بهجة وسرور، فما كنا نحسبه نقمة عند حبسنا، أصبح نعمة عند عامَّة المجتمع من حولنا.

المؤمن راض عن نفسه وربه:

وقد ذكرت من قديم في كتابي «الإيمـان والحياة» فقرة تتصل بهذا الموضوع تحـت عنوان: «المؤمن راضٍ عن نفسـه وربِّـه»، قلت فيها: المؤمن راضٍ عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه في الكون؛ لأنَّه يعلم أنَّه ليس ذرة ضائعة، ولا كمًّا مهملًا، ولا شيئًا تافهًا، بل هو قبس من نور الله، ونفخةٌ من روح الله، وخليفة في أرض الله.

وهو راضٍّ عن ربِّه، لأنَّه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأنَّ إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئًا لهوًا، ولم يترك شيئًا سـدًى، له الملك، وله الحمد، نعمه عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد،

QaradawiBooks.com

فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائمًا هذا الثناء الَّذي ردَّده من قبل أبو الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢].

المؤمن موقن تمام اليقين أنَّ تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته، فيناجي ربه: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالخير بيديه، والشر ليس إليه، وما يظنه النَّاس شرًّا في الوجود، ليس هو شرًّا في الحقيقة. وإذا كان لا بدَّ من تسميته شرًّا، فإنَّما هو شر جزئي خاص مغمور في جانب الخير الكلي العام، وهذا الشر الجزئي، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود.

هذا التكافل الَّذي يقول فيه الأستاذ العقَّاد: «إنَّ المعتقِدين به ـ أي بهذا التكافل ـ يرون أنَّ الشر لا يناقض الخير في جوهره، ولكنَّه جزءٌ متمم له، أو شرط لازم لتحقيقه، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها. وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة، كما يطرد في فضائلنا النفسية، ومطالبنا العقليَّة، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح»[1].

(١) الإيمان والحياة صـ ١٢٧، ١٢٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٥، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المؤمن راضٍ عن الكون والحياة

والمؤمن ـ نتيجة لهذا ـ راضٍ عن الحياة والكون من حوله؛ لأنَّه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الَّذي أتقن كل شيء، ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وكل ذرة في الأرض أو السماء تدلُّ على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية رب كريم رحيم.

قال الإمام الغزالي في كتابه «الإحياء»: «المؤمن يُصَدِّق تصديقًا يقينيًّا لا ضعف فيه ولا ريب، أنَّ الله ﷻ لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثمَّ زاد مثل عدد جميعهم علمًا وحكمة وعقلًا، ثمَّ كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، حتَّى اطلعوا به على الخير والشر، والنفع والضر، ثمَّ أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت، بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبَّر الله سبحانه، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمَّن بلي به، ولا أن يزال صحَّة أو كمال أو غنى أو نفع عمَّن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السماوات والأرض ـ إن رجعوا فيها البصر، وطوَّلوا فيها النظر ـ ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور.

وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الَّذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلًا

QaradawiBooks.com

أحسن منه، ولا أتم، ولا أكمل، ولو كان ادخره ـ مع القدرة ـ ولم يتفضل به لكان بخلا يناقض الجود، وظلمًا يناقض العدل، ولو لم يكن قادرًا لكان عجزًا يناقض الإلٰهيَّة»[1].

فما عرفه المؤمن من حكمة الله في خلقه، وأسراره في كونه، فبها ونعمت. وما خفي عليه وكله إلى عالمه، وقال في تواضع أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لهذا نرى المؤمن راضيًا عمَّا قدر الله له، وما قضى الله فيه، ينشد دائمًا:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعل رأيت جمع الكائنات ملاحًا

الشَّرُّ الثاني المستعاذ بالله منه:

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

في هذه الآية تخصيص لبعض الشرور بالذكر، مع اندراجه فيما قبله، لزيادة مسيس الحاجة إلى الاستعاذة منه، لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ منه، أدل على الاعتناء بالاستعاذة، وأدعى إلى الإعاذة.

ومعنى الآية: أي ومن شر ليل معتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وأصل الغسق: الامتلاء، يقال: غسقت العين، إذا امتلأت دمعًا، وغسق الليل: انصباب ظلامه.

وإضافة الشر إلى الليل، لملابسته له بحدوثه فيه، وتنكيره لقوله: ﴿غَاسِقٍ﴾، ولم يقل: الغاسق لعدم شمول الشر لجميع أفراده، ولا لكل أجزائه.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٥٨/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

وتقييده بقولـــه: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي دخل ظلامه في كل شـــيء؛ لأن حدوث الشـــر فيه أكثر، والتحرز منه أصبر وأعســـر، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، والظلام أخفى للإجرام.

هكذا بعد أن علمنا القرآن: أن نســـتعيذ بالله من شر ما خلق عمومًا، بدأ يعلمنا ـ حينما علم رســـوله ـ الاستعاذة برب الفلق من شرور خاصَّة لها تأثيرها على الناس، وأولها: شر الغاسق إذا وقب.

لقد فسَّـــر أكثر المُفَسِّـــرين وأهل اللُّغة: الغاســـق بـ «الليل» كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فإن الظلمة ـ الَّتي هي مـــن خصائص الليل ـ مظنة كثير من الشـــرور، كما فســـروا ﴿وَقَبَ﴾، بمعنى دخل.

وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين طلع، فقال: «**تعوَّذي بالله من شرِّ هذا الغاسق إذا وَقَب**»[(١)].

وفي رواية أخرى: «**استعيذي بالله من شـــر هذا، فإنَّ هذا الغاسق إذا وقب**»[(٢)].

وهذا لا ينافي ما قاله المفســـرون وعلماء اللُّغة، من أنَّ الغاســـق هو الليل؛ لأنَّ القمر لا يطلع إلَّا في الليل، حتى إنَّ القرآن ســـمَّى القمر آية

(١) رواه أحمد (٢٤٣٢٣)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن. والنســـائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٦٥).

(٢) رواه أحمد (٢٥٨٠٢)، وقال مخرِّجوه: إســـناده صحيح على شـــرط الشيخين. والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٦٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

QaradawiBooks.com

الليل، في نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] قال ابن كثير: «هذا لا ينافي قولنا: إنَّ الغاسق هو الليل؛ لأنَّ القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلَّا فيه»[١].

والقمر وإن كان ينير في الليل، لا يمنع الأشرار من اللصوص وقطاع الطريق، وغيرهم من التحرك فيه، وخصوصًا في غير الليالي البيض.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالقمر أحقُّ ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجنِّ، ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه أنواع الشر ما لا يجري بالنهار، من أنواع الكفر والفسوق والعصيان، والسحر والسرقة والخيانة، والفواحش وغير ذلك.

فالشر دائمًا مقرون بالظلمة، ولهذا إنَّما جعله الله مكانًا لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن، تفعل فيه من الشر، ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر ويدعونه، فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عمومًا، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ثمَّ خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب، وهو الزمان الَّذي يعم شره، ثمَّ يخص بالذكر: السحر والحسد»[٢].

الشر الثالث المُستَعاذ بالله منه:

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾

وهذا لونٌ ثالث من الشر، أمر الله رسوله ـ وبالتالي كل واحد منا ـ العياذ برب الفلق منه، وهو ﴿شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾:

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٦/٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٠٦/١٧، ٥٠٧).

QaradawiBooks.com

جمع «نفَّاثة» وهي صيغة مبالغة مشتقة من النفث، وهو النفخ مع ريق أو من غير ريق، ﴿فِي ٱلْعُقَدِ﴾ جمع «عُقْدة» وهي: ما يربط ويشد من الخيط أو الحبال. وهو من عادة أهل السحر، وقد ذكرت ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، وهي صفة، ولكن ما الموصوف هنا، وما المراد منه؟ قيل: المراد: النساء، أو النفوس، أو الجماعات.

وبعض المُفَسِّرين رجَّح النساء؛ ذهابًا إلى أنَّ السحر أكثر ما يقوم به النساء، وهو غير مسلم، وحتى الحديث الَّذي رووه في سحر النبي ﷺ، كان الساحر فيه رجلًا، وهو لبيد بن الأعصم، كما جاء في الصحيح.

قول أبي مسلم الأصفهاني:

وإلى جوار هذه الأقوال، ينقل الينا الإمام فخر الرَّازي في تفسيره الكبير، قول «أبي مسلم» أو اختيار أبي مسلم: ﴿شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، أي: النساء، ﴿فِي ٱلْعُقَدِ﴾، أي: في عزائم الرجال وآرائهم، وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلًا، فمعنى الآية: أنَّ النساء لأجل حبهِن في قلوب الرجال؛ يتصرفن في الرجال، يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن، كقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فلذلك عظم الله كيْدهن، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

قال الرازي: «واعلمْ أنَّ هذا القول قولٌ حسن، لولا أنَّه على خلاف قول أكثر المُفَسِّرين»[1].

(١) تفسير الرازي (٣٢/٣٧٤، ٣٧٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومع أنَّ الإمام الرازي استحسن هذا القول في ذاته، نجد العلَّامة الآلوسي في «روح المعاني» يُعَلِّق عليه قائلًا: وهو من بدع التفاسير[١]!

وقد أشار الزمخشري في «الكشَّاف» إلى هذا القول، وإن لم ينسبه إلى أحد، فقال: «ويجوز أن يراد بهن النساء «الكيَّادات»، من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، تشبيهًا لكيدهن بالسحر والنفْث في العُقَد، أو اللاتي يفتنَّ الرجال، بتعرضهنَّ لهم، وعرضهنَّ محاسنهنَّ، كأنهنَّ يَسْحَرْنهم»[٢].

وممَّا يؤيد هذا القول الحديث، المتَّفق عليه عن أسامة: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء**»[٣].

النفاثات هي الأنفس أو الجماعات:

والقول الأشهر: أنَّ النفاثات إنَّما جمعت جمع تأنيث؛ لأنَّ المقصود بها: الأنفس أو الجماعات، كما في عدد من التفاسير. فالمراد: الاستعاذة من شر الأنفس النفاثات، أو الجماعات النفاثات.

والمعنى: الأمر بالعياذ والتحصن برب الفلق، رب الحياة والنور، من شر هذه الأنفس الخبيثة، والجماعات الشريرة، الَّتي تشغل نفسها بإيذاء الخلق، وإفساد دينهم ودنياهم عليهم، بهذا العمل الشَّرير، الَّذي يقوم على النفث في العقد، أي: شدها وربطها والنفخ عليها من ريقهم، وتقطيع روابطهم، وتمزيق شملهم، وإرباك أسرهم، وهو ما يقوم به أرباب السحر أبدًا، ومن يلحق بهم، وينزع عنهم، فشأن هذه الأنفس

(١) روح المعاني (٥٢٢/١٥)، تحقيق علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) الكشاف (٨٢٢/٤).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر (٢٧٤٠).

QaradawiBooks.com

الخبيثة: أن تتخذ هذا السحر أداة للإيذاء والتخريب، وفساد ذات البين، كما قال تعالى في شأن السحرة، في قصَّة هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والسَّحرة أعجز من أن يستطيعوا تغيير طبائع الأشياء، وإنَّما مهارتهم في التَّخييل والإيهام، وسحر الأعين، أمَّا الأشياء من حبال وعصي ونحوها، فهي تبقى حبالًا وعصيًّا، ولكن قدرتهم تكمن في الإيهام والإيحاء والتَّخييل، حتَّى قال القرآن في سَحَرة فرعون لما ألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، حتَّى قال تعالى عن سيِّدنا موسى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٦، ٦٧]، فإذا كان هذا تأثير السحر في نفس موسى عليه السلام، على ما وصف به من القوة، فما بالك بغيره من الناس؟!

اختيار ابن القيِّم:

وقد اختار الإمام ابن القيِّم في تفسير السورة: أنَّ النفَّاثات هنا: هي الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنَّما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة، وسلطانه إنَّما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم[1].

ففي الصحيح، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أنَّ النبي طب ـ أي: سحر ـ حتَّى إنَّه ليخيل إليه أنَّه صنع شيئًا وما صنعه، وأنَّه دعا ربه، ثمَّ قال: «**أشعرتِ أنَّ الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟**». فقالت

(١) التفسير القيم لابن القيم صـ ٥٦٣، ٥٦٤، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

عائشة: وما ذاك، يا رسولَ الله؟ قال: «**جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: منْ طبه؟ قال: لبيد بـن الأعصم. قال له: في ماذا؟ قال: في مُشْط ومُشاطة، وجف طلْع ذكر. قال: فأين هو؟ قال: في ذروان، بئرٌ في بني زريق**».

قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله ـ أي البئر ـ ثمَّ رجع إلى عائشة رضي الله عنها فقال: «**والله، لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين**». قالت: فقلت له: يا رسولَ الله، هلا أخرجته؟ قال: «**أمَّا أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على النَّاس شرًّا**». فأمر بها، فدفنت[(١)]. قال البخاري: وقال الليث وسفيان بن عيينة، عن هشام: «**في مُشْط ومُشاقة**».

ويقال: إنَّ المشَّاطة: ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة: من مشاقة الكتان.

قلت: هكذا في هذه الرواية: أنَّه لم يخرجه، اكتفاء بمعافاة الله له، وشفائه إياه.

وفي رواية أخرى لهذا الحديث، أنَّه عليه السلام استخرجه[(٢)]. وترجم البخاري عليه: باب هل يستخرج السحر؟ وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب، ويؤخذ عن امرأته، أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، إنَّما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع النَّاس فلم ينه عنه[(٣)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٦٣)، ومسلم في السلام (٢١٨٩).

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٧٦٥).

(٣) صحيح البخاري (١٣٧/٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهذان الحديثان قد يظنُّ في الظاهر تعارضهما، فإن حديث عيسى، عن هشام، عن أبيه، الأول، فيه: أنَّه لم يستخرجه. وحديث ابن جريج، عن هشام فيه: أنَّه استخرجه. ولا تنافي بينهما. فإنَّه استخرجه من البئر حتَّى رآه وعلمه، ثمَّ دفنه بعد أن شفِي.

وقول عائشة رضي الله عنها: هلا استخرجته. أي: هلَّا أخرجته للنَّاس، حتَّى يروه ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أنَّ المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت، ولم يستخرجها للناس. فالاستخراج الواقع غير الَّذي سألت عنه عائشة.

والذي يدلُّ عليه أنَّه إنَّما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجئ لينظر إليها ثمَّ ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك. والله أعلم.

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا، حمل فيه على هشام. وكان غاية ما أحسن القول فيه: أن قال: غلط، واشتبه عليه الأمر. ولم يكن من هذا شيء. قال: لأنَّ النبي ﷺ لا يجوز أن يسْحر، فإنَّه يكون تصديقًا لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]. قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]. قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين.

QaradawiBooks.com

وهذا الَّذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق النَّاس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمَّة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟! وقد رواه غير هشام، عن عائشة!

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير، والسنن، والحديث، والتاريخ، والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد بن حباب، عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أيامًا. قال: فأتاه جبريل، فقال: «**إن رجلًا من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقدًا**». فأرسل رسول الله عليًّا. فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة. فقام رسول الله ﷺ كأنَّما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط[1].

قالوا: والسحر الَّذي أصابه كان مرضًا من الأمراض عارضًا شفاه الله منه. ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما؛ فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكَّت قدمُه، وجَحِش شِقُّه[2].

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٥١٣).

(٢) في الحديث: أنَّه ﷺ ركب فرسًا فصرع عنه، فجحش شقه الأيمن، فصلى صلاة من الصلوات وهو قاعد، فصلينا وراءه قعودًا. جحش شقه: أي: انخدش. والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في الإمامة (٦٨٩)، ومسلم في الصلاة (٤١١)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وهذا من البـــلاء الَّذي يزيده الله به رفعة فـــي درجاته، ونيل كرامته، و«**أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء**»[١]، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به: من القتل، والضرب، والشتم، والحبس. فليس ببدع أن يبتلى النبي من بعض أعدائه بنوع من الســـحر، كما ابتلي بالَّذي رماه فشـــجَّه[٢]، وابتلي بالَّذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد[٣]، وغير ذلك. فلا نقص عليهم ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم، وعلو درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري، أنَّ جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمَّد اشتكيت؟ فقال: «**نعم**»، فقال: باسم الله أَرْقيك، من كلِّ شيءٍ يُؤذيك، من شرِّ كلِّ نَفْس أو عينِ حاسد اللهُ يَشْفيك، باسم الله أرقيك[٤]. فعوَّذه جبريل من شـــرِّ كُلِّ نفسٍ وعينِ حاسد، لما اشتكى. فدلَّ على أنَّ هذا التعويذ مُزِيلٌ لشكايته ﷺ.

وقالوا: وأمَّا الآيات الَّتي استدللتم بها لا حُجَّة لكم فيها.

والجواب الَّذي ارتضاه ابن القيِّم هنا: هو جواب صاحب «الكشـــاف» وغيره: أنَّ «المســـحور» وهو من ســـحر حتَّى جن. فقالوا: مســـحور. مثل مجنون. أي: زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإنَّ المسحور الَّذي لا يتبع: هو

---

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن بهدلة وهو صدوق. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) إشـــارة إلى الحديث المتَّفق عليه: لما كســـرت بيضة النبي ﷺ على رأســـه، وأدمي وجهه وكســـرت رباعيته، وكان علي يختلف بالماء في المجن... رواه البخاري (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠)، كلاهما في الجهاد والسير، عن سهل بن سعد.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٤٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٤)، عن ابن مسعود. السلا: ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد. ممَّا كان في الرحم لحفظه.

(٤) رواه مسلم في السلام (٢١٨٦).

QaradawiBooks.com

الَّذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول. فهو كالمجنون. ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنَّه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنَّما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنَّهم قد سحِروا حتَّى صاروا لا يعلمون ما يقولون، بمنزلة المجانين. ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، أي: مثلوك بالشاعر مرَّة، والساحر أخرى، والمجنون مرَّة، والمسحور أخرى. فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه، فلا يقدر عليه. فإنَّه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيْرة، فهو متحير في أمره، لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها، فهكذا حال أعداء رسول الله معه، حتَّى ضربوا له أمثالًا، برأه الله منها. وهو أبعد خلق الله عنها. وقد علم كل عاقل أنَّها كذب وافتراء وبهتان.

وأمَّا قولكم: إنَّ سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم، فإنَّه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، يبتليهم بما شاء من أذى الكفَّار لهم؛ ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم، إذا أوذوا من النَّاس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبوا ما أعدَّ لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله، بإيذاء قومهم. وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إلٰه غيره، ولا ربَّ سواه[1].

(١) تفسير ابن القيم صـ ٥٧٠.

QaradawiBooks.com

تأثيرات السحر:

وقد دلَّ قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الـكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنَّه لا تأثير للسحر البتَّة لا في مرض، ولا قتل، ولا حل ولا عقد. وقالوا: إنَّما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سـوى ذلك. وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسـلف، واتفق عليـه الفقهاء وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامَّة العقلاء.

والسـحر الَّذي يؤثِّر مرضًا وثِقلًا وعقْدًا، وحبًّا وبغضًا ونزيفًا، وغير ذلك من الآثار موجود، تعرفه عامَّة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به منه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلَّا بمباشرة البدن ظاهرًا، كما يقوله هؤلاء. لم يكن للنفث ولا للنفاثات شرٌّ يُستعاذ منه[1].

وأيضًا فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين (أي: في قصَّة موسى) مع كثرتهم حتَّى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغيير في إحساسـهم، فما الَّذي يحيل تأثيره فـي تغيير بعض أعراضهم

(١) بل النفث الذي يليق بعظمة بلاغة القرآن، وفخامة أسـلوبه: هو نفث المفسدين سمومهم: بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السـوء فـي عقد الصلات بين الناس، حتـى يفكّوا عرى الزوجية والمودة والرحمة، وغيرها. وشر وضرر هذا في الناس أكثر جدًّا من شر من يقولون: إنهم سحرة. والله أعلم.

QaradawiBooks.com

وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟

فإذا غير إحساسه حتَّى صار يرى الساكن متحركًا، والمتصل منفصلًا، والميت حيًّا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه، حتَّى يجعل المحبوب إليه بغيضًا، والبغيض محبوبًا، وغير ذلك من التأثيرات؟!

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت. وذلك إمَّا أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي: الشياطين. فظنوا أنَّها تحرَّكت بأنفسها، وهذا كما إذا جرَّ من لا تراه حصيرًا أو بِساطًا، فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار له، مع أنَّه هو الَّذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقليب الحية، فظن الرائي أنَّها تقلبت بأنفسها، وإنَّما الشياطين هم الَّذين يقلبونها.

وإما أن يكون التَّغيير حدث في الرائي، حتَّى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها، ولا ريب أنَّ الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه، حتَّى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتَّى يتصرف فيها[١].

وقد ردَّ ابن القيِّم على ما يقوله منكرو السحر وتأثيره، من أنَّهم حرّكوا الحبال والعصي بوضع مادَّة تحركها، مثل الزئبق، ونحو ذلك، وقال: إن بطلان ذلك أظهر من أن يتكلف رده[٢].

(١) التفسير القيم لابن القيم صـ ٥٦٣ ـ ٥٧٢.
(٢) المرجع السابق صـ ٥٧٣.

QaradawiBooks.com

رأي الإمام محمَّد عبده:

وللأســتاذ الإمام محمَّد عبده رأي في معنى الآيــة المراد، ذكره في تفسيره لجزء «عمَّ»، خالف فيه جمهور المُفَسِّــرين، الَّذين مالوا إلى أنَّ المراد بـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾، أنفس السحرة الشريرة، ولكنَّه ذهب إلى أن لفظة ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، جمع نفاثة، وهــي صيغة مبالغة مثل علامة وفهامة، وهي تشمل الذكر والأنثى.

وقال: إنَّ المراد بهم هنا: النمَّامون المقطِّعون لروابط الألفة[1]. وأنكر ما يقال هنا عن السحر، وأنا أخالفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رغم إعجابي به، وأجد نفسي مع الجمهور الأعظم من المُفَسِّــرين: أنَّ المراد بهذه الآيه المحذِّرة من النفاثات في العقد يتعلق بالسحر، والاستعاذة من شرِّ السحر والسحرة.

والواقع يثبت أنَّ هذه الفئة من النَّاس من النفَّاثات في العقد هم من أخطر الفئات، ولهم شرٌّ شديدٌ في المجتمع، فالسَّحَرة وما يتفرَّع منهم، وما يلحق بهم، من المُنجِّمين والكَهَنــة والعرَّافين والرمَّالين، وكلُّ هذه الأصناف الَّتي تعمل في فضاء المجتمع الواســع، وتعبث بعقول النَّاس وعقائدهم وأفكارهم وأعمالهم.

وقد نحا نحو الشــيخ محمَّد عبده بعض المعاصريــن، في إنكار أنَّ المراد بالنفث في العقد، في الآية «السحر»، ومن هؤلاء: العالم السلفي المحدث الشيخ محمَّد حامد الفقي، رئيس ومؤسِّس جماعة أنصار السنة في مصر.

حيث علَّق على إثبات ابن القيِّم أيضًا للسحر، فقال: «إنَّ جوابات الشيخ ـ غفر الله لنا وله ـ عن السحر متكلَّفة. وتدلُّ على أنَّه لم يخبر

(١) تفسير جزء عم لمحمد عبده صـ ١٨٥.

QaradawiBooks.com

صناعة المشعوذين والممخرقين، والقرآن صريح في أنَّ ما صنعه سحرة فرعون كان تخييلًا، لا حقيقة له في الواقع، وسحر الأعين فنٌّ ليس بدقيقٍ كلّ الدّقَّة، ولا خِفِيٍّ كلّ الخفاء إلَّا على العامَّة، وعلى من لم يدرسه ويعرف حِيَل أصحابه، ولذلك كتب مؤلَّفة من قرأها عرف ذلك.

أمَّا أن يصل إلى إحداث بغض أو حب أو نزيف في رحم المرأة، من غير أسباب ذلك، فهذا الَّذي يحتاج إلى دليل، وكل ما ساق الشيخ وغيره من الأدلَّة: فلا ينهض حُجَّة لذلك. والله أعلم»[1].

قول صاحب الظلال:

قال «سيِّد قطب» رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسير الآية: «والسحر لا يُغَيِّر من طبيعة الأشياء؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنَّه يخيِّل للحواسّ والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوَّره القرآن الكريم في قصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٩].

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيَّات فعلًا، ولكن خيَّل إلى النَّاس وموسى معهم، أنَّها تسعى، إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التَّثبيت، ثمَّ انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حيَّة، فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة.

(١) التفسير القيم لابن القيم هامش صـ ٥٧٣.

QaradawiBooks.com

وهذه هي طبيعة السـحر كما ينبغي لنا أن نسـلِّم بهـا، وهو بهذه الطبيعة يؤثِّر في النَّاس وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه، مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجِّههم الوجهة الَّتي يريدها السـاحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السـحر والنفث في العقد، وهي شر يُسـتعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه.

وقد وردت روايات بعضها صحيح، ولكنَّـه غير متواتر، أنَّ لبيد بن الأعصم اليهودي سـحر النبي ﷺ فـي المدينة، ولكن هـذه الروايات تخالف أصل العصمة النبويَّة في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد، بأن كل فعل من أفعاله ﷺ، وكل قول من أقواله، سنة وشريعة، كما أنَّها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنَّه مسحور»[1].

أيُّ الرأيَيْن نرجِّح؟!

والآن ما موقفنـا أمام الرأيين المتنازعيْن بين إثبات السـحر ونفيه؟ أيهما أحق بالقبول والترجيح؟!

والذي يلـوح لي من خلال النصـوص والأدلَّـة وموازناتها بعضها ببعض: أن هناك جملة أمور يجب أن نبينها بوضوح وجلاء:

أولًا: أنَّ آية النفاثات في العقد يمكن أن نفسرها ونشرحها ونبيِّن المراد منها، دون ربطها بما جاء من الأحاديث في سحر النبي ﷺ، سواء ارتضينا هذه الأحاديث كما ارتضاهـا جمهور العلماء، مثـل: الطبري، والقرطبي، وابن تيمية، وابـن القيم، وابن كثير، وغيرهم. ولـم يثبت أن هذه الواقعة سبب نزول السورتين، بل الثابت المعوَّل عليه: أنَّ السورتين نزلتا بمكة.

(١) في ظلال القرآن (٨/٤٠٠٧، ٤٠٠٨).

QaradawiBooks.com

ثانيًا: حديث سحر النبي ﷺ، يمكن أن نسلِّم به، على أن نحمل ما روي أنَّه كان يخيل إليه أنَّه فعل الشيء ولم يكن فعله، لا يتعلق بأمر التبليغ ولا التشريع، إنَّما كان في أمر دنيوي، وهو ما يتعلق بأمر الجماع، وهو ليس بأمر ذي بال، ولا يخل بأمر العصمة المطلوبة، والواجبة للأنبياء جميعًا، وهنا نرفض كل ما ينافي العصمة في التبليغ، أو يجوز تطرق الشك إليه، ويكون ذلك طعنًا معتبرًا في صحَّة الرواية الَّتي تثبت ذلك.

ثالثًا: أنَّ الَّذي أصيب به النبي ﷺ، إنَّما كان في بدنه لا في عقله، فهو نوع من المرض الَّذي يبتلى به النَّاس عامَّة، حتَّى الأنبياء عليهم السلام، ولا نقص عليهم في ذلك، كما ذكر ابن القيِّم[1]. وقد ابتلي أيوب عليه السلام، بما ابتلي به، حتَّى شفاه الله، حين ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، على أننا نرجح هنا الرواية الَّتي تجعل مدة إصابته بهذا الابتلاء كانت أيامًا، ولا نصحح الرواية الَّتي جعلتها عدة أشهر، وإن رضيها بعض العلماء.

رابعًا: إنَّنا أخذنا برأي الجمهور في أن ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾، هي الأنفس الَّتي أنست بالشر، واستراحت إليه، وركنت إلى السحر وأهله ومصادره، تلجأ إليهم وتستعين بهم، فإنا نعلن: أن هذه الأنفس إنَّما هي أنفس صغيرة مهزومة، جنَّدت نفسها للشيطان تأتمر بأمره، وتسير في ركابه، وأن سحرها لا يعطيها قوَّة خارقة تعلو بها على المؤمنين، وتتطاول بها على الدعاة الصادقين. وأن هؤلاء السَّحَرة، وإن نبغوا في علمهم وتفوَّقوا فيه: لا يضرُّون أحدًا إلَّا بإذن الله، وأن من

(١) التفسير القيم لابن القيم صـ ٥٧٠.

QaradawiBooks.com

يستعين عليهم بالله تعالى، ويلوذ بحماه، مستعيذًا من شرِّهم، فإنَّ الله أهل أن يعيذه ويحميه من كيدهم وأذاهم.

خامسًا: لا أوافق الإمام محمَّد عبده على إخراجه شر السَّحَرة بإطلاق من الشرور المستعاذ منها في السورة، بل أرى أن من المناسب التحذير من شر هذه الفئة الخطيرة، ومن كل ما يلحق بها، ويتفرَّع منها، من المنجِّمين والكهنة والعرَّافين والرمَّالين وأمثالهم.

السحر من كبائر الإثم:

وممَّا لا خلاف فيه: أنَّ السحر معصية لله تعالى، بل هو من كبائر المعاصي والآثام، حتَّى جاء في الحديث المتَّفق عليه، أنَّه ﷺ، قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يا رسولَ الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس الَّتي حرم الله إلَّا بالحقِّ**» الحديث[1]. فانظر كيف جعله بعد الشرك بالله تعالى، وهو أكبر الكبائر.

وفي الآية الَّتي ذكرت قصَّة هاروت وماروت، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد اختلف الفقهاء في عقوبة الساحر، فذهب بعضهم إلى أن عقوبته أن يضرب بالسيف.

وأعتقد أنَّه لا خلاف بين الفقهاء في تأثيم الساحر، وأنَّ إثمه عند الله عظيم، ولكن الخلاف إنَّما هو في حقيقة السحر ما هي؟ وما طبيعتها؟ وما أثرها إن كان له أثر؟

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والذي ينبغي ألَّا يختلف عليه بين الفقهاء: أن يكون للسحر أثر، وأن يكون أثره سيئًا وضارًا، وإن كان ضرره بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وأنَّه أمر يعاقب الله عليه في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه يجب أن يعزر فاعله في الدنيا.

أمَّا حقيقته، وهل هو مجرَّد إيهام وتخييل وسحر لأعين الناظرين، أم هو أمر مؤثر في الأبدان بالأمراض، وفي العقول بالبلبلة والاضطراب، وفي المجتمع بالتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه.

هنا يحدث الاختلاف، وانقسام العلماء إلى فرقاء[1] ثلاثة:

١ ـ هناك فريق يبالغ في الإثبات، ويرون أنَّ السحر يؤثر في الأبدان والعقول، والأسر والمجتمعات، ويوقنون بأنَّ الساحر له قدرة يلمس النَّاس أثرها، في الوصل والقطع، والتجميع والتفريق، والصحة والمرض، والبغض والحب، وهو ما ينسب إلى الأشاعرة، أو إلى أهل السنة عامة.

٢ ـ وفريق يبالغ في النفي، ولا يثبت للساحر أي قدرة، أو أثر في غيره، إنَّما هو إيهام وإيحاء وتخييل، وسحر للأعين، كما صرح القرآن في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وهو مذهب المعتزلة، وهو ما اتجه إليه الشيخ محمَّد عبده، الَّذي قال: «ماذا لو فهمنا من السحر الَّذي يفرق بين المرء وزوجه: تلك الطرق الخبيثة الدقيقة الَّتي تصرف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها؟ وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق ممَّا يتعلم وتطلب له الأساتذة؟ ونحن نرى أن كتبًا ألفت! ودروسًا تلقى

(١) فرقاء: جمع فريق، والفريق هو: الطائفة من الناس أكبر من الفرقة، وتُجمع على: فرقاء وأفرقة. انظر: المعجم الوسيط مادة (ف. ر. ق).

QaradawiBooks.com

لتعليم أساليب التفريق بين الناس، لمن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات؟»[١].

٣ ـ والفريق الثالث: هم الأمَّة الوسط، الَّتي تقف بين الغلو والتفريط بين الفئتين المذكورتين، فهي تثبت للساحر عملًا وتأثيرًا في الأشياء، وهو تأثير سيئ وضار، وضرره بإذن الله، وبهذا استحق أن يكون من المُوبقات السبع، وأن يذكر بعد الإشراك بالله سبحانه، حتَّى أمر الله رسوله ـ وأمرنا معه بالتالي ـ أن نتعوذ بالله من شر النفاثات في العقد، والمقصود عند جمهور الأمة من الخلف والسلف: أهل السحر.

ولهذا كتب عمر إلى ولاته: أن اقتلوا كل ساحر وساحِرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر[٢].

ولكن هذا الفريق لا يقولون: إنَّ الساحر قادر على تبديل طبائع الأشياء، فينقل العصا أو الحبل إلى حية تسعى، أو ثعبان مبين، فهو أعجز من أن يفعل هذا، إنَّما ـ كما ذكرنا ـ إيهام وتخييل.

وسحر أعين هذه الجموع الكثيرة، حتى تحسب الحبال والعصي قد انقلبت إلى حيَّات تسعى، حتَّى أوجس موسى خيفة في نفسه، حينما وصل إليه من سحرهم أنَّها تسعى، ليس بأمر هين، وهو يدلُّ على أن لهم شيئًا من التأثير بسحرهم. كما قال ابن القيِّم[٣].

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده صـ ١٨٧.

(٢) رواه أحمد (١٦٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده على شرط البخاري. ورواه أبو داود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٧)، وقال: حسن صحيح.

(٣) التفسير القيم لابن القيم صـ ٥٧٢، ٥٧٣.

QaradawiBooks.com

ومن هنا ورد التحذير من هذا الباب كله، من السحر وما يتعلق به، وما يتنوع عنه، من أشباه السحرة، كالكهنة والعرافين والمنجمين، وكل هذه الأصناف. وقد جاء في حديث ابن عبَّاس: «**من اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السِّحْر، زاد ما زاد**»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة: «**من أتى كاهنًا، أو عرافًا، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمَّد**»[(٢)]. وفي حديث بعض أمَّهات المؤمنين: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تُقْبَل له صلاةٌ أربعين يومًا**»[(٣)].

كلام العلَّامة رشيد رضا في حديث السحر، وتفسير الآية:

ويسُرُّني أن أنقل كلام العلَّامة محمَّد رشيد رضا، في حديث السحر، وهو ليس كلام النافي له، أو المكذِّب به، بل كلام من يُصدِّق به، ويؤوِّله أحسن تأويل، يُقنع أهل العقل والنظر، ولا يردُّه أهلُ النقل والأثر، شأن علماء الوسطيَّة والاعتدال أبدًا.

وإليك ما ذكره في نهاية تفسير سورة الفلق، من قصار السور تحت عنوان: علاوة لتفسير السورة في حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبيِّ ﷺ.

---

(١) رواه أحمد (٢٨٤٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦)، وصحَّحه إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٢) رواه أحمد (٩٥٣٦)، وقال مخرِّجوه: حسن. وأبو داود في الطب (٣٩٠٤)، بلفظ: «فقد برئ ممَّا أنزل»، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٨٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

وبعد أن ذكر رواية الشـيخين للحديث، من طريق عائشة رضي الله عنها، وهي الَّتي أوردناها من قبل، أشار إلى الرواية الأخرى، حيث قال: «وفي رواية الشـيخين: كان ﷺ سـحر حتَّى كان يرى أنَّه يأتي النسـاء ولا يأتيهن. بنحوه. وفيه: سَحَرَه رجلٌ من بني زُرَيْق، حليف اليهود، كان منافقًا[1].

وعن زيد بن أرقم، سـحر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ رجلًا من اليهود سحرك، عقد لك عُقَدًا، في بئر كذا وكذا. فأرسل النبيُّ ﷺ فاستخرجها فحلَّها، فقام كأنَّما أُنْشِط من عِقَال! فما ذكر ذلك لذلـك اليهودي، ولا رآه في وجهه[2]. والأيام جمع قلَّة، ولكن بالغ بعض الرواة في غير الصحيحين فجعلوها أشهرًا.

قال السيد رشـيد: فهذا الحديث صريح في أنَّ المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء، ولكن فهم أكثر العلماء أنَّه ﷺ سحر سحرًا أثر في عقله، كما أثر في جسـده، فأنكره بعضهـم، وبالغوا في إنكاره، وعدوه مطعنًا في النبـوَّة، ومنافيًا للعصمة، لقول عائشـة: حتَّى إنَّه كان يخيل إليه أنَّه فعل الشيء ولم يكن فعله. فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول، وعدوها: مخالفة للقطعي في النقـل، وهو ما حكاه الله تعالى عن المشـركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسـلهم بقولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، وتفنيده تعالـى لهم بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

ومخالفة للقطعي في العقل، من عصمة النبي ﷺ، من كل ما ينافي النبوَّة والثقة بها، إذ يدخل في ذلك التخييل ما هو من التشريع.

---

(١) بنو زريق: بطن من بطون الخزرج، فهو على هذه الرواية يهودي بالحلف لا بالنسب.

(٢) رواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٨٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٨٠٢).

QaradawiBooks.com

ومخالفة لعلم النفس، الَّـذي يعلم منه أنَّ الأنفس السـافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة، فأنكر صحَّة الرواية بعض العلماء.

وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المُفَسِّرين الفقهـاء أبو بكر الجصَّاص في كتابه: «أحكام القرآن»[1]، وآخرهم شيخنا الأستاذ الإمام في «تفسير جزء عم».

وقد أطال شـيخنا في هذا وبالغ فيه. وبنى إنـكاره له على القاعدة المتَّفـق عليها عند علمـاء العقائد وأصـول الفقه، فـي معارضة الظني للقطعي، إذ الحديث آحاد، وهو يفيـد الظن، فيرد بالقطعي عقلًا ونقلًا، وهو ما ذكرناه آنفًا.

وقـد اتفقوا علـى أنَّ أحاديث الآحـاد لا يحتج بهـا في أصول العقائد. وقال: إن كونه يفيـد الظن خاص بمن صح عنده، وإن له أن يتأولـه أو يفوض الأمر فيـه، على قاعدتهم الأخـرى في النصوص المعارضة للعقل.

ولعمري إنَّ ما نعرفه عن شيخنا محمَّد عبده ـ قدَّس الله روحه ـ من إجلاله وإكباره لشأن محمَّد رسـول الله وخاتم النبيين، في نفسه الزكيَّة، وروحه القدسـيَّة، وعلو مداركه العقليَّة، ممَّا لم نعرف مثله عن أحد من العلمـاء العقليين كفلاسـفة المسـلمين ومتكلميهم، ولا مـن العلماء الروحيين كالصوفية، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته ﷺ، وحسبك منها تلك الإشارة البليغة في: «رسـالة التوحـيد». بل كان يقـول: إنَّ روحه ﷺ، كانت منطـويـة على جملة هـداية الدين،

(١) أحكام القرآن للجصاص صـ ٦٠، تحقيق محمد صادق القمحاوي، نشـر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

QaradawiBooks.com

ومدارك التشريع، الَّتي فصلت في كـتاب الله تعالى وسنته تفصيلًا تامًّا، كما نقلناه عنه في تاريخه.

وأجاب عن الرواية المحدِّثون المصحِّحـون لهـا علمًا، والمقلدون لهم: بأنَّ غاية ما تدلُّ عليه: أن ذلك السحر إنَّما أثر في بدنه دون روحه وعقله، فكان تأثيره من الأعراض الجسـدية، كالأمراض الَّتي لم يعصم الأنبياء عليهم السلام منها.

وقد محصت هذه المسـألة مرارًا، آخرها في الرد على مجلة الأزهر «نور الإسلام» في زعمها المفترى: أنني كذبت حديث البخاري في سحر النبي ﷺ، فبيَّنت: أنَّ الحديث الصحيح في المسـألة عن عائشـة رضي الله عنها، توهم عبارة بعـض رواياته ما هو أعم من المعنى الخـاص الَّذي أرادته منه، وهو مباشرة الزوجيَّة بينه ﷺ وبينها، فقولها: كان يخيَّل إليه أنَّه فعل الشيء وهو لم يفعله. كناية عن هذا الشيء الخاص، لا عام في كل شيء، فلا يدخل فيه شـيء من أمور التشريع، ولا غير غشـيان الزوجية، من الأمور العقليَّة، أو الأمراض البدنية، فضـلًا عمَّا كان يريده الَّذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتَّى الآن «الربط» أو «العَقْد»، أي: عقد الرجل المانع من مباشرة زوجته فقط.

وبيَّنت أيضًا أنَّ الرواية في أصح أسانيدها عند الشيخين، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة. فيها علة من علل الحديث الخفية الَّتي يشترط في صحَّة الحديث السـلامة منها، وهي: أن بعض منكـري الحديث أعلُّوه بهشـام هذا، وألَّف بعضهم كتابًا خاصًّا فيـه، محتجًّا بقول بعض علماء الجـرح والتعديل: إنَّه كان في العراق يرسـل عن أبيـه عروة بن الزبير

QaradawiBooks.com

ما سمعه من غيره، وعروة هو راوية عائشة الثقة، وهي خالته. وقال ابن خراش: كان مالك لا يرضاه. يعنى: هشامًا، وقد نقم منه حديثه لأهل العراق. وقال ابن القطَّان: تغيَّر قبل موته[١].

ولا شك أنَّ تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان، خاص بما رواه قبل تغيُّره، فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الَّذي أنكروا متنه بما علمت، والأمر فيه أهون ممَّا قالوا[٢]، فالتحقيق أنَّه خاص بمسألة الزوجية كما جاء في التصريح به في الرواية الثانية كما تقدم، ولا يعتد بغير هذا.

أمَّا ما رواه البيهقي في دلائل النبوَّة، عن ابن عبَّاس في مرضه ﷺ، وأنَّه كان شديدًا، وأنَّه كان سحرًا في بئر تحت صخرة في كَرَبة[٣]، وأنَّهم أخرجوها فأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشر عُقْدة، وأنزلت عليه هاتان السورتان ـ يعني المعوذتين ـ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة[٤]. اهـ ملخصًا.

فهذا حديث باطل، مخالف لحديث الصحيحين في المسألة، ولروايات نزول السورتين بمكة، وهو من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس. والكلبي هذا متهم بالكذب، وطريقه أوهى الطرق عن ابن عبَّاس، واسمه محمَّد بن السائب.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٥/٦)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) راجع تفصيل المسألة في كتاب: المنار والأزهر صـ ١١٠ ـ ١١٩، نشر دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٣) الكَرَبُ: أصول السعف التي تقطع معها، وواحدتها: كربَةَ. المصباح المنير مادة (ك. ر. ب).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٤٨/٦).

QaradawiBooks.com

وأمَّا مـا رواه أبو نعيم فـي الدلائل، عن أنس قـال: صنعت اليهود للنبيِّ ﷺ، شيئًا، فأصابه من ذلك وجعٌ شديد، فدخل عليه أصحابه فظنوا أنَّه ألـم به، فأتاه جبريـل بالمعوذتين فعوذه بهما، فخـرج إلى أصحابه صحيحًا[1]. فهو من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، وهما ضعيفان. وليس في متنه ذكر السـحر، ولا أنَّ المعوذتين نزلتا في ذلك الوقت، ولا في أي شـيء من روايات الصحيحين. فالاستدلال به على أنهما مدنيتان ضعيف، فالحق أنهما مكيتان كما تقدم. اهـ

هذا هو كلام العلَّامة السـيد رشـيد رحمه الله في الحديث وتأويله، وهو كلام عالم فقيه جارٍ على نهج المحدثين الأصلاء، في الجرح والتعديل، والشـرح والتعليل، وهو كلام إمامٍ مصلح، حريص على البناء لا الهدم، وعلى التَّجديـد لا التَّبديد، يعرف قدر السـلف، ولا ينكر حقَّ الخلف، يخالـف شـيخَه، ولكنَّـه يدافـع عنـه، ويؤكد مقـدار حبـه وتوقيره لرسول الله ﷺ، وهذا هو العدل والإنصاف. فرضي الله عن الشيخ رشيد وجزاه عن الإسـلام وأمته خيرًا، وأثابه على كل ما اجتهد فيه، أخطأ أو أصاب: أجرًا أو أجرين. آمين.

رأي ابن باديس:

وللمصلح الجزائـري المعروف عبد الحميد بن باديس في تفسـير السورة، رأيٌ يشبه رأي الشيخ رشـيد، قال فيه عن النفث وأثر السحرة فيه، ومـا قصدوا به من إيصال الشـر من نفوسـهم الخبيثـة إلى نفس المسحور، ثمَّ قال: «وما أمرنا الله بالاسـتعاذة من شره، إلَّا لأنَّه يؤثر في

(١) لم أقف عليه في دلائل النبوة لأبي نعيم، وعزاه له السيوطي في لباب النقول صـ ٢٢٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

بعض النفوس القابلة للتأثر به، حاشا النفوس المعصومة، كنفوس الأنبياء فإنَّ شرور الدُّنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هـذه القاعدة مـا ورد في سـحر لبيد بن الأعصم اليهودي، لرسـول الله ﷺ، وما يوهمه لفظ الرواية، فإنَّ ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني»[1] انتهى. وهو نفس ما انتهى إليه رشيد رضا رحمهما الله.

الشَّرُّ الرابع المستعاذ بالله منه:

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

وهذا هو الشَّرُّ الرابع والأخير ممَّا علمتنا سـورة الفلق أن نعوذَ بالله ربِّ الفلق، ونحتمي به منه.

وهو شرٌّ يصدر من الأنفس الخبيثة، كما يصدر عنها السحر الَّذي ذكر في الآية السابقة.

معنى «الحسد»:

ومعنى الحسد لغة: بغض النعمة عند شـخص، وتمنِّي زوالها عنه، وإن لم تنتقل إليه. فهو يكره نعمة الله الَّتي أنعم بها على فلان من الناس، من صحَّة أو ذكاء، أو علم أو مال، أو زوجة أو ولد، أو حبِّ الناس، أو غير ذلك من النعم وما أكثرها، ويتمنَّى زوال هذه النعمة عن صاحبها.

ومثل ذلك: أن يكون الشخص محرومًا من نعمة ما، كالمال أو الولد أو العلم، فهو يتمنَّى استمرار هذا الحرمان، ويسوؤه أن يعطيه الله شيئًا من ذلك.

---

(١) تفسير ابن باديس (٣٥٦/٢)، تحقيق أبي عبد الرحمن محمود، نشر دار الرشيد، الجزائر، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

وقد يكون الحسد متعلقًا بشخص معيَّن يكره وصول نعمة الله عليه، وقد يكـون متعلقًا بأكثر من واحـد، بل هناك من يكـره كل نعمة عند شخص آخر غيره، وهذا شر الحاسـدين. فهو يتلظى في جمر من الألم والنكد والكآبة، كلمـا رأى نعمة عند أحد غيره، فلا غـرو أن تراه في عذاب دائم، وأسى مسـتمر، فهذا الحسـد يحمل عقوبته لصاحبه معه، ولذلك قالوا: لله در الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله!

وقال الشاعر:

اصْبِـرْ علـى كَيْدِ الحَسُـودِ فـإنَّ صَـبْـرَكَ قَـاتِـلُـهْ
كـالـنَّـارِ تـأكـلُ نفْسَـها إنْ لـم تجِـدْ مـا تأكُلُـهْ[1]

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، دليل على أنَّ الحسـد لا يضر إذا كتمه الإنسان في نفسـه، ولم يظهر أثره في قول ولا فعل، ولا لسان ولا يد. فإنَّه يظل ممَّا حدثت به الأنفس، ممَّا يدخل في دائرة ما عفا الله عنه، كما في الصحيح: «**إنَّ اللهَ تجاوز عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ**»[2].

فمعنى ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: أي إذا ظهر حسده، وآذى به المحسود، وضرَّه بوجه من الوجوه.

والحسـد من معاصي القلوب، وهي أشـد خطرًا، وأعظم إثمًا من معاصي الأبـدان والجوارح، ومعلوم أنَّ معصيـة آدم كانت من معاصي الجوارح، ولذلك سرعان ما تاب منها، بخلاف معصية إبليس، فقد كانت

(١) من شعر عبد الله بن المعتزّ، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (٣/٤٠٠، ٤٠١)، وانظر: ديوانه صـ ٣٨٩، نشر دار صادر بيروت.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

من معاصي القلوب، وهي حسد آدم على ما آتاه الله من فضلٍ ونعمة، حتَّى أمر ملائكته بالسجود تكريمًا له. ولهذا قال اللعين: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فدفعه الحسد إلى معصية أخرى أعظم وأخطر، وهي الاستكبار على أمر الله، ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ولهذا قال العلماء: الحسد أوَّل معصية حدثت في السماء، وأول معصية وقعت في الأرض.

يعنون بأول معصية وقعت في السماء: معصية إبليس حين حسد آدم، ويعنون بأول معصية وقعت في الأرض: معصية ابن آدم الَّذي حسد أخاه، حينما ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهو ما يعرف في الإسرائيليات بقصة قابيل وهابيل.

وقد تُسمَّى «الغِبْطة» حسدًا، من باب المجاز، كما في حديث: «**لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين: رجلٌ أتاه الله مالًا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ أتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويُعَلِّمها**»[1]. ولكنها ليست الحسد المذموم. فمعنى الغبْطة: أن يتمنى أن يكون له مثل ما عند المحسود، كأن يرى شخصًا حاد الذكاء، حاضر البديهة، سريع الجواب، يتمنى أن يكون له مثل هذا الإنسان، أو يرى عالمًا راسخ العلم، واسع الأفق، علامة في تخصصه، فيتمنى أن يرزقه الله مثل ما رزقه. ولكنَّه لا يتمنى زوال نعمة الذكاء عن الذكي، ولا نعمة العلم عن العالم، وهكذا في كل النعم من الغنى، والأولاد، وصحة الجسم، والجاه والمكانة عند الناس.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، عن عبد الله بن مسعود.

QaradawiBooks.com

تأثير الحاسد في المحسود:

وقد دلَّت الآية على أنَّ الحسد يؤثِّر في المحسود ويصيبه بالشر، ولهذا كان الأمر بالاستعاذة منه. وتأثير «الأنفس» الخبيثة والشريرة الحاسدة في المحسود أمر بين، حتَّى ليصيبه المرض والألم، خصوصًا إذا صوب نظرات عينيه، كأنهما سهمان أو رصاصتان يصوبهما إلى صدره.

وهو ما استفاض، بل تواتر شعور النَّاس به، وتأثُّرهم بمصائبه، وشكواهم من شدَّة تأثيره وتكراره. بل كثيرًا ما يبالغ بعض النَّاس في ذلك.

وقد صحَّت الأحاديث في تأثير العين في الإنسان، وهي أثر من آثار الحسد غالبًا، وجاء في الحديث: «**العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقُ القدر سبقته العَيْنُ**»[(١)].

وجاء في تعويذات النبي ﷺ: «**ومن كلِّ عينٍ لامَّة**»[(٢)].

وتحدَّث الفقه عن «العائن» وأثره في غيره، ومدى مسؤوليته.

وفي بلاد الخليج يتحدَّث النَّاس أن هناك قبائل، أو أفخاذًا، في قبيلة معينة مشهورة بقوة تأثير أعينها في الآخرين.

وقد حمل قوله تعالى في سورة يوسف على لسان يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ [يوسف: ٦٧]. قال أكثر المُفَسِّرين: خشي عليهم العين.

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٨٨)، عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، وأحمد (٢١١٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٧)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وقد كشف لنا العلم الحديث من أسـرار النفس البشريَّة، ما لم يكن يعرفه الأقدمون منها، فذكروا لنا ما يسـمونه قراءة الأفـكار، أي: قراءة ما يضمره الإنسـان في باطنه، وما يسمونه التخاطر عن بعد، وبه فسرت حادثة عمر وسارية. حين قال: يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ[1]!

وكذلك ما شاهدناه بأعيننا من ظاهرة التنويم المغناطيسي. فهذا كله يقرِّب لنا ما يمكن أن تحدثه نفس الحاسـد من شرٍّ في حياة المحسود، وما يحمله من إثم، إذا كان متعمِّدًا لتوجيه الشر إليه، بخلاف ما إذا صدر ذلك قهرًا عنه، ولم يكن راضيًا عنه، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) رواه اللالكائي في كرامـات الأولياء (٦٧)، والبيهقي في الاعتقـاد صـ ٣١٤، تحقيق أحمد عصام الكاتب، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

QaradawiBooks.com

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۞ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۞ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

هذه آخر سورة في القرآن، وهي ثانية المعوذتين، بعد سورة الفلق قبلها، وهي مكِّيَّة مثلها، وكلتاهما تبدأ بالاستعاذة بالله، أي: بالتحصن به، واللياذ بحماه، والالتجاء إلى ركنه الركين، وحِصنه الحصين، والاحتماء به من كل الشرور المخوفة، ولهذا يقال عن القرآن: بدأ بالحمد لله، وختم بالاستعاذة بالله.

وهو ما يشير إلى أنَّ القرآن كله لله بدءًا وختامًا، على خلاف التوراة، الَّتي يندر فيها ذكر الله.

وهذه السورة تركِّز على الاستعاذة بالله من شرٍّ خاص، ولكنَّه جدير بأن يفرد بالاستعاذة منه، وأن تكون له سورة تختص به، إنَّه شرُّ الشيطان عدو الإنسان الدائم، الَّذي جاء في القرآن شدة التحذير منه، والتنبيه لعِظم خطره وعداوته، كما قال تعالى في مخاطبته النَّاس

QaradawiBooks.com

جميعًا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

وقد أورد القرآن الكريم قصَّة هذا الشيطان مع الإنسان الأوَّل آدم، وحسده له، واستكباره عن طاعة أمر الله، بالسجود تكريمًا له، وطرده من سمائه ورحمته بسببه، وقسمِه أمام الله على أن يعمل بكل طاقته هو وذريته وجنوده لإغواء بني آدم، وإفسادهم وفتنتهم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۞ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وقال الله للشيطان اللعين: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥].

وهكذا أيْئَسَه الله من عباده الَّذين يستحقون الانتماء إليه وحده، فليس له عليهم تسلط ولا سبيل بحال، فهم في حصانة سيدهم وسيده، فما هو إلَّا كلب إذا زجره سيده ومالكه انزجر وانقمع.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد اعترف بأنَّه لا سبيل له على المؤمنين فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

هذا هو الشيطان اللعين الَّذي حذَّرت منه كل رسالات السماء، وكل كتب الأنبياء، هو موجود حقيقي، نحس أثره، ولا نرى صورته: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

دلالة الأسماء الثلاثة: الرب والملك والإلٰه:

ثم إنَّ هذه الأسماء الثلاثة: الرب والملك والإلٰه، لها في هذا المقام دلالة مهمة، فهي تشير إلى كل أقسام التوحيد، الَّتي ركز عليها القرآن، ودعا إليها الإسلام: توحيد الربوبية، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد الإلٰهية.

فالربُّ هو الخالق، وهو المالك، وهو السيد، وهو الراعي، وهو الحامي، وهو المربي، أي: المرقي في مدارج الكمال، هو الَّذي يربيهم بالنعم، ويؤدبهم بالنقم، وهذه المعاني لها دلالتها في هذا المقام، وهي تشير ـ بإضافتها إلى النَّاس ـ إلى «توحيد الربوبيَّة»، أي: نعوذ بالرب الَّذي لا رب غيره، كما قال في سورة الأنعام وهي سورة التوحيد: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

والملك هو الحاكم، الآمر لعباده، المهيْمن عليهم، الَّذي يملك حق الأمر والنهي لهم، وحق التشريع المطلق لهم، بالتحليل لهم، والتحريم الدائم عليهم، فهو الملك المطاع، والآمر المجاب، والحاكم المطلق، له الملك، وله الخلق والأمر، وهذه الصيغة لها دلالتها هنا، وهي تشير إلى «توحيد الحاكميَّة»، الَّتي أومأت إليه سورة الأنعام حين قالت: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

QaradawiBooks.com

ولهذه الصيغة «الإلٰه» دلالتها هنا؛ لأنَّ الإلٰه هو المألوه، أي: المعبود، فهو وحده الحقيق بأن يعبد لا إلٰه إلَّا هو، لا يستحق العبادة أحد غيره، ولا شيء غيره، في الأرض أو في السماء، فكل ما عبد معه أو من دونه فقد عبد بغير حق، كما قال القرآن لعابديها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

أمَّا أن يعبد الله وحده، فلأنه هو الخالق الموجِد للإنسان من عدم، وواهب الحياة له، والمنعم بالنعم الكبرى عليه، من العقل والحواس والمواهب المختلفة، ومسخر ما في الكون من أجله.

فهي تشير أيضًا إلى توحيد الإلٰهيَّة، أو توحيد العبادة، الَّذي جاءت به كل الرسل، حيث كان النداء الأوَّل في كل رسالة رسول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩، وهود: ٥٠، والمؤمنون: ٢٣]. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

بخلاف توحيد الربوبيَّة الَّذي أقر ببعضه مشركو العرب وأمثالهم، وإنَّما نازعوا في توحيد الإلٰهيَّة والعبادة. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وإلى هذا تشير سورة الأنعام أيضًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

أمر الرسول ﷺ، وبالتالي أمر المسلمون معه أن يتذرَّعوا بكل هذه الألوان من التوحيد: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الحاكميَّة، وتوحيد الإلٰهيَّة، الَّتي تجسِّد غاية الإخلاص لله وحده، كما يوحى إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

QaradawiBooks.com

ليستعينوا بذلك على عدوِّهم ـ عدو الإنسان أو عدو النَّاس الأوَّل ـ فهي استعانةٌ بقوي غير ضعيف، قادر غير عاجز، عزيز غير ذليل، على من يملك قهره بجنود لا يعلمها إلَّا هو.

وهو يعمل لإضلالنا وإفساد أمرنا باستمرار، ليل نهار، لا يكل ولا يمل، ولا يأخذ إجازة، حتَّى سئل الإمام الرباني الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: أينام الشيطان يا أبا سعيد؟ قال: لو نام لاسترحنا[1].

فهذا الشرير الفتَّان المسلَّط علينا هو وجنوده وذريَّته نفتقر إلى الاحتماء بسيده وخالقه من شره وفتنته، الَّتي حذَّرنا الله منها: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فكانت هذه السورة ـ خاتمة الكتاب ـ مخصَّصة للاستعاذة بالله من شرِّه، ومكمِّلة لما جاء في القرآن من الاستعاذة منه، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ١٩٩، ٢٠٠].

وكذلك في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الآية: ٣٦]، وفي سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي هذا الإطار جاء الأمر من الله في هذه السورة الخاتمة بالتعوذ من شرِّ هذا الشرير المعادي للبشر منذ أبيهم الأول، وما بدأه البشر بأذى، بل حسدهم على ما آتاهم من فضله، فأضْمر لهم الشر، وبيت لهم السوء، وكاد كيْده لهم، ولكن كيْد الله العظيم أقوى من كيْده، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، أي: في مقابلة كيْد الله تعالى، الَّذي قال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

في حين قال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، أي: في مقابل كيد الرجال.

بدأت السورة بتلقين الرسول الكريم صيغة الاستعاذة كما في السورة قبلها، بلفظة: ﴿قُلْ﴾ وبعدها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

أمر الرسول الكريم من ربه أن يعوذ ويتحصَّن ويستعين بصاحب هذه الأسماء الحسنى الثلاثة: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، من عدو النَّاس الأول.

وإنَّما اختار هذه الأسماء الثلاثة دون غيرها، لأنَّها الأوفق والأنسب من أكثر من جهة:

لأنَّها كلها مضافة إلى الناس، فهو يستعيذُ من عدوِّ النَّاس، الكائد للنَّاس، المتربِّص الشر بالنَّاس، برب النَّاس وملكهم وإلٰهِهم. وكأنَّه يقول: يا رب، إنَّ النَّاس الَّذين خلقتهم ليعبدوك، واستخلفتهم في الأرض لينفِّذوا أمرك، ويعمروا أرضك، ويقيموا دينك: يلجؤون اليك باعتبارك ربهم وملكهم وإلٰههم ومعبودهم، لتحميَهم من عدوِّك وعدوِّهم،

QaradawiBooks.com

فلا تتخلَّ عنهم، فقد استعاذوا بمعاذ، واستعانوا على عدوِّهم بمن هو أقوى منه، بل من يملك أمره كله.

وإنَّما أعادت الآيات لفظ الناس، ولم تكتفِ بقولها: رب النَّاس وملكهم وإلٰههم، بل استخدمت أسلوب الإظهار في مقام الإضْمار، وذلك بقصد تأكيد ربوبية الله تعالى، وإظهار ملكه وإلٰهيته للناس كل الناس، كقوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ولأن تكرارها أشد وقعًا وتأثيرًا في نفس السامع، ولتتوافق مع ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، وسائر فواصل السورة.

وقال العلَّامة أبو السَّعُود في تفسيره للسورة: «﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: أي مالك أمورهم، ومربِّيهم بإفاضة ما يصلحهم، ودفع ما يضرهم.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، عطف بيان جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الكلي، والسلطان القاهر.

وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، فإنَّه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم، والقيام بتدبير أمورهم، وسياستهم، والتولي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم، كما هو قصارى أمر الملوك! بل هو بطريق المعبودية، المؤسسة على الألوهية، المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم، إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا.

وتخصيص الإضافة بالناس، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى وملوكيته وألوهيته؛ للإرشاد إلى منهج الاستعاذة المرضية عنده تعالى، فإن توسل العائذ بربِّه وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية،

QaradawiBooks.com

والمملوكية، والعبودية في ضمن جنس هو فرد مـن أفراده؛ من دواعي مزيد الرحمة والرأفة، وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة، ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم، ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته، رمزٌ إلى إنجائهم من ملكة الشيطان»[1].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾

نصف السورة الأوَّل ـ الآيات الثلاث الأولى ـ كانت تتحدث عن المستعاذ به، وهو الله ﷻ، وهو ذو القوة المتين، الَّذي بيده ملكوت كل شيء، ووصفته بالربوبية والملكية والإلٰهية للناس.

ونصف السورة الثاني والأخير، يتحدث عن المستعاذ منه، وهو الشيطان الرجيم، أو إبليس اللعين، وقد اختار القرآن هنا أن يعبر عنه بأهم أوصافه، وهي تتجسد في وصفين: الوسواس والخناس.

معنى ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾:

والوسوسة في اللُّغة: تعني حديث النفس. يقال: وسوستْ إليه نفسه، ويقال لهمس الصائد والكلاب، وأصوات الحلي: وِسْواس، أو وسوسة. وهي: الصوت الخفي، أو الكلام الخفي، الَّذي يلقيه الإنسان إلى الإنسان في أذنه، أو يلقيه الشيطان إلى الإنسان في صدره، أو توسوس به نفس الإنسان إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ**﴾ [ق: ١٦].

(١) تفسير أبي السعود (٢١٦/٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال تعالـــى في قصَّـــة آدم: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعـراف: ٢٠]، وقال: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

وهنا قال: الوسواس بفتح الواو، مثل: الثرثار، وهو الموسوِس، أي: الَّذي يقوم بفعل الوسوسة، بخلاف «الوِسواس»، وهو المصدر أي: فعل الوسوسة نفسه، كالزلزال بالكسر، والزلزال بالفتح.

فوسوسة الشـــيطان: ما يلقيه في أنفس النَّاس وعقولهم من الخواطر الشريرة، الَّتي تزين الضلال والغي، وتبتعد عن الهدى والرشد.

وإنَّما جعل الوسوسة في صدور النَّاس ـ كما قال الإمام محمَّد عبده ـ على ما عهِد في كلام العرب، من أنَّ الخواطر في القلب، والقلب ممَّا حواه الصدر عندهم.

وكثيرًا ما يقال: إنَّ الشـــكَّ يحوك في صدره، وما الشك إلَّا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل في المخ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم، وضربات القلب، وضيق الصدر أو انبساطه[1].

معنى ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾:

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، مبالغة من الخنْس، بمعنى أنَّه الشديد الخنس، أو الكثير الخنس، وهو الاختفاء، فطريقة الشـــيطان في التزيين والإغواء، الَّتي عبر القرآن عنها بقـــول الشـــيطان: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجـــر: ٣٩]، تعتمد الدخول إلى نفس الإنســـان بطريقة خفيـــة، فإذا وجد

(١) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي (٥٨٠/٩)، تحقيق محمد باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

QaradawiBooks.com

الإنسان منتبهًا ذاكرًا لله ولحساب الآخرة، خنس واختفى، ثمَّ يرجع مرَّة أخرى، ليجد فرصة غفل فيها الإنسان عن نفسه وربه، فيبسط سلطانه عليه.

فهو ـ كما ترى ـ وسواس خنَّاس: يوسوس للإنسان إذا غفل، ويخنس إذا ذكر، فاشتقت له صفتان من عمله ووظيفته مع الناس، فلا شيء يضعفه ويجرده من سلاحه وقوته مثل ذكر الله سبحانه، ولا شيء يجرئه على الإنسان مثل الغفلة عن الله.

وقد جاء عن ابن عبَّاس: الشيطان جاثمٌ على قلب الإنسان، فإذا غفل وسها وسوس، وإذا ذُكِرَ الله خنس[١]. أي: تأخر وأقصر. وهو لون من التمثيل والتصوير الفني لعمل الشيطان في إغواء الإنسان.

وروى الإمام أحمد، عن أبي تَمِيمة، عن رَدِيف رسول الله ﷺ، قال: كنتُ رَدِيفه على حمار، فعثَر الحمار، فقلت: تَعِسَ الشيطانُ. فقال لي النبيُّ ﷺ: «**لا تقلْ: تَعِسَ الشيطان. فإنَّك إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطانُ. تعاظمَ الشيطانُ في نَفْسِه، وقال: صَرَعْتُه بقوَّتي. فإذا قلتَ: باسم الله. تصاغرتْ إليه نَفْسه، حتَّى يكون أصغرَ من ذُباب**»[٢].

ووسوسة الشيطان خواطر سيِّئة تلقى في صدور الناس، فتغريهم بالشرِّ والسيئات، تفسد إرادتهم، فالشيطانُ يحارب النَّاس ـ وخصوصًا المؤمنين منهم ـ بسلاحين: الشبهات؛ لإفساد العقائد والأفكار، والشهوات؛ لإفساد الضمائر والسلوك.

---

(١) رواه أبو داود في الزهد (٣٣٧).

(٢) رواه أحمد (٢٠٥٩١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٤٩٨٢)، والحاكم (٢٩٢/٤)، كلاهما في الأدب، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

وعلى المؤمـــن أن يتوقَّى منه بدرعيْن: اليقين ـ وهـــو قوَّة الإيمان ـ يدفع به الشـــبهات، والصبر ـ وهو قوَّة الإرادة ـ يدفع به الشهوات. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فالله ﷻ لـــم يدع النَّاس مكشـــوفين أمام الشـــيطان ووسوســـته في صدورهم، بل أمدهم في معركتهم الطويلة والمديدة معه بأسلحةٍ ودروع ومعدات شتى، يواجهونه وأعوانه وجنوده بها:

١ ـ أول هذه المعدات والدروع: الإيمان والعبودية والإخلاص لله، كما قـــال ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢، والإسراء: ٦٥]، وهو ما اعترف به الشـــيطان نفســـه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

٢ ـ وثاني هـــذه الدروع: اليقيـــن والصبر، اليقين يدفـــع به ما يلقيه الشيطان من شـــكوك وشـــبهات، تزيغ العقول. والصبر يدفع به ما يلقيه الشيطان من شهوات، تفسد السلوك.

٣ ـ وثالث هذه الدروع: ذكر الله تعالى، الَّذي يطرد الشيطان ويبعده، ويجرده من قوته، فيخنـــس ويختبئ، كما يفعل اللـــص إذا دخل الدار، فوجـــد أهلها أو أحدًا منهم مســـتيقظًا، فيختبئ ويخنـــس، ولا يجرؤ أن يواجهه. فوصْفه تعالى للشيطان بـ﴿الْخَنَّاسِ﴾، يؤكد أنَّه ضعيف جبان، يفر من المواجهة إذا كان خصمه منتبهًا محصنًا بذكر الله، فهو كما وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقد قال الله تعالى عن

QaradawiBooks.com

قوم من المنافقين: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، كما أنَّ القرآن وصف المنافقين بقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

٤ ـ ورابع هذه الدروع هو: الاستعاذة واللياذ بالله رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس، ومن استعاذ بهذا الرب الملك الإلٰه، فقد استعاذ بمعاذ، ولذا أمر الله به رسوله ﷺ، وأمره به يعني أمره لأتباعه جميعًا.

وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان في مواقف وأمور كثيرة، وورد عن النبيِّ ﷺ عدَّة صيغ في الاستعاذة من الشيطان، منها قوله: عند دخول المسجد: «**أعوذ باللهِ العظيمِ، ووجهه الكريم، وسلطانه القديمِ من الشيطانِ الرجيم**»(١).

لماذا سُلِّط الشيطان على الإنسان؟

وهنا سؤال كبير قد يسأله بعض الناس: لماذا سلَّط الله الشيطان على الإنسان؟ والجواب معروف، وهو أن هذا من تتمة ابتلاء الإنسان، فقد خلق الله خلقًا مفطورين على طاعته، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهم الملائكة، الَّذين تصدر منهم عبادة الله وطاعته، كما نتنفس نحن ونقوم بأعمالنا التلقائية، أو الاضطرارية، فليس لهم غرائز تغريهم، ولا شهوات تلهيهم، ولا شياطين تغويهم.

أمَّا الإنسان فهو مخلوق من نوع آخر، أعطاه الله العقل والإرادة

(١) رواه أبو داود في الصلاة (٤٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٥)، وقال النووي في الأذكار (١٧٧): حديث حسن، إسناده جيد. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

والمواهب، استخلفه في الأرض، وسخَّر له ما في الكون، وابتلاه بالتكليف والأمر والنهي، وهداه النجديْن، وألهم نفسه فجورها وتقواها، وخيَّره بين الجنَّة والنار، وأنزل له الكتب، وبعث له الرسل، وأزاح عنه العلل، وأعطاه من النعم ما لا يحصى، وكان من جملة الابتلاء الَّذي خصه به، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، ابتلاؤه بفتنة الشيطان عدوه القديم، الَّذي أقسم أمام الله ليغوينه وليضِلنه. ولله سر في ذلك لا يعلمه إلَّا هو: أنَّه ابتلى الإنسان بالشيطان، وابتلى المؤمنين بالكافرين، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وابتلى الله المؤمنين الموحِّدين بقتال المشركين المعتدين، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

كما ابتلى الله النَّاس بعضهم ببعض في أرزاقهم ودرجاتهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وبهذا يتمُّ إعداد الإنسان وصقله في هذه الدار الفانية، ليصلح للخلود في الدار الباقية، وليتطهَّر تمامًا، ويتزكَّى هنا، ليستقبل السعادة العظمى هناك، ويستقبله الملائكة هناك مرحِّبين منذ الوفاة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، كما تقول الملائكة عند استقبال المُتَّقين في الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

الاستعاذة من التسلط على النفوس لا على الأبدان:

ومن الملاحظ: أنَّ السورة الكريمة، بل القرآن الكريم كله، يركِّز على الاستعاذة بالله من شرِّ تسلُّط الشيطان على الأنفس بالوسوسة في الصدر،

QaradawiBooks.com

ولم يجئ في القرآن كله الاستعاذة من تسلُّط الشيطان على بدن الإنسان، كما يزعم بعض الناس: أنَّ الشيطان أو الجني يركبهم، ويلبسهم ويتحكَّم فيهم، ويسخِّرهم لما يريد، وهو ما نفاه القرآن بقوله على لسان الشيطان يوم القيامة بلفظ صريح: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذه الدعوة من الشيطان هي الوسوسة في الصدر.

وفي الحديث أنَّ النبي جاءه ناسٌ من أصحابه فسألوه: إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلَّم به. قال: «**وقد وجدتموه؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريحُ الإيمان**»[(١)].

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ جاءه رجل، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي أُحَدِّث نفسي بالشيء، لأنْ أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّم به. فقال النبيُّ ﷺ: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الَّذي ردَّ كيده** ـ أي: الشيطان ـ **إلى الوسوسة**»[(٢)].

قوله: «**الحمد لله الَّذي ردَّ كَيْده إلى الوسوسة**». قال السندي: «أي: كيد الشيطان إلى الوسوسة الَّتي لا يؤاخذ بها المرء، ولم يُمْكِنْه من غير الوسوسة، بل جعل ذلك في يد الإنسان، فلذلك امتنع من التكلُّم»[(٣)].

ونسأل الَّذين يقولون: إنَّ الشيطان يلبس الإنسان، أو يدخل فيه، ويتكلَّم باسمه، ويسلبه إرادته، مَن يكون المسؤول في هذه الحالة؟ أهو الجنيُّ الراكب؟ أم الإنسيُّ المركوب؟ ولو ارتكب جريمة في هذه الحال، فمن المسؤول عنها والمعاقب عليها شرعيًّا وقانونيًّا؟

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٣٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٠٩٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الأدب (٥١١٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٦٤)، عن ابن عباس.

(٣) حاشية السندي على المسند (٤١٤/١)، تحقيق طارق عوض الله، نشر دار المأثور، القاهرة، ١٤٣١هـ.

QaradawiBooks.com

الواقع أنَّ هذه ليســت إلَّا أمراضا نفســيَّة أو أعراضًا لها، ويجب أن يعامل صاحبها على هذا الأســاس إن كان صادقًا، أو يكشف تصنعه إن كان كاذبًا.

فإنَّ الإنســان أكرم على الله من أن يدعه لِلَّاهين واللاعبين من الجن يتعابثون به، مع أنَّه أكرم على الله منهم، وقد رأينا ســليمان يسخِّر الجن لمــا يريــد، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، ويُســخَّر له الشياطين من كل بنَّاء وغوَّاص، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد، ولم نر جنيًّا سخر له الإنس.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

هذه هي الآية الخاتمة للســورة، والخاتمة للقرآن كله، و﴿مِنَ﴾، في هذه الآية بيانية، ولكن ماذا تبيِّن؟ أهي بيان من اسم الموصول ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾؟ ومعنى ذلك: أنَّ الموسوسين من الجنسين: من الجنَّة والنَّاس معًا، فكلاهما يقوم بنصيبه من الوسوسة، حتى الإنس منهم لهم دور في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن يوسوسوا للجن؛ لأنَّهم لا يرونهم، وإنَّما مجالهم في الوسوسة لإخوانهم من الإنس.

قال الحســن: هما شيطانان، أمَّا شــيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، أمَّا شيطان الإنس فيأتي علانية[١]!

وقال قتادة: إنَّ من الجنِّ شــياطين، ومن الإنس شياطين، نتعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجنِّ[٢]!

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٦٣/٢٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في التفسير (٨٤٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة خاصة
QaradawiBooks.com

وأورد القرطبي في تفسيره، عن أبي ذرٍّ، أنَّه قال لرجل: هل تعوذَّت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم، أَمَا سمعت قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢][(١)].

أم هي بيان من ﴿النَّاسِ﴾، الَّذي يوسوس لهم، فبيَّنت أنَّ النَّاس الَّذين يوسوس الشيطان في صدورهم ليسوا مقصورين على جنس الإنس وحدهم، وإن كانت عداوته في الأصل موجَّهة إليهم، نتيجة حسده وحقده القديم على جنس الإنسان منذ قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ولكن طبيعته الشريرة الَّتي تكره الإيمان والخير، تأبى إلَّا أن تمتد إلى قومه من الجِنَّة.

قال الإمام القرطبي: «قيل: إنَّ إبليس يُوسوس في صدور الجنِّ، كما يُوسوس في صدور الناس، فعلى هذا تكون ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، عامًّا في الجميع، و﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيانٌ لما يوسوس في صدره»[(٢)]. ولكن يعكر على هذا الفهم: أن ينقسم النَّاس ـ الموسوس لهم في الآية ـ وهم جنس البشر إلى الجنسين: جنَّة وناس؟!

والأوْلى عندي: أن يراد بالناس الَّذين يوسوس في صدورهم: الناسي بحذف الياء، كما في قوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦][(٣)].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٦٣/٢٠)، والحديث رواه أحمد (٢١٥٤٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والنسائي في الاستعاذة (٥٥٠٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢٦٤/٢٠).

(٣) تفسير أبي السعود (٢١٧/٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والمعنى: أن هذا الوسواس الخنَّاس، من شأنه أن يوسوس في صدور الناسي والغافل عن ذكر الله من الجنسين: الجِنَّة والناس، أمَّا من يذكر الله ولا ينساه، فهو لا يقبل عليه، ولا ينفذ إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ومعناها: أنَّهم إذا مسَّهم الشيطان بوسوسته وفتنته، انتبهوا وتذكروا ربهم ولقاءه وحسابه وجزاءه، فإذا تذكروا ذلك أبصروا الغاية، وأبصروا الطريق، وأبصروا المصير، فرجعوا إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فائدة لطيفة:

قال الإمام الرازي: «واعلمْ أنَّ في هذه السورة لطيفة أخرى: وهي أنَّ المُستَعاذ به في السورة الأولى «الفلق» مذكور بصفة واحدة، وهي أنَّه ربُّ الفلق، والمُستَعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي: الغاسق والنفاثات والحاسد، وأمَّا في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإلٰه، والمُستَعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أنَّ الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى: سلامة النفس والبدن. والمطلوب في السورة الثانية: سلامة الدين. وهذا تنبيه على أن مضرَّة الدين وإن قلَّت، أعظم من مضار الدُّنيا وإن عظُمت، والله ﷻ أعلم»[1] انتهى.

ولعل ما يؤيد هذا: الدعاء المأثور: «**اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا**»[2].

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٧٨/٣٢).

(٢) سبق تخريجه صـ١٢١.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

خاتمة

من تأمَّل القرآن كلَّه، ما بين فاتحته (سورة الحمد)، وخاتمته (سورة الناس): يستيقن بالاستقراء التام أنَّ هذا القرآن كلَّه ينبِّه ويرِّكز على جملة أمور أساسيَّة:

الأول: أنَّه كتاب ربَّاني، فسورة الحمد أو الفاتحة كلها ذكر لله: أولها ذكر ثناء، وآخرها ذكر دعاء. وسورة النَّاس كسورة «الفلق» قبلها، كلتاهما استعاذةٌ بالله واحتماءٌ به، من شرور خلقه عامَّة وخاصَّة، جِنةً وناسًا.

والثاني: أنَّه كتابٌ إنسانيٌّ، كتاب أنزل من أجل الإنسان، وهداية الإنسان، وإسعاد الإنسان، ولهذا جاء في سورة الفاتحة تعليم الإنسان أن يسأل الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط السعداء المهديِّين المرضيِّين عند الله، لا المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين، وجاء في سورة الناس: الاستعاذة من شر الشيطان أو شياطين الجن والإنس، وذلك ليظل الإنسان بعيدًا عن الشر قريبًا من الخير.

والثالث: أنَّه كتاب عالمي ليس لعِرق خاصٍّ من عروق البشر، أو لإقليم معيَّن، أو لطبقة أو طائفة منهم، بل هو للعالمين. كما أعلنت أوَّل

QaradawiBooks.com

آية في الفاتحة بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكما أعلنت الآيات الأولى من آخر سورة في القرآن، سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، بتكرار كلمة الناس، دون الاكتفاء بالضمير، لينبه على أنَّه سبحانه رب النَّاس جميعًا، كما أنَّه ملكهم جميعًا، وإلٰههم جميعًا.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

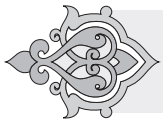

غير مرخصة للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أَتَيْتُ على نَهَرٍ حَافَتاه قبابُ اللؤلؤ المجوَّف، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟	٥٧٣
اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسولَ الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر	٦٣٣
اجعلوها في ركوعكم. فلمَّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾	٣١٦
أجل، وعَرْضه ـ يعني أرضه ـ ياقوتٌ ومرجان، وزبرجدٌ ولؤلؤ	٥٧٦
أدعوكم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا	٥٩٨
أدناك أدناك	١١٩
إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا	٣٨
إذا خاصم فجر	١٥٦
إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله	٦٠٧
إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقولوا: آمين	٣٨
إذا قلتَ لصاحبِكَ: أنصتْ، والإمامُ يخطبُ يومَ الجمعةِ؛ فقد لغوتَ	٧٢
إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية	١٩٤
أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء	٦٢٥
أشعرتِ أنَّ الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟. فقالت عائشة: وما ذاك	٦٢١

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
أصدقُ كلمةٍ قالَها شاعرٌ كلمةُ لَبِيد: أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ بَاطِلُ	٥٣٨
أعتقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ رَقَبَة. قال: يا رسولَ الله، إنِّي صاحب إبل؟	١٧٢
أعوذ باللهِ العظيمِ، ووجهه الكريم، وسلطانه القديمِ من الشيطانِ الرجيم	٦٥٨
أفتَّانٌ أنت يا معاذ؟! أين كنتَ من: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾	١٩٠
أفتانٌ أنت يا معاذ؟! ما كان يكفيك أن تقرأ بـالسماء والطارق	٢٩٣
اقرأ ثلاثًا من ذات الر. فقال له الرجل: كَبِرَ سنِّي، واشتدَّ قلبي	٤٨٨
أقرب ما يكون العبد من ربِّه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء	٤٦٦
-اقرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه	٨
أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنَّه يومٌ مشهود تشهده الملائكة...	٢٧٣
ألا أخبركم بخير البريَّة؟. قالوا: بلى، يا رسولَ الله	٤٧٩
ألا إنَّ في الجسدِ مُضْغة إذا صَلَحت صَلَح الجَسَدُ كلُّه	٤٤٨
ألا كلُّكم يدخل الجنَّة، إلَّا من شرد على الله شِرَاد البعير على أهْلِه	٣٦٤
التمسوها في العشر الأواخر، في تاسعةٍ تبقى، أو سابعةٍ تبقى، أو خامسةٍ تبقى	٤٧١
الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرة الكرام البررة	١٤٠
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الَّذي ردَّ كيده	٦٦٠
اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللَّهمَّ أعط ممسكًا تلفًا	٤٢٠
اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر	٢٥٠
اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والهَرَم، والجُبْن والبُخْل وعذاب القبر	٤١٠
اللهمَّ باركْ لأُمَّتي في بُكورها	٤٨
اللهمَّ حاسِبْني حسابًا يسيرًا. فلمَّا انصرف قلتُ: يا رسولَ اللهِ	٢٤٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا	١٢١، ٦٦٣
اللهمَّ لا عيش إلَّا عيش الآخرة	٥٠٧
اللهمَّ لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد	٥٣٨
أنَّ أبا هُرَيْرة قدم المدينة وقد خرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى خيبر	٢١١
أن رسول الله صلى الله علية وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر	٥٨٣
أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾	٥٨٢
أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر	٥٨٣
أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب	٦٠٠
أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾	٣٤٩
أَمَا إنَّ المَلَك سيقول لك هذا عند الموت	٣٨٩
إنَّ اللهَ تجاوز عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ	٦٤٣
إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسامكم ولا إلى صُوَركم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم	٤٤٨
إنَّ الله ليملي للظالم، حتَّى إذا أخذه لم يفْلته	١٠٣
إنَّ اللهَ وتر يحبُّ الوتر	٣٦٨
إنَّ الحمد لله	١٨
إن رجلًا من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقدًا	٦٢٤
إنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقِل قلبه	٢١٩
إنَّ لله أهلين من الناس! قالوا: من هم، يا رسولَ الله؟	٨
إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما	٦٢
إن من أعظم الجهاد: كلمة عدل عند سلطان جائر	٢٧٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ هذا المالَ خَضِر حُلْوٌ، ونِعْم صاحبُ المسلم هو	٢٧٢
أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا	٥٦٨
أنذرتكم النار	٤٢٣
أنزلت عليّ آنفًا سورة. فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	٥٧٢، ٥٧٣
أنَّه ﷺ ركب فرسًا فصرع عنه فجحش شقه الأيمن	٦٢٤
أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾	٣٤٩
إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نكت في قلبه نكتة، فإنَّ هو نزع واستغفر وتاب	٢١٩
إنَّما بُعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين	٤٤١
إنِّي أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها ـ أو نسيتها ـ فالتمسوها في العشر الأواخر	٤٧٠
أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟. فشق ذلك عليهم	٦٠٣
أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟	٦٢٥
أيها الناس، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم	٥٩٥
ت	
تحروا ليلة القدر في الوتر، من العشر الأواخر من رمضان	٤٧٠
تُحشرون حفاة عراة غرْلًا. فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟	١٥٤
تعوَّذي بالله من شرِّ هذا الغاسق إذا وَقَب	٦١٧
تقيء الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة	٤٨٣
تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرْقب الشمس	٥٦٩
تُمَدُّ الأرضُ يومَ القيامة مدَّ الأديم، ثمَّ لا يكون لابنِ آدم فيها إلَّا موضعُ قدميه	٢٣٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
خ	
الخير كله بيديك، والشر ليس إليك	٧٧، ٦١١
خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعَلَّمه	٨
الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ	٤٩٤
د	
دخلتُ الجنَّة، فإذا أنا بنهر، حَافَتاه خيامُ اللؤلؤ	٥٧٣
الدُّنْيا سجنُ المُؤمنِ، وجنَّة الكافر	٢٤٩
الدِّينُ النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله	٥٣٥
ر	
رأيت ابنَ أمِّ مكتوم يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي	١٣٣
ربَّنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئتَ من شيءٍ بعد	١٠٦
رمقت النبي ﷺ أربعًا وعشرين مرَّة يقرأ في الركعتين قبل الفجر	٥٨٣
رمقت النبي ﷺ شهرا وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر	٥٨٣
س	
سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلَّا الله، والله أكبر	٣١٣
سبحان ربي الأعلى	٣١٦
سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلٰه غيرك	٣١٥
سحر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا	٦٣٧
ش	
الشيطانُ يُوَسْوِس إلى العبد، فإذا ذكر الله خنس	١٧٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ص	
الصدقة على المسكين صدقة، والصدقة على ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة	٤٠١
ع	
عبس في وجه ابن أم مكتوم	١٣٣
العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقُ القدر سبقته العَيْنُ	٦٤٥
ف	
فأخذني فغطَّني حتَّى بلغ مني الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأْ	٤٥٤
فإذا قرأ أحدكم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾	٤٥٢
فإنما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين	٣٤٢
فحديدته في يده، يتوجَّأ بها في نار جهنَّم، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا	٦٣
ق	
قال: أتدرون ما أخبارها؟. قالوا: الله ورسوله أعلم	٢٧٢
قال الله ﷻ: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكنْ له ذلك	٦٠٣
قال الله: أعددت لعبادي الصالحين في الجنَّة ما لا عين رأت	٢٢٨
قال جبريل: يا محمَّد، عِشْ ما شئتَ فإنَّك مَيِّت، وأحببْ ما شئتَ فإنَّك مفارقُه	٢٤٤
قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه	٤٣٢
قسمتُ الصلاةَ بين وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل	٣٤
ك	
كان ﷺ سحر حتَّى كان يرى أنَّه يأتي النساء	٦٣٧
كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر	٢٧٦

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾	٤٥٢
كانوا يقولون للنبيِّ ﷺ: انسُب لنا ربَّك	٦٠٤
كتاب الله، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْم ما بينَكم	٣٠٧
كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه	٤٠٨
الكوثرُ نَهَرٌ في الجنَّة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ	٥٧٥
الكوثر نهر في الجنَّة، حافَتاه من ذهبٍ، يجري على الدرِّ والياقوت	٥٧٦
ل	
لا أحدَ أصبرُ على أذى سمعه من الله، إنَّهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويُعافيهم	٦٠٢
لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك	٢٣
لا، إنَّه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين	٤٠٢
لا تشركْ بالله شيئًا، وإن قطعت أو حرقت بالنار...	٢٧٩
لا تقلْ: تَعِسَ الشيطان. فإنَّك إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطانُ	٦٥٦
لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين: رجلٌ أتاه الله مالًا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ	٦٤٤
لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم	٤٣٥
لا يتوارث أهل مِلَّتَيْن شتَّى	٥٨٦
لا يشكر الله من لا يشكر الناس	٤٣٥
لا ينفعُه؛ إنَّه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين	٤٨٧
لتركبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع	٢٥٩
لما كسرت بيضة النبي ﷺ على رأسه	٦٢٥
لولا أنَّ الكلابَ أُمَّة من الأمم لأمرتُ بقَتْلِها	٥٤٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غِنَى النَّفْس	٤٣٢
ليس مِنَّا من بات شبعان، وجارُه إلى جنبه جائع	٥٦٣
م	
ما أجلسكما هاهنا؟. قالا: والَّذي بعثك بالحقِّ، ما أخرجنا من بيوتنا إلَّا الجوع	٥١٦
ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبيٍّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به	٢٣٨
ما أنا بقارئ!. ثلاث مرات، وبعد الثالثة، قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾	٥، ٤٥٤
ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء	٦٢٠
ما لم يكن نَقْع ولا لَقْلَقة	٤٩٣
ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل	١٢٨
ما يُدْريكَ أنَّها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم	٢٧
مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسد	٥٤٢
مرحبًا بمن عاتبني فيه ربِّي	١٣٣
مرها فلتصبر ولتحتسب	٥٤٨
مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله	١٢٨
من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تُقْبَل له صلاةٌ أربعين يومًا	٦٣٦
من أتى كاهنًا، أو عرافًا، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمَّد	٦٣٦
من أصبح آمنًا في سِرْبه، معافًى في بدنه، عنده قوتُ يومه	٥٦٤
من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثنِ به	٤٣٥
من اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شُعْبة من السِّحْر، زاد ما زاد	٦٣٦
من أنفق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير	٤٢٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من حلف بغير الله فقد أشرك	٤٤٥
مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومن أَدْلجَ بلغ المَنْزِلَ	١٠٠
من رأى منكم منكرًا فلْيُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه	٥٣٥
من سَرَّه أن ينظر إلى القيامة رأيَ العَيْن، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾	١٥٧، ١٩٠
من صلَّى صلاتنا، ونَسَك نُسُكنا، فقد أصاب النُّسُك	٥٧٧
من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكَه	٥٧٠
من قام ليلة القَدْر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه	٤٧١
من نوقش الحساب عُذِّبَ. قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾	٢٤٥
ن	
ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم	٣٤٥، ٥٥٢
نسيتها	٣٤١
نهى عن أن يأتي الرجل أهله طروقًا	٢٩٦
هـ	
هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟	٥٨٣
و	
واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا	٤٣٥
والله، لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين	٦٢٢
وإنَّما لكل امرئ ما نوى	٢٨٣
وإنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دِينِهم	٤٠٨
وفي رواية لمسلم: المؤمنون كرَجُلٍ واحدٍ	٥٤٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
وقتُ المغربِ ما لم يَغِبِ الشَّفَقُ	٢٥١
وقد وجدتموه؟. قالوا: نعم. قال: ذاك صريحُ الإيمان	٦٦٠
ومن كلِّ عينٍ لامَّة	٦٤٥
ونِعْمَ المالُ الصالحُ للعبدِ الصالح	٤٥٩
ي	
يا ابنَ آدم، مرضت فلم تعدني، واسْتسقيتك فلم تسقني، واستطعمتك فلم تطعمني	٣٨٤
يا بني هاشمٍ، أنقذوا أنفسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلب	٢٠٤
يا معاذ بن جبل. قلت: لبَّيْك رسول الله وسعدَيْك. ثم سار ساعة	٥٣٦
يا معشرَ المهاجرين، خمسُ خصالٍ إذا ابتُليتم بهنَّ	٢١١
يُحشر النَّاس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا. لم يختنوا	١٥٤
يد الله مع الجماعة	٢٥
يُرْفَع لكُلِّ غادرٍ ـ أي يوم القيامة ـ لواءٌ عِنْدَ اسْتِهِ، يُقالُ: هذه غَدْرةُ فلانِ بن فلانٍ	٣٠٣
يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا	٤١٨، ٤٤١
﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حتَّى يغيب أحدُهم في رَشْحه إلى أنصافِ أُذُنَيْه	٢١٣

* * *

QaradawiBooks.com

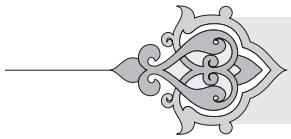

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلٰهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **مقدمة** ٧

❖ **سورة الفاتحة** ١٥

أسماء ثلاثة تضمنتها البسملة ١٥

تكرار اسمي: الرحمن والرحيم ١٧

ليس في القرآن كله: إنَّ الحمد لله ١٨

معنى ربوبيَّة الله للعالمين ١٩

تأكيد القرآن لرسالته العالمية ٢٠

تكرار «الحمدلة» في القرآن ٢٠

تكرار اسمَي الرحمن الرحيم ٢١

مالك يوم الدين وملك يوم الدين ٢٢

لا شفاعة في هذا اليوم إلَّا بإذنه ٢٢

إثبات أسس العقائد الإسلامية بهذه الآيات الثلاث ٢٣

حقيقة التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة ٢٣

لماذا قدم الله العبادة على الاستعانة؟ ٢٥

QaradawiBooks.com

الشفاء من مرض فساد القلب والقصد ٢٥
الشفاء من مَرَضَيِ الرِّياء والكِبْر ٢٦
شفاء الأبدان ٢٧
طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ٢٧
أنواع الهداية ٢٨
أولًا: الهداية البيانيَّة ومراتبها ٢٨
المرتبة الأولى: الهداية الكليَّة العامَّة **٢٨**
المرتبة الثانية: هداية الحواس **٢٨**
المرتبة الثالثة: هداية العقل **٢٩**
والمرتبة الرابعة: هداية الوحي، أو النبوَّة **٢٩**
ثانيا: الهداية التوفيقيَّة ٣٠
معنى سؤال المهتدي الهداية ٣٠
المقصود بالصراط المستقيم ٣١
إلى من ينسب هذا الصراط؟ ٣٢
انقسام النَّاس مع هذا الصراط ثلاثة أقسام ٣٢
الأول: قسم «أنعم الله عليهم» **٣٣**
الثاني: قسم عرفوا الحق، ولكنهم لم يتبعوه **٣٣**
الثالث: قسم عميت بصائرهم **٣٣**
فوائد ٣٣
الفائدة الأولى: الفاتحة كلها ذكر الله **٣٣**
الفائدة الثانية: الفاتحة في الصلاة **٣٤**
الفائدة الثالثة: الفاتحة تذكير للإنسان بأخطر قضايا المصير **٣٤**

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

الفائدة الرابعة: الفاتحة تتضمَّن الإشارة إلى منهج الوسطيَّة ٣٥
الفائدة الخامسة: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم ٣٦
الفائدة السادسة: في سورة الفاتحة شفاء القلوب ٣٧
الفائدة السابعة: كلمة «آمين» ليست من الفاتحة ٣٧

❖ سورة النَّبأ ٣٩
النبأ العظيم هو الوحي الَّذي أنزله الله على محمَّد ﷺ ٤١
اختلاف المشركين وحيرتهم وتناقضهم في شأن الوحي ٤٢
دلائل نعمته، وآيات رحمته ٤٥
السماوات السبع ٤٩
من مشاهد يوم القيامة ٥٣
جهنم معدة للطاغين المكذبين ٥٧
هل تنتهي عقوبة أهل النَّار في جهنم؟ ٥٨
أولًا: ذكر في أبديَّة النَّار أو فنائها سبعة أقوال ٦٠
١ ـ أنَّ الله تعالى أخبر في ثلاث آيات عن النَّار بما يدلُّ على عدم أبديتها ٦٠
٢ ـ هذا القول منقول عن عدد من الصحابة والتابعين وجلة الأئمَّة ٦١
٣ ـ أخبر الله تعالى أن رحمته وسعت كل شيء ٦٢
٤ ـ أهل السُّنَّة على أنَّه يجوز تخلُّف الوعيد ٦٣
ثانيًا: فنَّد ابنُ القيِّم الأدلَّة الَّتي استند إليها القائلون بدوام النَّار ٦٣
ثالثًا: بعد هذا كله مال ابن القيِّم إلى التفويض في المسألة إلى مشيئة الله ٦٤
جزاء المتَّقين ٦٩
عظمة الله وكبرياؤه ٧٤
الاستعداد ليوم القيامة والتخويف من عذاب الله القريب ٧٧

نسخة إلكترونية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

❖ **سورة النَّازعات** **٨٠**
مقاصد السورة ٨٠
السور الخمس المفتتحة بالقسم بالمخلوقات ٨١
ما المراد بالنازعات؟ ٨٢
السابحات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟ ٨٣
السابقات هم ملائكة قبض الأرواح أم سائر طوائف الملائكة؟ ٨٣
وجوه السبق للملائكة الكرام ٨٤
الملائكة المدبرات والحكمة من قوله: (فالمدبرات أمرًا) لا (فالمدبرات أمورًا) ٨٤
التأويل بأنَّها النجوم ٨٥
الكلمات الخمس صفات لأشياء مختلفة ٨٨
أين جواب القسم؟ ٨٩
ما المراد بالراجفة ٩٠
القلوب المضطربة الخائفة ٩٠
الأبصار الذليلة المنكسرة ٩١
المنكرون للبعث وسهولته عليه سبحانه **٩٢**
حديث موسى عليه السلام **٩٥**
لماذا أرسل الله موسى إلى فرعون؟ ٩٧
موقف القرآن من الطغيان ٩٧
لا تكون الخشية إلَّا بعد معرفته تعالى ٩٩
الآية الكبرى: العصا واليد ١٠٠
تكذيب فرعون وعصيانه ١٠١
امتناع فرعون عن الإيمان بإصرارٍ وسعيه في الأرض فسادًا ١٠١

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جَمْعُ فرعون السحرة والجند وادِّعاؤه الربوبيَّة ١٠١
عقوبة فرعون عقوبة شديدة جعلته عبرة في الدُّنيا والآخرة ١٠٣
توبيخ المنكرين للبعث وذكر الأدلَّة المشاهدة على وقوعه ١٠٥
من قدر على خلق السماء ـ مع عظمها ـ أقدر على بعث الإنسان ١٠٥
أحداث يوم القيامة ١١٢
أسماء يوم القيامة ودلالتها ١١٢
ما هي الطَّامَّة؟ وما حقيقتها؟ ١١٣
مصير أهل الجحيم ومأواهم، ومن هم؟ ١١٥
ما الطغيان؟! ١١٧
إيثار الحياة الدنيا ١١٨
مصير الخائفين من عظمة الله الناهين نفوسهم عن الهوى ١٢٢
وصفان استحقوا بهما دخول الجنة ١٢٢
الوصف الأول: خوف مقام الرب ١٢٢
والوصف الثاني لمن يستحق الجنة: نهي النفس عن الهوى ١٢٣
قواطع الطريق إلى الله تعالى ١٢٣
سؤال المشركين عن وقت يوم القيامة استهزاءً واستبعادًا ١٢٦
أسلوب السؤال في القرآن ١٢٦
سؤال المشركين عن موعد ظهور القيامة ١٢٦
الحكمة من تخصيص الإنذار بمن يخشى؟ ١٢٩

❖ **سورة عبس ١٣٢**
عناية القرآن بالمستضعفين والفقراء ١٣٢
سبب النزول ١٣٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة وحانية
QaradawiBooks.com

سرُّ العتاب الشديد على سيد الخلق ١٣٣
الاستغناء بالمال من أسباب الطغيان ١٣٥
القرآن عظة ينتفع بها من كانت عنده إرادة صادقة ١٣٧
سرُّ اتصال هذه الآية بما قبلها ١٣٧
السَّفَرَة الكِرام البرَرَة ١٣٨
مبدأ خلق الإنسان ومراحل وجوده ١٤٠
المحطة الأولى: خلقه من نطفة ١٤١
ما معنى التقدير هنا في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؟ ١٤٢
المحطة الثانية: تيسير السبيل ١٤٣
المحطة الثالثة: الإماتة والإقبار ١٤٤
المحطة الرابعة: النشر بعد الموت ١٤٥
ترك الإنسان الكافر حقَّ الله عليه ١٤٥
أحوال القيامة وأهوالها ١٥١
يوم الأنانية والفردية المطلقة ١٥٢
وجوه السعداء المضيئة ووجوه الأشقياء المظلمة ١٥٤

❖ **سورة التكوير ١٥٧**
مقاصد السورة ١٥٧
أحداث خطيرة تحدث قبل قيام الساعة ١٥٨
لماذا الشمس؟! ١٥٩
ستة أحداث كبرى تحدث قبل قيام القيامة ١٦٣
١ ـ تكوير الشمس ١٦٣
٢ ـ تناثر النجوم وتساقطها ١٦٤

QaradawiBooks.com

٣ ـ تسيير الجبال ١٦٥
٤ ـ تعطيل النُّوق الحوامل ١٦٥
جمع الوحوش من كل ناحية ١٦٦
٦ ـ امتلاء البحار نارًا ١٦٧
بقية الأحداث الَّتي تقع في يوم القيامة ١٦٩
١ ـ اقتران الأرواح بالأجسام وضم كل شيء إلى نظيره ١٦٩
٢ ـ سؤالُ مَنْ قتل الموؤدة بأشنعِ وسيلةٍ عن سبب قتلها؟ ١٧٠
ما فعلته الجاهليَّة المتوحِّشة في قتل الأطفال ١٧١
٣ ـ نشر صحف الأعمال ١٧٣
٤ ـ إزالة السماء ١٧٤
٥ ـ تسعير الجحيم ١٧٤
٦ ـ تقريب الجنة ١٧٤
القسم ببعض مخلوقات الله على عظمة هذا القرآن ١٧٦
دلالة القسم المنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ ١٧٦
القسم بالنجوم ١٧٧
القسم بالليل والنهار ١٧٨
فما معنى عسْعسة الليل؟ ١٧٨
مكانة جبريل عليه السلام وأوصافه ١٧٩
نفي تهمة الجنون عن النَّبيِّ عليه السلام ١٨١
رؤية النَّبي جبريل في صورته الأصليَّة ١٨١
لا يكتم النبي شيئًا ممَّا أوحي إليه ١٨٢
القرآن ذكرٌ لجميع النَّاس يهتدي به من وجه مشيئته الحرة للاستقامة ١٨٤

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

خصوص الإنذار للعرب لا ينافي عموم رسالته ١٨٥
الاهتداء إلى الإسلام ميسر لمن شاء بإرادته الحرة ١٨٦
الله تعالى هو الَّذي منح الإنسان المشيئة الحرة ١٨٧
❖ سورة الانفطار ١٨٩
مقاصد السورة ١٨٩
أشراط الساعة الهائلة ١٩١
١ ـ انفطار السماء ١٩١
٢ ـ تناثر الكواكب وتساقطها ١٩١
٣ ـ تفجير البحار ١٩٢
٤ ـ بعثرة القبور ١٩٢
فائدة ترتيب أشراط الساعة الهائلة الَّتي تقع قبل قيامها ١٩٣
مخاطبة الإنسان وتحذيره من مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة ١٩٥
خلق الإنسان وتسويته وتعديله وتصويره ١٩٧
معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ١٩٨
التَّحذير من التَّكذيب بيوم الدين ١٩٩
الملائكة الموكَّلون بالرقابة على الإنسان وكتابة أعماله ١٩٩
هل تكتب الحفظة ما يكون من الكفَّار من حسناتٍ وسيئاتٍ؟ ٢٠٠
أوصاف الرقباء الحفظة ٢٠١
بيان ما أعدَّه سبحانه للأبرار وللفجار ٢٠٢
تقسيم الخلق إلى فريقين: أبرار كثير خيرهم، وفجار كثير شرهم ٢٠٢
ما حال أهل الجحيم فيها؟ ٢٠٣
تهويل شأن يوم الدين ٢٠٣

QaradawiBooks.com

❖ **سورة المُطفِّفين** **٢٠٦**
سورة المُطفِّفين سورة مكيَّة ٢٠٦
من مقاصد السورة ٢٠٧
فقرات السورة ٢٠٨
تفسير السورة ٢٠٩
المطففون وعذابهم **٢٠٩**
نسيان الآخرة وأهوالها ٢١٢
المراد بالظنِّ في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ٢١٢
تعظيم هول الموقف يوم الدين ٢١٢
كتاب الفجَّار في سِجِّين **٢١٤**
المراد بالكتاب المرقوم هنا ٢١٦
ما المراد بقوله: يومئذ؟ ٢١٦
من المكذِّبون الَّذين توعَّدهم الله بالويل؟ ٢١٧
وصف المُكَذِّبين بثلاث صفات ٢١٧
وصف القرآن المُكَذِّبين بثلاثِ صفاتٍ أساسيَّة ٢١٧
أوَّلها: صفة الاعتداء **٢١٧**
وثانيها: صفة الإثم **٢١٧**
وثالثها: الإعراض عن القرآن **٢١٨**
معاصيهم غطَّت قلوبهم ٢١٨
الكفَّار محجوبون عن رحمة الله ورؤيته ٢١٩
صَلْي الجحيم بعد الحرمان من ربِّهم ٢٢٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كتاب الأبرار في عليين **٢٢٢**
طريقة القرآن في ذكر الوعد مع الوعيد ٢٢٢
المراد بعليين ٢٢٢
نعيم الأبرار في الجنة ٢٢٤
إلى من ينظر الأبرار؟ ٢٢٥
نعيم الأبرار يعرف في وجوههم ٢٢٥
ماذا يُسقى الأبرار؟ ٢٢٦
التنافس المطلوب ٢٢٦
ما تفسير التَّسنيم؟ ٢٢٧
أحوال النَّاس ومصايرهم في الآخرة **٢٢٩**
الفقرة الرابعة: ختام السورة ٢٢٩
المجتمع المكي بين المجرمين والمؤمنين ٢٣٠
موقف الَّذين أجرموا من الَّذين آمنوا ٢٣٠
١ ـ الضحك من المؤمنين **٢٣١**
٢ ـ التغامز عليهم **٢٣١**
٣ ـ التفكُّه بالحديث عنهم في بيوتهم **٢٣٢**
٤ ـ رَمْيهُم بالضلال **٢٣٢**
لم يبعث الله المجرمين حافظين على المؤمنين ٢٣٣
انقلاب الحال في الآخرة ٢٣٣
الأبرار على أرائكهم ينظرون إلى كل ألوان النعيم ٢٣٤
الجزاء من جنس العمل ٢٣٥

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **سورة الانشقاق** **٢٣٦**
مقاصد السورة ٢٣٦
تفسير السورة ٢٣٧
أشراط الساعة، وما يجري في الكون قبلها **٢٣٧**
انشقاق السماء واستجابتها لأمر الله ٢٣٧
بسط الأرض وإخراج ما في بطنها من الأموات وتخليها ممَّا استحفظت ٢٣٩
أين جواب ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وما عُطِفَ عليها؟ ٢٤١
الإنسان جاهِدٌ في عمله إلى لقاء ربِّه، وحال السعداء والأشقياء **٢٤٢**
النداء الثاني للإنسان في هذا الجزء من القرآن ٢٤٢
ما معنى الكدح؟ ٢٤٢
كلام الرَّازي في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ٢٤٣
إلامَ يعود الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؟ ٢٤٣
أخذ كتاب الأعمال ٢٤٥
دلائل سعادة أهل الجنَّة ٢٤٥
كلام الفخر الرَّازي في معنى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٢٤٦
حال أهل الشقاوة ٢٤٧
دلائل شقاء أهل النار ٢٤٨
سرور الكفَّار في الدنيا ٢٤٨
كلام الرَّازي على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ ٢٤٩
سبب سرور الكافر في الدنيا ٢٤٩
تهديد ووعيد ٢٥٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القسم بالشَّفَق واللَّيل وما وَسَق، وما عُطف عليها بتغيير الأحوال ٢٥١
ما معنى الشَّفَق المُقْسَم به؟ ٢٥١
القسم بالليل في القرآن الكريم ٢٥١
معنى ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ ٢٥٢
القسم بالقمر عند اجتماعه وتمام نوره ٢٥٢
القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ٢٥٣
كلام الإمام الرَّازي في تفسير هذه الآية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ٢٥٥
توجيه الرازي لقراءة فتح الباء ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ ٢٥٧
كلام الإمام القرطبي في تفسير آية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ٢٥٨
وقوله تعالى: ﴿عَن طَبَقٍ﴾ أي: بعد طبق كقول الشاعر ٢٦١
تهديد الكافرين وبشارة المؤمنين ٢٦٢
استفهام إنكار أو تعجب لعدم الإيمان مع كثرة براهينه ٢٦٢
كلام الإمام الرَّازي عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٦٢
الإيمان مقدور لكل إنسان ٢٦٣
التَّعجُّب من عدم خضوعهم للقرآن وإيمانهم به لإعجازه ٢٦٣
أسباب تكذيب الكافرين ٢٦٤
الله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب ٢٦٤
المراد بالاستثناء في الآية ٢٦٥
معنى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٢٦٥

❖ سورة البروج ٢٦٧
الأقسام الأربعة في هذه السورة ٢٦٧
المراد بهؤلاء الجبابرة الملعونين ٢٧٥

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

الحكمة من الجمع بين اسمي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ٢٨٠
عاقبة الكافرين المُصرِّين على جرائمهم وعاقبة المؤمنين **٢٨١**
النساء شقائق الرجال ٢٨١
معنى ﴿فَنَنُوا۟﴾ ٢٨١
كرم الله وجوده في دعوة الكافرين إلى التوبة ٢٨١
للمجرمين المستكبرين: عذابان جزاء كفرهم وظلمهم ٢٨٢
سنَّة القرآن الكريم بذكر الوعد مع الوعيد ٢٨٣
شدة بطشِه تعالى بالظلمة الطغاة والكفرة العتاة **٢٨٥**
تسليته ﷺ بأنَّه سيصيب قومه ما أصاب الجنود **٢٨٩**
دلالة كلمة: ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ ٢٨٩
من هم هؤلاء الجنود؟ ٢٨٩
القرآن المجيد ٢٩١
القرآنُ محفوظٌ مَصُون ٢٩١

❖ **سورة الطارق** **٢٩٣**
فضل السورة ٢٩٣
مقاصد السورة ٢٩٤
جواب القسم ٢٩٦
النظر في بداية خلق الإنسان وقدرة الله على بعثه **٢٩٩**
الإنسان خُلِقَ من منيّ الرجل وماء المرأة ٣٠٠
الله قادر على إعادة الإنسان كما خلقه من هذه المادَّة المهينة ٣٠١
دلالة تولُّد الإنسان عن النُّطفة على وجود الله ٣٠١

نسخة إلكترونية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

القسم بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصَّدْع على عظمة القرآن وصوابه **٣٠٤**

تسلية الرسول الله ﷺ وتسكين قلبه ٣٠٩

❖ **سورة الأعلى** **٣١١**

حقائق كونيَّة أربعة تدلُّ على وجود الله تعالى **٣١٣**

كمال الربوبيَّة كما يصورها القرآن ٣١٣

عناية القرآن بالتسبيح ٣١٤

صيغ التَّسبيح في القرآن ٣١٥

هل الاسم هو المُسمَّى؟ ٣١٧

خلقٌ تكمله التسوية، وتقديرٌ تكمله الهداية ٣١٨

الدلائل الكونيَّة الأربعة ٣١٩

دلالة الخلق على الرب الأعلى ٣١٩

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرَّة على كوكب الأرض؟ ٣٢٠

دلالة التَّسوية على الرب الأعلى ٣٢٣

دليل التقدير على الربِّ الأعلى ٣٢٧

دلالة الهداية على الربِّ الأعلى ٣٣٢

بيان الهداية الخاصَّة لرسوله ﷺ **٣٤٠**

الشريعة الحافلة باليُسر من كل جوانبها ٣٤١

الأمر بالاستمرار بالتذكير وإن كان تذكر القوم بعيدًا **٣٤٣**

المنتفعون بالتذكير والمتجنبون له ٣٤٤

الطريق إلى الفلاح وتنكُّب النَّاس له بسبب إيثارهم لذَّات الدُّنيا العاجلة **٣٤٦**

الموازنة بين الدُّنيا والآخرة ٣٤٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **سورة الغاشية** **٣٥١**

الآخرة واختلاف النَّاس فيها بين أشقياء وسعداء **٣٥٢**

ألوان الاستفهام في القرآن ٣٥٢

حال السُّعداء ٣٥٥

توبيخ الكفَّار على غفلتهم عن النظر في آيات الله **٣٥٨**

الأمر بالتذكير والموعظة، والناس مطالبون بالإيمان باختيارهم **٣٦٢**

الرجوع إلى الله وحده، وليس إلى أحد غيره، والحساب بعد ذلك عنده ٣٦٣

❖ **سورة الفجر** **٣٦٥**

خمسة أمور عظيمة أقسم الله بها **٣٦٧**

الفجر هو أوَّل أوقات اليوم ٣٦٧

هلاك الحضارات الماديَّة الهائلة **٣٧١**

حضارة عاد قوم نبي الله هود عليه السلام ٣٧١

حضارة ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام ٣٧٣

فرعون ملك مصر صاحب الملك الشامخ القوي ٣٧٤

الطغيان والفساد من أعظم أسباب النقمة الربانية ٣٧٤

طبيعة الإنسان حينما يُوسِّع الله عليه بالمال

والولد وحين يضيق عليه **٣٧٧**

طبيعة المجتمع الجاهلي ٣٧٨

الحضُّ على إطعام المسكين فريضة إسلامية ٣٧٩

وجوب عمل الجمعيَّات الخيريَّة ٣٨٠

المجتمعات الجاهليَّة فقدت الأحاسيس الإنسانيَّة ٣٨١

غير مرخص للطباعة

QaradawiBooks.com

مصير المجتمع الجاهليِّ القاسي في الآخرة **٣٨٣**
بروز جهنَّم وتذكر الإنسان قبيح أعماله ٣٨٥
مناداة النفس المطمئنة وبشارتها عند الاحتضار ويوم القيامة **٣٨٧**

❖ **سورة البلد** **٣٩٠**
الإنسان محاط بالمكابدة والمعاناة من كل صوْب **٣٩١**
دلالة الإنسان إلى طريقي الخير والشر ٣٩٦
العقبة وطريق اقتحامها **٣٩٧**

❖ **سورة الشمس** **٤٠٤**
القسم ببعض الظواهر الكونيَّة على أمر مهمٍّ كبير **٤٠٥**
القسم بالشمس والقمر ٤٠٥
القَسَم بالنهار والليل ٤٠٥
القسم بالسماء والأرض ٤٠٦
القسم بالنفس الإنسانيَّة وتسويتها وقابليتها للفجور والتقوى ٤٠٧
بم يكون الفلاح؟ وبم تكون التدسية؟ ٤٠٨
نموذج من الأمم السابقة الَّتي أفسدت نفوسها فخسرت **٤١١**

❖ **سورة الليل** **٤١٤**
اختلاف أعمال الناس **٤١٤**
القسم بالليل والنهار ٤١٤
القسم بخلق الذكر والأنثى ٤١٥
ما يترتَّب على اختلاف الأعمال من آثار **٤١٧**
خصال ثلاث تكون بها النجاة ٤١٧

غير مصرح للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

خصال ثلاث تكون بها الخسارة ٤١٩
على الله سبحانه هداية البيان والدلالة ٤٢٢
المُنْذَرون بدخول النَّار ومقاساة حرِّها ٤٢٣
المجنَّبون النَّار والمُبْعدون عنها ٤٢٤
❖ سورة الضُّحى ٤٢٧
آيات مبشرة لمحمد ﷺ ومرجية له في مستقبل مديد، ودعوة منتصرة ٤٢٩
نعمه سبحانه على عبده محمَّد ﷺ ٤٣١
مقابلة النِّعم الإلٰهيَّة والمِنن الربَّانيَّة بالشكر القلبي والعملي والقولي ٤٣٣
❖ سورة الشَّرح ٤٣٧
شرح صدره ﷺ ٤٣٧
وضْعُ وزْره ﷺ ٤٣٨
نشْر ذكره ﷺ في الآفاق ٤٣٩
اليُسر هو القاعدة والعُسر استثناء ٤٤٠
دعوة الإسلام إلى التيسير، وكراهية التعسير ٤٤٠
وصيتان كريمتان ٤٤١
❖ سورة التِّين ٤٤٤
قسم الله ببعض مخلوقاته ٤٤٥
الجمع بين الحُسن المادي والحُسن الروحي المعنوي ٤٤٧
فما معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾؟ ٤٤٨
ما الَّذي ينجي الإنسان من هول السقوط والضياع؟ ٤٥٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مصورة
QaradawiBooks.com

❖ **سورة العلق** **٤٥٣**

أمره ﷺ بأن يقرأ قراءة لها هدف ومعنى ٤٥٤

تكرار الأمر بالقراءة ٤٥٦

دلائل الأكرميَّة الَّتي وصف الله بها نفسه ٤٥٦

الطغيان شر ما يصيب الإنسان ٤٥٨

ما سبب طغيان الإنسان؟ ٤٥٩

رجوع الأمور كلها لله تعالى ٤٦٠

تعجيبُ الرسول من نموذج من نماذج الطغيان **٤٦١**

تهديد ووعيد **٤٦٤**

ثبات الرسول الكريم في مخالفة المكذب الطاغي والاستمرار في القرب من الله ... **٤٦٥**

❖ **سورة القدر** **٤٦٧**

معنى القدر ولم سمِّيت تلك الليلة بليلة القدر؟ ٤٦٨

فضائل هذه الليلة العظيمة ٤٦٩

الاختلاف في تعيين هذه الليلة ٤٧٠

❖ **سورة البيِّنة** **٤٧٣**

مُحمَّد رسول الله: البينة الواضحة والحجة الظاهرة **٤٧٣**

كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ٤٧٣

تفرُّق أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم **٤٧٦**

جزاء الفريقين: الكافرين والمؤمنين **٤٧٨**

❖ **سورة الزلزلة** **٤٨٠**

وما المراد من هذه الزلزلة؟ ٤٨١

غير مرخص للطباعة

نسخة دعوية

QaradawiBooks.com

شرط قبول العمل: أن يكون مُؤسَّسًا على الإيمان ٤٨٦
نتيجة أعمال الخير من الكافر ٤٨٧
مكافأة الكفَّار على عمل الخير ٤٨٧
ما جاء في السورة من الحديث ٤٨٨

❖ سورة العاديات ٤٩٠
القسم بالخيل وأوصافها على جُحود الإنسان وشدَّة حبِّه للمال ٤٩٠
توعُّد الحريصين على المال الناسين مآلهم يوم القيامة ٤٩٦

❖ سورة القارعة ٤٩٩
من أهوال البعث ٥٠١
تغيُّر أحوال الجبال ٥٠٣
انقسام النَّاس إلى قسمين أساسيين: أهل السعادة، وأهل الشقاوة ٥٠٣
حقيقة الميزان الَّذي تُوزن به الأعمال ٥٠٤
الردُّ على المتكلمين المُؤولين للميزان ورؤية الأعمال ٥٠٥
جزاء أهل السعادة ٥٠٦
جزاء أهل الشقاء ٥٠٧

❖ سورة التكاثر ٥١٠
التحذير من اللهو عن الإيمان وطاعة الله ٥١٠
التكاثر في الأموال والأولاد ومتاع الحياة الدنيا ٥١١
المُكث في القبور قليل سيعقبه سريعًا حساب ثقيل ٥١٢
توكيد للوعيد وتشديد للتهديد ٥١٥
وهل الخطاب للمؤمنين أم للكافرين؟ ٥١٦

غير مرخص للطباعة
نسخة وقفية
QaradawiBooks.com

❖ **سورة العصر** **٥١٨**

القسم في القرآن ٥١٩

القَسَم المنفيُّ في القرآن ٥٢٠

المراد بـ «العصر» ٥٢١

فما العصر الَّذي جاء القسم به في السورة؟ ٥٢١

عناية القرآن بالوقت ٥٢٢

المقْسَم عليه في السورة: خسارة الإنسان وهلاكه ٥٢٤

من أوصاف الإنسان في القرآن ٥٢٥

شروط النجاة من الخسران ٥٢٦

الشرط الأول: الإيمان ٥٢٦

مفهوم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في القرآن ٥٢٧

من صفات المؤمنين في القرآن ٥٢٧

خيرات الدُّنيا والآخرة مترتِّبة على الإيمان ٥٢٨

ما الإيمان؟ ٥٢٩

الشَّرط الثاني: عمل الصَّالحات ٥٣١

الشرط الثالث: التَّواصي بالحق ٥٣٣

حقُّ الله سبحانه وحقُّ العباد ٥٣٦

أعظم ما تدلُّ عليه كلمة «الحقِّ»: الله تبارك وتعالى ٥٣٧

الحقوق التي بين الناس ٥٣٩

حقوق غير الآدميِّين وتجريم أعمال الإبادة ٥٤٠

الوصيَّة بالحق تشمل الشريعة كلها ٥٤١

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

التَّواصي بالمَرْحمة ٥٤٢
الشرط الرابع: التَّواصي بالصبر ٥٤٣
الصبر من أعظم الأوامر الإلٰهيَّة ٥٤٤
كلام ابن القيِّم عن هذه السورة ٥٤٥
اتِّفاق الصحابة على قراءة السورة عند الافتراق ٥٤٨

❖ **سورة الهُمَزة ٥٥٠**

❖ **سورة الفيل ٥٥٥**

❖ **سورة قريش ٥٦١**

❖ **سورة الماعون ٥٦٦**

❖ **سورة الكوثر ٥٧١**
نهر الكوثر في الجنة ٥٧٢

❖ **سورة الكافرون ٥٧٩**

❖ **سورة النصر ٥٨٧**

❖ **سورة المسد ٥٩٤**

❖ **سورة الإخلاص ٥٩٩**

❖ **سورة الفلق ٦٠٦**
أولى المعوذتين ٦٠٦
العياذ برب الفلق ومعناه ٦٠٧
الاستعاذة من شرور الخلق ٦٠٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سؤال مهم: هل يخلق الله الشر؟ ولماذا؟ ٦١١
المؤمن راضٍ عن نفسه وربه ٦١٣
المؤمن راضٍ عن الكون والحياة ٦١٥
الشَّرُّ الثاني المستعاذ بالله منه ٦١٦
الشر الثالث المُستَعاذ بالله منه ٦١٨
قول أبي مسلم الأصفهاني ٦١٩
النفاثات هي الأنفس أو الجماعات ٦٢٠
اختيار ابن القيِّم ٦٢١
تأثيرات السحر ٦٢٧
رأي الإمام محمَّد عبده ٦٢٩
قول صاحب الظلال ٦٣٠
أيُّ الرأيَيْن نرجِّح؟! ٦٣١
السحر من كبائر الإثم ٦٣٣
كلام العلَّامة رشيد رضا في حديث السحر، وتفسير الآية ٦٣٦
رأي ابن باديس ٦٤١
الشَّرُّ الرابع المستعاذ بالله منه ٦٤٢
معنى «الحسد» ٦٤٢
تأثير الحاسد في المحسود ٦٤٥

❖ **سورة الناس** **٦٤٧**
دلالة الأسماء الثلاثة: الرب والملك والإلٰه ٦٤٩
معنى ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ ٦٥٤
معنى ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ ٦٥٥

نسخة مجانية
غير مرخص للطباعة
QaradawiBooks.com

لماذا سُلِّط الشيطان على الإنسان؟ ٦٥٨
الاستعاذة من التسلط على النفوس لا على الأبدان ٦٥٩
فائدة لطيفة ٦٦٣
• **خاتمة** ٦٦٥
• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ٦٦٩
• **فهرس الموضوعات** ٦٧٩

❊ ❊ ❊

غير مصرح للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية